



لورنس داريل

رباعية الاسكندرية

كليا

رواية

دار الشروق

رباعية الإسكندرية
كلية

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٧٣٦٣/٢٠٠٨

ISBN 978-977-09-2363-8

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٣٣٢٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +

email: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

لورنس داريل

رباعية الاسكندرية

كلية

رواية

ترجمة

فخري لبيب

إلى
أبي

إن ما هو أساسى وأكثر جمالا فى طبيعة الطبائع هو المشاعر،
والتي تثيرها فى كل الأوقات، غير أن هذه المشاعر، فى
بساطة، هى النتيجة الأزلية للجرائم، إن الجرائم وحدها
هى التي تصونها.

د.أ.ف. دى ساد

[٨]

(١)

ثمار البرتقال، ذاك العام، وافرة، أكثر مما اعتادت أن تكون. تتوهج كالمصاييح فوق أشجارها، بأوراقها الخضراء اللامعة، ترفرف هنالك وسط الغابات المشمسة، تبدو وكأنها تتلهف على الاحتفال بمغادرتنا الجزيرة الصغيرة - لقد وصلت أخيراً رسالة نسيم التي طالما انتظرناها، وكأنها أمر بالحضور إلى العالم السفلي، رسالة سوف تعيدني، في عناد، إلى المدينة التي كانت تتراوح، بالنسبة لى، ما بين الوهم والحقيقة، ما بين الواقع والصور الشعرية التي يثيرها اسمها بذاته فى أعماقى. إنها ذاكرة، كما قلت لنفسي، زيفتها الرغبات والوجدانيات فقط، كما تم التعرف عليها نصف تعرف فوق الورق. الإسكندرية، عاصمة الذكرى! كل الكتابة اقتبستها عن الأحياء والأموات، حتى غدوت أنا نفسي حاشية فوق رسالة، لم تنته أبداً، ولم ترسل أبداً.

كم طال غيابي؟ إننى لا أستطيع حساب ذاك الغياب، رغم أن التقويم الزمنى لا يقدم إلا قليلاً عن العقبات التي تفصل نفساً عن نفس، تفصل يوماً عن يوم آخر. كنت أحياناً هنالك طوال الوقت، فى الإسكندرية، إسكندرية قلب جناني. كنت أسلم نفسي صفحة صفحة، ودقة قلب

دقة قلب، إلى هذا الكائن العجيب الذى كنا جميعًا، يومًا ما، جزءًا من انتصاراته وهزائمه على السواء. مدينة عتيقة تتبدل تحت ضربات فرشاة الأفكار التى تحاصر المحتوى، تصرخ من أجل الهوية، هنالك، فى مكان ما، فوق التلوات الأفريقية السوداء الشائكة الممتدة داخل البحر، تعيش حقيقة المكان ذات النكهة الخاصة، يعيش عشب الماضى المر الذى لا يمضغ، يعيش لب الذاكرة. لقد شرعت ذات مرة فى اختزان الماضى وتصنيعه والتعليق عليه قبل أن يفقد تمامًا - كانت تلك، على الأقل مهمة حددتها لنفسى. وفشلت فى تحقيقها (ربما كانت مهمة بلا أمل؟) - إذ ما إن أمسك بفكرة، أضمتها فى كلمات، حتى يمزق اقتحام معرفة جديدة ذلك الإطار الذى أرجع إليه. كل شىء ينساب متباعدًا، متناثرًا، لا يتمثل، مرة أخرى إلا فى كونه أمرًا غير متوقع، ونمطًا لا يمكن التنبؤ به.

«حتى تنقح الحقيقة»، كتبت هكذا فى مكان ما. إنها فى الحقيقة كلمات طائشة وقحة، إذ إن الحقيقة هى التى تشكلنا، ثم تنقحنا على دولابها البطيء، ومع ذلك فإننى إن كنت قد اغتيت بخبرة هذه الفترة الفاصلة فى الجزيرة، فربما يعود ذلك إلى هذا الفشل الكلى فى تسجيل حقيقة المدينة من الداخل. إننى أقف الآن وجهًا لوجه مع طبيعة الزمن، مع ذلك الاغتراب للنفس البشرية. لقد فرض على أن أقر بالهزيمة فوق الورق. ومع ذلك، فإنه من الغريب تمامًا أن عملية الكتابة ذاتها قد أمدتني بنوع آخر من النماء. إنه الفشل بذاته للكلمات التى غاصت واحدة بعد الأخرى فى كهوف الخيال التى بلا قرار، لتجرى بعيدًا. إنها طريقة باهظة تبدأ بها حياتك. نعم، إلا أننا ندفع حينئذ، نحن الفنانين، نحو حيوات شخصية تغذيها تلك الطرائق الغريبة لملاحقة الذات.

ولكن.. إن كنت أنا قد تغيرت، فماذا عن أصدقائى: بلتازار، نسيم، جوستين، كليا؟ ما هى الرؤى الجديدة التى يمكن أن أراهم بها بعد هذه

الفترة الزمنية، وقد أمسك بي مرة أخرى، فى محيط مدينة جديدة، مدينة ابتلعتها الحرب الآن؟ كان ذلك هو المحك، وهذا ما لم يكن فى وسعى قوله. الإدراك كان يتفرض فى داخلى أشبه بالنجم القطبى. كان عسيرًا أن أتخلى عن الحدود الصعبة التى كسبتها أحلامى تجسد صورى الجديدة، المدن الجديدة، النزعات الجديدة والحب الجديد. كان على أن أعانق أحلامى الخاصة عن المكان أشبه بممسوس.. أليس من الحكمة، كما أتساءل، أن أظل حيث أنا؟ ربما. ومع ذلك فإننى أدرك ضرورة أن أذهب. حقًا، كان على أن أغادر هذه الليلة بذاتها! كان الإمساك بالفكرة ذاتها عسيرًا حتى إننى أرغمت على الهمس بها لنفسى عاليًا.

لقد أمضينا الأيام العشرة الأخيرة، منذ جاء الرسول حامل الرسالة، فى هدوء ذهبى من الحدس والتوقع، كما كان الطقس صنوا لما نحن فيه، حيث توالى أيام رائعة الزرقة وبحار بلا رياح. ووقفنا بين هذين الوضعين، غير راغبين فى التخلي عن أى منهما، كما كنا نعانى الألم، فى ذات الوقت، لتصادم الواحد منهما بالآخر. كنا نرفرف، نحفظ توازننا، أشبه بطيور النورس على حافة جرف صخرى. كانت الصور المختلفة المتباينة قد أخذت بالفعل تختلط، تحبط أحلامى. المنزل فى هذه الجزيرة مثلاً. ما بها من أشجار اللوز والزيتون الفضية الرمادية حيث يهيم طائر الحجل بأقدامه الحمراء، الأرض الفضاء، الغابة ساكنة حيث يمكن أن يظهر، فقط، الإله (بان) بوجه العنزة. لم يختلط كمال أشكالها وألوانها، بما اتسم به من بساطة وشفافية، بكل تلك الهواجس التى تتزاحم، تخيم علينا. (سماء مليئة بنجوم تتساقط، أمواج المد فى لون الزمرد تغسل الشواطئ المهجورة، صرخات النورس فوق طرق الجنوب البيضاء). هذا العالم اليونانى قد

غزته بالفعل روائح مدينة منسية، نتوءات البر في البحر حيث يسرف قباطنة السفن، الذين يرشحون عرقاً، في الشراب والأكل حتى تتفجر أمعاؤهم، إنهم ينزحون أبدانهم، كما تنزح براميل صغيرة من كل شهوة. ينغمسون في عناق جوارى سود لهن عيون إسبانية. (المرايا، القلب يتمزق رقة من أصوات الكناريا وقد أعميت، بقبقة المياه في طاسات النرجيلات، رائحة التبشول(*) والبخور).

كانت تأكل بعضها البعض، تلك الأحلام المتضاربة. ورأيت أصدقائي مرة أخرى (ليسوا الآن كأسماء) يشرقون من جديد وقد عرفوا بالرحيل. لم يعودوا بعد ظلالاً لما كتبه أنا عنهم، لقد انتعشوا ثانية حتى الموتى منهم. كنت أسير في الليل، أنا وميليسا، مرة أخرى، في تلك الشوارع المتموجة (كانت الآن في وضع يتجاوز كل أسف وندم، إذ كنت أعى، حتى في أحلامي، أنها قد ماتت) نسير في راحة، ذراع كل منا في ذراع الآخر، ورجلاها قصيرتا المدى، أشبه بمقص أضفى عليها مشية مترنحة، وعادتها في ضغط ركبتيها بركبتي عند كل خطوة. كان في وسعي أن أرى الآن كل شيء في ود ومحبة، حتى عباؤها القطنية العتيقة وحذاؤها الرخيص الذي كانت ترتديه أيام العطلات. لم تكن قادرة على إزالة طابع الحسن الأزرق الموجود على رقبتها.. ثم اختفت، واستيقظت أصرخ أسفاً. كان الفجر يشق طريقه بين أشجار الزيتون يلون أوراقها الساكنة بلون الفضة.

استعدت سلام عقلي في مكان ما على الطريق. هذه الحفنة من الأيام الزرقاء قبل أن أقول وادعاً، أيام أدخرها، أنميها بوفرة في بساطتها: نيران أخشاب الزيتون تشتعل في المدفأة القديمة والتي عليها لوحة جوستين، آخر ما يحزم من أشياء، الوثب على المنضدة والمقعد وما ترك عليهما

(*) عشب عطري - المترجم.

من آثار دقدقتها، كذا طاسة بخور مريم (*) الزرقاء المطلية بالميناء. ما علاقة المدينة بكل هذا؟، ربيع إيجي معلق فوق خيط بين الشتاء والنفحات البيضاء الأولى لنوارة اللوز؟ لم تكن غير مجرد كلمة، لا تعنى الكثير، وقد خربشت على حواشى حلم ما، أو ترددت فى العقل موسيقى زمن دارجة، لم تكن غير رغبة عبرت عنها ضربات القلب. حقًا، رغم أننى أحببتها كثيرًا جدًا. إلا أننى كنت عاجزًا عن البقاء فيها، والمدينة التى أعرف الآن أنى كرهتها، تقدم لى شيئًا مختلفًا - تقييماً جديداً للتجربة التى تركت على آثارها - يجب أن أعود إليها حتى يكون فى وسعى مغادرتها إلى الأبد، طرحها ورائى. إن كنت أتحدث عن الزمن فما ذاك إلا لأن الكاتب الذى أصير إليه، كان يتعلم أخيراً أن يقطن تلك الأماكن المهجورة التى يفقدها الزمن، وأن يبدأ الحياة بين تكات الساعة، إن جاز القول. إن الحاضر المتصل الذى هو التاريخ الحقيقى لتلك الحكاية المجمعة، إنما هو العقل البشرى عندما يموت الماضى، ولا يتمثل المستقبل إلا فى الرغبة والخوف. فماذا يكون أمر اللحظة العرضية التى لا يمكن قياسها، ولا يمكن الإذن لها بالانصراف؟ إن ما يمسى بالحاضر، بالنسبة للغالبية منا، يختطف بعيداً مثل وجبة سخية أخذها الجن قبل أن يلمس المرء منها لقمة واحدة. إننى آمل أن أكون، فى القريب، أميناً مثل بورسواردن الذى مات حتى أصبح أنا قادراً على القول: إننى لا أكتب لهؤلاء الذين لم يسألوا أنفسهم البتة هذا السؤال: «عند أى نقطة تبدأ الحياة الحقيقية؟».

مرت بخاطرى أفكار لا قيمة لها، وأنا راقد فوق صخرة مسطحة تطل على البحر، أكل برتقالة، تحيط بى عزلة تامة سوف تبتلعها المدينة قريباً. الحلم الممل اللازوردى لإسكندرية تتشمس مثل حية عجوز، فى

(*) نبات عشبي جميل الزهر - المترجم.

الضوء الفرعوني البرونزي للبحيرة الكبيرة. سادة الحسية فى التاريخ، وقد تركوا أجسادهم للمرآيا، لقصائد الشعر، لقطعان الصبية والنساء، الرعاة والراعيات، لإبر فى العروق، لأنبوب الأفيون، للموت وهم أحياء من قبلات دون شهية. وعرفت، مرة أخرى، وأنا أسير عبر تلك الشوارع، فى خيالى، أنها تستغرق، ليس التاريخ البشرى فحسب، ولكن كل الميزان البيولوجى لعواطف القلب - منذ لوحات كليوباترا الزيتية الصوفية (ومن الغريب أنه كان يجب اكتشاف العنب هنا قرب «تابوزيرس»، إلى التعصب الأعمى لـ «هياتيا»، أوراق العنب الذابلة، قبلات الشهيد) والزوار الأجانب، «زيمبود» دارس «الطريق الوعر» يسير هنا وقد تمنطق بحزام عامر بالعملات الذهبية، وكل هؤلاء داكنو البشرة، مفسرو الأحلام والسياسيون والخصيان الذين يشبهون سربًا من الطيور براق الريش، ورأيت المدينة تمتد بين أحاسيس الشفقة والرغبة والرغبة، تنتشر أمامى مرة أخرى، تقطنها وجوه أصدقائى وتوابعى، لقد أدركت ضرورة ممارسة الحياة فيها ثانية وإلى الأبد هذه المرة.

ومع ذلك، فقد كان الرحيل غريبًا حافلًا بأدوار غير متوقعة - أعنى الرسول الذى حمل الرسالة كان أحذب يرتدى بذة فضية، يضع زهرة فى طية صدر سترته، ومنديلا معطرًا فى كفه! وذاك الانطلاق المفاجئ للحياة من القرية الصغيرة التى تجاهلت بلباقة وجودنا ذاته مدة طويلة، باستثناء هدية ما بين الحين والحين من السمك أو النيذ أو البيض الملون الذى كانت تحضره «أتينا» لنا، وقد لفته فى شالها الأحمر. كانت هى نفسها، أيضًا لا تكاد تتحمل ذهابنا. كان قناعها العجوز الصارم يتفتت دموعًا فوق كل قطعة من متاع سفرنا الهزيل، وهى تكرر فى عناد، «إنهم لن يدعوكما تغادران دون أن يقوموا بواجب الضيافة. إن القرية لن تدعكما تغادران هكذا». كان عليهم أن يعدوا لنا مأدبة غداء.

أما الطفلة فقد أفضيت إليها بكل تلك الرحلة حكيا وتكرارًا (حقيقة، قصة حياتها كلها) في صورة حكاية من حكايات الجن الرقيقة الجميلة، التي لم يتذللها عديد تكرارها، كانت تجلس تحمق في الصور الزيتية تستمع في انتباه. كانت أكثر من معدة للأمر كله، تكاد تتوق حقًا إلى أخذ مكانها في معرض اللوحات التي رسمتها لها. لقد استوعبت وامتصت كل الألوان المعقدة لهذا العالم الخيالي والذي انتمت إليه، ذات يوم، بما لها من حقوق، والذي سوف تستعيده الآن - عالم تسكنه تلك الأطياف - الأب، أمير - قرصان أسمر، وزوجة الأب ملكة داكنة اللون طائشة...

«إنها تشبه أوراق اللعب؟».

«نعم ملكة البستوني».

«واسمها جوستين».

«إنها تدخن في الصورة. هل ستحبني أكثر أم أقل من أبي؟».

«سوف تحب كليكما».

لم تكن هنالك من طريقة أخرى لشرح الأمر لها، باستثناء استخدام مصطلحاتها الأسطورية والرمزية، قصائد أطفال شعرية مجهولة. لقد أتقنت ألفاظها وأنا أقدم لها تلك الحكاية الرمزية عن مصر والتي كان عليها أن تعرفها بلوحات أسرتها، أسلافها (وقد كبرت إلى حجم الآلهة أو المجوس) ولكن أليست الحكاية ذاتها حكاية من حكايات الجن نفقد القدرة على إدراكها كلما تقدم بنا العمر؟ لا يهم. إنها بالفعل منتشية بصورة أبيها.

«نعم، إنني أفهم كل شيء»، تقول وهي تومئ متنهدة، تختزن هذه

الصور المرسومة فى صندوق كنوزها، فى عقلها. كانت تتحدث فى بعض الأحيان عن ميليسا، أمها المتوفاة، وعندما كانت تفعل ذلك، كنت أجيب عليها بنفس طريقة كتاب الحكايات، إلا أنها قد غاصت الآن بالفعل، نجمًا شاحبًا، أسفل الأفق فى سكون الموت، تاركة صدارة الصورة لهؤلاء الآخرين، شخصيات أوراق اللعب الأحياء.

كانت الطفلة قد ألقت بيوسفية فى الماء ومالت تراقبها وهى تتدحرج فى نعومة إلى أسفل فوق الأرضية الرملية للغار، ورقدت هناك تتدحرج مثل شعلة صغيرة تدفعها برفق حركة الأمواج الصاعدة الهابطة.

«راقبنى الآن وأنا أحضرها».

«ليس فى هذا البحر الثلجى، سوف تموتين بردًا».

«ليس اليوم باردًا، راقبنى».

إلا أنها كانت تستطيع العوم مثل قضاة(*) صغيرة. جلست هنا فوق الصخرة المسطحة أرى فيها عيني ميليسا المسالمة وقد انحدرت قليلًا عند الأطراف، وفى بعض الأحيان، على نحو متقطع، تبدو فى الأركان بقية من نعاس منسية، النظرة الداكنة (المتوسلة غير المتيقنة) لنسيم والدها. وتذكرت صوت كليا وهى تقول ذات مرة، «لاحظ، إن كانت الفتاة لا تحب الرقص والسباحة، فإنها سوف تعجز عن ممارسة الحب»، وابتسمت وأنا أتساءل إن كانت الكلمات صادقة وأنا أراقب الكائن الصغير يستدير فى الماء فى نعومة تنساب فى رشاقة إلى أسفل، إلى الهدف فى براعة فائقة، وقد ضغطت أصابعها إلى وراء نحو السماء، وكيس أبيض صغير يبرق بين رجليها. استعادت اليوسفية بطريقة جميلة وخرجت إلى السطح بطريقة لولبية وقد أمسكت بها بين أسنانها.

(*) ثعلب الماء - المترجم.

«اجرى الآن، وجففى نفسك فى سرعة».

«ليس الجو باردًا».

«افعلى كما يقال لك. ابتعدى وأسرعى».

«وماذا عن الرجل ذى الحدة؟».

«لقد غادر».

أثار ظهور منميجيان، على غير انتظار، فزعها كما هز مشاعرها أيضًا، فهو الذى أحضر رسالة نسيم. كان من الغريب رؤيته يسير فوق حصباء الشاطئ، يحيط به جو من القلق الذى يثير الضحك، كأنما يسير يحافظ على توازنه فوق فتحات سدادات الفلين. لقد أراد، فى اعتقاده، أن يرينا أنه اعتاد لأعوام ألا يسير إلا على الأرصفة الناعمة. لم يكن معتادًا، من الناحية الواقعية أن يسير فوق البر، كان يشع رقة مفتعلة تتجاوز منبته، يرتدى بذة فضية باهرة، وطماقالكاحليه، ودبوس رباط عنق لؤلؤى، وقد أثقلت الخواتم أصابعه، فقط لم تتغير ابتسامته، ابتسامته الطفولية، وخصلة الشعر اللولبية المدهونة بالزيت ما زالت مثبتة على جبينه.

«لقد تزوجت أرملة «هاليل». إننى، يا صديقى العزيز أغنى حلاق فى مصر الآن». قال كل ذلك دون تفكير، وفى نفس واحد، وهو يستند إلى عصا للسير، بها عقد فضية، وكان من الواضح أنه غير معتاد عليها. وطوفت عينه البنفسجية، فى ازدراء، على نحو ما، وهو ينظر فى كوخنا البدائي، بصورة ما، ورفض الجلوس على مقعد. كان ذلك، دون شك، خشية أن يتغضن بنطلونه المهيب. «أنت تعيش هنا نمطًا من الحياة عسير، آه؟ ليس فيه الكثير من الترف يا دارلى»، ثم تنهد وقال، «لكنك الآن ستعود إلينا». ثم أتى من عصاه بحركة غامضة، قصد بها أن يشير إلى الضيافة التى نستمتع

بها فى المدينة. «إننى عن نفسى لا أستطيع البقاء هنا. إننى فى طريقى إلى العودة. لقد قمت بهذا خالصًا كمعروف لحصناتى». كان يتحدث عن نسيم فى إجلال يتسم بالشفافية، وكأنه الآن نده اجتماعيًا، ثم رأى ابتسامتى، وكان فضلًا منه أن قهقه مرة قبل أن يعود جادًا مرة أخرى. ثم قال وهو ينفض الغبار عن أكمامه، «ليس لدى وقت، على أى حال».

كان لهذا القول فضيلة الحق. إذ إن سفن أزمير لا تبقى هنا إلا لما يكفى لتفريغ البريد والبضائع التى تأتى ما بين الحين والحين، أكياس قليلة من المكرونة، بعض كبريتات النحاس، مضخة. إن احتياجات الجزيرة قليلة. وسرنا معًا عائدين نحو القرية عبر بساتين الزيتون، ونحن نتبادل الحديث. كان منمحيان لا يزال يسير تلك المشية المجهدة البطيئة كالسلحفاة، إلا أننى سعدت بذلك، حيث مكنتنى من أن أسأله بضعة أسئلة عن المدينة، وأن أكتسب من إجاباته بعض اللمحات عما يمكن أن أجده فى حالة أوضاع متغيرة وأوضاع مجهولة.

«هنالك تغييرات كثيرة منذ هذه الحرب. دكتور بلتازار مريض للغاية، وأنت تعرف عن مكيدة حصناتى فى فلسطين؟ والانهيال؟ إن المصريين يحاولون فرض المصادرة عليه. لقد أخذوا منه الكثير. نعم إنهما الآن فقراء، وما زالا يواجهان المتاعب. لا إنها لا تزال محتجزة فى المنزل فى كرم أبو جيرج، ولم يرها أحد منذ دهر. إنه يعمل بتصريح خاص سائق سيارة إسعاف فى أرصفة الميناء، مرتين فى الأسبوع، إنه عمل خطر للغاية. لقد كانت هنالك غارة جوية سيئة، فقد فيها واحدة من عينيه وإصبعًا».

«نسيم؟». قلت فزعًا. وأوماً الرجل الضئيل برأسه، وهو يحس بأهميته الذاتية. هذه الصورة، غير المتوقعة لصديقى صدمتنى كطلقة رصاص. قلت. «يا إلهى»، وأوماً الحلاق كأنما يوافق على ملاءمة هذا القسم. قال:

«كان الأمر سيئًا، إنها الحرب يا دارلى»، ثم فجأة وافته فكرة أكثر مدعاة للفرحة فابتسم مرة أخرى ابتسامته الطفولية مرة أخرى والتي لم تكن تعكس غير القيم المادية الحديدية للشرق. وأكمل وهو يمسك بذراعى: «إلا أن الحرب مجال طيب للعمل أيضًا. إن صالوناتى تعمل ليل نهار فى حلقة شعر الجيوش. ثلاثة صالونات للحلقة واثنى عشر مساعدًا! سوف ترى. إنه عمل رائع»، وبومبال يقول على سبيل الدعابة: «أنت الآن تحلق للموتى وهم ما زالوا أحياء». وتثنى ضاحكًا ضحكة مهذبة بلا صوت.

«هل عاد بومبال إلى هناك؟».

«بالطبع إنه الآن رجل على المقام فى «الفرنسيين الأحرار». وهو يعقد مؤتمرات مع سير ماونت أوليف، إنه أيضًا لا يزال هناك. هنالك الكثيرون من زملائك. سوف تراهم يا دارلى».

بدا منمحيان مبتهيجًا لقدرته على إثارة دهشتى بهذه البساطة. ثم قال شيئًا جعل عقلى يتشقلب مرتين رأسًا على عقب. وقفت ساكنًا وسألته أن يكرر ما قال، ظانًا أننى قد أخطأت السمع: «لقد زرت كابوديستريا منذ قريب». وحملت فيه غير مصدق لما يقول كابوديستريا! وصرخت مندهشًا: «لكنه مات».

ومال الحلاق إلى الخلف كثيرًا وكأنه يمتطى حصانًا يتأرجح، وضحك طويلاً ضحكة مكتومة. كانت النكتة ظريفة للغاية هذه المرة واستمر يضحك دقيقة كاملة. وأخيرًا أخرج من جيب صدره، وهو يتنهد فى ترف لهذه الذكرى، صورة بطاقة بريدية مثل تلك التى يشتريها المرء من واجهات المدن المطلة على البحر المتوسط، وقدمها لى قائلاً: «إذن من يكون هذا؟».

كانت معتمدة إلى حد كبير وعليها آثار التحميص الثقيلة والتي هي سمة للصور الفوتوغرافية التي تؤخذ سريعاً في الشوارع. كانت تحتوي على شخصين يسيران في الشارع المطل على البحر، كأن أحدهما منمحيان، وكان الآخر.... أخذت أحملق فيه وأنا أتعرف عليه أكثر فأكثر.

كان كابوديستريا مرتدياً بنطلونا أنبوبيا على الطراز الإيدواري، وخذاءين سوداوين مدبيين للغاية، وإلى جوار ذلك معطف أكاديمي ذو ياقة وأطراف أكمام من القرو. وأخيراً قبعة غريبة الشكل كالشمامة، حتى بدا أقرب إلى فأر طويل في أحد الرسوم الكرتونية الحيوانية. وهو قد ترك شاربته رفيعاً يتدلى قليلاً عند ركني فمه. وكان هنالك فم سجائر طويل بين أسنانه. كان هو كابوديستريا الذي لا يمكن للعين أن تخطئه. «ماذا يجري في هذه الدنيا؟»، بدأت القول، إلا أن منمحيان المبتسم أغلق إحدى عينيه، ووضع إصبعه على شفتيه وقال: «هناك دائماً أشياء غامضة». وحتى يمثل دور من يقوم على حماية تلك الأسرار الغامضة، انتفخ حتى غدا أشبه بضفدع، محملاً في عيني برضاء يتسم بالخبت، ربما كان سيتفضل عليّ، يشرح لي هذا الأمر إلا أن صفارة انطلقت من ناحية القرية، فأثارت اضطرابه، «فلنسرع». وبدأت مشيته المجهدة. «يجب ألا أنسى إعطاءك رسالة الحصنانى». كانت موضوعة مطوية في جيب صدره، واستطاع أخيراً العثور عليها، قال: «إن كل شيء قد أعد ترتيبه. سوف نلتقى ثانية».

حيثه مصافحاً، ووقفت لحظة أنظر إليه وهو يعود، يتتابنى إحساس بالدهشة وعدم اليقين. استدرت عائداً إلى طرف بستان الزيتون وجلست على صخرة أقرأ خطاب نسيم. كان مختصراً، يشتمل على تفاصيل السفر التي أعدها لنا. سوف يأتى إلينا زورق صغير ليأخذنا من الجزيرة. وأعطى مواقيت تقريبية، وتعليمات عن المكان الذي يجب أن نتظر فيه. كل ذلك كان محدداً بطريقة واضحة. ثم كانت هنالك حاشية، أضافها نسيم بيده

الطويلة، «سوف يكون حسنًا أن نلتقى من جديد، دون تحفظات. إننى لأحسب أن بلتازار قد روى لك كل ما أصابنا من نكبات. وأنت لن تقتضى من أناس يهتمون بك كثير الاهتمام، ندمًا عميقًا فى غير موضعه، أمل ألا تفعل ذلك. دع الماضى كتابًا مغلقًا بالنسبة لنا جميعًا».

هكذا جرى الأمر.

أكرمنا الجزيرة خلال هذه الأيام الأخيرة القليلة، فى نبل، بأفضل طقس، وبذلك الأعمال الخشنة التى تتسم بالبساطة وسلامة الطوية، والتى كانت تبدو كعناق المحب الواله، والتى أدركت أنى سأتوق إليها، عندما يطبق على رأسى جو مصر الخائق.

خرجت القرية كلها ليلة رحيلنا لتقدم لنا عشاء الوداع الذى وعدت به، حملًا فى سيخ شواء ونبىذ «رزينا» الذهبى. مدوا الموائد ووضعوا المقاعد على امتداد الشارع الرئيسى الصغير، وأحضرت كل أسرة ما سوف تقدمه فى هذه الوليمة. حتى هاتان الشخصيتان المختالتان - العمدة والقسيس - جلس كل واحد منهما عند طرف من طرفى المائدة الطويلة. كان الجو أبرد من أن يجلس المرء فيه هكذا فى ضوء المصابيح، متظاهرًا بأن الأمسية حقًا أمسية صيفية. وتعاون القمر مشاركا، صاعدًا بطريقة عشوائية من البحر لينير أغطية المناضد البيضاء ويصقل زجاجات النبيذ. ودفئت الوجوه العجوزة اللامعة بالشراب، وتوهجت كالأوانى النحاسية. البسمات الغابرة وأنماط الأردية المهجورة لقدمها والمسرات التقليدية ومجاملات العالم العتيق، والذى كان يتلاشى بالفعل، كانت كلها ترتد عنا إلى الوراء. كان قباطنة أساطيل صيد الإسفنج القدامى يرشفون نصيبهم من النبيذ من أقداح زرقاء مطلية بالميناء، وحضناتهم الدافئة تشع برائحة تفاح برى متغضن، وشواربهم الضخمة التى صبغها الطباق تتلوى تحت آذانهم.

لقد تأثرت فى البداية، معتقدا أن كل هذا الحفل كان من أجلى. إلا أننى اكتشفت أنه كان من أجل بلدى. عندما تكون إنجليزياً وقد سقطت اليونان، فأنت هدف محبة وامتنان كل يونانى. وفقراء هذه القرية الصغيرة المتواضعة يحسون بذلك، بما لا يقل حدة عن اليونانيين فى كل مكان. إن سيل الأنخاب كان يتردد مدويا فى الليل، وانسابت كل الكلمات كالطيور الجوارح، بأسلوب يونانى جليل، رنان، طنان، كانت تبدو وكأنها تحمل نغم القصائد الشعرية الخالدة - أشعار ساعات اليأس - لكنها بالطبع كانت كلمات فقط. الكلمات العاصفة التعسة التى تولدها الحرب فى يسر وسهولة والتى سوف تمحو بلاغة السلم استخدامها.

لكن الحرب أشعلت الليلة عجائز الرجال، مثل شمعة مستدقة الطرفين، وقد أسبغت عليهم جلالا ملتهباً. فقط لم يكن الشباب هناك ليلزموهم الصمت أو يصيبوهم بالخجل بنظراتهم المروعة - كانوا قد ذهبوا إلى ألبانيا ليموتوا هنالك وسط الثلوج. وتحدثت النسوة فى أصوات ثاقبة جعلتها الدموع الحبيسة خشنة مرتعشة. وبين الضحكات المتفجرة والأغاني كان الصمت المطبق يهبط، مثل كثير من القبور المفتوحة.

لقد سارت الحرب نحونا ناعمة عبر المياه، تدريجياً مثل سحببات ملأت الأفق من منتهاه، ورغم ذلك فإنها لم تتوقف بعد. فقط أمسكت الإشاعات بالقلب تتنازعه الآمال والمخاوف. لقد بدت فى البداية نذيراً بنهاية ما يسمى بالعالم المتحضر، إلا أن هذا التوقع سرعان ما تبدد. كلا، إنها، فى بساطة، نهاية الرقة والأمان والأساليب الوسطية، نهاية آمال الفنانين، نهاية عدم المبالاة، نهاية الفرح والبهجة. وما خلا ذلك، فإن كل شىء آخر ذا علاقة بالأحوال البشرية سوف يثبت ويتأكد. ربما بدأت تبرغ مصداقية ما من وراء المظاهر القائمة، حيث يزيد الموت من كل توتر ويسمح لنا بالقليل من نصف الحقائق التى نعيش عليها عادة.

كان هذا هو كل ما عرفناه هنا، حتى تاريخه. هذا التنين الذى أنشب مخالفه بالفعل فى كل مكان آخر. كل ما عرفناه؟ نعم. دون شك، فقد انتفخت السماء مرة أو مرتين بلطخ من قاذفات قنابل غير مرئية، إلا أن أصواتها لم تستطع إغراق طنين نحل الجزيرة، الأقرب إلينا، إذ إن كل عائلة كانت تمتلك عددًا قليلًا من خلايا النحل المدهونة بالجير الأبيض. وماذا أيضًا؟ دفعت غواصة ذات مرة (وهذه تبدو أكثر حقيقية) بيرسكوبها(*) فى الخليج وأخذت تمسح لدقائق خط الساحل بالتتابع. هل رأينا ونحن نستحم فى الموقع؟ ولوحنا لها، إلا أن البيرسكوب ليس له أذرع يمكن أن يلوح بها، يرد علينا تحيتنا. ربما اكتشف على الشيطان الشمالية شيئًا آخر أكثر ندرة، عجل بحر فى غفوة تحت الشمس، يشبه مصليًا على حصيرة الصلاة، إلا أن هذا لم يكن له أدنى علاقة بالحرب.

لكن الأمر كله غدا أكثر حقيقية عندما أثار «الكيك»(**) الصغير الذى أرسله نسيم ضجيجا فى المرفأ المعتم ذلك المساء، وبه ثلاثة رجال مقطبو الجبين مسلحون بالرشاشات. لم يكونوا يونانيين، رغم أنهم يتحدثون اللغة بطريقة متسلطة لاسعة. كانوا يروون حكايات عن الجيوش التى دمرت والموت تحت الجليد. إلا أن الوقت، على نحو ما كان متأخرًا للغاية حيث أفقد النيذ عواجيز الرجال فطنتهم سكرًا. وسرعان ما ذبلت حكايتهم التى تركت رغم ذلك آثارها فى نفسى، هؤلاء الرجال الثلاثة الأشبه بعينات جلدية الوجه، من حضارة غير معروفة تدعى «الحرب». جلسوا قلقين وسط الصحبة الطيبة. كان اللحم مشدودًا بقوة فوق عظم وجناتهم غير المحلوقة، كأنما حل بهم الإرهاق. إنهم يدخنون فى نهم

(*) منظارها - المترجم.

(**) زورق طويل تتميز به منطقة البوسفور - المترجم.

وشراهة، ينفثون الدخان الأزرق من أنوفهم وأفواههم على حد سواء مثل من أصابه شبق. وعندما تشاءبوا بدوا وكأنهم يستحضرون تشاؤبهم من أكياس خصياتهم بذاتها، وأمناهم على أنفسنا للرعاية بنا والهواجس تتابنا، فقد كانت تلك أول وجوه، لا تحمل ودًا، نراها منذ زمن طويل.

وانسبنا عند منتصف الليل منحرفين عن الخليج، والقمر في تمامه، كان الظلام الأكثر بعدًا، أكثر نعومة، وأكثر مدعاة للثقة بتحيات الوداع الدافئة التي انهمرت علينا عبر الشواطئ البيضاء. كم هي جميلة كلمات التحايا والوداع اليونانية!

وتحركنا كالملوك للحظة على امتداد خط الجروف الصخرية بظلالها السوداء كالحبر، حيث كانت ضربات قلب الماكينة تخفق ثم ترتد إلينا ثانية، دفعة واحدة، مثل الطلقات النارية. وأخيرًا خرجنا إلى المياه العميقة الأساسية، ونحن نحس بالمسحة المتزايدة الناعمة لإيقاع المياه وقد أخذت تهدهدنا على صدرها، تأرجحنا، تطلقنا، كأنما في لعبة. كانت الليلة دافئة رائعة بصورة فائقة. وظهر دولفين مرة أو مرتين عند مقدم القارب. كان المجرى قد تحدد.

وسيطر علينا الآن خليط من البهجة والحزن العميق. من الإرهاق والسعادة في ذات الوقت. كان في مقدوري أن أتذوق طعم الملح فوق شفتي. شربنا قليلًا من شاى نبات القصعين دون كلام. كانت جماليات الرحلة قد أسرت الطفلة فلم تنطق، الأثر الذي يخلفه القارب وراءه في الماء يرتعش بوميض فوسفوري، وقد مشط خلفنا كشعر نجم مذنّب يطفو منتعشًا. وانسابت، أيضًا، فوقنا فروع السماء مكسوة بالريش، النجوم متناثرة كثيفة كثافة أزهار اللوز في السماء الغامضة. وهكذا، أخيرًا، سعيدة بهذه النذر والبشائر، تهدهدها خفقات المياه، واهتزازات الماكينة المنتظمة،

سقطت نائمة وابتسامة فوق شفيتها المنفرجتين وقد ضغطت عروستها
المصنوعة من خشب الزيتون إلى وجنتها.

كيف كان فى مقدورى إلا أن أفكر فى الماضى الذى نعود إليه عبر
أدغال الزمن الكثيفة، عبر ممرات البحر اليونانية المألوفة؟ ومضى الليل
كشرائط ظلام مبسوطة ممدودة، ومست رياح البحر الدافئة وجتتى مسا
خفيفا، كانت ناعمة مثل فرشاة من شعر ثعلب. ورقدت ما بين اليقظة
والنوم، أحس بشدات الذاكرة الثقيلة كالرصا ص: شدات مدينة كورقة
شجر مليئة بالعروق، والتي جعلتها ذاكرتى أهلة بأقنعة خبيثة وجميلة فى
ذات الوقت. يجب أن أرى الإسكندرية ثانية بمنهج طيف يراوغ الزمن، إذ
إنك ما إن تغدو مدركا لعملية الزمن، التى هى ليست تقويما زمنيا، حتى
تصبح طيفا ما. إن فى وسعى أن أسمع، فى هذا النطاق الآخر أصدا
كلمات قالتها أصوات أخرى منذ زمن بعيد. كان بلتازار يقول: إن هذا العالم
يمثل وعدا بسعادة لا نظير لها، سعادة لسنا معدين بما يكفى للإمساك بها.
إن الاستدعاء المخيف الذى تمارسه المدينة على الحميمين إليها، يصيب
العاطفة بالشلل، ويغمس كل شىء فى دنان عواطفها المرهقة. القبلات
تغدو عاطفية إن صاحبها تبيكت الضمير وتأنيه. الإيماءات التى تجرى
فى الضوء العبرى للحجرات الموصدة. أسراب الحمام الأبيض تطير
عاليا بين المآذن. إلا أننى كنت مخطئا؛ إذ إن كل مدخل جديد يختلف
عن سابقه. إننا نخدع أنفسنا، فى كل مرة باعتبار أن الوضع ثابت كما هو.
إن الإسكندرية التى أراها الآن، من أول نظرة من البحر، كانت شيئا ما كان
فى وسعى أن أتخيله..

كان الوقت لا يزال ظلاما عندما توقفنا خارج المرفأ غير المرئى بكل
ما فيه من تحصينات القلاع التى أتذكرها، والشبكة المانعة للغواصات.
حاولت رسم معالمها بعقلى فوق العتمة. الضجيج لا يثور إلا فجر كل

يوم. ويسود ظلام يطمس كل شيء. في مكان ما أمامنا يرقد ساحل أفريقيا غير المرئي بقبلته الشائكة، كما يقول العرب. كان أمراً يتجاوز القدرة على الاحتمال أن تكون واعياً بها هكذا، أبراج المدينة ومآذنها، ومع ذلك عاجز عن أن تفرض عليها الظهور، لم يكن في مقدوري أن أرى أصابعي أمام وجهي، لقد غدا البحر غرفة انتظار خالية واسعة، فقاعة من الظلام مجوفة.

ومرت فجأة نسمة، نفحة أشبه بريح تمر عبر طبقة من جمرات، وتوهج المكان الأكثر قرباً بلون قرنفلي، أشبه بمحارة بحرية، يغرق تدريجياً في لون وردة حمراء أكثر كثافة. وجاء أنين مخيف عبر الماء نحونا، يخفق مثل ضربات جناح طائر من طيور ما قبل التاريخ. صفارات تعوى عواء سجين حكم عليه بالهلاك. واهتزت أعصاب المرء كفروع شجرة. وبدأت الأنوار وكأنها تستجيب لهذا الصوت، تنطلق من كل مكان، بصورة مشتتة متفرقة في البداية، ثم في شرائط وأحزمة ومربعات من الكريستال... وفجأة حدد المرفأ معالمه بوضوح فوق لوحة السماء المظلمة، بينما بدأت أصابع بيضاء طويلة ذات ضوء أبيض ناعم تجوب السماء بطريقة خرقاء وكأنها أقدام حشرة بلهاء تجاهد أن ترفع نفسها على ظهر زلق. وبدأ سيل كثيف من صواريخ ملونة يصعد من بين ضباب السفن الحربية، يفرغ في السماء عناقيد من نجوم متألئة، وحطام علب، سعوط لؤلؤية، في إسراف رائع. واهتز الجو بالضربات. وارتفعت سحببات قرنفلية وصفراء من أتربة مع الأسهم النارية وصواريخ الإنذار لتضيء المؤخرات اللزجة الملوثة بالشحم للبالونات، التي تشكل غلالة ضد الطائرات، والتي كانت تطير في كل مكان. وبدأ أن البحر ذاته يتفرض. لم يكن لدى أدنى فكرة أن المدينة يمكن أن تكون جميلة إلى هذا الحد في عيد ميلاد ساتورن(*)، في الحرب

(*) إله من آلهة روما تميز بالقصف والعريضة - المترجم.

المجردة. كانت قد بدأت تنتفخ، تتمدد أشبه بوردة ظلامية غامضة. واستمر إلقاء القنابل يفيض على عقولنا. ولدهشتنا وجدنا أنفسنا نصرخ في بعضنا البعض. كنا نحملق في الجمرات المشتعلة لقرطاجنة أوجستين. وقلت لنفسي: إننا نشاهد سقوط إنسان المدينة.

كان الأمر جميلاً للغاية، كما كان صاعقاً يفقد الإنسان رشده. كانت الأنوار الكاشفة، في الركن العلوى الشمالى للوحة، وقد بدأت تتجمع، ترتعش، تنزلق بطريقتها الفظة الخرقاء مثل ساقى والدى الطويلتين. كانت تتقاطع، تتلاصق بطريقة محمومة، وكان واضحاً أن إشارة ما قد بلغتهم تخبرهم عن مقاومة حشرة ما أمسك بها فى بيت العنكبوت الخارجى للظلام. ومرة بعد أخرى كانت تتقاطع، تتحسس، تبزغ، تنقسم. ثم رأينا، أخيراً ما كانوا يحاصرونه. ست فراشات فضية دقيقة تتحرك عبر الممرات الجوية فى بطء لا يطاق كما بدا. وجنت السماء حولهم، ومع ذلك فإنهم يتحركون بذلك الاسترخاء القاتل، وفى تراخ أيضاً تجعدت الخطوط الملتوية المنحنية للماسات المنطلقة من السفن، أو النفثات الباهتة للقنابل شديدة الانفجار بسحاباتها التى تحدد مسارها.

كان فى مقدورى، رغم الزئير الذى ملأ آذاننا الآن بالصمم، أن أعزل العديد من الأصوات المنفردة التى تشكل أوركسترا الضرب بالقنابل. فرقة الشطايا التى تعود تسقط كزخة البرد والمطر فوق الأسقف المضلعة للمقاهى قرب البحر، الأصوات الأشبه بالخدوش لإرسال إشارات من السفن وهى فى صدى أشبه بالدمى التى تتحدث من بطنها، عبارات شبه واضحة مثل: «الساعة الثالثة، أحمر. الساعة الثالثة، أحمر». ومن الغريب للغاية أيضاً صدور موسيقى من مكان ما فى هذه الجلبة فى ربع نغم غير مستو حتى إنها كانت كالوخزات، وهنالك أيضاً ذلك الهدير الأساسى

لسقوط المباني . وقطع من ضوء تختفى تاركة وراءها كوة من ظلام . ربما يخرج منها لهيب أصفر داكن يلحق ما حوله كحيوان ظمآن . وفي القرب منا (كانت المياه تطلق بالصدى) كان فى وسعنا سماع المحصول الوفير لقنابل المدافع الطائشة وهى تنهال فوق ظهر المراكب كمعزوفة من شيكاغو، طرطشة تكاد تكون متصلة للمعدن اللامع وهو يقع من خزائن المدافع الموجهة إلى السماء.

هكذا جرى الأمر، العين مثبته والوهن ينبعث من الفقرات أمام هذا الإعصار الذى يكشف عن قوى لا معنى لها. لم أدرك من قبل، إلى من تنسب الحرب. ليس فيها من مكان للبشر أو الاهتمام بهم تحت مثل هذه المظلة الواسعة من الموت الملون، لقد غدا كل نفس يسحبه المرء مجرد ملاذ مؤقت إلى حين.

ثم فجأة، انتهى المشهد تقريباً كما بدأ. اختفى المرفأ فى مفاجأة مسرحية، انطفأ خيط الأحجار الكريمة، فرغت السماء. أحاط الصمت بنا ليتمزق، فقط مرة أو أكثر بتلك الصفافير الصارخة الجائعة التى كانت تثقب أعصابنا، ثم لا شىء. درجات من كثافة ظلام عدمى، تنمو من خلالها أصوات محدودة مألوفة للماء يلحق حواف السفن. وزحفت ريح قصيرة واهنة لتغلفنا ومعها الروائح الغرينية لمصب نهر غير مرئى. هل كان ذاك مجرد خيال حين سمعت من البعد أصوات طرائد من بط وأوز فى البحيرة؟

وانظرنا هكذا فترة من الزمن طويلة، فى حيرة شديدة. إلا أن الفجر، فى تلك الأثناء كان قد بدأ من الشرق يباغت السماء، المدينة والصحراء. وارتفعت فى نعومة أصوات بشرية ثقيلة كالرصا ص، تثير الدهشة والعاطفة. أصوات أطفال. وظهر فى الغرب هلال ينفث ألواناً فوق الأفق - وتشاءبنا.

كان الجو باردًا. انتفضنا ونحن نستدير كل منا نحو الآخر، وقد أحسنا فجأة باليتم في هذا العالم الدايم ما بين النور والظلام.

إلا أن الفجر الذى آلفه بدأ ينمو تدريجيًا من التخوم الشرقية: هذا الفيض الأول من الليمونى والوردى الذى سوف يمنح مياه مربوط الميتة بريقًا. كان ناعمًا كالشعر، ورغم ذلك كان غامضًا إلى حد أنه كان على المرء أن يوقف نفسه حتى يتعرف عليه. وسمعنا (أو فكرت أنى سمعت) النداء الأول للصلاة من بعض المآذن والتي لا تزال غير مرئية.

هل لا تزال توجد إذن، آلهة يتضرع الناس إليها؟ وما إن ولج السؤال رأسى حتى انطلقت ثلاثة قوارب صيد صغيرة ذات أشعة فى لون الصدا والكبد والخوخ الأخضر وتمايلت فوق سيل الماء وانحنت عبر مقدم قاربنا مثل الصقور. كان فى وسعنا أن نسمع وقع الماء يدق مقدمات تلك القوارب. وحافظت القوارب على توازنها مثل فرسان يمتطون الجياد. حيونا باللغة العربية وأخبرونا أن القصف والهدير قد انتهى وأنه فى وسعنا دخول الميناء.

وبدأنا فعل ذلك فى حرص وحذر، تغطينا البطاريات التى تبدو مهجورة فى ظاهرها. وأخذ مركبنا يخب فى القناة الرئيسية بين خطوط السفن الطويلة، أشبه «بقابوريتو» فى الـ «جراندكانال». حملت حولى. كل شىء كما كان ومع ذلك، فإنه مختلف، فى ذات الوقت، بطريقة لا يصدقها العقل. نعم، كان المسرح الرئيسى (لعواطف القلب، للذكرى، للحب) هو ذاته. ورغم ذلك فإن اختلاف التفاصيل، اختلاف الديكور صدمنى فى عناد. كانت سفن الركاب قد دهنت الآن بطريقة باهرة، بلطخات تكعيبية باللون الأبيض والكاكى ورماديات بحر الشمال. مدافع تعى وجودها تكمن فى أوكار خرقاء كأوناش فى أعشاش من خيش مشبع بالقار والشمع

ونسيج عنكبوتى، بالونات المشحمة عالقة فى السماء كأنها تتدلى من مشانق. وأخذت أقارنها بالسحابات الفضية القديمة للحمام. والذى قد بدأ بالفعل صعوده فى مجموعات يلهث بين أشجار النخيل، يغطس صعودا فى الضوء الأبيض ليلقى الشمس، لحن يثير الحيرة، يضاف إلى ما هو معروف وغير معروف. القوارب، مثلا، مشدودة على امتداد المرسى عند «نادى اليخت»، وعليها ما أتذكره من ندى كثيف بالعرق فوق صواريخها وحبال مراسيها. الأعلام والتندات الملونة تتدلى جافة متماثلة وكأنها قد نعتت فى النشا. (كم عدد المرات التى لم نبخر فيها من هناك، فى نفس هذه الساعة، فى قارب كليا الصغير، المحمل بالخبز والبرتقال وزجاجات النبيذ المغلفة بجداول الأغصان؟) كم عدد أيام الإبحار القديمة التى قضيناها فوق ذلك الشاطئ المفتت، ودلائل عواطف منسية؟ كنت مندهشا وأنا أرى بأى شعور عاطفى يمكن لعينى المرء أن تسافر عبر خط من أشياء عديمة الحياة مشدودة إلى مرفأ طحلبى، تمتع نفسها بذكريات ما كانت تعى اختزانها، حتى السفن الحربية الفرنسية (رغم أنها تعاني الآن الخزى والعار، وقد أغلقت مؤخرات خزائن مدافعها، واعتقل طاقم بحارتها اعتقالا اعتباريا) كانت فى أماكنها بالضبط التى رأيتها فيها آخر مرة من تلك الحياة الغابرة الفانية، ترقد على بطونها فى دجى الفجر. إنها ما زالت كما كانت دائما، مغلفة بغلاف رقيق من سراب المدينة والتى كانت مآذنها، الأشبه بشمرة التين، تغير ألوانها مع كل صعود للشمس.

وعبرنا فى بطن الممر الطويل الأخضر بين السفن الضخمة، وكأننا نشارك فى استعراض شعائرى. كانت الأشياء المفاجئة قليلة، بين الكثير المألوف لنا، وإن كانت منتقاة: سفينة حربية مدرعة ترقد بكما، على جانبها طراد تلطخت وتسطحت أجزاءه العليا بإصابة مباشرة، مواسير مدافع مشقوقة كما يشق الجزر، استحكامات ومتاريس ملتوية على نفسها

كأنما تعاني آلام احتراق مبرحة. حزمة كبيرة من الصلب الرمادى هصرت فى ضربة واحدة، مثل حقيبة ورقية، البقايا البشرية محشورة على امتداد ثقب جوانب السفن فى أعداد قليلة فى صبر هائل، لا تحس على الإطلاق ولا تتألم. كان ذلك مثيراً للدهشة، أشبه بسير المرء فى مدافن جميلة، ثم يفاجأ بقبر حفر حديثاً. («إنها جميلة»، هكذا قالت الطفلة). ولقد كانت كذلك حقيقة. الغابات الهائلة من الصواري والأبراج المستدقة الأطراف تتمرجح، تتمايل مع أقل ارتفاع للماء تسببه حركة النقل البحرى، والمواء الناعم للكلاكسات، والصور المنعكسة تذوب ثم تستعيد أشكالها. وهناك موسيقى جاز منهوكة تنساب فوق المياه كأنما تأتي من ماسورة صرف فى مكان ما. كانت بالنسبة إليها هى الموسيقى المناسبة لدخولها الظافر لمدينة الطفولة. «الحياة أبداً» (*) ووجدت نفسى أدندن فى عقلى فى رقة، وقد أدهشنى كم كان صدى اللحن قديماً، كم هو عتيق الطراز، كم هو بعيد عن العقل لا يثير اهتمامى! كانت تنظر إلى السماء تبحث عن أبيها، الصورة التى تشكل كسحابة خيرة تعلونا وتحيط بها هى، تغلفها.

وظهرت عن بعد، عند نهاية الرصيف، دلائل تشير إلى عالمنا الجديد الذى نحن قادمون إليه: صفوف طويلة من عربات نقل البضائع، سيارات الإسعاف، حواجز وعوائق، حراب جند وعسكر من سلالة زرقاء وكاكية من الرجال أشبه بالأقزام الخرافية، هنا نشاط بطيء وإن كان له هدف، مستمر ومسيطر. وبزغت شخوص من سكان الكهوف من أقفاص حديدية وتجاويف على امتداد الرصيف منهمكة فى جولة متباينة الأغراض. هنا أيضاً سفن شقت جزئياً فى قطاعات هندسية، أخرجت أحشاؤها البخارية، سفن ترقد مفتوحة بعملية قيصرية؛ ويزحف عبر هذه الجروح

(*) بالفرنسية فى الأصل.

خيطة لا ينتهى، أشبه بخيط النمل، من جنود وسترات زرقاء يحملون على ظهورهم قنابل وبالات وضلوع ثيران فوق أكتاف صبغتها الدماء. أفران مفتوحة ورجال يرتدون أغطية بيضاء يتعرضون لنور النار، يسحبون بطريقة محمومة صواني الخبز. كان كل ذلك النشاط بطيئاً إلى درجة لا تصدق، على نحو ما، ومع ذلك فقد كان، على امتداده، عملاً هائلاً. كان ينتمى إلى غريزة سلالة ما، أكثر من انتمائه إلى شهية الطعام عندها. وبينما كان للسكون هنا قيمة نسبية فقط، فإن بعض الأصوات الصغيرة غدت محددة، ملححة - الديدبانات يدقون أحذية ذات نعال حديدية فوق الحصى، عواء زورق سحب السفن أو طنين صفارة باخرة أشبه بصوت ذبابة زرقاء عملاقة أمسك بها فى نسيج عنكبوتى. كل هذا كان من مكتسبات المدينة الجديدة والتي كان على أن أنتمى إليها منذ الآن فصاعداً.

واقتربنا أكثر وأكثر ونحن نستكشف مرسى بين القوارب الصغيرة فى حوض السفن. وأخذت المنازل تعلو وتعلو. كانت أيضاً لحظة من الرقة الرائعة. كان قلبى فى فمى (كما يقول المثل) فقد رأيت بالفعل الشخص الذى أعرف أنه لا بد أن يكون فى انتظارنا هنالك بعيداً عبر رصيف رسو السفن، كان يستند إلى سيارة إسعاف، يدخن. إن شيئاً ما فى هيئته أصاب منى وترا وعرفت أنه نسيم، رغم أنى لم أجرؤ بعد على التيقن من ذلك. فقط عندما أُلقيت الحبال ورسونا، إننى رأيت، وقلبى يدق، أنه كان حقاً صديقى، نسيم! (تعرفت عليه بصورة غامضة من خلال تنكره، كما تعرفت من قبل على كابوديستريا).

كان يضع فوق إحدى عينيه عصابة سوداء غريبة. كان يرتدى معطف خدمة أزرق فضفاضاً له أكتاف محشوة غير متقنة وطويل للغاية عند الركبتين، وغطاء رأس مشدود إلى أسفل فوق عينيه. بدا أطول بكثير وأكثر نحافة مما كنت أتذكره. ربما كان هذا الزى الذى يرتديه يشبه، إلى حد

ما الرداء الخاص بالسائقين، وإلى حد ما رجال الطيران. أعتقد أنه لا بد أحس بقوة تعرفى تضغط عليه لأنه وقف فجأة منتصبًا، واستطاع أن يميزنا بعد أن حملت فيه قليلًا. ألقى بالسيجارة بعيدًا، سار على امتداد المرسى بمشيته السريعة الرشيقة، يتسم فى عصبية. لوحى له، إلا أنه لم يرد على، رغم أنه أومأ على نحو ما وهو يتحرك نحونا. قلت وأنا مدرك للوضع: «انظرى، ها هو والدك قد جاء أخيرًا». ووقفت تنظر بعينين مفتوحتين على اتساعهما، تتابع الشخص الطويل حتى وقف يتسم لنا، على بعد يقل عن ستة أقدام. كان البحارة مشغولين بالحبال، وانزلت سقالة فى صوت مدو. ولم أستطع تقرير إن كانت العصاة السوداء المشثومة على عينه قد أضافت أو أسقطت من وسامته القديمة. وخلع غطاء رأسه وهو لا يزال يتسم، خجلًا وحرزًا بصورة ما. ثم مسح شعره يسويه قبل أن يعيد غطاء الرأس ثانية، وناديت «نسيم» فأومأ رغم أنه لم يرد على. وبدأ أن صمًا يهبط فوق عقلى عندما خطت الطفلة فوق السقالة. سارت يحيط بها جو من سرور مفرط مرتبك، مأخوذة بالصورة أكثر من الحقيقة (هل الشعر إذن أكثر حقيقية من الحقيقة المرئية؟). ومدت ذراعيها، كالسائر فى نومه، سائرة إلى أحضانه وهى تضحك ضحكة خافتة. ولحقت بها فى صعوبة، ومد نسيم يده لى، وهو لا يزال يضحك ويضمها إلى صدره، يده التى فقدت إصبعًا، غدا مخلبًا، انغرس فى يدي. وأطلق تنهيدة جافة قصيرة غلفها بصوت كأنما يسعل. وكان ذلك كل شىء. وزحفت الطفلة إلى أعلى وكأنها حيوان الكسلان على جذع شجرة وقد لفت ساقها قرب ردفه. لم أدر بالضبط ماذا على أن أقول وأنا أحملق فى تلك العين الواحدة الداكنة المتفهمة. كان شعره عند فوديه أبيض تمامًا، لا يمكنك أن تضغط يدا، فقدت إصبعًا، بالقوة التى تريد.

«وهكذا نلتقى ثانية».

ورجع إلى الوراق في رشاقة، ثم جلس فوق العمود الذى تشد إليه الحبال، يتلمس علبة سجائره ليقدم إلى سيجارة فرنسية شهية المذاق بصورة غريبة. كان كلانا صامتا كالأخرس. كان الثقاب رطباً فلم يشتعل إلا بصعوبة. قال أخيراً: «كانت كليا تزمع الحضور، إلا أنها اعتذرت فى اللحظة الأخيرة، لقد ذهبت إلى القاهرة. جوستين فى كوم أبو جبرج!» ثم أحنى رأسه فى سرعة، وقال فى صوت هامس: «أنت تعرف الأمر كله إيه؟» أو مأت برأسى، فبدأ عليه الارتياح، «هنالك القليل الذى يحتاج إلى إيضاح. لقد أنهيت عملى منذ نصف ساعة مضت وانتظرتك لآخذك إلى الخارج، إذ ربما...»

أحاطت بنا، فى تلك الأثناء، مجموعة من الجنود، تفحص أوراق هويتنا وتراجع معنا وجهتنا. كان نسيم مشغولاً بالطفلة، ففردت أوراقى للجنود الذين قاموا بدراستها فى وقار وبنوع ما من التعاطف دون تحيز، وبحثوا عن اسمى فى صحيفة ورقية طويلة قبل أن يخبرونى بأنه يجب على أن أقدم نفسى إلى القنصلية حيث كنت مواطناً يقيم فى دولة أجنبية. عدت إلى نسيم ومعى تصاريح الدخول وأخبرته بما حدث: «حقيقة، ليس الأمر سيئاً. كان على الذهاب إلى هناك على أى حال، وذلك لإحضار حقيبة كنت قد تركتها وبها كل بذاتى المحترمة... إننى أتساءل كم من الوقت مضى على ذلك؟».

وابتسم «عمر».

«كيف سننظم هذا الأمر؟».

وجلسنا جنباً إلى جنب نفكر ملياً. كان غريباً أن أسمع لهجات كل المقاطعات الإنجليزية. وجاء إلينا أمباشى عطوف يحمل صينية مليئة بأكواب تتصاعد منها تلك الأبخرة المخمرة التى يتفرد بها الجيش مع

شرائح من الخبز الأبيض المكسو بالمرجرين(*) . وعلى مسافة متوسطة منا سارت فى تبلد فرقة من حاملى النقالات مبتعدة عن الأنظار ومعها حمل يتدلى من بناية ضربت بالقنابل . أكلنا وقد أمسك الجوع بنا . بدأنا نتنبه فجأة إلى ركبنا المهتزة . قلت أخيراً : «لماذا لا تذهب وتأخذها معك؟ يمكننى أن آخذ الترام من عند بوابة الميناء وأزور القنصل . أحلق وأتناول غداء ما ، وآتى هذا المساء إلى الكرم إن أنت أرسلت لى جوادًا عند مخاضة النهر» .

«حسنًا جدًا» . قال وقد بدا عليه نوع من الارتياح ، وهو يعانق الطفلة ويقترح عليها هذه الخطة همسا فى أذنها ، ولم تبد اعتراضا . بدت فى الحقيقة متلهفة على مصاحبتة ؛ مما جعلنى أحس بالامتنان . وهكذا سرنا ، يغمرنا إحساس بافتقاد الحقيقة ، عبر الحصى الموحل إلى حيث كانت تقف سيارة الإسعاف الصغيرة ، وصعد نسيم ومعه الطفلة إلى مقعد السائق . ابتسمت و صفقت بيديها ، فأبعدتهما وأنا مبتهج لإتمام الانتقال فى نعومة هكذا .

كان غريباً أن أجد نفسى ، على أى حال ، وحيداً هكذا فى المدينة ، كشارد فوق صخور البحر السطحية المألوفة - «مألوفة» - نعم ! إذ ما إن يترك المرء شبه دائرة الميناء ، حتى يجد شيئاً ، أيا كان ، لم يتغير . كان الترام الصفيحى الصغير يثن ، يتسلل فوق قضبانه الصدئة ، يتلوى عبر تلك الشوارع المألوفة والتي كانت تنتشر على جانبي صوري الوفية لذكرياتى وفاء مطلقاً . دكاكين الحلاقين بشباكها المانعة للذباب تتدلى على الأبواب تنتفض من وخزات الخرز الملون الخفيفة ، المقاهى بزبائنها الكسالى يقعون إلى موائد من صاج (إلى جوار الباب مازال هنالك الحائط المتساقط ونفس المنضدة التى جلسنا إليها بلا حراك ، يرهقنا الغسق الأزرق) .

(*) المسلى النباتى - المترجم .

ما إن بدأ نسيم تشغيل جهاز تعشيق تروس السيارة حتى حلق فى
بحدة قائلاً: «دارلى، لقد تغيرت كثيراً». رغم أنى لم أستطع تحديد إن
كان ما قاله تأنيباً أم مديحاً؟ نعم، لقد تغيرت! وابتسمت عندما رأيت
القوس قرب الباب، متذكراً قبلة فوق أصابعى، ترجع الآن إلى ما قبل
التاريخ تذكرت الإجفالة الخفيفة للعينين السوداوين بينما تقول الحقيقة
الشجاعة الحزينة: «إن المرء لا يتعلم شيئاً من هؤلاء الذين يردون حيناً».
كلمات ألهمت المرء كما يلهب كحول العمليات جرحاً مفتوحاً، لكنها
كانت مطهرة، كما تفعل الحقيقة كل الحقيقة. ورأيت وأنا مشغول هكذا
بتلك الذكريات، رأيت بجانب آخر من عقلى، الإسكندرية كلها تتمدد
مرة أخرى على جانبي بتفاصيلها التى تأسر الأبواب، بخطرستها اللونية،
بفقرها الساحق وجمالها. الحوانيت الصغيرة، تحميها من الشمس قطع من
تندات مهلهلة، حيث كومت فى ظلامها كل أنواع السلع من السمان الحى
إلى أقراص الشهد ومرايا الحظ، أكشاك الفاكهة بهياكلها الخشبية المتألقة
والتي يتضاعف تألقها بنشر أوراق ساطعة عليها لون البرتقال الذهبى
الدافئ يرقد على شرائح تتألق بالأحمر الأرجوانى والقرمزي. وبريق دخان
كهوف صانعى النحاس، وسروج الجمال بشرائبيها المبهجة. الخزف
والخرز الأزرق المصنوع من حجر اليشم ضد العين الشريرة. كل ذلك
قد اتسم بوميض منشورى حاد بحشود الناس السائرة جيئة وذهاباً. وهدير
أجهزة المذياع فى المقاهى، ونداءات الباعة الجائلين الأشبه بالنواح،
ولعنات عرب الشوارع، والولولة المجنونة لنائحين بعيدين يهتزون وراء
جثمان أحد الشيوخ المرموقين. ويجىء هنا الأحباش، فى مقدمة الصورة،
كمن استحوذ عليها تماماً فى وقاحة، يتجولون بلونهم الأرجوانى المائل
للزرق الداكنة، وعماماتهم ثلجية البياض، والسودانيون بلونهم البرونزى
وشفاههم المنتفخة فى لون الفحم، واللبنانيون بجلودهم فى لون الزنك،
والبدو بمناظر وجوههم الجانبية الأشبه بالصقور البلدية، كل ذلك منسوج

فى خيوط متألقة فوق السواد الرتيب للنسوة المحجبات، الحلم المعتم للمسلم، والذي لا يمكن الإمساك به إلا من خلال فتحة ثقب العين البشرية. وتسير الجمال تتمايل عبر تلك الشوارع الضيقة، تحتك وما عليها من حزم، بالجدران الطينية التى تندفع فيما بينها، الجمال بأحمالها من البرسيم الأخضر، وهى تنزل بأخفافها فوق الأرض فى رشاقة لا حد لها. وفجأة تذكرت سكوبى وهو يعطينى درسًا فى أولويات التحية: «يجب أن تعرف أنها مسألة شكل. إنهم، يا ولدى، بريطانيون نظاميون فى أدبهم. ليس هنالك من قيمة لإلقاء تحيتك «السلام عليكم» (*) على من حولك بأى صورة من الصور إنها تلقى أولاً من راكب الجمل إلى راكب الحصان، ومن راكب الحصان إلى راكب الحمار، ومن راكب الحمار إلى السائر على قدميه، ومن السائر إلى الجالس، ومن مجموعة من الناس صغيرة إلى مجموعة كبيرة، ومن الأصغر إلى الأكبر سنًا... إنها المدارس الكبرى فى المنازل التى تعلم مثل تلك الأشياء. إلا أن كل صبي سائق سيارة هنا يضع التحية على أطراف أصابعه. والآن كرر ورائى ترتيب هذه المعركة».

كان من الأسر على تكرار عبارة التحية، من تذكر هذا النظام، فى هذه الفترة من الوقت. وأخذت أجاهد، وأنا أبتسم لهذه الفكرة، كى أعيد تثبيت هذه الأولويات المنسية من الذاكرة، بينما أتفرس فى نفسى. كان صندوق دُمى الحياة المصرية كلها لا يزال هنالك، كل شخصية فى مكانها، من يرش الشوارع، الناسخ والنائح، البغى والكاتب والقسيس، كلها تبدو وكأن الزمن أو الحرب لم تمسها. وأحسست بالكآبة تغزوني وأنا أرقبهم، فقد غزوا الآن جزءًا من الماضى، لقد اكتشف تعاطفى عنصرًا جديدًا فى داخله: التجرد.

لقد اعتاد سكوبى على القول: «لا تبتئس يا ولدى. فأنت كى تنمو

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

تحتاج إلى عمر بأكمله. الناس لم يعد لها قدرة على الصبر. لقد صبرت
أمر تسعة أشهر من أجل. فكرة فريدة.

وتذكرت وأنا أعبر جامع الجوهري أنني وجدت هنا حميد الأعور بعد
ظهر ذات يوم يحك شريحة ليمون فوق قرش صاغ قبل أن يمضها. هذه، قال:
«علاج ناجع للكلبي التي يصيبها الحصى». كان معتاداً أن يعيش في مكان ما
في هذا الحي المليء بمقاهيه التي تعبق بالروائح المحلية مثل ماء الشراب
الذي يفوح برائحة الورد، وخروف بأكمله يُقلب فوق الأسياخ وقد حشى
بالحمام والأرز والبندق والجوز. كل الوجبات التي تتلهى بها الكروش والتي
تدخل البهجة على باشوات المدينة ذوى البطون الفحلة القادرة!

في مكان ما، هنا، على تخوم الحي العربي يقفز الترام، يصدر فجأة
صريراً، كمن يطحن، وهو يلف ويدور. يمكنك للحظة أن تنظر، عبر إفريز
الأبنية المضغضة المبعثرة، إلى ركن الميناء المخصص للقوارب التي
تعمل في المياه الضحلة. إن مخاطر الحرب في البحر قد تضخمت إلى
فيضان وطوفان. الفلوكة ترقد هنالك تحيط بها قباب ملونة، ومراكب ذات
أشرعة مثلثة الشكل، وزوارق نبذ شرقية كتلك التي تستخدم في بوغاز
البسفور، ومراكب شراعية من كل أنحاء المشرق. باقة من الصواري
والساريات والعيون الإيجية المتأملة، من الأسماء والأشكال والمقاصد.
إنها كلها ترقد هنالك، وقد غدت كل واحدة منها اثنتين بصورتها المنعكسة
في مياه البحر العميقة الساجية، عندما تسقط الشمس عليها. ثم تتزع كلها
فجأة ليبدأ الكورنيش الكبير في الامتداد، عرض البحر الطويل الرائع
الذي يحيط بالمدينة الحديثة، العاصمة الهيلينية لرجال البنوك والحالمين
بالأقطان، كل هؤلاء التجار المتنقلين من الأوروبيين الذين أعادوا إشعال
حلم الإسكندر في الفتح وأجازوه، بعد قرون من التراب والصمت الذي
فرضه عمر عليها.

هنا، أيضًا، كان كل شيء دون تغيير نسبيًا، باستثناء سحابات الجند الكاكية الكثيرة تتحرك في كل مكان، والبارات الجديدة الأشبه بالطفح الجلدي والتي بزغت في كل مكان لتقوم على تغذيتهم. خارج فندق سيسيل صفوف طويلة من لوريات النقل وقد طغت على سيارات التاكسي. خارج القنصلية حارس من البحرية غريب يحمل بندقية مزودة بحربة. إنني لا أستطيع القول: إن كل شيء قد تغير بصورة يستعصى علاجها. فهؤلاء الزوار كانوا يتسمون بالرؤية الوقتية لمن فقد القدرة على التدبر. كانوا أشبه بقرويين يزورون العاصمة في مناسبة سوق موسمي. سرعان ما يفتح باب يُسحبون منه إلى الخزان الهائل لمعارك الصحراء. إلا أنه كانت هنالك مفاجآت. ففي القنصلية، مثلاً، هنالك رجل بدين للغاية يجلس إلى مكتبه كملك برغوث البحر، يضغط راحتيه معًا وأظافره الطويلة التي تشبه البندق مصقولة، ذاك الصباح، بعناية، تحدث إليّ في ألفة: «إن مهمتي تبدو مثيرة للاستياء». تحدث في صوت كصوت الفلوت، ورغم ذلك فهي ضرورية، إننا نحاول وضع يدنا على كل شخص ذي قدرة خاصة قبل أن تصل يد الجيش إليه. لقد أرسل السفير اسمك إليّ، وهو الذي دل عليك إدارة الرقابة، التي افتتحت لتوها، والتي لا يزال طاقمها دون المستوى بصورة غريبة.

«السفير؟»، أثار الأمر حيرتي.

«إنه صديق لك. أليس كذلك؟»

«إنني بالكاد أعرفه».

«إنني، على أي حال، مقيد بقبول توجيهه، رغم أنني المسئول عن هذه العملية».

كانت هنالك أوراق رسمية يجب أن تملأ. كان هذا البدين، والذي لم

يكن يثير النفور واسمه كنيلورث ميالاً لمساعدتى . قلت : «هنالك شىء ما غامض فى هذا الأمر» . هز كتفيه وفرد يديه البيضاوين : «أقترح أن تناقشه فى هذا الأمر عند ما تلقاه» .

قلت : «ليس فى نيتى» .. إلا أنه بدا من الحمق مناقشة الأمر أكثر من ذلك قبل أن أكتشف ماذا هنالك ، كيف يمكن لماونت أوليف...؟ إلا أن كنيلورث كان يتحدث مرة أخرى : «أعتقد أنك قد تحتاج إلى أسبوع حتى تجد لنفسك مأوى هنا تستقر فيه . هل أخبر الإدارة بذلك؟» .

«إن شئت» . قلت وأنا فى حيرة . سمح لى بالانصراف لأقضى بعض الوقت فى القباء أنبش فى صندوق ملابسى البائد ، أنتقى منه قليلاً من الملابس التى تليق بالمدينة . لففتها فى ورق أصفر ، وخرجت أسير فى بطاء على امتداد الكورنيش نحو فندق سيسيل حيث انتويت أن آخذ حجرة ، آخذ حماماً ، وأحلق ذقنى ، وأعد نفسى لزيارة المنزل الريفى ، كان هذا قد بدأ يلوح فى عقلى ، ليس بالضبط مثيراً للحيرة ، ولكن للقلق الذى يأتى به التوتر دائماً . وقفت للحظة أحملق إلى أسفل فى الماء الساكن . وحدث وأنا واقف هكذا أن وقفت سيارة الرولز الفضية بقممها الصفراء ، وقفزت منها شخصية ضخمة ملتحية ، جاءت نحوى مهرولة ممدودة الذراعين ، ولم أشعر إلا وهذان الذراعان يطوقان كتفى واللحية تحك وجتى فى تحية غالية . وحينئذ تعرفت فى هذه الشخصية على «بومبال» .

«دارلى» . وسحبني وهو لا يزال ممسكاً بيدي فى رقة ، والدموع لا تزال فى عينيه ، إلى جانب حيث جلس ثقيلًا فوق أحد الدكك الحجرية التى تحيط بحد البحر . كان مظهر بومبال على قدر من الأناقة ، وطرفا كُمية المنشين يخشخشان وقد تجعدت حواشيهما . وأضفى عليه شعر ذقنه وشاربه الداكنين جوا مهيباً وإن كان بائساً .. بدا أنه لم يتغير وسط كل

تلك الزخارف. لقد لاح من خلالهما وكأنه «تيريوس» فى رداء خيالى. وحملقنا بعاطفة فى بعضنا البعض وقتا طويلا صامتا. كان كلانا يدرك أن الصمت الذى لاحظته كل منا على الآخر كان صمتا أليما لسقوط فرنسا، وهو حدث رمزى وضوح تام إلى الانهيار الروحى لأوروبا ذاتها. كنا مثل ندابين عند نصب تذكارى غير مرئى خلال دقيقتى الصمت واللتين أحيتا ذكرى سقوط يستعصى علاجه على الإرادة البشرية. وأحسست فى قبضة يده بكل الخجل واليأس من هذه المأساة السمجة، وبحثت فى يأس عن العبارة التى يمكن أن تواسيه، يمكن أن تؤكد له أن فرنسا ذاتها لا يمكن أن تموت حقا لمدى طويل، مثلها مثل الفنانين الذين يولدون فى هذا العالم، إلا أن هذا العالم من الجيوش والمعارك كان كثيفا، متماسكا، مما جعل الفكرة تبدو ذات أهمية ثانوية، حيث إن الفن يعنى الحرية حقا. وتلك هى التى كانت على كف عفريت. وأخيرا واتتنى الكلمات «لا تغتم». لقد رأيت اليوم صليب اللورين الصغير يزدهر فى كل مكان».

وتتمم وهو يعصر يدي مرة أخرى: «أنت تفهم، أعرف أنك لا بد ستفهم، حتى وأنت فى أشد حالاتك نقدا لها، كنت تدرك أنها تعنى الكثير لك، كما تعنى الكثير لنا». ومخط أنفه فجأة، فى ضجيج مفزع، فى منديل نظيف. واستند إلى الخلف وهو فوق الدكة الحجرية. وعاد، فى فجائية مذهلة، ليغدو ذاته القديمة ثانية، بومبال الماضى الهباب، البدين الذى يتعذر كبحه أو السيطرة عليه.

«هناك الكثير الذى أخبرك به. سوف تأتى معى الآن وفى الحال، دون كلمة. نعم، إنها سيارة نسيم. لقد اشتريتها لأنقذها من المصريين. لقد أعد لك ماونت أوليف وظيفه ممتازة. إننى ما زلت فى سكنى القديم، لكننا أخذنا الآن كل المبنى، يمكنك أن تستخدم الطابق العلوى كله، سوف تصبح الأمور كما كانت فى الماضى مرة أخرى». وقفزت على قدمى

لهذه الفصاحة ولهذا التنوع المحير من الآمال والتوقعات التي وصفها في سرعة وثقة دون انتظار تعليق واضح. لقد بلغت إنجليزيتها، من الناحية العملية، حد الكمال.

قلت متلعثمًا: «الأيام القديمة».

إلا أن تعبيرًا بالألم عبر تقاطيع وجهه السمين، وأنّ وهو يضغط بين ركبتيه بينما يقول، «فوسكا!»، ولوى وجهه بطريقة كوميدية وهو يحمل في: «أنت لا تعرف». وكاد أن يكون فزعًا: «إنني أحبها». وضحكت. هز رأسه في سرعة: «لا تضحك».

«يجب أن أضحك يا بومبال».

«إنني أتوسل إليك». ثم مال إلى الأمام، وقد ارتسم اليأس في تقاطيعه. خفض صوته وهو يستعد لاأتماني على شيء ما. تحركت شفتاه. كان من الواضح أن هنالك أمرًا له أهمية مأساوية. استطاع أخيرًا أن ينطقه وقد طفرت الدموع من عينيه، بينما يقول: «أنت لا تفهم. إنني مخلص رغم أنفي». ثم لهث كسمكة وكرر: «رغم أنفي (*)». إن هذا لم يحدث لي من قبل. لم يحدث أبدًا. ثم انفجر فجأة في صهيل بائس، وعلى وجهه نفس نظرة الحيرة الواجفة. كيف يمكنني منع نفسي من الضحك؟ لقد أعاد إليّ الإسكندرية في نفس واحد - تامة وكاملة - إذ لا يمكن أن تكتمل ذكرياتها دون أن يفكر المرء في بومبال واقفًا في الحب. وأصابه ضحكي بالعدوى فأخذ يهتز مثل الجيلي. «كف». أخذ يتوسل أخيرًا في شجن كوميدى، وقد حشرت ضحكاته المكتومة كلماته في غابة لحيته. «لم أنم معها أبدًا، ولو لمرة واحدة. ذلك هو الشيء الذي يثير الجنون». وضحكنا لما قال أكثر مما ضحكنا في أى وقت.

(*) بالفرنسية في الأصل.

إلا أن السائق استخدم بوق السيارة فى رقة، مما جعله يستعيد نفسه فجأة، مذكرا إياه أن لديه واجبات عليه أداؤها، صاح: «تعال. على أن آخذ خطابًا إلى «بوردر» قبل التاسعة، ثم أوصلك إلى المسكن، يمكننا تناول الغداء معًا. إن حميد، بالمناسبة، يعمل معى. سوف يسعد لمجيئك. أسرع». مرة أخرى، لم أعط له واجسى الوقت الكافى لتشكل نفسها. أمسكت بلفافتى أصحابه إلى العربة المألوفة، وقد انتابتنى غصة وقد لاحظت أن تنجيدها تفوح منه الآن رائحة السيجار الثمين والدهان المعدنى. كان صديقى يتحدث فى سرعة طوال الطريق إلى القنصلية الفرنسية. ودهشت إذ وجدت أن موقفه كله، نحو الرئيس، قد تغير. كل المرارات والحنق القديم قد تلاشى. كان كلاهما، كما يبدو، قد هجر موقعه الوظيفى فى عاصمتين مختلفتين (كان بومبال فى روما) حتى يلحق بفرنسا الحرة فى مصر. كان يتحدث الآن عن بوردر فى عاطفة حانية: «إنه، بالنسبة إلى مثل أبى. إنه رائع». قال صديقى وهو يدور بعينه الداكتين المعبرتين. وقد حيرنى هذا الأمر، إلى حد ما، حتى رأيتهما معا وأدركت فى سرعة البرق أن سقوط بلدهما قد خلق بينهما رباطا جديدا. لقد ابيض شعر بوردر تماما، وأفسحت سهولة انقياده ورقته الذاهلة مكانها للإصرار الهادئ لأمري تُمسك به المسئوليات التى لا تترك مكانا للعواطف. كان كل منهما يعامل الآخر فى كياسة وعاطفة، جعلتهما فى الحقيقة أشبه بأب وابن أكثر منهما زميلين. إن اليد التى وضعها بوردر، فى حب ومودة، فوق كتف بومبال، والوجه الذى كان ينظر به إليه، كانا يعبران عن زهو تشوبه الوحشة والشوق الكئيب.

إلا أن الوضع الجديد للقنصلية كان وضعاً تعسا إلى حد ما. النوافذ العريضة تطل على الميناء، حيث يرسو الأسطول الفرنسى مثل رمز لكل ما هو مؤذ من النجوم التى تحكم مصير فرنسا. كان فى وسعى أن

أتبين أن مجرد رؤياه راقدا، خاملا، كان تبكيّا وتأنيبًا أبديًا لهم. ولم يكن فى مقدورهم تفادى ذلك. كانت كل لفظة ما بين المكاتب العالية قديمة الطراز والحائط الأبيض، توقع بأعينهم فوق صفوف هذه السفن المصفوفة النافرة. كانت أشبه بشظية تسكن العصب البصرى. كانت عينا بوردر تتوهجان بتأنيب الذات والرغبة الحارة المتعصبة فى إصلاح هؤلاء التابعين الجبناء للشخصية التى كان يشير إليها بومبال دوما (بأقل تعبيراته دبلوماسية): «ألف لعنة». كان مما يبعث على الراحة أن ينفس المرء عن مشاعره الحادة، باستبدال حرف بآخر. وقفنا نحن الثلاثة ننظر إلى الميناء، إلى هذا المنظر الاستفزازى. وفجأة انفجر الرجل العجوز: «لماذا أيها البريطانيون لا تأسرونيهم، وترسلون بهم إلى الهند كما أرسلتم الإيطاليين؟ إننى لن أستطيع استيعاب ذلك أبداً. سامحنى. ولكن هل تعرف أنه مسموح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم الخفيفة، وديدبانات فوق الأسطح والحصول على إجازات ينزلون فيها إلى الشاطئ، وكأنهم مجرد أسطول محايد؟ إن الأدميرالات يتعشون ويشربون النبيذ فى المدينة. الكل يخادع لحساب «فيشى». إن هنالك مشاجرات بين أولادنا وبحارتهم». كان فى وسعى أن أتبين أنه موضوع قادر على استشاطه غضبهم. وحاولت أن أغير دفة الحديث، حيث لم يكن فى وسعى أن أقدم من المواساة غير القليل.

استدرت إلى مكتب بومبال الذى كانت تتصب عليه صورة فوتوغرافية كبيرة داخل إطار لجندى فرنسى، وتساءلت من يكون، وأجاب كلاهما على الفور: «إنه منقذنا». وعرفت فيما بعد، بالطبع، أن هذا الرأس اللابرادورى الحزين، المعتز بنفسه، إنما هو ديجول بذاته. أوصلتنى سيارة بومبال إلى المسكن. تحركت الهمسات المنسية فى أعماقى وأنا أدق الجرس. فتح لى حميد الأعور. وأقدم، بعد لحظة من الدهشة، على قفزة صغيرة غريبة

فى الهواء. إن النبض الأصلى لهذه القفزة، كان يجب أن يكون عناقًا كبحه فى حينه. إلا أنه وضع إصبعين فوق معصمى وقفز كطائر بنجوين وحيد فوق كتلة من الجليد، قبل أن يتراجع معطيا لنفسه فسحة تمكنه من ممارسة التحية الرسمية كما يجب أن تكون. وصحت: «يا حميد». وأنا مبتهج قدر ابتهاجه. وتماسكنا فى تحية احتفالية.

كان المكان كله قد تبدل مرة أخرى، أعيد دهانه وكسى بالورق، وأثث بأثاث ثقيل ذى طراز رسمى. وقادنى حميد وهو يحدق فى إعجاب، من حجرة إلى حجرة، بينما حاولت أنا عقليًا أن أعيد بناء مظهره الأصلى من ذكريات غدت الآن باهتة وفى غير موضعها. كان من العسير، مثلًا، رؤية ميليسا صائحة أو زاعقة. يقف الآن فى نفس المكان الذى كانت تقف فيه، بوفيه أنيق مزدحم بالقوارير. (كان بورسواردن يقف، ذات مرة، مشيرًا بيديه من الركن البعيد) وعادت إلى ذاكرتى قطع من الأثاث القديم: «هذه الأشياء القديمة لا بد أنها تتجول فى مكان ما». هكذا فكرت فى هذا الاقتباس من شاعر المدينة^(٥). كان الشئ الوحيد الذى يمكن التعرف عليه هو مقعد النقرس القديم الذى يستخدمه بومبال الذى عاد يظهر بطريقة غامضة فى نفس موضعه تحت النافذة. ربما طار عائدا معه من روما، إنه يشبه بومبال. الحجرة، الصندوق حيث كنت أنا وميليسا... قد غدت الآن حجرة حميد الخاصة. إنه ينام على نفس السرير غير المريح والذى نظرت إليه بشعور يشوبه الانقباض، محاولا أن أمسك بشذا وجو بعد الظهر الطويل لتلك الأيام الساحرة عندما... إلا أن الرجل الضئيل كان يتكلم. يجب أن يعد الغذاء. ثم نبش فى أحد الأركان ودفع فى يدي بصورة مجمعة لابد أنه سرقها فى وقت ما من ميليسا. كانت من تلك الصور التى يجرى تصويرها فى الشارع وقد بهتت تمامًا. كان وجهها يستدير نصف استدارة بعيدًا عني، تبسم

مقسمة انتباهها بين ما أقول، فى جدية تامة، ونوافذ الحوانيت المضاءة التى تمر بها. لا بد أن هذه اللقطة قد أخذت فيما بعد ظهر شتوى، حوالى الساعة الرابعة. ما الذى كنت أقوله بهذه الجدية؟ لم يكن فى وسعى، فيما يخص حياتى. أن أستعيد الزمان والمكان. ومع ذلك، فهناك فى اللونين الأبيض والأسود، كما يقولون. ربما كانت الكلمات التى أقولها مهمة ذات مغزى، أو ربما كانت بلا معنى! كانت هنالك كومة من الكتب تحت ذراعى، وكنت أرتدى المعطف الواقى من المطر، القدر العتيق، والذى أعطيته أخيراً لزولتان. كان فى حاجة إلى تنظيفه تنظيفاً جافاً. وشعري كان فى حاجة إلى قصه من الخلف. كان من المستحيل أن يستعيد العقل مثل ما بعد الظهر هذا، والذى اختفى وتلاشى! وحملت فى دقة وعناية، فى تفاصيل الظروف التى صاحبت الصورة كما ينحنى امرؤ ما فوق لوحة مرسومة على الجص بصورة لا يرجى علاجها، يحاول استعادتها. كانت ترتدى معطفها الترى المصنوع من جلد عجل البحر، تحمل حقيبة يد لم أرها البتة فى حوزتها. «ذات مرة فى أغسطس، هل كان أغسطس حقاً؟» اقتبست بعقلي لنفسى، مرة أخرى، من شاعر المدينة (Φ).

واستدرت إلى الفراش التعس الأشبه بألة التعذيب، وأنا أهمس اسمها فى رقة مرة أخرى. واكتشفت فى دهشة وكدر أنها قد تلاشت تماماً. كانت المياه قد غمرت رأسها. بدا الأمر كأنها أبداً لم تبعث فى الألم والشفقة والتى كنت أقولها لنفسى دائماً، سوف تعيش. ربما وقد تحولت إلى أشكال أخرى تعيش ظافرة إلى الأبد، لقد أبليت كما يبلى المرء زوجاً من الجوارب القديمة. إن مسلك هذا الاختفاء قد أدهشنى وصدمنى. هل يمكن «للحب» أن يبلى هكذا؟ «ميليسا»، قلت مرة أخرى، وأنا أسمع صدى الكلمة المحببة فى الصمت. اسم عشب عطري حزين، اسم حاج

إلى اليوسيس. هل تَقُل هي الآن عن أريج أو شذى؟ هل كانت مجرد صلة أدبية، صلة بكتاب أو فهرس كتاب، صلة كالخربشة على حواشي قصيدة من الدرجة الثانية؟ وهل ذوبها حبي في هذا النمط الغريب، أم هل كان الأدب فقط هو ما حاولت استخلاصه منها؟ الكلمات. حَمَام الكلمات اللاذع! وأحسست بالجرم. بل حاولت (بهذا الخداع الدفين للنفس، والذي هو أمر طبيعي للغاية عند من تتحكم فيهم عواطفهم) أن أفرض عليها عودة الظهور بفعل إرادى، أن أعيد استدعاء قبلة واحدة من قبلات بعد الظهر تلك، والتي كانت بالنسبة لى، ذات مرة، حصيلة معانى المدينة العديدة. بل حاولت عامداً أن أعصر الدموع من عينيّ، أن أنيم ذاكرتى مغناطيسيّاً، بتكرار ذكر اسمها كالتعويذة. ولمثمر التجربة شيئاً. كان اسمها قد بلى تماماً! كان مثيراً للخبجل حقاً ألا أكون قادراً على إغداق أضال قدر من العطاء على هذه التعاسة الغامرة. نعم سمعت صوت بورسواردن اللاذع كقرع جرس بعيد وهو يقول: «إلا أن تعاستنا قد أرسلت إلينا كوليمة، كان علينا أن نعربد فيها، وأن نستمتع بها حتى الثمالة». كانت ميليسا، فى بساطة، واحدة من أردية الحب العديدة!

استحممت، وغيّرت ثيابى، عندما وصل بومبال على عجل لغذاء مبكر، وقد امتلأ بسرور متقطع بسبب حالته العقلية الجديدة العجيبة. كانت فوسكا، وهى سبب تلك الحالة، لاجئة متزوجة من ضابط بريطانى. «كيف حدث مثل ذلك التفاهم العاطفى المفاجئ؟». إنه لا يعرف. ووقف لينظر إلى وجهه فى المرأة المعلقة: «إننى من آمن بأشياء كثيرة عن الحب». استمر يخاطب صورته فى المرأة بكآبة بينما يمشط لحيته بأصابعه، «إلا أننى لم أؤمن أبداً بشيء كهذا. ولو حدث منذ عام، أن قلت أنت ما أقوله أنا الآن لقلت لك بوف، إنها فى بساطة بذاءة إيطالية - نفاية من العصور

الوسطى. لقد اعتدت أن أفكر أن كبح الشهوة غير صحى من الناحية الطبية، حتى إن ذلك الشئ الملعون يمكن أن يضمّر أو يتساقط إن لم يستخدم كثيرًا. والآن انظر إلى صديقك الشقى، الصديق الذى يفتقد السعادة! إننى أحس بنفسى مقيدًا مكمّمًا بوجود ذات فوسكا. اسمع، لقد جاء كيتس من الصحراء وخرجنا معًا وشربنا حتى ثملنا. أخذنى إلى حانة جولفو. كانت فى أعماقى رغبة - نوع من التجربة - أن أضاجع غانية. لا تضحك. فقط لأرى ماذا حل بمشاعرى. وشربت خمسًا من كئوس الأرماجناك(*) لأنعشها. وأحسست أننى قد حققت ما أردت نظريًا. حسنا قلت لنفسى، سوف أشرح هذه العذرية. سوف أزيل بكاره(**) هذه الصورة الرومانسية مرة وإلى الأبد، وإلا أخذ الناس فى الكلام والحديث بأن بومبال العظيم إنما هو خصى. ولكن ماذا حدث؟ أمسك الذعربى. كانت مشاعرى صماء عمياء مثل برمبل من دم. إن منظر كل هؤلاء الفتيات قد جعلنى أتذكر فوسكا بالتفصيل. كل شئ حتى يداها فى حجرها وهى تحيك. أصابنى البرود كمن وضعت دندرمة فى ياقته. أفرغت ما فى جيوبى فوق المائدة وهربت فى سرعة، وسيل من نداءات القطط يلاحقنى من أصدقائى القدامى. كنت بالطبع أسب. لم يكن ذلك ما تتوقعه فوسكا. كلا، إنها تقول لى. اذهب مباشرة واحصل على فتاة إن كان عليك أن تفعل ذلك. ربما كانت هذه الحرية بذاتها هى التى تحتفظ بى داخل السجن؟ من يدرى؟ إن هذا لغز تام بالنسبة لى. إنه لمن الغريب أن هذه الفتاة تجذبنى من شعرى إلى سبل الشرف، هكذا، وهى أماكن غير مألوفة لى.

وهنا خبط نفسه برقة فوق صدره فى حركة تأنيب وتبكيّت ممزوجة

(*) براندى فرنسى - المترجم.

(**) بالفرنسية فى الأصل.

بنوع من الشعور بالصواب المشكوك فيه. وجاء ليجلس مرة أخرى وهو يقول فى كآبة:

«أنت ترى أنها حبلى من زوجها، ويمنعها إحساسها بالشرف من خداع رجل فى الخدمة العامة، رجل يمكن أن يموت فى أى وقت، خاصة أنها تحمل طفله فى أحشائها».

وأكلنا معًا لدقائق معدودة، ثم انفجر: «ولكن ماذا علىّ أنا أن أفعل بمثل تلك الآراء؟ أخبرنى لو سمحت. إننا فقط نتحدث معًا ومع ذلك ففى هذا ما يكفى». كان يتكلم وفى صوته لمسة احتقار لذاته.

«وماذا عنه؟».

وتنهّد بومبال: «إنه رجل طيب وعطوف للغاية، له تلك الرقة التى هى سمة قومية، والتى اعتاد بورسواردن أن يقول عنها: إنها نوع من الاضطراب العصبى الجبرى، والذي نتج عن حالة الضجر التى تثيرها الحياة الإنجليزية، التى تبعث على الانتحار! إنه أنيق، مرح يتحدث لغات ثلاثًا. ومع ذلك فإنه ليس بالضبط باردًا، لكنه فاتر(*)، أعنى فى مكان ما من طبيعته الداخلية. إننى لست متأكدًا إن كان نموذجيًا فى ذلك أم لا؟ إنه يجسد، على أى حال، تصورات عن الشرف يمكن أن تكون مفخرة لتروبادور(**) إن هذا لا يعنى بالطبع، أننا نحن الأوروبيين نفتقد الشرف، لكننا لا نشدد على الأشياء بطريقة غير طبيعية. أعنى أن الانضباط الذاتى يجب أن يكون أكثر من الإذعان لنمط ما من السلوك. إننى أبدو مرتبكا. نعم، إن أفكارى مرتبكة قليلًا فيما يختص بعلاقتهما. أعنى شيئًا ما كالتالى:

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) شاعر ينشد الشعر الوجدانى، ظهر فى القرن ١١ حتى القرن ١٣ فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا - المترجم.

إنه يؤمن حقًا في أعماق خيالاته القومية أن الأجانب غير قادرين على أن يكونوا أوفياء في الحب. ومع ذلك فهي صادقة وأمينة مع نفسها. إنها لا تقدم على فعل إلا إن كان موافقًا لها بصورة طبيعية، دون انفعال زائف بالشكل. إنها تتصرف طبقًا لأحاسيسها. إنني أعتقد أنه لو كان يحبها حقًا بالمعنى الذي أقصده، لما ظهر دوماً كمجرد متفضل بإنقاذها من وضع يصعب احتمالته. إنني أعتقد، أنه في مكان ما في داخلها، رغم أنها لا تعي ذلك، هنالك إحساس بالظلم يتأجج إلى حد ما، إنها مخلصة له... كيف؟ في كبرياء إلى حد ما؟ لا أدري. لكنها تحبه بالفعل بهذا النمط الوحيد الذي يسمح به. إنها فتاة رقيقة المشاعر. لكن ما هو غريب أن حبنا، الذي لا يشك فيه أي منا، والذي تبادلنا الاعتراف به وقبوله، قد تلون بطريقة غريبة بهذه الأوضاع. وإن كان هذا الحب قد جعلني سعيدًا، إلا أنه جعلني أيضًا غير متيقن من نفسي إلى حد ما. إنني أغدو غاضبًا ثائرًا في بعض الأحيان. إنني أحس أن حبنا قد بدأ يحيطه الجو الذي يحيط بالتكفير والتوبة. إنني أتساءل إن كان حب فتاة لبقة لطيفة يجب أن يكون هكذا. إنه أيضًا فارس (*) من الطبقة الوسطى، عاجز عن إيقاع الألم، كما هو عاجز عن منح المتعة الجسدية كما يجب القول. ومع ذلك فهو أيضًا رقيق يفيض حنانًا واستقامة. إلا أن هذا هراء فالمرء لا يستطيع أن يحب شرعًا دون إحساس بالعدالة، هل يمكن للمرء أن يفعل ذلك؟ إنه في مكان ما، على امتداد علاقتهما، يخيب ظنهما دون أن يعي هذه الحقيقة. كما أعتقد أنها لا تدرك ذلك بأي حال، بعقلها الواعي. إلا أنهما عندما يكونان معًا، فأنت تحس أنك في حضرة شيء ما غير مكتمل، غير متماسك، مجرد اثنين تلحمهما التقاليد والأخلاق الحميدة. إنني أدرك ما لكلامي من صدى قاس، لكنني أحاول وصف ما أراه بالضبط. وما خلا ذلك، فنحن صديقان جيدان، كما أنني

(*) بالفرنسية في الأصل.

فى الحقيقة أحبه بالفعل . وهو عندما يأتى فى إجازة، فإننا نخرج معًا نحن الثلاثة نتعشى ونتحدث فى السياسة! أوف!«.

واستند إلى الخلف فى مقعده، مرهقًا من جراء العرض الذى قدمه. ثناء ب فى قوة قبل أن ينظر فى ساعته. استمر مستسلما، «إننى أعتقد أنك سوف تجد كل ذلك غريبا للغاية، أعنى الرؤى الجديدة للناس، إلا أن كل شىء هنا يبدو غريبًا،؟! ليزا، شقيقة بورسواردن، مثلا، أنت لا تعرفها؟ إنها ضريرة. يبدو لنا جميعا أن ماونت أوليف يجن بها حبا. لقد جاءت أساسا لتجمع أوراقه، ولتجد مادة لكتاب يكتب عنه. هذا ما يقال ويدعى. لقد أقامت، على أى حال، فى السفارة منذ ذلك الحين. إنه عندما يكون فى القاهرة، أداء لأعماله، يزورها فى نهاية كل أسبوع! إنه يبدو الآن تعسًا، بصورة ما، ربما أكون أنا أيضًا كذلك؟» ثم نظر إلى المرأة مرة أخرى، وهز رأسه فى حسم. كان يبدو عليه أنه ليس كذلك. «حسنا»، قال فى تواضع: «من المحتمل أن أكون مخطئًا».

دقت الساعة الموضوععة فوق رف المدفأة، فوقف فى عجلة. قال: «يجب أن أعود إلى المكتب، فهناك مؤتمر سينعقد. ماذا عنك؟». أخبرته عن مشروعى إلى كرم أبو جبرج. صفر ناظرًا إلىّ فى حدة: «سوف ترى جوستين ثانية، إه؟». فكر للحظة ثم هز كتفيه مرتابًا: «إنها معتكفة الآن، أليست كذلك؟ لقد حدد «مملك» إقامتها فى المنزل، لم يرها أحد منذ سنين. إننى لا أعرف ما الذى أوقع بنسيم أيضًا؟ لقد تقطعت علاقتهما بماونت أوليف تمامًا، وباعتبارى موظفًا فإننى يجب أن أتبع موقفه. وهكذا فإننا لا نحاول حتى التلاقى، أعنى حتى لو كان مسموحًا بذلك. إن كليا تراه فى بعض الأحيان. إننى آسف لنسيم. عندما كان فى المستشفى لم تستطع الحصول على تصريح لزيارته. إن الأمر يبدو أشبه بأرجوحة الملاهى. أليس كذلك؟ أشبه بما يجرى فى بول جونز. زملاء رقص جدد حتى تتوقف الموسيقى! إلا أنك سوف تعود، وتشاركنى هذا المكان، أليس

كذلك؟ إذن سأخبر حميد. يجب أن أذهب. حظاً طيباً» كان فى نيتى أن أنام قيلولة قصيرة قبل أن تأتى السيارة، إلا أن إرهاقى كان قد بلغ حدا جعلنى أغرق فى نوم ثقيل لحظة أن لمست رأسى الوسادة. ربما كنت أنام طوال يوم لو لم يوقظنى السائق. جلست نصف فاقد الوعى فى السيارة المألوفة لى أراقب أراضى البحيرات، كما أتصورها، تنمو حولى بأشجار النخيل والسواقى، مصر التى تعيش خارج المدن، قديمة، خلوية، خلف خمار من سراب وضباب. وأخذت تتحرك الآن الذكريات القديمة، بعضها رقيق يبعث السعادة، والبعض قاس مثل آثار جراح، ندوب العواطف القديمة التى يجب على أن أطرحتها جانبا فى القريب العاجل. كانت الخطوة الأولى الآتية هى مواجهة جوستين مرة أخرى. هل ستساعدنى أم تعوق مهمتى للتحكم فى تلك «الذخائر الحساسة» الثمينة وتقييمها، كما يسميها «كوليردج»؟ كان من الصعب معرفة ذلك. وأخذت أشعر بالقلق والترقب يتسابقان كفرسى رهان مع كل ميل تقطعه السيارة. إنه الماضى!

* * *

(٢)

أراض عتيقة على حالها، لم تمس منذ كانت فيما قبل التاريخ - بحيرات
فى خلوتها، بالكاد مستها خطا القرون المتعجلة، حيث سلاوات البجع
وإيس والبشون الأصلية المتصلة تبسط أقدارها البطيئة فى عزلة تامة.
وقطع من رقع برسيم أخضر فى لون الجوخ تموج بالحيات وسحابات
الناموس. مساحة أرض خالية من الطيور المغردة، ورغم ذلك مليئة باليوم
والهدهد والقاوند الذى يصيد بالنهار، يتغذى، يمتلىء باللحم على ضفاف
الممرات المائية السمرء النحاسية. قطعان من كلاب نصف وحشية تبحث
عن زاده. الجاموس معصوب العينين يدير السواقى فى ظلام أبدى.
المقامات والزوايا الصغيرة القائمة فى الأراضى على جانبى الطريق
والمبينة من الطين، وقد فرشت أرضياتها بالقش الطازج حيث يستطيع
المسافر التقى الورع أن يجد مكانا للصلاة أثناء ترحاله. مصر! الأوزة
المجنحة تبهر فى سرعة وسط طوفان المياه. وصوت آدمى يغنى فى تلكؤ
مقطعا من أغنية. وفرقة الريح فى الأذرة الشامية تنقر أوراقها الخشنة.
والطين السائل تفجره عواصف الأمطار، فى جو مشحون بالتراب، فيلقى
بالسراب فى كل مكان، مما يسلب القدرة على الرؤية. كتلة طين تتفخ إلى
حجم رجل، والرجل إلى حجم كنيسة. وفلقات كاملة من السماء والأرض
تترشح، تتفتح كما يفتح الغطاء، أو تميل على جانبها حتى تنقلب رأسا

على عقب. قطعان ماشية تسير داخله خارجة، من تلك المرايا الملتوية، تظهر، تختفى، تستحثها صرخات مرتعشة صادرة عن ألوف من رعاة غير مرئيين. ملتقى هائل لصور خلوية ريفية من التاريخ المنسى للعالم القديم والتي لا تزال تعيش جنباً إلى جنب مع تلك التي ورثناها. سحابات نمل فضى الأجنحة تطفو لتلتقى، تتوهج، فى ضوء الشمس. صدى قعقة حوافر الخيل على الأرضيات الطينية لهذا العالم المفقود، تبدو أشبه بنبضات عقل يسبح بين تلك الحجب وأقواس قزح الذائبة.

وهكذا أخيراً فإنك وقد سرت تتبع منحنيات الجسور الخضراء، تصل إلى منزل مبنى بالعرض فوق تقاطع القنوات البنفسجية، وقد ثبتت بقوة ضلف شبائيكه الخشبية المشققة الباهتة. حجراته معلق على جدرانها تذكارات دراويش، دروع وتروس، رماح مخضبة بالدماء، وطنافس رائحة. الحديقة موحشة، ليس هنالك من يرعاها. فقط الشخوص الصغيرة تتحرك بأجنحتها السيلوليدية - خيالات هائمة تحرس المكان من العين الشريرة. صمت عادات أوقف استعمالها تماماً. إلا أن كل ريف مصر يشارك حينئذ فى هذا الاكتئاب النفسى بسبب كونه مهجوراً، مسموحاً له أن يبذر البذور، أن يخبز ويتشقق، أن يتعفن تحت الشمس النحاسية.

استدرنا أسفل قوس نقرقع فوق حصى الباحة المظلمة. هل ستكون تلك نقطة فراق جديدة، أو عودة لنقطة البداية؟

من العسير أن يعرف المرء ذلك.

* * *

(٣)

وقفت على أعلى نقطة في السلم الخارجى تنظر إلى أسفل فى الباحة المظلمة، أشبه بخفير أو حارس، تمسك فى يدها اليمنى بشمعدان يلقي بدائرة من الضوء الباهت حولها. وقفت ساكنة تماما وكأنها تمثل دورًا فى لوحة حية. بدا لى أن النغمة التى نطقت بها أسمى، من البداية، كانت مسطحة مترددة عن عمد. ربما يعكس ذلك حالة ما عقلية غريبة فرضتها هى على نفسها، أو ربما لأنها لم تكن متيقنة أنه أنا. كانت تسائل الظلام. تحاول أن تستخرجنى من داخله مثل ذكرى ما، عنيدة ومرهقة، انسابت بعيدا عن المكان. أحسست كما يحس امرؤ استيقظ أخيرا من نوم دام قرونا. أحسست وأنا أسير فى بطء وحذر أصعد السلم الخشبى الذى كان يقرقع أن نسمة جديدة من السيطرة على الذات تحوم فوقى. كنت قد بلغت منتصف السلم عندما تكلمت ثانية، وبحدة فى هذه المرة، يشوب نغمة صوتها شىء ما يكاد يكون نذيرًا. «لقد سمعت الخيل - أخذت على حين غرة. نثرت عطرا على ردائى. إننى كريهة الرائحة يا دارلى. عليك أن تسامحنى».

بدت أنها قد نحلت كثيرا. تقدمت خطوة إلى رأس السلم وهى تحمل الشمعدان. وضعت بعد أن حملت فى عينيّ فى قلق قبلة على وجنتى اليمنى. كانت باردة برودة النعى، جافة جفاف الجلد. شممت، عندما

فعلت هي ذاك، رائحة العطر المراق. كانت تطلق منه، حقيقة، موجات نافذة. أوحى شيء ما في سكون منحائها الذي أرغمت نفسها عليه، بعدم استقرارها داخليا. جالت بعقلي فكرة أنها ربما كانت تشرب الخمر. صدمت، أيضًا، صدمة ضئيلة وأنا أرى أنها قد وضعت بقعة متألفة من الأحمر فوق عظمتي وجنتيها، بدت حادة في مقابل وجه أبيض بياض الموتى، عليه كمية وافرة من المساحيق. إنها إن كانت لا تزال جميلة فذاك جمال سلبي هامد لمومياء طليت بطريقة خرقاء حتى تعطى وهما بالحياة، أو صورة لونت بألوان خفيفة بطريقة لا مبالية.

«يجب ألا تنظر في عيني» - قالت في حدة بعد ذلك، وبطريقة آمرة. رأيت أن جفن عينا اليسرى يتدلى قليلا، مهددا بتحويل تعبير وجهها إلى شيء أشبه بمن ينظر شزرا بمؤخرة عينه. كان الشيء الأكثر وضوحا هو ابتسامة الترحيب التي حاولت تبنيها في هذه اللحظة، «هل تفهم؟» وأومات برأسي. تساءلت إن كان المسحوق الأحمر قد صمم خصيصا لجذب الانتباه بعيدا عن ذلك الجفن المتدلى؟ «لقد أصابتنى ضربة»، قالت هامسة وكأنها تشرح الأمر لنفسها. وبدت وهي واقفة ساكنة أمامي، تحمل الشمعدان، كأنما تستمع إلى صوت آخر. أخذت يدها، ووقفنا معا هكذا لحظة طويلة، يحملق الواحد منا في الآخر.

«هل تغيرت كثيرا؟».

«أبدا».

«بالقطع تغيرت لقد تغيرنا جميعًا». كانت تتحدث الآن في صراخ يفيض بالازدراء. رَفَعَت يدي ووضعتها على وجنتها. أومات حائرة. استدارت تشدني إلى الشرفة، تسير في خطا متييسة متعالية. كانت ترتدى ثوبا من التفتاه الداكنة، يصدر هسيسًا عاليًا، عند كل حركة تتحركها.

كان ضوء الشموع يقفز، يتراقص فوق الجدران. ووقفنا أمام باب قاتم ونادت: «نسيم»، فى نغمة حادة صدمتنى. كانت النغمة التى ينادى بها المرء خادما، وظهر نسيم بعد لحظة من حجرة النوم التى تكتنفها الظلال، مطيعا كجنى.

«دارلى هنا»، قالتها بطريقة من يقوم بتسليم ربطة من الربطات، وهى تضع الشمعدان فوق منضدة واطئة واضطجعت فى سرعة فى مقعد طويل من أغصان مجدولة واضعة يدها فوق عينيها.

كان نسيم قد غير ملبسه، وارتدى بذة مفصلة بطريقة أكثر ألفة. جاء يومى برأسه ويتسم لى بذلك التعبير العاطفى القلق الذى اعتدته منه، ومع ذلك فقد كان، مرة أخرى، مختلفا بصورة ما. كان يحيط به جو من يروعه تهديد ما، يصوب نظرات جانبية وتحتية نحو شخص جوستين، تحدث فى رقة كما يتحدث المرء فى وجود شخص نائم.

هبط الارتباك علينا فجأة ونحن نجلس فى تلك الشرفة الظليلة، نشعل السجائر. وأمسك بنا الصمت إمساكة ترس لا يعمل.

«إن الطفلة فى السرير، مبتهجة بالقصر كما تدعوه، وبوعد منى أن أحضر فرسا تمتلكه، أعتقد أنها سوف تكون سعيدة».

وفجأة تنهدت جوستين فى عمق دون أن تزيع يدها من فوق عينيها. قالت فى بطاء «إنه يقول إننا لم نتغير».

ابتلع نسيم ريقه واستمر، كأن لم يسمع مقاطعتها، بنفس الصوت الخفيض، «لقد كانت تريد البقاء مستيقظة حتى تأتى، إلا أنها كانت متعبة للغاية».

ومرة أخرى قاطعت المضطجعة فى الركن الظليل، قالت: «لقد

عثرت على غطاء رأس ختان ناروز في الصوان، رأيته تحاول ارتدائه». وأطلقت ضحكة قصيرة حادة أشبه بالنباح. ورأيت نسيم يجفل فجأة ويدير وجهه بعيداً.

«لدينا نقص في الخدم»، قال في صوت منخفض، وفي سرعة، كأنما ليسد ثقب الصمت التي صنعتها ملاحظتها الأخيرة.

اتسم الجو الذي يحيط بارتياح واضح تماماً، عندما ظهر «على» ودعانا إلى العشاء. تناول الشمعدان وقادنا إلى المنزل. كان لهذا المشهد نكهة الجناز-الخدام في المقدمة بجلبابه الأبيض وحزامه القرمزي، يمسك عالياً بالشمعدان حتى ينير طريق جوستين والتي كانت تسير يحيط بها جو من الاستغراق الذهني، من النأي والبعد، كنت أتبعها، ونسيم خلفي عن كذب: هكذا سرنا في طابور مفرد عبر الطرقات غير المضاءة، خلال حجرات عالية الأسقف، وقد غطيت جدرانها بالسجاد المترب، وأرضياتها بألواح خشب خشنة تزيق تحت أقدامنا. وأخيراً وصلنا إلى حجرة منسية، يمكن القول إنها كانت في قصر عبد الحميد الشتوي، ستائر نوافذها المنقوشة مزينة بخيوط فضية وذهبية، تطل على حديقة زهور مهجورة. هنا كان ضوء الشموع بظلاله المشرية نموذجياً كإضافة لما بها من أثاث، كان في ذاته لافتاً للانتباه. كان يمكن للألوان الذهبية والحمراء والبنفسجية أن تبدو غير محتملة إن رؤيت في الضوء الكامل، إلا أنها بدت في ضوء الشموع رائعة بصورة قاهرة.

جلسنا إلى مائدة العشاء وتنبهت مرة أخرى للتعبير الذي يكاد يكون روعاً على وجه نسيم، بينما يحملق حوله. ربما لم تكن تلك هي الكلمة المناسبة. كان كأنه يتوقع انفجاراً مفاجئاً. يتوقع تعنيفاً لا يمكن التنبؤ بمحتواه ينفجر من شفيتها. كان عقلياً معداً لرده وصدده، لاتقائه بأدب

رقيق. إلا أن جوستين تجاهلتنا. كان همها الأول أن تصب كأساً من النبيذ الأحمر، ترفعه إلى الضوء كأنما تثبت من لونه، ثم تصوبه نحو كل منا بدوره مثل علم، وتحتسيه في دفعة واحدة قبل أن تضع الكأس على المنضدة. إن لمسات المسحوق الأحمر أضفت عليها نظرة مشتعلة، بالكاد تضاهيها نظرتها نصف الناعسة المخدرة. كانت أصابعها مدهونة بالذهبي المصقول، وقد وضعت كوعها فوق المائدة، وسندت ذقنها للحظة طالت وهي تتفحصنا في حدة، الواحد منا تلو الآخر. تنهدت وكأنها مفعمة بالقرف والاشمئزاز قالت: «نعم لقد تغيرنا جميعاً»، ثم استدرات كمن يوجه اتهاماً، ودفعت بإصبعها كالطعنة نحو زوجها وقالت: «لقد فقد إحدى عينيه».

وتجاهل نسيم هذا عمداً، دافعا نحوها بنوع مما على المائدة من طعام، ليشدها بعيداً عن هذا الموضوع المزعج. تنهدت ثانية وقالت: «دارلى، أنت تبدو أفضل بكثير، إلا أن راحتك مشقتين متصلبتين لقد أحسست بهما فوق وجتي».

«أعتقد من قطع الأخشاب».

«أه، هكذا! إنك تبدو بحالة جيدة. جيدة جداً».

(تحدثت بعد أسبوع إلى كليا قالت لها: «يا إلهي لقد غدا خشنا للغاية. إن القدر الضئيل من الإحساس والشعور الذي كان لديه، قد غرق في وحل الفلاح»).

وسعل نسيم، في هذا الصمت في عصبية، متحسسا العصابة السوداء فوق عينه. كان من الواضح أنه يشمئز من النغمة التي تشوب صوتها، يرتاب في ثقل الجو الذي يمكن أن يحس المرء به، يتنامى تحته في بطاء مثل تموج الأمواج، ضغط كراهية غدا أحدث العناصر التي استجدت

فى حديثها وسلوكها. هل تحولت حقا إلى امرأة سليطة؟ هل غدت مريضة؟ كان من العسير أن تنبعث من الماضى صورة تلك العشيقة السمراء الساحرة، والتى كانت كل حركة منها أو إيماءة، مهما كانت غير سديدة أو أسىء تقديرها، تطن بروعة كرم فياض متجدد لا ينضب. كانت تقول فى صوت أجش، «إذن فأنت تعود لتجدنا جميعا محبوسين فى كرم أبو جيرج، مثلنا مثل أرقام فى دفتر حسابات الديون السيئة، يا دارلى، نحن فارون من العدالة. إه، يا نسيم؟».

لم يكن هناك ما يقال ردًا على مثل تلك الهجمات المرة. تناولنا الطعام فى صمت فى ظل خدمة الخادم العربى الهادئة. خاطبنى نسيم مبديا ملاحظة عابرة عاجلة عن موضوع لا علاقة له بشىء، ملحوظة قصيرة وحيدة المقطع. وأحسنا، لتعاستنا، بالصمت ينزع من حولنا يفرغ مثل خزان هائل. قريبا سوف نترك هناك مغروسين مثل صور منحوتة على نصب تذكارى. عاد الخادم ومعه ترموسان ولقة طعام وضعها عند نهاية المنضدة. واشتعل صوت جوستين فى سخرية وهى تقول، «إذن فأنت خارج الليلة مرة أخرى؟».

وأوماً نسيم خجلا، قال: «نعم فأنا فى الوردية الثانية». وجلى زوره وهو يتحدث إلى مضيفا، «إنها فقط أربع مرات فى الأسبوع. إنها تمنحنى شيئا ما أؤديه». «شىء ما يؤديه» قالت فى سخرية واضحة، «إن فقدته عينه وإصبعه يمنحه شيئا ما يؤديه. قل الحقيقة يا عزيزى. قل الحقيقة يا عزيزى، إنك سوف تفعل أى شىء لتذهب بعيدًا عن هذا المنزل». ثم قالت وهى تستند إلى الأمام نحوى، «ليذهب بعيدًا عني يا دارلى، إننى أكاد أدفعه بمشاجراتى إلى الجنون. هذا ما يقول». كانت، وهى فى سوقيتها تلك، مثيرة للإرباك بصورة بشعة.

أحضر الخادم ملابس عمله وقد ضغطت وكويت بعناية. نهض نسيم معتذرا بكلمة وابتسامة. تركنا بمفردنا. صبت جوستين لنفسها كوبا من النبيذ. أثارت دهشتي عندما غمرت بعينها. قالت وهي ترفعه إلى شفيتها: «سوف تكتشف الحقيقة».

«كم مضى عليكم وأنتم محبوسون هنا؟ تساءلت.

«لا تحدث في هذا الأمر».

«ولكن أليس هنالك من سبيل؟».

«إنه يدبر لهرب جزئي، لست أنا جزءا منه. اشرب يا دارلى، اشرب يا دارلى».

واحتسيت النبيذ فى صمت. وظهر نسيم، مرة أخرى، بعد وقت قليل، وقد ارتدى زيه الخاص بالعمل. بدا واضحا أنه على استعداد لنوبته الليلية. ووقفنا جميعا كأننا على اتفاق بذلك. وقادنا الخادم، مرة أخرى، عودة إلى الشرفة فى موكب كئيب. كان أحد الأركان أثناء غيابنا، قد فرش بالسجاجيد والدواوين، بينما وضعت فوق المناضد شمعدانات أخرى ومواد تصدر دخانا. كان الليل ساجيا ساكنا، يكاد يكون فاترا. شعلات الشموع لا تكاد تتحرك. أصوات البحيرة الكبرى تفيض علينا آتية من الظلام الخارجى، قال نسيم فى عجلة: «وداعا». وسمعنا الوقع المتضائل لحوافر الجواد وهي تتلاشى تدريجيا بينما يأخذ الطريق إلى مخاضة النهر. أدت رأسى، نظرت إلى جوستين كانت ترفع معصمها نحوى، وعلى وجهها تقطبية منحوتة، وقد أبقتها ملتصقين معا كأنهما مقيدان بأصفاد غير مرئية. ظلت تعرض هذه الأغلال الخيالية للحظة طويلة قبل أن تسقط يديها ثانية فى حجرها. وفجأة عبرت، فى سرعة الحية، إلى الديوان حيث كنت أرقد، لتجلس عند قدمي، وهي تقول، بينما تفعل ذلك، وفى صوت مرتعش يتسم بالندم

والاستياء، «لماذا يا دارلى؟ أوه، لماذا؟» بدت وكأنها لا تستجوب القدر أو المصير فقط، ولكن أفعال الكون ذاتها، فى تلك النعمات المثيرة للاذعة. وكاد يبرق بعض من جمال قديم فى هذا الشوق ليركبنى كالصدي. إلا أن هذا العطر الذى تستخدمه! كان العطر المثور، على مثل هذا القرب، قويا متسلطا يكاد يكون مقرزا.

ومع ذلك، تلاشى فجأة ما نحسه من توتر. فى النهاية، أصبحنا قادرين على تبادل الحديث. بدا وكأن هذا الفوران العاطفى قد فجر فقاعة الفتور التى كانت تحيط بنا جميعا هذا المساء. صاحت فى صوت يكاد يكون ظفرا، «أنت ترانى واحدة مختلفة، «إلا أن الاختلاف يكمن، مرة أخرى، فيك أنت، فيما تتخيله، فيما تراه!» وخشخت كلماتها مثل زخة تراب ألقى بها فوق تابوت فارغ. «كيف بك لا تحس بالامتعاض منى؟ أن تغفر مثل تلك الخيانة بمثل هذه البساطة - لماذا - إن هذا موقف يتسم بالتخنث. ألا تكره مصاصة الدماء تلك؟ ذاك أمر غير طبيعى. إنك لم تدرك أبدا حاسة الإذلال عندي وأنا غير قادرة على أن أمتعك، أمتعك أنت يا عزيزى بكنوزى الداخلية التى جبلت عليها كعشيقه. ومع ذلك، فإننى فى الحقيقة، كنت أستمع بخداعك، يجب ألا أنكر ذلك. لكن كان هنالك أيضا شعور بالأسف، فقط لتقديم صورة زائفة لحب يرثى له. (ها! تلك الكلمة مرة أخرى) والذى قوضه الغش والخداع. إننى أعتقد أن هذا، مرة أخرى، خيانة لزهو الأنثى الذى لا قرار له، أن ترغب فى أسوأ ما فى العالمين، فى كلمتين - الحب والخداع. ومع ذلك، فإنه من الغريب الآن، وقد عرفت أنت الحقيقة، أننى غدوت حرة فى أن أقدم لك عواطفى، أن أحس فقط بمزيد من احتقار الذات. هل أنا امرأة بحق لأحس أن الإثم الحقيقى ضد الروح القدس هو عدم الوفاء فى الحب؟ ولكن أى ادعاء هذا الأشبه بالقمامة؛ فالحب بطبيعته الخاصة لا يسمح بالوفاء».

وهكذا استمرت، لا تكاد تضع وجودي في اعتبارها، تناقش حياتي بعيداً عني، تنتقل في استغراق أعلى وأسفل خيوط عنكبوت سخريتها الخاصة، تخلق صوراً تضرب، في الحال، أعناقها أمام عيني. ما الذي تأمل في إثباته؟ ثم وضعت رأسها فوق ركبتى لفترة قصيرة وقالت، «والآن وأنا حرة في أن أكره أو أحب، فإنه يبدو من الهزل أن أغضب فقط لقدرتك الجديدة على امتلاك ذاتك. لقد أفلت مني في مكان ما، ولكن ماذا على أن أتوقع غير ذلك؟».

كان ذلك حقيقياً، يتسم بالغرابة، على نحو ما. إذ إنني لدهشتي أحس الآن بالقدرة على جرحها وإيلامها لأول مرة، أو حتى إخضاعها تماماً بما أبدية من لا مبالاة. قلت «إنني رغم ذلك، لا أحس، حقيقة، بأي استياء من الماضي، بل على عكس ذلك، أحس بالامتنان، إذ إن تجربة ربما كانت عادية ومألوفة (وربما كانت مقززة بالنسبة إليك)، كانت بالنسبة لي إثراء بلا حدود!» واستدارت بعيداً. قالت في صوت أجش: «إذن، فكلانا يجب الآن أن يضحك».

جلسنا معاً نحملق في الظلام مدة طويلة. انتفضت، أشعلت سيجارة، استعادت خيط مونولوجها الداخلي، «إجراءات الفحص الطبية، لجنّة مالم ينجز من أشياء! إنني أتساءل، ماذا كان في وسعك أن ترى في كل ذلك؟ إننا رغم كل شيء، نجهل بعضنا البعض تماماً. إننا نقدم لبعضنا البعض قصصاً خيالية متقاة! إنني أعتقد أننا جميعاً نراقب بعضنا البعض بنفس القدر الهائل من الجهالة. لقد اعتدت في لحظات إحساسي بالذنب، فيما بعد بمدة طويلة، محاولة تصور أنه في مقدورنا أن نصبح، يوماً ما، عشاقاً مرة أخرى، ولكن على أسس جديدة. أية مهزلة! لقد تصورت نفسي أعوضك، أكفر عن خداعي وأدفع ديني لكنني كنت أعرف أنك تفضل دوماً صورتك الخيالية الخاصة تأطرها الحواس الخمس، تفضل ذلك

عن أى شىء أكثر صدقا. أخبرنى الآن إذن من منا كان الكذوب الأكبر؟
لقد خدعتك وخدعت أنت نفسك».

هذه الملاحظات، والتي كان يمكن، فى وقت آخر، وفى سياق آخر، أن
تسحقنى سحقا، كانت الآن، وعلى نحو جديد، غاية فى الحيوية بالنسبة لى.
«مهما كان الطريق شاقا، فالمرء مجبر فى النهاية على الوصول إلى اتفاق
مع الحقيقة»، كتب بورسواردن فى مكان ما. نعم لقد اكتشفت، على غير
توقع، أن الحقيقة تزدهر. الرذاذ البارد لموجة تقرب المرء دوما من التعرف
على ذاته. إننى أرى الآن جوستين الخاصة، كانت فى الحقيقة خلقا وهميا،
قام على درع واق باطل من الكلمات والأفعال والإيماءات التى أسىء
تأويلها. حقا، ليس هنالك من يلام هنا. كان الآثم الحقيقى هو حبى الذى
ابتكر صورة يتغذى عليها، كما لم يكن هنالك أى تساؤل عن عدم الوفاء، إذ
لونت الصورة طبقا لحاجيات الحب الذى اخترعها. العشاق، مثل الأطباء،
يلونون دواء كريبه المذاق حتى يجعلوا ابتلاعه أيسر على من يسهل خداعه.
كلا لم يكن هنالك من وسيلة أخرى. لقد أدركت هذا تماما.

هنالك شىء آخر أشبه بالاستيعاب التام. لقد رأيت أيضا أن العشاق
والمعشوقين، المراقبون والمراقبون يلقي كل منهم بنطاق حول الآخر.
«إن القدرة على الفهم تشكل مثل العناق والسهم يدخل مع العناق»، كما
كتب (بورسواردن). إنهم يستخلصون بعد ذلك خصائص حبه، يحكمون
عليه من خلال هذا النطاق الضيق بحواشيه الهائلة عن المجهول (انكسار
- الضوء)، ثم يتقدمون ليحولوه إلى وجهة نظر معممة لشىء ثابت فى
مناقبه وسجاياه، عالمى فى فعاليته وقوته. كم كان هذا الدرس ذا قيمة
لكل من الفن والحياة! لقد كنت أشهد فقط، فى كل ما كتبت، على صحة
قوة الصورة التى ابتدعتها أنا لا إراديا، بتأثير مجرد رؤية جوستين. لم يكن

هنالك تساؤل عما هو حقيقى أو باطل . حورية؟ إلهة؟ مصاصة دماء؟ نعم، لقد كانت كل ذلك معا، كما لم تكن أى شىء منها. كانت مثلها مثل كل امرأة، مثل كل شىء شاء عقل الرجل أن يتخيله (دعونا نعرف «الرجل» بأنه مثل الشاعر، يتآمر بصورة أبدية على ذاته). كانت هنالك إلى الأبد، ولم تكن هنالك أبدا. كان هنالك، فقط تحت كل هذه الأقنعة امرأة أخرى، هى كل امرأة، مثل المانيكان الموجودة فى حانوت صانع الثياب، فى انتظار الشاعر الذى يكسوها بالملابس، وينفخ فيها أنفاس الحياة. وبدأت أتعرف فى رهبة، وقد فهمت كل ذلك لأول مرة، على القوة الهائلة الانعكاسية للمرأة - الاستكانة المثمرة التى تستعيد بها، مثلها فى ذلك مثل القمر، ضوءا سبق استعماله من شمس الذكر. كيف يمكننى أن أكون أى شىء غير كونى ممتنا لمثل تلك المعلومات الحيوية؟ وماذا تهم الأكاذيب وأعمال الغش والخداع والطيش والرعونة، إن قورنت بهذه الحقيقة؟

ومع ذلك، وبينما هذه المعرفة الجديدة تجبرنى على الإعجاب بها أكثر من أى وقت مضى باعتبارها رمزا للمرأة، كما يمكن القول - فقد حرت فى تفسير ذلك العنصر الجديد الذى زحف إلى: نكهة تقزز من شخصيتها وسجايها، العطر! كثافته التى تثير الغثيان، والتى جعلتنى أكاد أكون نصف مريض. لمسة الرأس الداكن لركبتى أثارت فى مشاعرى اشمئزا غامضا وأحسست بما يكاد يكون إغراء أن أعانقها مرة أخرى حتى أستكشف هذا الشىء الجديد الذى يستبد بها والذى لا تفسير له، حتى أحس بما يمكن أن يكون أبعد من ذلك! هل يمكن أن تكون بعض نقاط المعلومات، التى هى مجرد حقائق أشبه بالرمال التى تتثال فى ساعة العقل الرملية، لتغير بصورة لا رجعة فيها، صفات الصورة - محولة إياها من شىء كان مرغوبا ذات يوم إلى شىء يثير التقزز الآن؟ نعم، إنها نفس العملية، نفس عملية الحب بذاتها، هكذا قلت لنفسى كان ذلك هو التحول المخيف الذى

جاء به الحمام - اللاذع للحقيقة - كما كان يمكن لبورسواردن أن يقول. كنا لا نزال جالسين فى تلك الشرفة بظلالها، سجناء الذكريات، لا نزال نتحدث: وظلت هذه النزعات الجديدة للأنفس، ذلك التضاد لحقائق العقل الجديد، دون تغيير.

أخيرا تناولت مصباحا وعباءة مخملية. سرنا معا، فى تلك الليلة الساكنة حتى بلغنا شجرة نبق(*) كبيرة، فروعها محملة بالندور. هنا وجد شقيق نسيم ميتا. رفعت المصباح عاليا لتير الشجرة، وهى تذكر لى أن شجرة النبق هى التى تشكل السياج الدائرى الأكبر من الأشجار التى تحيط بجنة المسلمين. «أما بالنسبة لنا روز، فإن موته يعلق ثقيلًا فوق نسيم، إذ يقول الناس إنه هو بنفسه الذى أمر بذلك، ويقول القبط كذلك أيضا. لقد غدا هذا الموت بمثابة لعنة أسرية حلت به. إن والدته مريضة، إلا أنها لن تعود أبدا إلى هذا المنزل، هكذا تقول. كما أنه لا يريد عودتها أيضا إنه يغضب بشدة عندما أتحدث عنها إنه يقول: إنه يتمنى موتها! وهكذا فإننا محبوسان هنا معا. إننى أجلس أقرأ طوال الليل، خمن ماذا أقرأ؟ حزمة كبيرة من رسائل الحب إليها. تركتها خلفها! خطابات حب ماونت أوليف! مزيد من الحيرة والإرباك، مزيد من النواحي التى لم تستكشف بعد!» رفعت المصباح ونظرت عن كذب فى عيني: «إلا أن هذه التعاسة ليست مجرد سأم ونكد! هنالك أيضا رغبة فى ابتلاع العالم. لقد كنت أجرب العقاقير أخيرا، تلك المنومة منها».

ثم عودة فى صمت إلى المنزل الكبير بما فيه من حفيف وخشخشة، بروائح المتربة. «إنه يقول إننا سنهرب ذات يوم ونذهب إلى سويسرا حيث لا يزال لديه هنالك، غلى الأقل، نقود، ولكن متى، متى؟ والآن

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

ها هي الحرب! لقد قال بورسواردن: إن إحساسى بالذنب ضامر. إن ذلك ببساطة يعنى أننى لا أملك القدرة على تقرير الأمور الآن ولا فى المستقبل. إننى أحس كأن إرادتى قد انتزعت منى، إلا أن ذلك سوف يزول ويتهى». وفجأة أمسكت فى نهم يدي، قالت: «لكن شكرا لله، فأنت هنا فقط لتحدث مما يخفف(*) عنى. إننا نقضى معاً أسابيع كاملة دون أن نتبادل كلمة واحدة».

جلسنا مرة أخرى، فى الدواوين التى تنقصها دقة الصنع، فى ضوء الشموع. أشعلت سيجارة ذات طرف فضى، أخذت تسحب أنفاسا قصيرة قاطعة، بينما انساب المونولوج يتمدد عبر الليلة، يتلوى فى الظلام مثل النهر.

«عندما انهار كل شىء فى فلسطين، اكتشفت كل مستودعاتنا وأمسك، بها، واستدار اليهود للتو إلى نسيم يتهمونه بالخيانة، لصداقته لماونت أوليف. كنا فى وضع مخزبين ممليك واليهود المعادين. وطرمنى اليهود. حدث هذا عندما رأيت كليا مرة أخرى. كنت فى حاجة ملحة للأخبار، ومع ذلك فإننى لم أستطع أن أثق بها. وجاء نسيم إلى الحدود لأخذى، وجدنى كامرأة مجنونة. كنت يائسة! واعتقد هو أن ذلك يرجع إلى فشل مخططاتنا. كان ذلك بالطبع صحيحا، كان كذلك إلا أنه كان هنالك سبب آخر أكثر عمقا عندما كنا متآمرين، مرتبطين بعملنا، وما يحقق به من مخاطر، أحسست بحق نحوه بالعاطفة، لكن أن أكون سجينه المنزل، مجبرة على أن أقضى معه بمفردى وقتا غيبا، أن أكون فى صحبته... فذلك أمر أعرف أنه سيقتلنى مللا وضجرا. إن دموعى ونحيبى إنما هو أشبه بذلك الذى لامرأة فرض عليها رغم إرادتها، أن ترتدى الخمار إلا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أنك لن تفهم ذلك، فأنت شمالي كيف يمكنك ذلك؟ كيف تقدر على حب رجل حبا كاملا، فى وضع واحد، وحالة نفسية واحدة، هكذا يمكن القول أنت ترى، أنه عندما لا يقوم نسيم بمهمة ما، فإنه لا طعم له البتة، ليس هنالك من تماس بينه وبين نفسه عند أية نقطة. ثم إنه لا يملك نفسا حقيقية حتى يتمتع امرأة، حتى يستحوذ عليها. وفى كلمة، فإنه شخص مثالى تماما، يبدو، عندما تستغرقه فكرة القضاء والقدر، رائعا حقا. لقد جذبني جاذبية ممثل مسرحي - جعلني أستثير لذاتي. ولكن كزميل سجن، فى الهزيمة، فإنه عرضة للضجر، للصداع النصفي، لأفكار مبتذلة تماما مثل الانتحار! وهذا هو السبب فى أننى أنشب، مابين والحين، مخالبى فى لحمه، فى يأس».

«وبورسواردن؟».

«آه، بورسواردن إنه مرة أخرى شيء مختلف. إننى لا أستطيع أن أفكر فيه دون أن أبتسم. هناك كان فشلى من نسق مختلف تمام الاختلاف. لقد كانت مشاعره نحوى - كيف يمكننى قول ذلك؟ - تكاد تكون فسقا فى المحارم، إن شئت القول، مثل عشق الأخ العزيز الأكبر الفاسد الذى لا يرجى صلاحه. لقد حاولت جاهدة أن أخلق ثقته إلا أنه كان ذكيا للغاية، أو ربما محبا لذاته للغاية. لقد كان يحمى نفسه من حبى، بإثارة ضحكى. ومع ذلك، فقد حققت معه إنجازا، وإن كان محدودا للغاية، لمحة من التعذيب بالأمانى الكاذبة من أنه يمكن أن تكون هنالك سبل أخرى للحياة مفتوحة أمامى، إن استطعت، فقط، أن أعثر عليها إلا أنه كان مخادعا. لقد اعتاد القول: «إن الفنان الذى تمتطيه امرأة كالسرج، يشبه كلبا إسبانيوليا» (*) فى أذنه قرادة صغيرة، إنها تسبب له أكلانًا، تسحب دمه، وهو لا يستطيع

(*) كلب صغير طويل الشعر والأذنين - المترجم.

الوصول إليها. هل تفضلين ببعض التلطف وتبلغين سن النضج، إن سمحت...؟» ربما كان محبوبا تماما لأنه كان بعيد المنال؟ من العسير قول مثل تلك الأشياء. إن كلمة واحدة هي (الحب) يمكن أن تكون نافعة لعديد من الأنواع المختلفة غاية الاختلاف، لذات الحيوان. إنه هو أيضا الذى جعلنى أتصالح مع نفسى حول مسألة الاغتصاب كلها هل تتذكر؟ كل ذلك الهراء الذى كتبه أرناؤوطى فى «عادات»(*)، كل علماء النفس هؤلاء! لقد انغرزت ملحوظته الوحيدة فى مثل الشوكة قال: «من الواضح أنك استمتعت بما حدث، كما يمكن لأى طفل أن يفعل، بل ربما أنت التى أغريته بذلك. لقد أهدرت كل هذا الوقت تصرخين محاولة الوصول إلى توافق مع تصور خيالى عن ضرر فعل بك. حاولى إسقاط هذا الإثم الذى ابتدعته. أكدى لنفسك أن الأمر كان ممتعا وبلا معنى أيضا. إن لكل اضطراب عصبى إجراء يمكن اتخاذه» كان غريبا أن لمثل هذه الكلمات القليلة، وضحكة مكتومة تهكمية أن تحقيق ما عجز الآخرون عن تحقيقه معى. لقد بدأ كل شىء ينقشع فجأة، يصبح أكثر يسرا وسهولة. يتحرك بعيدا، مثل شحنة تنتقل فى سفينة. أحسست بالوهن والمرض مما أثار حيرتى ثم وضع الأمر فى بطة، فيما بعد، خلال فسحة من الوقت. كان الأمر أشبه بإحساس من يتسلل راجعا، مرة أخرى إلى قبضة مشلولة.

صمتت لحظة قبل أن تستمر: «إننى ما زلت لا أعرف بالضبط كيف كان ينظر إلينا ربما باحتقار - باعتبارنا مختلقى بلايانا الخاصة - من العسير أن يلومه المرء لتمسكه بأسراره مثل حلزون بحرى(**) ومع ذلك فإنه نادرا ما كان يحافظ عليها، إذ كان ما يسمى بالزاجر، يكاد أن يكون لديه أقل مهابة مما لدى، شىء اقتلع ودمر كل إحساس به. وهكذا من الناحية

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) حلزون صدفى بحرى يلتصق بالصخور - المترجم.

الواقعية، كانت قوته، بطريقة ما، هي في الحقيقة ضعفا هائلا! أنت صامت هل آذيتك؟ أمل ألا أكون قد فعلت ذلك. أمل أن يكون تقديرك لذاتك من القوة بحيث تواجه هذه الحقائق عن علاقتنا القديمة. إننى أود أن أستخرجها كلها من صدري، حتى أصفى ما بيننا. هل فى وسعك أن تفهم؟ إننى أعترف بكل شيء لأزيل ما فى اللوح، حتى يغدو نظيفا. انظر، تلك المرة الأولى، بعد ذاك الظهر بذاته، عندما أتيت إليك، هل تتذكر؟ لقد اختبرتني ذات مرة، كم كانت تلك المرة ذات شأن! حدث ذلك عندما كنت مريضا تلازم الفراش وقد أصابتك ضربة شمس، هل تتذكر؟ حسنا، كنت قد طردت لتوى من حجرته بالفندق رغما عني. كنت فى حالة من الغضب الشديد كان غريبا أن كل كلمة وجهتها إليك، كانت فى عقلى موجهة إليه، إلى بورسواردن! كان هو فى عقلى من أعانقه فى سريرك وأخضعه. ومع ذلك، كان كل ما أحسسته وفعلته حينذاك إنما هو، مرة أخرى، وبعدها آخر، من أجل نسيم حقا. كان فى أعماق قلبى أشبه بكومة نفاية، نسيم حقا والخطئة. كانت أعماق حياتى قد ارتبطت بقوة بهذه المغامرة المجنونة. اضحك الآن يادارلى! دعنى أراك ضاحكا على سبيل التغيير. أنت تبدو حزينا ولكن لماذا تحزن؟ إننا فى قبضة مجال عاطفى ألقى بنا فيه الواحد حول الآخر. أنت نفسك قلت ذلك. ربما كانت علتنا الوحيدة هى أننا كنا ننشد حقيقة ما كان فى وسعنا احتمالها، إذ كنا نرتاح راضين بالقصص الخيالية التى نخلقها عن بعضنا البعض.

وضحكت فجأة ضحكة ساخرة. سارت إلى طرف الشرفة لتلقى فى الظلام بعقب سيجارتها المحترق بلا لهب. عادت لتقف أمامى بوجه حاد، كأنما تلعب لعبة ما مع أحد الأطفال. ربت راحتيها معا فى نعومة وهى تترنم بالأسماء، «بورسواردن وليزا، دارلى وميليسا، ماونت أوليف وليلى، نسيم وجوستين، ناروز وكليا.. هنا شمعة تضىء لهم فراشهم.. وهنا ساطور ليقطع رقابهم. كان لا بد للنمط الذى صنعناه أن يثير اهتمام

أحد ما، أم أنه كان مجرد عرض، لا معنى له، لصواريخ نارية ملونة. أفعال بشر أم مجموعة من الدمى يغطيها التراب، والتي يمكن أن تعلق في ركن كاتب ما؟ أعتقد أنك تسأل نفسك هذا السؤال.

«لماذا ذكرت ناروز؟».

«لقد اكتشفت بعد موته بعض الخطابات إلى كليا. كانت هنالك في الصوان إلى جوار طاقة الختان القديمة باقة زهور شمعية ضخمة وشمعة في ارتفاع رجل. إن القبط، كما تعرف، يقدمون مثل هذه الأشياء، عندما يتقدمون بطلب للزواج، إلا أنه لم يملك شجاعة إرسالها أبدا! كم ضحكت من ذلك!».

«أنت ضحكت من ذلك؟».

«نعم، ضحكت حتى سالت دموعي فوق وجنتي، إلا أنني، في الحقيقة، كنت أضحك من نفسي، منك، منا جميعا. إن المرء يقع على مثل تلك الأشياء عند كل انحناءة في الطريق، أليس كذلك؟ نفس الجثة تحت كل أريكة، ونفس الهيكل العظمي في كل صوان؟ ماذا في وسع المرء أن يفعل غير أن يضحك؟».

كان الوقت قد تأخر. أضاءت لي الطريق إلى حجرة نوم الضيوف الشاحبة، حيث وجدت سريرا معدا من أجلى. وضعت الشموع فوق صوان ثياب قديم الطراز. وللحال سقطت نائما. لا بد أن الوقت لم يكن يبعد عن الفجر كثيرا، عندما استيقظت لأجدها واقفة إلى جوار الفراش عارية وقد ضمت يديها في ثوسل مثل شحاذ عربي، أشبه بامرأه متسولة في الشوارع وجفلت، قالت: «إنني لا أطلب منك شيئا، لا شيء البتة، فقط أرقد بين ذراعيك عزاء وسلوى. إن رأسي ينفجر الليلة، والعقاقير لم تجلب لي النوم. إنني لا أود أن أترك تحت رحمة خيالاتي فقط من أجل العزاء والسلوى يا

دارلى، بعض الربّات والملاطفات، بعض التحبب، ذاك هو كل ما أرجوه منك». أفسحت لها مكانا فى فتور، وأنا لا أزال نصف نائم. أخذت تبكى وتنتفض وتتمتم طويلا قبل أن أستطيع تهدئتها، إلا أنها نامت أخيرا ورأسها الداكن إلى جانبى فوق الوسادة. رقدت مستيقظا فترة طويلة أتذوق، فى تساؤل وحيرة، ذلك التقزز الذى أخذ يجيش فى أعماقى يمحو كل مشاعر أخرى، من أين جاء ذلك؟ إنه العطر! العطر الذى لا يحتمل ولا يطاق، ورائحة جسدها. وانسابت عبر عقلى بعض أبيات من شعر بورسواردن:

«أسلمتنى إلى ملاطفات سكرى

وأفواهها مقطوعة مثل فاكهة طرية

يأخذ المرء منها قضة واحدة

يأخذ المرء منها قطعة واحدة

ملء فم من ظلام تنزف فيه دمًا»

صورة حبي التى كانت، ذات يوم، رائعة ترقد الآن فى خواء ذراعى، بلا حول ولا طول، كمريض فوق منضدة العمليات، تتنفس فى صعوبة. كان من العبث حتى أن أكرر اسمها الذى كان يحمل ذات يوم قدرًا كبيرًا من السحر المخيف إلى حد يبطئ الدم فى عروقى. لقد غدت أخيرا، مجرد امرأة ترقد هنالك، ملطخة مهلهلة، مثل طائر ميت فى مزارب وقد تغضنت يداها كالمخالب. كان الأمر وكأن بابا حديدا هائلا قد أوصد فى قلبى، وإلى الأبد.

انتظرت بالكاد حتى الفجر البطيء ليطلق سراحي. انتظرت بالكاد حتى أذهب.

* * *

(٤)

بينما أسير، مرة أخرى، فى شوارع العاصمة الصيفية، أسير فى ضوء
شمس الربيع، وبحر أزرق يناوش بلا سحب - نصف نائم، نصف يقظان -
أحسست كما أحس آدم فى أساطير القرون الوسطى: جسد هو مزيج العالم
لرجل لحمه من تراب، عظامه من أحجار، دماؤه من ماء، شعره من عشب،
بصره ضوء الشمس، أنفاسه الريح وأفكاره السحب. كنت خفيفا كأنما بعد
مرض طويل أتلف صحتى. وجدت نفسى أطوف، مرة أخرى، أطفو فوق
مياه مربوط الضحلة، بعلامات مدها وجزرها القديمة الدالة على ميولها
الفطرية ورغباتها وقد تحولت إلى شكل جديد فى تاريخ المكان، مدينة
قديمة، بكل أعمالها الوحشية، كما هى لم تمس، مستقرة فوق صحراء
وبحيرة. أسير، وأنا أتذكر أخايد الشوارع تمتد على كل جانب، تتفرع
مثل أذرع نجم البحر، تبدأ من محور قبر مؤسسها. وقع أقدام تدوى فى
الذاكرة، مشاهد وأحاديث منسية تقفز نحوى من الجدران، من مناظير
المقاهى، من الحجرات بنوافذها الموحدة وجدرانها المشققة المقشرة.
الإسكندرية أميرة وغانية. المدينة الملوكية والشرح المتطهر. إنها لن
تتغير أبدا طالما استمرت الأجناس تموج هنا كالخمر فى دن من الدنان،
طالما ظلت الشوارع والميادين تنثال، تتدفق بتلك العواطف والمكائد
المتضاربة، بالرغبات العارمة والسكون المفاجئ، حمراء خصبة بالحب

البشرى المفروش بعظام المغتربين التى ابيضت. أشجار نخيلها وماآذنها الطويلة تتراوح فى السماء، خلية نحل من منازل بيضاء تتأخم تلك الشوارع الضيقة المهجورة الطينية والتى تنهكها، طوال الليل، الموسيقى العربية وصرخات فتيات تخلصن فى أسر من أعمال أجسادهن المرهقة (والتي كانت تزعجهن) وقدمن لليل قبلاتهن العاطفية التى لم تفقدها النقود نكهتها. إن حزن وغبطة هذا التوحد الإنسانى، الذى يخلد نفسه إلى الأبد، إنما هو حلقة متصلة من التجدد والإبادة، يمكنها وحدها بقوتها المدمرة أن تعلم وتعيد الصياغة من جديد. («إن المرء يمارس الحب فقط، ليؤكد وحدته» قال بورسواردن، وأضافت جوستين فى مرة أخرى، مثل مقطع ختامى لأحد الألحان: «إن أفضل خطابات حب امرأة هى دائما تلك التى تكتبها إلى الرجل الذى تخونه»، بينما كانت تستدير برأسها المغرق فى القدم من شرفة عالية، تتسكع فوق مدينة مضادة، حيث تبدو أوراق الشجر وكأنها قد طليت بعلامات كهربية، وحيث يتشقلب الحمام كأنما يتساقط من فوق أرفف...) قرص شهد هائل من الوجوه والإيماءات.

«إننا نصبح ما نحلم به»، قال بلتازار، وهو لا يزال يفتش بين أحجار الرصف الرمادية بحثا عن مفتاح الساعة الذى هو الزمن. «إننا ننجز فى الحقيقة، فى الجوهر، صور الخيال فقط». المدينة لا تقدم إجابات على مثل تلك الطلبات. إنها تلتف بغير وعى منها حول الأنفس النائمة كما تلتف أناكندة(*) هائلة تلتهم وجبتها. ويسير عالم الإنسان المثير للشفقة وسط تلك اللغات البراقة، غافل وغير مصدق. يكرر إلى ما لانهاية حركاته اليائسة النادمة والمعبرة عن الحب. لقد قال الفيلسوف ديموناكس: «ليس هنالك من يرغب أن يكون شريرا»، وسمى «كلى»(**) فيما بعد لما كان

(*) أفعى من فصيلة البوا توجد بجنوب أمريكا - المترجم.

(**) نسبة إلى الفلاسفة الكليين - المترجم.

يعانيه من آلام، وجاء بورسواردن فى جيل آخر، ليجيب بلسان آخر، «أن تكون نصف يقظ بين قوم يسرون وهم نيام، لأمر مخيف فى البداية، إلا أن المرء يتعلم، فيما بعد كيف ينافق!».

كان فى وسعى أن أحس بجو المدينة يحيط بى، مرة أخرى، بجمالياتها الذابلة، تنشر قرون استشعارها لتمسك بكمى. أحسست بقدوم المزيد من صيف وراء صيف، وكلها تحمل عوامل يأس جديدة، وانقضاضات «لحراب الزمن» جديدة.

سوف تتعفن حياتى من جديد، فى مكاتب خانقة بمراوح كهربية فاترة الدوران، وضوء لمبات متربة بلا أغطية، معلقة فى سقوف مشققة، لشقق مجددة. وفى مقهى الأقطار، وأنا جالس أمام النعناع(*) الأخضر، أستمع إلى البقبة البرمة من النرجيلات. كان لدى الوقت لأتمعن الصمت الذى يعقب صيحات الباعة الجائلين وقرقة رقعات النرد. ما زالت تمر نفس الأطياف، ثم تعود تمر فى شارع النبی دانيال. سيارات رجال البنوك الليموزين اللامعة تحمل شحناتها المنتقاة من السيدات المطلبات إلى موائد البريدج، إلى المعبد اليهودى، إلى قارئ الطالع، إلى المقاهى الرشيقة. كان لكل ذلك، ذات يوم، قوة أصابت المرء بالجراح، والآن؟ شذرات من جوقة موسيقية رباعية تنطلق من مقهى ذى تندات قرمزية تذكرنى بكلية تقول ذات مرة: «لقد ابتدعت الموسيقى لتؤكد عزلة الإنسان». لكننى إن كنت أسير هنا وأنا يقظ، بل حتى برقة معينة، فما ذاك إلا لأن المدينة كانت بالنسبة لى شيئاً قطفت أنا زهوره، تعلمت على يديه كيف أعزو معنى معيناً للحظ والطالع. تلك الحوائط الباهتة المرقعة المرممة، وغطاء الجير وقد تشقق فى مليون رقعة بلون المحار الذى يشبه جلود المجذومين الذين يعوون

(*) بالفرنسية فى الأصل.

هنا عند طرف الحى العربى، إنه فى بساطة جلد المكان ذاته، وقد تقشر
وتحمص تحت الشمس.

حتى الحرب، وصلت والمدينة إلى اتفاق. لقد أنعشت حقا تجارتها مع
زمرات جنود بلا هدف، يسرون بهذا الجو المتجهم لياس رابط الجأش،
والذى يمارس به الأنجلو ساكسون مسراتهم، وكل نسائهم اللائى زالت
عنهن كل جاذبية، فى زى يضىف عليهن جو الكواسر، كأنما فى وسعهن
أن يشربن دم الضحايا البريئة وهى لا تزال دافئة. كانت المواخير قد فاضت
وأطبقت ظافرة على حى من المدينة بكامله، يحيط بالميدان القديم. إن
كانت الحرب قد جاءت بأى شىء فهو جو كرنفال نشوان مترنح أكثر من أى
شىء آخر، حتى ضرب الميناء بالقنابل ليلا يمحوه النهار، ينفذ عن الأكتاف
كالكوابيس، لا يذكر بأكثر من شىء مرهق يثير الضيق، أما بالنسبة لما بقى،
فلا شىء قد تغير تغيرا جوهريا. لا يزال السماسرة على درج نادى محمد على
يرتشفون الصحف والمركبات التى تجرها الخيول العجوزة لا تزال تقوم
بجولاتها القصيرة الكسولة. الكورنيس الأبيض لا يزال مزدحما بالناس الذين
يسعون يحظون بضوء شمس الربيع الواهنة. الشرفات تزدحم بالملابس
التيلية المبتلة والفتيات يقرقرن ضحكا. السكندريون ما زالوا يتحركون
داخل تصاوير حياتهم التى يتخيلونها بلون الأصواف الأرجوانية (الحياة
أكثر تعقيدا مما نعتقد، ومع ذلك هى أكثر بساطة مما يتجاسر أى امرئ
على تصورها). أصوات الفتيات تنطلق أنغاما من الحى العربى ومن المعبد
اليهودى، فى دندنة رنانة تقطعها خشخشة الصلاصل (*) بصورة منتظمة
وفوق أرضية البورصة كانوا كحيوان هائل واحد يعانى الألم، والذين
يبدلون النقود يرتبون عملاتهم مثل الحلوى فوق طاولات كبيرة ذات

(*) آلة موسيقية قديمة تصدر خشخشة كان يستخدمها قدماء المصريين فى عبادتهم
لإيزيس - المترجم.

خانات مربعة، والباشوات بطرايشهم القرمزية الأشبه بأصص الزهور فى سيارات فارهة مثل أكلة اللحوم. وقزم يلعب على الماندولين، وخصى ضخم مصاب بجمرة حميدة فى حجم البروش يأكل الحلوى، ورجل بلا ساقين يرتكز على تروللى، يقطر بولاً. ووسط كل تلك العجالة المثيرة للعقل فكرت فجأة، فى كليا فى أهداب عينيها الكثيفة والتي تحول كل نظرة من عينيها الرائعتين إلى شظايا، وتساءلت فى حيرة متى تظهر، إلا أن خطأ قدمى الشاردتين قادتني فى تلك الأثناء، مرة أخرى، إلى المدخل الضيق لشارع ليبسيوس، إلى الحجرة التى نخرها السوس، ومقعد الخيزران الذى يزيق، حيث ألقى شاعر المدينة العجوز، ذات مرة، قصيدة «البداية». وأحسست بالدرج يزيق ثانية تحت نعل حذائي. كان على الباب إشعار بالعربية يقول، «الهدوء» وكان المزلاج مفتوحا.

بدا صوت بلتازار، وهو يسمح لى بالدخول نائيا رقيقا، بصورة غريبة. كان شيش النوافذ مغلقا والحجرة مكفنة فى نصف إظلام. كان يرقد فى الفراش. صدمتنى تماما رؤية شعره وقد ابيض تماما حتى بدا أشبه بنسخة أثرية من ذاته. مضت لحظة أو لحظتان لأدرك أنه ليس مصبوغا. ولكن كيف تغير إلى هذا الحد! إن المرء لا يستطيع أن يصرخ فى وجه صاحبه قائلا: «يا إلهى كم تقدمت بك السنون!» ومع ذلك فإن ذلك بالفعل يكاد يكون ما فعلته بصورة لا إرادية تماما.

«دارلى!»، قال فى وهن، ماذا يدين منتفختين بالأربطة الملفوفة عليهما إلى حجم قفاز الملاكمة، مرحبا «ماذا بالله فعلت بنفسك؟».

سحب تنهيدة كمد طويلة وأوما نحو المقعد. كانت الحجرة فى فوضى عارمة. جبل من الكتب والأوراق على الأرض إلى جوار النافذة، مbole لم يفرغها أحد. طاولة شطرنج وقد رقدت كل قطعها متداخلة، إحدى

الصحف، لفة جبن فى طبق وتفاحة، حوض الغسيل ملئء بأطباق قدرة، وإلى جواره زوجان من الأسنان الصناعية البراقة فى كوب معتم، وعينه المحمومة تطل عليهما، من حين لآخر، فى ارتباك واضطراب: «أنت لم تسمع بأى شىء؟ إن هذا ليثير دهشتى، فالأخبار السيئة، أخبار الفضائح تنطلق سريعاً، بعيداً، إلى حد أننى اعتقدت أنك لا بد قد سمعت بها. إنها قصة طويلة. هل أخبرك بها لأستثير فيك نظرة المواساة اللبقة التى ينظر بها ماونت أوليف، وهو يجلس يلعب الشطرنج معى بعد ظهر كل يوم؟».

«ولكن ماذا حدث ليديك؟».

«سوف أعرض لذلك فى حينه. كانت فكرة بسيطة استخرجتها من مخطوطك، لكن المجرم الحقيقى، كما أعتقد هما هاتان، هاتان الستان فى الكوب ألا يبرقان بطريقة سحرية؟ إننى متأكد أن الستين هما اللتان أظهرتا الأمر لى عندما وجدت أننى أكاد أفقد سنتى، بدأت أتصرف فجأة مثل امرأة بلغت نقطة تغير فى حياتها. كيف يمكننى أن أشرح لك، بصورة أخرى، سقوطى فى الحب وكأنى عدت شاباً؟» ألقى بالسؤال كاويا حارقاً وهو يضحك ضحكة من أصابه الدوار.

«أولا، القابال، والذي تم الآن تسريحه. لقد سلك الطريق الذى تسلكه كل الكلمات. ظهر معلمو أسرار الدين، وعلماء اللاهوت وكل التعصب الذى يلاذبه والذي يتكدس حول طائفة تتخذ من الجمود تعويذة إلا أن الأمر بالنسبة لى، كان له معنى خاص، معنى خاطئ غير واع، إلا أنه رغم كل شىء كان معنى واضحاً. فكرت أننى فى بلاء، وعلى مراحل، يجب أن أتحرر من قيد شهوات الجسد. يجب أخيراً أن أفعل ذلك. وأحسست أننى عثرت على الهدوء الفلسفى الذى يمكن أن يمحو الطبيعة العاطفية، ويظهر أفعالى. فكرت بالطبع، إننى لا أملك مثل ذلك الحكم المسبق فى ذلك الوقت، حتى إن بحثى عن الحقيقة كان بحثاً خالصاً تماماً إلا أننى

كنت أستخدم القابال، دون وعى منى، للوصول إلى هذه النهاية المحدودة الصحيحة بدلا من جعل القابال يستخدمنى وكان ذلك أول حساباتى الخاطئة! أعطنى قليلا من الماء من الإبريق هناك. «وشرب كالظامئ عبر لثته الوردية الجديدة»، ثم وقع ذلك الأمر السخيف. وجدت أننى لا بد أفقد ستى وقد سبب لى هذا أكثر ما عانيت من اضطراب مخيف. بدا الأمر وكأنه حكم بالموت، بمثابة تأكيد للشيخوخة، يبلوغ مرحلة تغدو فيها الحياة ذاتها أبعد منالا. لقد كنت على الدوام شديد الحساسية لما له علاقة بالأفواه، أكره دوما الأنفاس التتنة، والألسنة التى يكسوها غطاء، إلا أن الأسنان الصناعية كانت أشد ما أكره، وحينئذ، ودون وعى منى، لا بد أننى دفعت بنفسى بصورة ما، نحو هذا الشيء المضحك السخيف، وكأنه المحاولة اليائسة الأخيرة قبل أن تستقر الشيخوخة فوقى. لا تضحك. لقد وقعت فى الحب وبطريقة لم تحدث لى من قبل، على الأقل، منذ كنت فى الثامنة عشرة «القبلات حادة كشوك القنفذ»، يقول المثل، أو كما كان يمكن أن يقول بورسواردن، «مرة أخرى فإن الغدد التناسلية الماكرة، عبر طوافها جلسة تبحث عن فريسة، تنصب شباكها لصيد البذور، ذلك الرعب البيولوجى التليد»، ولكن يا عزيزى دارلى لم يكن الأمر مزاحا كنت لا أزال أحتفظ بأسنانى.

«إلا أن من وقع عليه اختيارى كان ممثلا يونانيا، كان أشد ما يقع عليه المرء من نوائب أن يكون أشبه بإله، أن تكون وسامته كوابل من رماح فضية، ومع ذلك يكون فى بساطة وضيع النفس، قدرا، فاسدا، فارغ الشخصية، ذلك بناجيوتيس! الذى أعرفه. بدا لى أنه ليس هنالك من فارق أيا كان. رأيت فيه شخصية سيلبوشيا التى كتب عنها كافافى قصيدته (Φ) ولعنت نفسى وأنا أنظر فى المرأة، إلا أننى كنت عاجزا عن أى تصرف غير ذلك. وللحقيقة، كان من الممكن أن أعبر كل ذلك كما مر الكثير، لو

لم يدفعني إلى غيرة عنيفة لا تحتمل، وانفجارات مفزعة من الاتهامات المضادة. إنني أتذكر أن بورسواردن اعتاد القول: «آه منكم أيها اليهود، إنكم تمتلكون موهبة المعاناة». واعتدت أن أجيب عليه باقتباس عن السلتيين الدمويين: لقد هزوا كل الدول، ولم يؤسسوا أية دولة. إنهم لم ينشئوا دولة كبرى في أي مكان، أو يطوروا ثقافة متميزة لهم. كلا، لم يكن ذلك مجرد تعبير عن حمى الأقلية، كان هذا نوعا من العاطفة القاتلة التي قرأ المرء عنها، والتي اشتهرت بها مدينتنا. وغدوت خلال شهور مدمنا بلا أمل. كنت أتسكع دوما في المواخير. حصلت له على عقاقير بناء على روشتات طبية كي يبيعها، أي شيء إلا أن يتركني. غدوت ضعيفا كامرأة. فضيحة بشعة، أو بالأحرى سلسلة من الفضائح، جعلت ممارستي لعملية تتضاءل حتى تلاشت الآن. إن أماريل يقوم الآن بالحفاظ على العيادة من باب الشفقة حتى أستطيع أن أنهض من فوق الأرض مستعيدا صحتي. لقد سحبت عبر أرضية النادي، وأنا ممسك بمعطفه، أتوسل إليه ألا يتركني! لقد أوقعت أرضا في شارع فؤاد، وضربت بخيزرانة ضربا شديدا خارج القنصلية الفرنسية، ووجدت نفسي محاطا بأصدقاء قلقين طويلي الوجوه، فعلوا كل ما في وسعهم لتفادي وقوع كارثة، دون جدوى. غدا التعامل معي أمرا عسيرا! جرى كل هذا - كل هذه الحياة الضارية - وأنا حقيقة أستمتع بالخط من قدرى بطريقة غريبة. كنت أجلد بالسوط وأزدري، وانحط بي الحال إلى حطام! بدا وكأنني أبغى ابتلاع العالم، أنزح مرارة الحب حتى يلتئم. لقد دفعت إلى أقصى ما في نفسي، ومع ذلك كنت أنا نفسي الذي يقوم بعملية الدفع تلك، أم هل كانت ستاي هما اللتان تفعلان ذلك؟» وألقى بنظرة غاضبة متجهمة في اتجاههما وتنهد، وهو يحرك رأسه كأنما يعاني كربا داخليا لذكرى تلك الفعال الشريرة.

«ثم بلغ الأمر بالطبع نهايته، شأنه شأن كل شيء حتى الحياة المفترضة

ذاتها! لم يكن هنالك من فضيلة فيما أعانيه، فيما أقدمت عليه من صمت
أخرس مثل حيوان من حيوانات الحمل، ابتلى بمرارات لا تطاق، لا يمكنه
الإفصاح عنها بلسانه. كان ذلك في الوقت الذي تذكرت فيه ملحوظة
قرأتها في مخطوطك عن قبح يدى. لماذا لا أبتريهما وألقى بهما في الماء
كما أوصيت أنت بذلك في كثير من الاهتمام؟ كان هذا هو السؤال الذي
ثار في عقلى. كنت في ذلك الوقت فاقد الحس بما أتناوله من عقاقير
وشراب حتى لم أتخيل أننى سوف أحس بأى شىء وقمت، على أى
حال، بالمحاولة، إلا أنها كانت أشق مما تتصور، كل ذلك الغضروف!
كنت مثل هؤلاء الأغبياء الذين يقطعون حلوقهم ثم يتوقفون عبر البلعوم.
إنهم يظلون أحياء على الدوام إلا أننى أتغاضى عن الألم وأفكر فى كاتب
آخر، بترونيوس (الجزء الذى يلعبه الأدب فى حياتنا!) رقدت فى حمام
ساخن، إلا أن الدم لم يسل، أو ربما لم يكن لدى المزيد منه. كان لون
النقاط القليلة الغليظة التى أغريتها بالنزول فى قطرات، فى لون القار. كنت
على وشك محاولة وسائل أخرى لتسكين الألم عندما ظهر أماريل، فى
أشد حالته سوءا وبذاءة، وأعادنى إلى صوابى بمنحى هدوءا عميقا مدة
عشرين ساعة قام خلالها بهندمة جثتى وكذا حجرتى ومرضت للغاية من
الخجل كما أعتقد، كان أساسا من الخجل، رغم أننى بالطبع ضعفت كثيرا
بسبب الأعمال المفرطة السخيفة التى كنت أدفع نحوها واستسلمت لبيير
بالبز الذى خلع ستى وزودنى بهذه المجموعة من القواطع البراقة، إنه فن
جديد (*)! وحاول أماريل بطريقته الخرقاء أن يحللنى، لكن ماذا يقول
المرء فى علم تقريبي للغاية، أفاض فى غير اكتراث فى علم الأجناس
البشرية من ناحية وعلم اللاهوت من ناحية أخرى؟ إن هنالك الكثير مما

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لا يعرفونه حتى الآن: مثال ذلك أن المرء يركع فى الكنيسة لأن المرء يركع عندما يلج المرأة، أو أن الختان مشتق من جز شجرة العنب، والذي بدونه تتحول الشجرة إلى أوراق ولا تنتج ثمرا! إننى لا أملك نمطا فلسفيا أستند إليه كما يفعل داكاو. هل تذكر الشرح الذى قدمه كابوديستريا عن طبيعة الكون؟ «العالم ظاهرة بيولوجية لن تصل إلى نهاية إلا عندما ينال كل رجل بمفرده كل النساء، وكل امرأة بمفردها كل الرجال. إن هذه العملية، كما هو واضح تستغرق بعض الوقت، وفى تلك الأثناء ليس هنالك من فعل غير معاونة قوى الطبيعة، بأن نطأ الأعناب بقوة قدر ما نستطيع أما عما بعد الحياة فمم يتكون غير الامتلاء حتى البشم؟ ولعبة الأطباق فى الجنة، سوف تطير الهوانم(*) اللطيفات عبر شاشات الذاكرة، إنهن لم يعدن مرغوبات، ولم يعدن راغبات فى أن يكن مرغوبات. كلا الطرفين قد خمد فى النهاية إلا أن ذلك لن يحدث بوضوح دفعة واحدة. الصبر! أولاً! حقاً، لقد فكرت كثيراً فى عناية وبطء، وأنا راقدهنا، أسمع إلى تزييق الكرسي الخيزراني والضوضاء القادمة من الشارع. لقد كان أصدقائى طيبين معى للغاية. إنهم كثيراً ما يأتون لزيارتى ومعهم الهدايا والأحاديث التى تصيبني بالصداع. وكذا بدأت أصبح تدريجياً، أعود إلى السطح مرة أخرى، فى بطء لا نهائى. قلت لنفسى: «الحياة هى السيد لقد عشنا ضد ما فىنا من فطنة وذكاء. إن المعلم الحقيقى هو الجلد والاحتمال لقد تعلمت شيئاً، ولكن أى ثمن دفعت؟».

«لو كنت فقط أملك شجاعة التصدى لحبى فى عزم صادق لخدمت أفكار» القابال» على نحو أفضل. أنت تعتقد أن ذاك أمر متناقض؟ ربما إننى بدلاً من ذلك تركت حبى يسمم فطنتى، وعقلي يتحفظ على حبى. إننى رغم استردادى لمكانى واستعدادى لدخول العالم مرة أخرى، فإن

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

كل شيء في الطبيعة يبدو وكأنه قد اختفى! إننى لا أزال أستيقظ صارخا: «لقد ذهب إلى الأبد. إن المحبين الصادقين يعيشون من أجل الحب». وشهق شهقة ناعقة وزحف خارجا من بين الملاءات، ينظر في سخرية إلى مجموعته الخشبية الطويلة بحثا عن منديل في صوان الملابس. قال للمرأة: «ربما كانت أشد الأوهام رقة وفجيعة هي الإيمان بأن أفعالنا يمكن أن تضيف أو تنقص من القدر الكلى للخير والشر في العالم». ثم هز رأسه في اكتئاب وعاد إلى الفراش ليضع الوسائد خلف ظهره ويضيف قائلا: «يتحدث الأب بول البدين البهيمى عن الرضا والقبول! إن الرضا والقبول بالعالم لا يتأتى إلا من خلال معرفة كاملة بامتدادات الخير والشر غير المحدودة، أن تعيشها بالفعل، أن تستكشفها إلى أقصى مداها غير الممنوع، في حدود الفهم البشرى المحدود. هذا هو كل الضرورى لقبولها والرضا بها. ولكن أى مهمة تلك! إن المرء يرقد هنا والزمن يمر، وهو يتسائل عنه. إن كل أنواع الزمن تتساقط في ذرات، في قطرات عبر ساعة رملية (الزمن الأزلى). زمن الشاعر الفيلسوف، المرأة الحبلى، التقويم، حتى الزمن، مال ونقود، يأتى فى الصورة أيضا. إنك لو اعتقدت أن المال، بالنسبة لمن يؤمن بفرويد، إنما هو غائط وبراز، فإن فهمك للزمن لا بد أن يكون كذلك! دارلى لقد جئت فى الوقت المناسب. سوف أستردها غدا مكانتى بواسطة أصدقائى. إنها فكرة تمس شغاف القلب. كانت كليا أول من قال بها. لقد كان الخجل من الظهور أمام الناس، مرة أخرى، بعد كل تلك الأعمال الشريرة، يرزح فوقى ثقيلًا. إنك فقط، فى مثل تلك اللحظات، يمكنك معرفة من هم أصدقاؤك. غدا ستأتى مجموعة صغيرة لتجدنى مرتديا ثيابى، ويداي مربوطتان بصورة أقل وضوحا، وستأتى الجديدتان فى موضعهما. سوف أضع بالطبع نظارة داكنة. ماونت أوليف، أماريل، بومبال وكليا، كل اثنين منهما فى جانب سوف نسير

بطول شارع فؤاد، ثم نتناول القهوة علناً فوق الرصيف أمام باسترودى. لقد حجز ماونت أوليف أكبر منضدة غذاء فى محمد على واقترح أن يقدم لى غذاء يكفى عشرين شخصاً احتفالاً ببعثى من الموت. إنها لمحة رائعة من التضامن، سوف تلجم بالتأكيد الألسنة الحقودة والهازئة. وقد دعانى آل سرفونى إلى العشاء فى المساء. إننى بمثل هذا العون الميمون قد أستطيع فى المدى الطويل تدارك ثقتى فى نفسى التى أصابها الضرر، كذا ثقة مرضاى القدامى. أليس هذا عملاً لطيفاً منهم وفى إطار تقاليد المدينة؟ ربما أعيش لأبتسم مرة أخرى، إن لم أعش لأحب، وابتسامة ثابتة براقه لا يمكن أن تصدر إلا عن بيير فقط وهو يحملق نحوى فى ود ومحبة، الصانع الماهر لما صنعه يداه». ورفع قفازيه الأبيضين مثل بطل يدخل الحلبة ويحيى، فى عبوس، جمهوراً خيالياً ثم ارتمنى متراخياً فوق الوسائد ثانية، وحملق فى أسى تشوبه الشفقة.

«أين ذهبت كليا؟»، تساءلت.

«لم تذهب إلى أى مكان. لقد كانت هنا، بعد ظهر الأمس، تسأل عنك».

«لقد قال نسيم إنها ذهبت إلى مكان ما».

«ربما ذهبت إلى القاهرة فيما بعد الظهر. أين كنت أنت؟».

«ذهبت إلى الكرم حيث قضيت الليلة».

وخيم صمت طويل كان ينظر الواحد منا للآخر فى أثنائه، كان من الواضح أن هنالك أسئلة تدور بخلدته، ولا يرغب، فى لياقة، أن يضعنى فى محنة بطرحها، وشعرت من ناحيتى أن هنالك القليل الذى فى وسعى شرحه. تناولت تفاحة وقضمتها.

«وماذا عن الكتابة؟» قال بعد صمت طويل.

«لقد توقفت. يبدو أنني غير قادر على مواصلة أكثر من ذلك في وقتنا هذا. إنني بصورة ما، لا أستطيع أن ألائم بين الحقيقة والأوهام الضرورية للفن دون أن تظهر تلك الفجوة - أنت تعرف ذلك مثلها مثل شق لا يرتق. كنت أفكر فيها وأنا في الكرم تواجهني جوستين مرة أخرى، أفكر كيف أنه رغم الأكاذيب الواقعية التي جاءت في المخطوط الذي أرسلت لك صورة منه، فإنه كان، على نحو ما، حقيقيا بصورة شاعرية. كان معبرا عن الحالة النفسية الجغرافية إن شئت وإلا فإن الفنان الذي يعجز عن لحم عناصره معا، يكون مقصرا في مكان ما. إنني أسير وراء الأثر الخاطيء».

«إنني لا أتبين لماذا يحدث ذلك. إن هذا الاكتشاف بالذات يجب، في الحقيقة، أن يحفزك لا أن يشبطك. أقصد ما يختص بتقلب الحقيقة وعدم ثباتها، إذ من الممكن أن يكون لكل حقيقة ألف دافع وباعث، وكلها صحيحة بنفس القدر، ولكل حقيقة ألف وجه. وهكذا فإن حقائق كثيرة لها علاقة محدودة بالواقع، وعليك أنت اقتناصها. إن كل أشكال التعددية تنتظر على مقربة من مرفقك، في كل لحظة زمنية لماذا، يادارلى، تروعك هذه المسألة، وتُحنى كتابتك مثل امرأة حبلى؟».

«على العكس، لقد أصابتنى في الوقت الراهن، على أى حال، بصدع داخلي، والآن، وقد عدت إلى هنا، إلى الإسكندرية الحقيقية التي استخرجت منها الكثير جدا من لوحاتي، لا أحس بالحاجة إلى مزيد من الكتابة، أو الكتابة التي لا تفي، بأي حال، بالمعايير التي أراها تكمن وراء الفن. أنت تتذكر ماكتبه بورسواردن «يجب أن تكون الرواية عملا من أعمال الحدس الصادر من الأحشاء، وليست سجلا دقيقا للعبة الكرة الخفيفة في مرج الأبرشية».

«نعم».

«يجب أن تكون حقا هكذا. إلا أنني مواجه الآن، مرة أخرى، بنماذجي التي أخجل من أنى لزقتها دون اتفاق. إننى لو بدأت ثانية، فسوف يكون ذلك من زاوية أخرى، إلا أن هنالك الكثير الذى لا أزال أجهله، والذى أظن أنى لن أعرفه أبدا، عنكم جميعا كابوديستريا مثلا، أين موضعه؟».

«يبدو أنك عرفت أنه كان حيا».

«لقد أخبرنى منمجيان بذلك».

«نعم إنه لغز ليس بهذا القدر من التعقيد. لقد كان يعمل لحساب نسيم وعرض نفسه للظنون بارتكابه زلة خطيرة. كان من الضروري إبعاده. حدث ذلك لحسن الحظ فى وقت كان هو فيه مفلسا تماما من الناحية المالية. كانت نقود التأمين أشد الأشياء ضرورة، ودبر نسيم الأمر، ووفرت أنا الجثة. أنت تعرف أننا نحصل على عدد كبير من الجثث من هذا النوع أو ذاك، متسولون. هنالك من يهبون أجسادهم أو من يبيعونها، فى الواقع، مقدما بقدر محدد من المال. إن مدارس الطب تحتاجها. ولم يكن عسيرا أن نحصل على واحدة خاصة بنا وأن تكون طازجة نسبيا. لقد حاولت أن ألمح لك بالحقيقة ذات مرة إلا أنك لم تلتقط ما كنت أقصده. لقد جرت الأمور على أى حال فى سهولة ويسر. ويعيش داكابو الآن فى طابية ساحلية تم قلبها وتحويلها، مقسما وقته ما بين دراسة السحر الأسود والعمل فى خطط تابعة لنسيم، لا أدرى عنها شيئا. إننى، فى الحقيقة، نادرا ما أرى نسيم، أما جوستين فلا أراها البتة. ورغم أنه يسمح للضيوف برؤيتهما بأمر خاص من الشرطة، إلا أنهما لم يدعوا أحدا البتة إلى الكرم. إن جوستين تتصل بمن تشاء هاتفيا من وقت لآخر، من أجل المسامرة، هذا كل ما فى الأمر. لقد منحت امتيازاً يا دارلى. لا بد أنهما حصلا على تصريح.

إلا أنني سعيد بأن أراك مبتهجا لم تقطع الرجاء والأمل لقد أحرزت تقدما
فى مكان ما، أليس كذلك؟».

«لا أعرف إلا أنني أقل قلقًا».

«إلا أنك سوف تكون سعيدا هذه المرة. إننى أحس بذلك. لقد تغير
الكثير، لكن الكثير أيضا لا يزال على حاله. لقد أخبرنى ماونت أوليف
أنه قد رشحك لوظيفة رقابية، وأنه يحتمل إقامتك مع بومبال، حتى تأخذ
فرصة للنظر فيما حولك قليلا».

«هناك لغز آخر. إننى بالكاد أعرف ماونت أوليف. لماذا نصب نفسه
فجأة ولى نعمتى؟».

«لا أعرف ربما كان ذلك بسبب ليزا».

«شقيقة بورسواردن؟».

«إنهما معا فى المفوضية الصيفية لبضعة أسابيع. إننى أتوقع أن تسمع
منه أو منهما معًا».

كانت هنالك خبطة على الباب، ودخل خادم ليرتب الشقة. رفع بلتازار
نفسه ليعطى أوامره، ووقفت لأنصرف فقال: «هنالك مشكلة واحدة تشغل
بالى، هل أترك شعرى كما هو؟ إننى أبدو وكأن عمري مائتان وسبعون
عاما، إلا أنني أعتقد عامة أنه من الأفضل تركه كما هو رمزا لعودتى من
الموت بباطل عاقبتنى به التجربة. أه؟ نعم، سوف أتركه كما هو. إننى أعتقد
يقينا أنني سوف أتركه كما هو».

«اقترح على ذلك باستخدام العملة».

«ربما أفعل ذلك. يجب أن أنهض هذا المساء مدة ساعتين وأتدرب
على المشى. إن المرء ليحس بالضعف، على نحو غريب، لمجرد افتقاده

التدريب. إن المرء يفقد، بعد رقاد أسبوعين، قوة رجليه. يجب ألا أسقط غدا، وإلا اعتقد الناس أنني ثمل مرة أخرى. إن ذلك لن يكون مناسباً أبداً. أما بالنسبة إليك، فعليك أن تجد كليا».

«سوف أذهب إلى الاستوديو وأرى إن كانت تعمل هناك».

«إننى سعيد بعودتك».

«وأنا أيضاً كذلك، وإن كان على نحو غريب».

وفى الحياة المتألقة المتقلبة فى الطريق العام، كان من الصعب ألا أحس إحساس مقيم قديم بالمدينة، يعود من الجانب الآخر، من القبر لزيارتها. أين يمكننى العثور عليها؟

* * *

(٥)

لم تكن فى مسكنها، رغم أن صندوق بريدها كان فارغا، مما يوحى بأنها قد جمعت، لتوها، مافيه من رسائل، وذهبت لقراءتها بينما تحتسى فنجان قهوة بالقشدة، كما هى عادتها فى الماضى. لم يكن هنالك، من أحد فى الاستوديو أيضا. كان ملائما لمزاجى أن أحاول تتبعها حتى العثور عليها فى أحد المقاهى المألوفة لنا. أخذت أسير، قياما بالواجب، فى شارع فؤاد نحو «بودروت» المقهى الذى يعمل فيه زولتان «والكوكين»، إلا أنه لم يكن لها من أثر هناك. تذكرنى فى «الكوكين» نادل عجوز كان قد رآها تسير فى شارع فؤاد مبكرا هذا الصباح تحمل محفظة أوراق. تابعت طوافى أتفرس فى واجهات المحلات، أتفحص الدكاكين الصغيرة التى تباع الكتب المستعملة، حتى بلغت الـ «سلكت» عند واجهة البحر، إلا أنها لم تكن هناك. استدرت أعود إلى الشقة حيث وجدت ورقة منها تقول فيها: إنها سوف تمر على هناك. أثار ذلك ضيقى، فقد كان يعنى ضرورة قضائى الجزء الأكبر من اليوم بمفردى، ومع ذلك فقد كان مفيدا لى، إذ مكنتى من زيارة محل منميجيان، الذى جددت زخرفته، والاستمتاع بحلاقة شعر رأسى وذقنى، فيما بعد الزمن الفرعونى («حمام النظرون»، كما اعتاد بورسواردن أن يدعو)، كما منحنى ذلك وقتا لأقضى حاجياتى.

إلا أننا التقينا مصادفة، دون تخطيط. ذهبت أشتري بعض الأدوات

الكتابية، واتخذت طريقاً مختصراً عبر ميدان «باب الفدان»، عندما ترنح قلبي نشوان، إذ كانت تجلس، حيث كانت تجلس ميليسا (في ذلك اليوم الأول). تحملق في فنجان القهوة في تأمل فكه ساخر، ويداها تسند ذقنها. نفس الموقع بالضبط، مكاناً وزماناً، حيث وجدت ميليسا ذات يوم. أخيراً، استجمعت، في صعوبة شديدة، ما يكفي من الشجاعة لدخول المكان والحديث إليها. منحني ذلك شعوراً غريباً بافتقار الحقيقة وأنا أكرر هذا الفعل المنسي، بعد كل ذلك الذي انقطع، أشبه بفتح مغاليق باب ظل مغلقاً متربساً لجيل كامل، ومع ذلك كانت هي في الحقيقة كلياً وليست ميليسا. كان رأسها الأشقر محنياً في تركيز طفولي فوق فنجان القهوة. كانت تقوم برج الشمال مرات ثلاث، وتفرغها في الطبق لتفحصها عندما تجف في خطوط يمكن لقارئ الطالع أن يقرأها، إنها حركة مألوفة.

«إذن فأنت لم تتغيري. ما زلت تقرئين الطالع».

«دارلى». وقفزت صارخة في سعادة، وتعانقنا في حرارة. كانت هزة داخلية غريبة، تكاد تكون أشبه بمعرفة جديدة، عندما أحسست بفمها الضاحك الدافئ فوق فمي وذراعيها فوق كتفي كأن نافذة تحطمت في مكان ما، مما سمح للهواء النقي أن يتدفق في حجرة طال غلقها. ووقفنا هكذا متعانقين، نبسم زمناً طويلاً.

«لقد أخفتني! كنت أوشك على الذهاب إلى المسكن لأجدك».

«لقد جعلتني أطارذ ذيلي طوال اليوم».

«كان لديّ عمل لأنجزه. إلا أنك تغيرت كثيراً يا دارلى! لم تعد تخضع أو تخنع. ونظارتك...».

«لقد تحطمت مصادفة منذ زمن طويل، ثم اكتشفت أنني في الحقيقة في غير حاجة لها».

«إننى سعيدة من أجلك. برافو! أخبرنى، هل لاحظت تجعيداتى؟
أخشى أن البعض منها قد بدأ فى الظهور. قل لى هل تغيرت كثيراً؟».

إنها، بقدر ما أتذكر، أكثر جمالا مما كانت، أكثر نحافة، تمتلك إيماءات
وتعبيرات جديدة، توحى بنضج جديد يثير القلق.

«لك ضحكة جديدة».

«حقاً؟».

«نعم إنها أكثر عمقا وموسيقية. يجب علىّ ألا أتملقك. ضحكة
عندليب، إن كان العندليب يضحك».

«لا تجعلنى أراقب نفسى، إذ إننى أود أن أضحك معك كثيراً. إنك
ستحول ضحكى إلى نقيق».

«كلها، لماذا لم تحضرى لمقابلتى؟».

وجعدت أنفها للحظة، ووضعت يدها فوق ذراعى، أحنّت رأسها مرة
أخرى تنظر فى بقايا القهوة التى كانت تجف فى سرعة إلى خطوط صغيرة
حلزونية ومنحنيات أشبه بالكثبان الرملية. قالت متوسلة: «أشعل لى
سيجارة».

«لقد قال نسيم إنك وليت الأدبار فى اللحظة الأخيرة».

«نعم لقد فعلت ذلك يا عزيزى».

«لماذا؟».

«أحسست فجأة أن حضورى ربما كان فى غير الوقت المناسب. ربما
عقد الأمر بصورة ما. إن لديك اعتبارات قديمة يجب تسويتها، حسابات
قديمة عليك تصفيتها، وعلاقات جديدة عليك استكشافها. لقد أحسست

أننى بلا قوة لفعل أى شىء معك حتى... حسنًا، حتى ترى جوستين. لا أدرى لماذا. نعم هكذا فكرت. لم أكن متيقنة أن الدائرة سوف تتغير. أنت مرسل خطابات لعين. لم يكن لدى أى وسيلة للحكم على ما يدور بخلدك. لقد مضى وقت طويل منذ كتبت إلى، أليس كذلك؟ ثم الطفلة وكل تلك المسائل. إن الناس، رغم كل شىء، يلتصقون، فى بعض الأحيان، مثل أسطوانة قديمة، ولا يستطيعون الخروج من الأخدود. كان من الممكن أن يكون ذلك مصيرك مع جوستين. لذا لم يكن من واجبي أن أتدخل، إذ إن وضعى من جهتك... هل تدرك ما أعنى؟ كان على أن أترك لك متنفسًا.

«ولنفترض أننى التصقت مثل أسطوانة قديمة».

«كلا، المسألة لم تصبح هكذا».

«كيف يمكنك معرفة هذا؟».

«من وجهك يا دارلى. فى وسعى معرفة ذلك فى لمح البصر».

«إننى لا أدرى البتة كيف يمكننى شرح الأمر».

«لست فى حاجة إلى ذلك»، قالت وقد تهلل صوتها فرحًا وبهجة. وابتسمت عيناها البراقتان: «إن لنا قبل الواحد منا للآخر مطالب أخرى تمامًا. إننا أحرار فى أن ننسى! أنتم الرجال أغرب المخلوقات. اسمع، لقد أعددت لهذا اليوم الأول معًا، كما أعد للوحة، أشبه باللغز. لقد كنت أسعى كى أعمل كمرشد... ولكن كلا، لن أخبرك. فقط دعنى أدفع ثمن هذه القهوة».

«ماذا كان طالعك فى قاع الفنجان؟».

«لقاءات تقع مصادفة».

«أعتقد أنك تخترعين مثل هذه الأقاويل».

كان بعد الظهر معتمًا، وقد هبط الغسق مبكرًا. شعاعات الشمس
القرمزية تتلاعب مع مناظر الشوارع على امتداد واجهة البحر. أخذنا عربية
حنطور كانت تقف في وحشة في موقف سيارات الأجرة في محطة الرمل.
السائق العجوز، بوجهه المليء بالندوب، يسأل في أمل إن كنا نريد: «عربة
حب» أو «عربة عادية»، وكلينا تقرر ضاحكة. اخترت النوع الأخير باعتباره
الأرخص أجرًا. قالت: «لماذا يابني، تأخذ امرأة، زوجها قوى البنية، في
مثل هذا الشيء، في حين أن لديها فراشا في منزلها لا يكلف شيئًا».

قال العجوز في استسلام مهيب: «الله رحيم».

وهكذا انطلقنا عبر الميدان الأبيض المنحني بتنداته التي تخفق
وترفرف، والبحر الهادئ يمتد إلى يميننا بعيدا حتى الأفق الشاحب. كنا،
في الماضي، كثيرا ما نأخذ هذا الطريق لزيارة القرصان العجوز في حجراته
الرثة في شارع التتويج.

«كلينا، إلى أين نحن ذاهبان بحق الشيطان؟».

«انتظر وسترى».

كان في وسعي أن أرى الرجل العجوز بوضوح للغاية. تساءلت للحظة
إن كان شبحة الرث لا يزال يهيم في تلك الحجرات الموحشة، يصفر
للبغاء الأخضر، وينشد: «صمتًا أيها القرد الصغير» (*) أحسست بذراع
كلينا يضغط ذراعي ونحن ننحرف إلى اليسار. ندخل كومة النمل التي
يتصاعد منها الدخان في الحي العربي. الشوارع يخنقها دخان أكوام
القمامة المحترقة، أو اللحم المطبوخ الغني بالتوابل ونفحات الخبز
المخبوز في المخابز.

(*) بالفرنسية في الأصل.

«لماذا بالله تأخذيننى إلى حجرات سكوبى؟»، قلت، مرة أخرى،
عندما بدأ صوت الحوافر، كليب - كلوب فوق امتداد الشارع المألوف.
لمعت عيناها ببهجة متخابثة وهى تضع شفيتها على أذنى وتهمس: «الصبر
سوف ترى».

كان بالفعل نفس المنزل. عبرنا المدخل الطويل المعتم، كما كنا نفعل
كثيرا فى الماضى. بدا، فى عمقه، فى الغسق، أشبه بصورة شمسية باهتة
على لوح نحاسى. كان فى وسعى أن أرى الباحة الصغيرة وقد تم توسيعها
كثيرًا. دعائم حائطية عديدة أزيلت من المنازل المجاورة أو سقطت مما
زاد من مساحة المكان ما يقرب من مائتى متر مربع. كانت مبعثرة أشبه
بآثار مرض الجدرى، أرض حمراء ليست ملكا لأحد، مفروشة بالفضلات
والنفايات. وفى أحد الأركان انتصب ضريح صغير لا أتذكر أنى لاحظت
وجوده من قبل. كان محاطا بشبك حديث من صلب مشغول ضخمة قبيح
المنظر. كان الضريح يزهر بقبة صغيرة بيضاء وشجرة ذابلة، وكلاهما أسوأ
من أن يُتشع به. تعرفت فيما أمامى على واحدة من المقامات(*) العديدة
التي تتزين بها مصر. أماكن تغدو مقدسة بموت ناسك أو قديس، حيث
يصبح ملاذ المؤمنين المخلصين للصلاة أو التماس العون بتقديم النذور.
وبدا الضريح الصغير، مثل العديد من أمثاله، رثا للغاية، موحشا وكأن
وجوده قد أغفل وأهمل وضرب النسيان عليه قرونا. وقفت أنظر حولى.
سمعت صوت كليا واضحا ينادى: «يا عبده!». كان فى صوتها نغم يوحى
بلهو تكبته، إلا أننى لم أستطع، طوال حياتى، أن أعرف لماذا. تقدم نحونا
رجل يحملق عبر الظلال «إنه يكاد يكون أعمى. إننى أشك فى أن يتعرف
عليك». ولكن من هو؟، قلت وأنا أحس بالغىظ من كل هذا اللغز:

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

«إنه عبده سكوبي». قالت فى إيجاز هامس. واستدارت بعيداً لتقول:
«عبده، هل لديك مفتاح مقام السكوب (*)؟».

حياها تحية من يعرفها وهو يأتى بحركات متقنة من يديه فوق صدره.
أحضر حزمة من المفاتيح الطويلة قائلاً فى صوت عميق: «حالا يا
سيدتى».

أخذ يخشخش المفاتيح معا كما يجب أن يفعل خادم الضريح ليخيف
الجن الذين يحومون حول الأماكن المقدسة.

«عبده!»، صحت فى دهشة هامة، «لكنه كان شاباً». كان من
المستحيل التعرف عليه بهذا التركيب البنيوى المعوج وتلك الحدية،
بمشيته المطأطئة، وكأنه يبلغ من العمر قرناً، وصوته المشروخ: «تعال».
قالت كليا فى عجلة: «الشرح فيما بعد. فقط تعال وانظر فى الضريح».

وتبعت ذاهلاً خطأ الخادم. فتح البوابة الصدئة، بعد صلصلة وجلجلة،
ودقات وطرقات متقنة للغاية ليخيف الجن. قاد الطريق إلى الداخل. كان
الجو حاراً خانقاً فى هذا القبر الصغير عديم الهواء. كانت هنالك فتيلة
واحدة فى مكان ما فى طاقة أضيئت فأعطت نورا أصفر مرتعشاً، ورقد
فى الوسط، ما افترضت بالضرورة أن يكون قبراً لقديس. كان مغطى
بقماش أخضر عليه رسوم ذهبية متقنة الصنع. وأزاح عبده الغطاء فى
إجلال وخشوع، حتى أتفحص وأعابن، كاشفاً عن شىء ما تحته، أثار
دهشتى إلى حد أنى صرخت دون إرادة منى. كان مغسلاً حديدياً مطلياً
بالزنك له ساق واحدة عليها نقش حفر بارز، «المغسل التافه، الكتيب.
لوتون». كان قد ملئ برمل نظيف وقد طليت بكثافة أقدامه الأربع البشعة

(*) سكوبي كما ينطقها العامة - المترجم.

الأشبه بأقدام التمساح باللون الذى يستخدم ضد الجن، اللون الأزرق. كان شيئاً يثير دهشة لها جلالها والمرء يتعثر فى تلك الأجواء. وسمعت فى مزيج من المتعة والخوف عبده الذى لم يعد فى الإمكان التعرف عليه البتة الآن، والذى كان خادم هذا الشيء، يتمتم الصلوات المتعارف عليها باسم السكوب. ويتحسس، بينما يفعل ذلك، النذور التى تتدلى من كل ركن فى الجدار مثل ذؤابات صغيرة بيضاء. كانت تلك، بالطبع قطعاً من قماش انتزعتها النسوة من ملابسهن التحتية وعلقنها كتقدمات للقديس الذى يعتقدن أنه يشفى العقم ويجعلهن قادرات على الحمل. يا للشيطان! هنا مغسل سكوبى العجوز، كما هو واضح، تتوسل النسوة إليه ليهب الخصوبة لمن بلا أطفال - وبنجاح، كما يمكن الحكم على ذلك من هذا العدد الكبير من التقدمات.

«السكوب كان رجلاً مقدساً؟»، قلت فى لغتى العربية العرجاء، وأومأت الحزمة البشرية المتعبة المعقوفة برأسها الملفوف فى شال ممزق، وانحنى الرجل وهو يبتلع قائلاً:

«لقد جاء من أبعد مكان فى سوريا، هنا وجد راحته، وأضاء اسمه العدالة. لقد تتلمذ على فعل الخير!».

وأحسست كأنى أحلم، كأنى أكاد أسمع صوت سكوبى وهو يقول: «نعم ضريح صغير مزدهر، كما كل الأضرحة. خذ بالك، إننى لا أسعى إلى تكوين ثروة، إننى أقدم خدمة!». وأخذ الضحك يتجمع داخلى، عندما أحسست بأصابع كليا فوق كوعى. وتبادلنا ضغطات مبتهجة ونحن ننسحب من ذاك الثقب الصغير ردىء التهوية إلى الباحة وقد غمرها الغسق، بينما يعيد عبده فى إجلال وخشوع وضع القماش فوق المغسل ويهتم بالفتيل الزيتى ثم يلحق بنا. وأغلق الشباك الحديدى فى عناية، مقبلاً

ما أعطته له كليا من بقشيش، وهو يردد وافر الشكر والامتنان في صوت أجش، ثم سار مثاقلا إلى الظلال، وقد تركنا نجلس فوق كومة من بناء حجري متداع.

«لم أدخل في الموضوع مباشرة»، قالت: «كنت أخشى أن تأخذ في الضحك، وأنا لا أرغب في إثارة ما يكدر عبده».

«كليا، إنه مغسل سكوبي!».

«أعرف ذلك».

«كيف، بحق الشيطان، حدث هذا».

وضحكت كليا ضحكتها الناعمة.

«يجب أن تخبريني».

«إنها قصة رائعة عجيبة، لقد كشف عنها بلتازار. إن سكوبي الآن هو (اليعقوب) رسميًا. إن هذا، على الأقل ما هو مسجل بخصوص هذا الضريح في كتب الكنيسة القبطية. لكنه، كما سمعت الآن، هو السكوب حقيقة! أنت تعرف كيف يطوى النسيان والإهمال مثل تلك المقامات(*).

إنهم يموتون، وينسى الناس تماما، عبر الزمن، من كان القديس الأصلي، وتدفن الكثبان الرملية الضريح في بعض الأحيان. إلا أنهم يهبون أحياء ثانية. يحدث فجأة ذات يوم أن يشفى هنالك مصاب بالصرع، أو يوحى الضريح لامرأة مجنونة بنبوءة ما، وللحال ينهض القديس ويحيا من جديد. حسنا، لقد كان اليعقوب هنالك عند نهاية الحديقة، طوال وقت قرصاننا العجوز في هذا المنزل دون أن يعرف أحد بذلك - غطاه الطوب وأحاطت

(*) بالعربية في حروف لاتينية.

به الجدران العشوائية - أنت تعرف كيف ينون هنا بطريقة مجنونة، لقد نسي تمامًا. وغدا سكوبي، في تلك الأثناء، وقد مات، شخصية تتمتع بذكرى عاطفية في الجوار. بدأت الحكايات تدور حول مواهبه العظيمة. كان فطنا ذكيا في إعداد المشروبات السحرية (الويسكي الوهمي؟). وبدأ يزهر حوله إعجاب يقارب العبادة. قالوا: إنه كان يستحضر الأرواح لمعرفة المستقبل. وأقسم المقامرون باسمه. إن عبارة «بصق السكوب فوق ورقة اللعب هذه»، غدت مثالا يتردد في الحى. قالوا عنه أيضا إنه كان قادرا على تغيير نفسه إلى امرأة متى أراد! وأنه بنومه مع الرجال العاجزين جنسيا كان يجدد لهم قواهم. كما أنه قادر أيضا على أن يحيل العاقر إلى حبل، حتى إن بعض النسوة أطلقن اسمه على أبنائهن. حسنا، لقد لحق بالفعل، في زمن قصير، بكتاب أقاصيص قديسى الإسكندرية، لكن لم يكن له بالطبع ضريح حقيقى؛ إذ إن كل امرئ يعرف بنصف عقله أن الأب بول قد سرق جسده ولفه في عالم ودفنه في مقابر الكاثوليك. إنهم يعرفون، فالكثيرون منهم كانوا هناك أثناء القداس واستمتعوا كثيرا بالموسيقى البشعة لفرقة الشرطة، والتي أعتقد أن سكوبي كان عضوا بها ذات يوم. إننى كثيرا ما أتساءل إن كان يعرف اللعب على أى آلة، وإن كان ذلك قد حدث، فأى آلة؟ الترمبون(*) المنزلق؟ إنه، على أى حال، فى ذلك الوقت الذى يمكن القول: إن قدسيته كانت فى انتظار إشارة فقط، دلالة، تأكيد، سقط ذلك الحائط رغما عنه وكشف عن اليعقوب (ربما فى غضب وأنفة). حسنا، إلا أنه لم يكن هنالك قبر فى الضريح. حتى الكنيسة القبطية، والتي كانت قد قبلت أخيرا وعلى مضض، أن يوضع اليعقوب فى كتبها لم تكن تعرف عنه شيئا غير أنه قدم من سوريا. لم يكونوا حتى متأكدين إن كان مسلما أم لا! إن لاسمه، بالنسبة لى، رنينا يهوديا. إنهم، على أى حال، سألوا سكان

(*) آلة موسيقية نحاسية كبيرة - المترجم.

الحى القدامى بجدية، واعترفوا باسمه، على الأقل، ولكن لا شىء آخر. وهكذا وجد الجيران أنفسهم، ذات يوم، ولديهم ضريح فارغ خالص لسكوبى. لا بد كان له وجود محلى يضارع قوة اسمه. وأقيم احتفال عفوى استودع فيه المغسل الذى كان مسئولاً عن عدد كبير من الميتات (الله أكبر) فى وقار وقدسية بعد ملئه بعناية برمال نهر الأردن المقدسة. لم يستطع الأقباط التسليم رسمياً بالسكوب وأصروا على التمسك بـ يعقوب لأغراض رسمية، إلا أن السكوب ظل هو الاسم الذى تمسك به المؤمنون. كان يمكن للأمر أن يصبح ورطة ما، إلا أن رجال الإكليروس وهم دبلوماسيون بارعون، غضوا الطرف عن تجسد السكوب مرة ثانية، وتصرفوا كأنهم يعتقدون أنه اليعقوب حقيقة، لكن التغيير جاء بسبب النطق المحلى. وهكذا أنقذ ماء وجه الجميع.

لقد قاموا فى الحقيقة بتسجيل تاريخ ميلاد سكوبى رسمياً - هنا يظهر ذلك التسامح الرائع الذى لا يوجد فى أى مكان آخر - وذلك كما اعتقد لأنهم لم يكونوا يعرفون تاريخ ميلاد اليعقوب. هل تعرف أنه يقام على شرفه مولد(*) سنوى، يوم عيد سانت جورج؟ لا بد أن عبده تذكر تاريخ ميلاده، حيث كان سكوبى يعلق فى هذا اليوم، فى كل ركن من أركان فراشه، خيطاً به أعلام ملونة لكل الأمم، كان يستعيرها من بائع الصحف. كان معتاداً أن يشمل، كما أخبرتنى أنت ذات مرة، ويغنى أهازيج البحارة، وينشد «المنفضة الحمراء القديمة»، حتى تسيل دموعه!

«أى خلود رائع يستمتع به».

«أى سعادة تلك التى لا بد أن تغمر القرصان العجوز».

«أى سعادة! أن يكون الولى الحامى لحيه! أوه دارلى، كنت أعرف

(*) عربية بحروف لاتينية.

أنك ستستمتع بذلك إننى كثيرا ما أتى إلى هنا، فى مثل هذا الوقت من الغسق، وأجلس فوق أحد الأحجار وأضحك من أعماقى، فرحة وابتهاجا للرجل العجوز.

«وهكذا جلسنا معا وقتا طويلا، بينما الظلال تنمو حول الضريح، نضحك ونتحدث فى هدوء، كما يجب أن يفعل الناس عند ضريح قديس! نحى ذكرى القرصان العجوز بعينه الزجاجية، والذي لا يزال طيفه يتجول فى تلك الحجرات الرثة فى الطابق التالى. كانت أنوار شارع التويج تتلأأ غامضة. لم تكن تضوى بتألقها القديم المعتاد. ولكن بصورة مظلمة. إذ كان حى الميناء كله قد خضع لإطفاء الأنوار خشية الغارات الجوية، وكان أحد قطاعاته يشتمل على الشارع الشهير وأصابتنى الحيرة قلت فجأة: «وعبده، ماذا عنه؟».

«نعم لقد وعدت أن أخبرك، لقد أسس له سكوبى، كما تتذكر، دكان حلاق. حسنا، لقد أنذره لأنه لم يكن يحافظ على أمواسه نظيفة، مما تسبب عنه نشره لمرض الزهري إلا أنه لم يلتفت إلى تلك التحذيرات، ربما لأنه كان يعتقد أن سكوبى لا يمكن أن يبلغ عنه رسميا إلا أن الرجل العجوز فعلها، وكانت النتائج رهيبة لقد ضرب عبده فى قسم الشرطة حتى كاد يموت، وفقد إحدى عينيه وأمضى أماريل قرابة العام يحاول أن يرممه ويهندمه. ثم أصيب، فوق كل ذلك، بمرض أشبه بمرض السل، دمر كل قواه، وكان عليه أن يترك دكانه، ذلك الرجل المسكين إلا أننى لست متيقنة إن كان هو الرجل غير المناسب لحماية مزار سيده».

«السكوب! ياالعبده المسكين!».

«إلا أنه يجد عزاءه الآن فى الدين. إنه يقوم بعمليات وعظ خفيفة كما يتلو من السور ما تقتضيه وظيفته. هل تعرف أننى أعتقد أنه قد نسى سكوبى الحقيقى. لقد سأله ذات مرة إن كان يتذكر العجوز اللطيف الذى كان

يسكن الطابق العلوى، إلا أنه نظر إلى نظرة غائمة، وتمتم شيئاً ما، وكأنه يحاول الوصول بذاكرته إلى الورا من أجل شىء أنأى من أن يمسك به. لقد اختفى سكوبى، كما اختفى يعقوب تماماً، وأخذ السكوب مكانه.

«إننى أحس كما كان يجب أن يحس أحد الحواريين، أقصد أن يكون مولدك يوم مولد أحد القديسين، فتصبحى أسطورة. فكرى، إننا نعرف بالفعل السكوب الحقيقى! لقد سمعنا صوته».

وفرحت، إذ بدأت كليا تقلد الرجل العجوز بطريقة تثير الإعجاب حقاً، تحاكي سلوكه المتناثر المتقطع عند حديثه عن الحياة، كانت تكرر الكلمات من الذاكرة.

«نعم، خذ بالك، كان الطرب يستخفى، إلى حد ما، فى يوم عيد سانت جورج، من أجل إنجلترا ومن أجلى أيضاً. كنت أتناول دوما رشفة أو اثنتين من «الحمراء الخجولة»، كما كان يقول توبى، ويمكن أن تكون من «ذات الفقايع»، إن جاءت فى طريقى لكنتى، باركك الله، لست ممن توصلهم العربات التى تجرها الخيل، إننى دائماً باق فوق مسمارى. إن الكأس هو الذى يبعث البهجة ولا يسك.. يسك يسكرنى، إنها واحدة أخرى من عبارات توبى. كان يفيض بالصور الأدبية كان يمكن أن يكون كذلك، لماذا؟ لأنه لم يكن يظهر البتة دون كتاب تحت إبطه. كان يعتبر، فى البحرية غريباً للغاية. وكثيراً ما كان لديه صفوف منها «ماذا لديك هناك؟»، هكذا اعتادوا أن يصيحوا فيه. واعتاد توبى، الذى كان يمكن أن يكون وقحاً فى بعض الأحيان، أن يغيظهم ويجيب فى الحال، «ماذا تعتقدون أيها المختالون؟ إننى بالطبع متزوج من الأسطر والكلمات»، إلا أنه كان هنالك دوما كتاب ثقيل، يصيب رأسه بالدوار رغم أنى أحب القراءة. كان فى أحد الأعوام، «مسر حيات سترينج باج»، وهو مؤلف سويدي كما فهمت. وكان

فى عام آخر «فروست جويتر» كان توبى يقول: إن ذلك تعليم حر. لم يكن تعليمى ىرقى إلى مستواه. مدرسة الحياة، كما يمكن أن تقول لقد قتل أبى وأمى مبكرا، وتركنا نحن أيتاما ثلاثة صغارا للتلف والهلاك. كانا يعدونا لعالى الأقدار، كان أبى يعد واحدا منا للكنيسة، وواحدا للجيش، وواحدا للبحرية ودهس القطار الخاص لأمير ريجنت شقيقى قرب سيد كوب، بعد وفاة والدى بفترة قصيرة ونشرت كل الصحف الحادثة، وأرسل الأمير إكليلا من الزهور، لكننى تركت بمفردى تماما. وكان على أن أشق طريقى دون الاعتماد على نفوذ أحد، وإلا كنت الآن، كما كنت أتوقع، أدميرالا.

كان وفاؤها للعطاء أمينا بصورة مطلقة وخطا الرجل العجوز الضئيل من قبره مباشرة، وأخذ يمشى مشيته غير المتوازنة فى حذر أمامنا. كان يعبث مرة أخرى بتلسكوبه فوق حامل الكعكة، ويفتح إنجيله، الذى يكاد يفنى، ويغلقه، أو يركع على ركبته وهى تزيق، لينفخ النار بمنفاخ صغير للغاية يوم عيد ميلاده! إننى أتذكر العثور عليه فى أحد أمسيات عيد ميلاده وهو فى أسوأ حال رغبة فى البراندى، إلا أنه يرقص عاريا تماما على موسيقى من صنعه مستخدما مشطا وورقة.

عندما استعدت ذكرى هذا الاحتفال بعيد قديسه، بدأت أقلده لكليا حتى أسمع ثانية هذه الضحكة المثيرة الجديدة التى اكتسبتها: «أوه إنه أنت يادارلى!» لقد فاجأتنى تماما بطرقاتك على الباب. ادخل. لقد كنت أرقص رقصة ما، حتى أتذكر الأيام الخوالى، إنه عيد ميلادى نعم، إننى دوما أمعن النظر قليلا فى الماضى، بهذه المناسبة. لقد كنت فى شبابى غندورا حقيقيا. إننى لا أبالى الاعتراف بذلك، كنت فى شبابى بارعا بحق فى «الفيلوتا» هل تريد مشاهدتى؟ فقط افترض أننى فى باريس اجلس على المقعد هناك وراقب. الآن تقدموا ليأخذ كل رفيقته، هزوا الأكتاف، انحنوا، تراجعوا! تبدو الرقصة سهلة، لكنها ليست كذلك. إن النعومة خادعة. كان

فى وسعى يا بنى، فى وقت من الأوقات، أن أرقص كل الرقصات، الفرسان
حملة الرماح، الأسكتلنديون، حلقة القوقازيين أنت لم تر نصف السلسلة
الإنجليزية(*)، كما أشمن؟ كانت كما أعتقد قبل زمانك. خذ بالك، لقد
أحببت الرقص وظللت محافظا على ذلك حتى يومنا. كنت أنهض فى
سرعة الهوتشى - كوتشى هل رأيت ذلك أبدا؟ نعم، إن الهاتيش تمارس
كما فى الفندق بعض الحركات الصغيرة الجذابة الفاتنة، والتى يطلقون
عليها إغراءات شرقية. إنها أشبه بالتموجات، إنك ترفع خمارا وراء الآخر
حتى تتكشف جميعا. إن الإثارة تفوق الحد، عليك أن تهتز وأنت تنساب
هل تحب رؤية ذلك؟

«هنا! اتخذ وضع إغراء شرقى لا يعقل أبدا. وأخذ يدور فى بطن يرجرج
مؤخرته، ويدمدم لحنا مناسبا، يعكس بأمانة تامة قصور وهبوط الربع نغم
العربى. أخذ يدور ويدور فى الحجرة حتى بدأ يحس بالدوار، فارتمى
متراخيا منتصرا فوق السرير يضحك ضحكة مكتومة ويومئ برأسه راضيا
عما فعل، مهنئا ذاته، ثم تناول جرعة كبيرة من العرقى، التى كانت صناعته
أيضا واحدا من أسرارهِ. لا بد أنه وجد وصفته فى صفحات كتاب جيب
«بوستلثويت»، والذى كتب خصيصا لمن يرتحلون فى بلاد أجنبية، كتاب
كان يحتفظ به جيدا فى حافظة ملابسه، والذى كان يقسم به قسمه الأعظم.
كان يحتوى، كما يقول، على كل ما يجب أن يعرفه إنسان، وضعه مثل وضع
روبينسون كروزو، حتى كيفية إشعال النار بحك عصوين معا. كان منجما
رائعا من المعلومات (كى تصنع عرقى بومباى بنجاح، أذب ثلثى درهم من
زهو رجاوه فى ربع جالون من الروم الجيد إن هذا سيضفى على المشروب
عبير العرقى). كان ذلك نموذجا لما يحتويه».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

نعم، هكذا يضيف في وقار، «لا يمكن لأحد أن يتفوق على العجوز بوستلثويت. إن به شيئا لكل العقول وكل الحالات. يمكننى القول، إنه كان عبقريا».

مرة واحدة فقط، فشل بوستلثويت فى الارتقاء إلى سمعته. كانت تلك المرة عندما قال توبى: إنه يمكن جمع ثروة من الذباب الإسباني، إن استطاع سكوبى الحصول على كمية كبيرة منه لتصديره. إلا أن القائل لم يوضح ماكنهه أو كيف يكون؟ كانت تلك هى المرة الوحيدة التى خذلنى فيها بوستلثويت. هل تعرف ماذا يقول عنه تحت عنوان الذباب الهندى؟ لقد كان تذكر هذه النبذة غامضا للغاية وأنا أعيدها على مسامع توبى عندما جاء فيما بعد. إن بوستل العجوز يقول: «إن استخدم الذباب الهندى من الداخل مهيج ومدر للبول، وإن استخدمه من الخارج يسبب التشنج واحمرار الجلد. والآن، ماذا يقصد بذلك، بحق الشيطان آه؟ وكيف يمكن أن يتسق ذلك وفكرة توبى عن تجارة مزدهرة من مثل تلك الأشياء؟ لا بد أن تكون نوعا من الديدان لقد سألت عبده، إلا أننى لم أعرف المسمى العربى المرادف».

أما وقد انتعش بهذا الفاصل، فإنه يتقدم مرة أخرى إلى المرأة ليتأمل فى إعجاب هيكله المتجعد الأشبه بسلحفاة عجوز. وغشت فكرة مفاجئة ملامحه بالقتامة. أشار إلى جزء من أعضائه المتغضنة وقال: «ذلك هو الجزء الذى يصفه بوستلثويت بأنه النسيج الوحيد الذى له «خاصية الانتصاب». إننى أتساءل دوما لماذا هذا الجزء وحده ولا غيره. إن لغة رجال الطب هؤلاء، تبدو فى بعض الأحيان كالأحاجى والألغاز حقا. إنه مسمار من نسيج له خاصية الانتصاب. فكر أيضا فى كل المتاعب التى يثيرها. اسألنى، فإنك لو رأيت ما رأيته أنا، فإنه ما كان فى وسعك أن تظفر بنصف الطاقة المنفعلة التى ظفرت أنا بها اليوم».

وهكذا أطلال القديس احتفالات عيد ميلاده، يرتدى منامات، ينغمس
فى دور غنائى قصير يتضمن الكثير مما هو قديم أثير لديه، يغنى قصيدة
قصيرة، لم يكن يشدو بها إلا فى أعياد ميلاده، كانت تدعى، ريان السفينة
القاسى القاسى، وهنالك لازمة موسيقية تنتهى بـ:

هكذا كان نبتا سماويا عجوزا، توم، توم.

هكذا كان قرص لحم عتيق، توم، توم.

هكذا كان عجوزا شكسا.

والآن وقد أرهق ساقيه بالرقص وصوته الشادى بالأغنية، بقيت أحاج
قليلة قصيرة كان يطرحها على السقف وذراعا خلف رأسه.

«أين تناول جلاد الملك شارل عشاءه، وماذا طلب من طعام؟».

«لا أعرف».

«هل تستسلم؟».

«نعم».

«حسنا، لقد تناول شريحة لحم فوق رأس الملك».

قوقات مبتهجة وضحكات مكتومة.

«متى يمكن لأملاك رجل نبيل المحتد أن توصف بأنها أشبه
بالريش؟».

«لا أعرف».

«هل تستسلم؟».

«نعم».

«عندما توقف كل أملاكه وعقاراته (مثل ذيل دجاجة - هل ترى؟)».

وتلاشى الصوت تدريجياً، توقفت الساعة، أغلقت العينان، تمددت الضحكات مكتومة مسترخية إلى نعاس، هنا نام القديس أخيراً، مفتوح الفم، فى يوم عيد سانت جورج.

عدنا يتأبط كل منا ذراع الآخر، عبر البوابة الظليلة، ونحن نضحك ضحكة إشفاق تستحقها صورة الرجل العجوز. ضحكة كانت على نحو ما تعيد طلاء الأيقونة طلاء خادعا، تعيد ملأ المصابيح بالوقود حول الضريح. بالكاد كان لوقع خطانا صدى فوق أرضية الشارع بتربتها المدكوكة. الإظلام الجزئى للمنطقة قطع الضوء الكهربى الذى كانت تتلأأ فى نوره، فى الأحوال العادية، وقد استبدل الآن بمصابيح زيتية ترفرف شاحبة فى كل مكان، حتى إننا كنا نسير فى غابة مظلمة فى ظل ضوء متوهج دافئ، جعل الأصوات والنشاطات فى المنازل حولنا أكثر غموضا من أى وقت مضى. وهبت، فى نهاية الشارع، حيث كانت تقف عربة الحنطور الكسيحة المترنحة فى انتظارنا، أنفاس بحر الليل الباردة المشرية والتي سوف تتغلغل بالتدريج فى المدينة، تبدد رطوبة البحيرة الخائقة.

«والآن، يجب، يا كليا، أن أدعوك للعشاء، احتفالاً بضحكتك الجديدة!»
«كلا لم أنته بعد مما أعددت، هنالك لوحة أخرى، من نوع مختلف، أود منك أن تراها. إننى وددت، يادارلى، كما ترى، أن أعيد تركيب المدينة، بصورة ما، حتى يمكنك أن تعود إلى اللوحة من زاوية أخرى، تحس أنك فى بيتك تماما - رغم أن هذه الكلمة بعيدة عن أن تكون مناسبة لمدينة من المنفيين، أليس كذلك؟ على أى حال...». ومالت إلى الأمام (فأحسست بأنفاسها فوق وجتى)، وقالت للسائق، «خذنا إلى الأوبرج بلو!».

«لمزيد من الأسرار».

«كلا سوف تظهر الليلة، سميرة العفيفة على الملاء لأول مرة. إن هذا

الأمر بالنسبة لى أقرب إلى أن يكون افتتاحا لمعرض صور، أنت تعرف،
أولا تعرف أننى وأماريل مبدعا أنفسها المحجب؟ لقد كانت مغامرة هائلة:
خلال شهور طويلة وكانت هى صبورة شجاعة، تحت الضمادات والغرز
والتطعيم والآن اكتملت العملية. لقد تزوجا بالأمس، ولسوف تكون
الإسكندرية كلها الليلة هناك لتراها. يجب ألا تغيب عن هذا الحفل أليس
كذلك؟ إنها تجسد شيئا نادرا للغاية فى هذه المدينة، ولسوف تقدره أنت
حق قدره، باعتبارك دارسا متحمسا لهذا الموضوع. إنه إعلان للحب
الرومانسى بحروف كبيرة. لقد شاركت فى هذا الأمر مشاركة هائلة، دعنى
أحس بالزهو قليلا. لقد كنت قهرمانة حيناً، وممرضة حيناً، وفنانة حيناً. كان
كل ذلك من أجل أماريل الطيب. إن سميرة، كما ترى، ليست ذكية تماما.
وكان على أن أقضى الساعات معها كى أعدها لهذا العالم، كذلك لصقل
قدراتها على القراءة والكتابة، أى فى إيجاز محاولة تعليمها قليلا. ومن
الغريب أن أماريل لم ينظر إلى هذه الفجوة الهائلة بين تعليمهما المتفاوت
كقضية. إنه يحبها أكثر الحب بسبب ذلك. أنه يقول: «أنا أعلم أنها أقرب
إلى أن تكون ساذجة، وذلك ما يجعلها رقيقة للغاية».

«إن هذا هو أنقى خلاصة للمنطق الرومانسى، كلا؟ لقد أقدم على
ابتداعات واختراعات شتى من أجل إعادة تأهيلها. لقد اعتقدت أنه من
الخطورة بمكان أن تلعب، على نحو ما، لعبة بيجماليون. إلا أننى بدأت
أدرك الآن فقط مدى قوة التصور. هل تعرف مثلاً، ماذا استنبط لها، من
أجل أن تكون لها مهنة، مهارة خاصة بها؟ إن ما فعله يكشف عن ذكاء متألق
كانت محدودة العقل جداً لا تستطيع القيام بعمل متخصص للغاية، لذا قام
بتدريبها، بمعاونتى، كى تكون جراحة دُمى. كانت هدية عرسه لها غرفة
عمليات جراحية لدُمى الأطفال، والتى غدت مألوفة لها تماماً رغم أنها
لن تفتح رسمياً إلا بعد عودتهما من شهر العسل. إن سميرة قد أمسكت

حقاً بهذه الوظيفة الجديدة بكلتا يديها. لقد قضينا الشهور نقطع الدمى معاً ونرممها إعداداً لذلك! ما كان من الممكن لدارس طب أن يجتهد أكثر مما اجتهدت. يقول أماريل: «إنها الطريقة الوحيدة للإمساك حقاً بامرأة غبية، أنت تهيم بحبها. امنحها شيئاً لتؤديه على مسئولياتها».

ترنحت بنا العربية على امتداد الكورنيش عودة إلى المنطقة المضاءة من المدينة، حيث بدأت المصاييح الزرقاء تحمق فينا واحداً بعد الآخر ونحن نتحدث في العربية. فجأة بدا أن الماضي والحاضر قد اتحدا مرة أخرى، دون أية فواصل أو تقسيمات، وأن كل ذكرياتي وانطباعاتي قد فرضت على نفسها غطاء واحداً متكاملًا، كانت المدينة المضئية هي دوما التعبير المجازي عنه، مدينة من حرموا الميراث، مدينة تحاول الليلة أن تنشر في رقة الجناحين المنشورين اللزجين لفراشة حديثة الولادة الحب الرومانسي! لقد اعتاد بورسواردن دعوته بـ «الشیطان الماچن».

لم يتغير الأوبرج البتة. ظل كما كان جزءاً من متاع أحلامي، وهنا (كوجوه في حلم). كان السكندريون أنفسهم يجلسون إلى مناضد تزينها الزهور، بينما فرقة موسيقية تقطع في رقة ماهم فيه من تكاسل في ظل تلك الألوان الزرقاء. وأعادت صرخات الترحيب ما في المدينة القديمة من أشكال كرم تلاشي. أثينا تراشا بحلقها الفضي في أذنيها تطن مع بير باليز الذي يتعاطى الأفيون. إذ يجعل العظام تزهر، آل سيرفوني الأجلاء وبنات آل مارتيننجو الحاذقات وطفحهن الجلدي، كان الجميع هناك. الجميع دون نسيم وجوستين، حتى بومبال الطيب كان هنالك في لباس المساء الكامل وقد تم كيه وتنشيته جيداً ليضفي عليه جو أثر تذكاري بارز تم إعداده خصيصاً لقبر فرانسوا الأول، وكانت فوسكا معه، دافئة سمراء لم أكن قد رأيته من قبل.

جلسا وقد تماسست أصابعهما في نشوة غريبة. كان بومبال يجثم منتصباً

تماما، متنبها كأرنب، وهو يحملق فى عينيها، عيني ربة المنزل الوسيمة الشابة. كان يبدو مضحكا.

«إنها تدعوه - جورج - جاستون، وهو اسم يبهجه لسبب ما». قالت كليا.

أخذنا طريقنا، نتقل فى بطء، من مائدة إلى أخرى نحى أصدقاءنا القدامى كما كنا نفعل فى الماضى حتى بلغنا المائدة الصغيرة الركنية بما عليها من بطاقة حجز سليوليدية قرمزية، تحمل اسم كليا. ولدهشتى برز النادل زولتان فجأة أمامى، من لا شىء، ليهز يدي فى دفء. إنه الآن «الميترو تيل» المتألق فى أكمل عدة وقد قص شعره ومشطه. كان يبدو أيضا منغمسا تماما فى سر ما إذ أشار همسا لكليا، إن كل شىء قد أعد فى سرية تامة، بل لقد ذهب بعيدا فغمز بعينه: «إن أنسلم، يراقب فى الخارج، سوف يعطى إشارة بمجرد أن يرى عربية دكتور أماريل، وحيثبدأ الموسيقى عزفها، لقد طلبت مدام تراشا عزف «الدانوب الأزرق» العتيق».

وصفق راحتيه معًا فى نشوة، وابتلع ريقه مثل ضفدع. صاحت كليا:

«يا لفكرة أثينا الرائعة، برافو».

كانت إيماءة عاطفية بحق فقد كان أماريل أفضل راقص فالس، من فيينا، فى الإسكندرية. ورغم أنه لم يكن مغرورا، إلا أنه كان يتهج دائما، بطريقة غير معقولة، بمهارته كراقص. إنها لا بد أن تدخل المسرة إلى نفسه.

لم يطل انتظارنا. التوقع والإثارة. لم يكن أمامها ما يكفى من وقت لإثارة الملل. توقفت الفرقة التى كانت تؤدى أنغاما ناعمة، بينما أذنها منتصبه، كما يمكن القول، لسماع صوت السيارة. ظهر «أنسلم» عند ركن الممر يلوح بفوطة مائدة. إنها قادمان! أطلق الموسيقيون أنغاما

متتالية طويلة مرتعشة، لا بد أن يأتي ختامها عادة في نغم عجري. ما إن ظهرت سميرة الجميلة بين أشجار النخيل، حتى أخذوا يعزفون موسيقى الفالس ناعمة رصينة، موسيقى «الدانوب الأزرق».. فجأة تأثرت تماما وأنا أرى الطريقة الخجولة التي ترددت بها سميرة عند عتبة حجرة الرقص المزدحمة، إذ رغم روعة ردائها فإن العيون التي كانت ترقبها، تثير الرعب في قلبها، قد أفقدتها تحكمها في ذاتها. رفرفت في حيرة ناعمة ذكرتني بالطريقة التي تتدلى بها مقدمة قارب مبحر عندما تحل حباله، ويهتز شراع ساريته - كأنما تتأمل، تفكر في بطل للحظة طويلة قبل أن تستدير وهي تتنهد تنهيدة تكاد تكون مسموعة، تستقبل الأنفاس فوق وجنتها. إلا أنه في تلك اللحظة من التردد والحيرة الفاتنة الساحرة جاء أماريل خلفها وأخذ ذراعها وبدا هو ذاته، كما اعتقدت، يكاد يكون شاحبا عصيبا رغم التألق الشديد المألوف لملبسه. بدا وقد أمسك به هكذا في لحظة تكاد تكون ذعرا، شابا بصورة غريبة. تنبه إلى موسيقى الفالس، فتمتم لها بشيء ما، وشفته تترعشان. قادهما، في نفس الوقت، في وقار بين المناضد حتى طرف باحة الرقص حيث استدارا ليبدأ الرقص في حركة بطيئة متقنة. انثالت الثقة في كليهما عند أول حركة كاملة لرقصة الفالس. كان في وسع المرء أن يرى ذلك. صارا هادئين ساكنين مثل أوراق الشجر. أغلقت سميرة عينيها بينما استعاد أماريل مرحه المعتاد، وبابتسامته الواثقة تفجر التصفيق حولهما من كل مكان، من كل ركن في غرفة الرقص، حتى النُدل بدوا متأثرين، وتلمس زولتان منديله، فقد كان أماريل محبوبا للغاية.

بدت كليا أيضا وقد هزتها العاطفة هزا شديدا قالت: «أوه، دعنا نأخذ، في سرعة شرابا. هنالك ثقل هائل في حلقي، وإن حدث وبكيت، فسوف تفسد زيتتي».

انطلقت مدفعية زجاجات الشمبانيا وهي تفتح الآن من كل الأركان.

امتلات باحة الرقص براقصى الفالس، وألوان الضوء المتغيرة، الآن
زرقاء الآن حمراء الآن خضراء. رأيت وجه كليا المبتسم فوق حافة كأس
الشمبانيا الذى تحتسيه وعليه تعبير فرحة عابثة، وهى تلتفت نحوى.

«هل يضايقك إن أنا ثملت الليلة قليلا احتفالا بأنفها الناجح؟ أعتقد أنه
فى وسعنا الشرب دون تحفظ، فإنهما لن يترك الواحد منهما الآخر أبدا،
إنهما ثملان بالحب الفروسى الذى يقرأ المرء عنه فى أساطير الملك آرثر
وحاشيته، الفارس والسيدة التى أنقذها. وفى القريب العاجل سوف يكون
هنالك أطفال يحملون جميعا أنفى الظريفة اللطيفة».

«لا يمكن أن تكونى على يقين من هذا».

«دعنى أعتقد بذلك».

«دعينا نرقص قليلا».

لحقنا بحشد الراقصين فى الدائرة الكبيرة التى كانت تتأجج بالضوء
المنشورى الدوار، نسمع دقائق الطبل الناعمة تتخلل دماءنا، تنتقل إلى
إيقاعات بطيئة رصينة، أشبه بأكاليل زهور كبيرة من أعشاب بحر ملونة،
تتمايل فى بركة ضحلة، مرة مع الراقصين، ومرة كل مع الآخر.

لم نمكث إلى وقت متأخر. ما إن خرجنا إلى الهواء البارد الرطب حتى
ارتعشت كليا وسقطت نحوى ممسكة بذراعى.

«ماذا بك؟».

«أحسست بالإغماء فجأة. وقد انتهى ذلك الإحساس».

عدنا إلى المدينة عبر واجهة البحر الخالية من الرياح يخذرنا وقع حوافر
الجواد فوق الحصباء، وخشخشة عدته ورائحة التبن وأنغام الموسيقى

الخاية وهى تنساب من غرفة الرقص، تتلاشى بعيدا بين النجوم. دفعنا أجرة العربى عند فندق سيسيل. قطعنا الشارع المهجور المتعرج إلى مسكنها وقد تأبط كل منا ذراع الآخر، نسمع خطانا البطيئة وقد ضخمها الصمت. كانت هنالك مجموعة قليلة من الروايات، فى واجهة إحدى المكتبات، وكانت إحداها لبورسواردن. وقفنا لحظة نحملق فى المتجر المظلم، ثم عاودنا سيرنا على مهل إلى مسكنها. قالت: «سوف تدخل لحظة؟».

كان جو الاحتفال، هنا أيضا، واضحا، يتجلى فى الزهور ومنضدة العشاء الصغيرة التى انتصب عليها دلو الشمبانيا. «لم أكن أعرف أننا سنبقى حتى العشاء فى الأوبرج فأعددت ما أطعمك به هنا، إن لزم الأمر»، قالت كليا، وهى تغمس إصبعها فى الماء المثلج. تنهدت فى ارتياح. «يمكننا على الأقل، أن نشرب معًا قبل النوم».

لم يكن هنا، على الأقل، أى شىء يمكن أن يفقد الذاكرة إحساسها بالزمان والمكان أو يشوهها. كان كل شىء كما أتذكره تماما. لقد عدت إلى الغرفة اللطيفة ثانية، كما يلج المرء لوحة أثيرة لديه. هنا كل شىء كما كان، أرفف الكتب المزدحمة، لوحات الرسم الثقيلة، البيان الصغير، مضارب التنس وسيوف لعبة الشيش فى الركن. وانتصب على المكتب بالإضافة إلى الخطابات المختلطة بغير نظام، والرسومات والفواتير، الشمعدان الذى كانت تشعله الآن، وحزمة من لوحات زيتية تقف إلى جوار الحائط. ودرت مرة أو اثنتين، أحملق فيها فى فضول.

«يا إلهى يا كليا، لقد نحوت منحى تجريديا».

«أعرف ذلك! إن بلتازار يكرهها لكنها مجرد مرحلة كما أتوقع، ولذا لا تنظر إليها باعتبارها نهائية أو لا رجعة فيها. إنها طريقة مختلفة يعبئ المرء فيها مشاعره فى الرسم. هل تشمئز منها؟».

«كلا، إنها تبدو أقوى كما أعتقد».

«هوم، إن ضوء الشموع يضيف عليها توزيعا كاذبا للضوء والظلال».

«ربما».

«تعال اجلس، لقد صبيت لك شرابا».

جلسنا، كأنما هنالك اتفاق مشترك، نواجه الواحد منا الآخر، فوق السجادة، كما كنا نفعل، في الغالب، فيما مضى. جلسنا القرفصاء مثل خياطي الثياب الأرمن كما قالت ذات مرة: تبادلنا الأنخاب في الضوء الوردى للشموع القرمزية التي انتصبت لا تطرف في الهواء الساكن، تحدد بأشعتها الطيفية فم كليا المبتسم وملامحها الصريحة الصادقة. أخيرا، هنا أيضا فوق تلك البقعة التي لا تنسى، فوق السجادة الباهتة، احتضنا بعضنا البعض بـ. كيف يمكن قول ذلك؟ بهدوء باسم جليل، كأن كأس اللغة قد فاض في صمت، في تلك القبلات البليغة التي حلت محل الكلمات، أشبه بما يجازى به الصمت ذاته من عطايا، يكمل الفكر والإيماء. كان الوضع أشبه بتكوينات سحابة ناعمة تنساب قطرات من براءة رواية وطهرها، الألم الحقيقي لانتفاء الشهوة وأدركت أن خطاي قد قادتني، تعود بي ثانية، أتذكر ليلة مضت منذ زمن طويل، عندما رقدنا بلا أحلام كل منا بين ذراعى الآخر، خلف الباب المغلق الذي رفض أن يسمح لى بالدخول إليها. قادتني، مرة أخرى، إلى تلك النقطة من الزمن، إلى تلك العتبة، التي كان ظل كليا يتحرك خلفها مبتسما، لا يحسب للعواقب حسابا كما زهرة، قادتني بعد التفاف متعرج مجذب في تيه خيالاتي، لم أكن أعرف حيثذ كيف يمكنني العثور على مفتاح ذلك الباب. والآن تفتح الباب طوعا في بطن، بينما الباب الآخر، الذي قدم لى المزيد ذات يوم مع جوستين، قد أغلق إلى غير رجعة. ألم يقل بورسواردن شيئا ما عن «الرسوم

المنزلقة؟» إلا أنه كان يتحدث عن الكتب لا عن القلب البشرى. لم يكن يعكس وجهها الآن أى فكر أو سابق تدبير، لكن فقط، نوعاً من التخابث الرائع الذى أمسك بعينيها البديعتين، معبراً عن نفسه فى الطريقة الثابتة الحانية وهى تشد ذراعى داخل كمها لتقدم نفسها لأحضانى، بإيماءة امرأة تتدله حبا، تقدم جسدها إلى عباءة ثمينة لا تقدر بمال. أو أن تمسك بيدي وتضعها فوق قلبها وتهمس، تحسس! لقد توقف عن الخفقان! وهكذا تباطأنا وأطلنا، حتى إننا ظللنا مثل شخوص ذاهلة فى لوحة زيتية منسية، نستطعم، دون عجلة، نكهة السعادة التى تمنح لهؤلاء الذين يتمتعون بعضهم البعض دون تحفظ أو ازدراء للذات، دون أردية أنانية مسبقة، دون الحدود المصطنعة للحب البشرى: إلا أن جو الليلة المظلم فى الخارج، امتلاً بصوت شبهى متضخم، مثله مثل خفقات أجنحة هائجة لطائر من زمان ما قبل التاريخ، ليلتلع الحجرة كلها والشموع والشخوص. وارتعشت للعواء الأول البشع لصفارات الإنذار، إلا أنها لم تتحرك. وماجت المدينة بالحياة حولنا كأنها عشب نمل. أخذت تلك الشوارع التى كانت غاية فى الظلمة والسكون، تردد الآن صدى وقع الأقدام والناس وهى فى طريقها إلى مخابئ الغارات الجوية. أصوات أشبه بلفحة أوراق خريف تدور فى دوامة صنعتها الرياح، وارتفعت إلى نافذة الحجرة الصامتة الصغيرة شذرات من أحاديث نائمة، صرخات وضحكات. امتلاً الشارع فجأة كما يمتلئ مجرى نهر جاف عندما تسقط أمطار الربيع.

«كليا، يجب أن تلجئى إلى المخبأ».

إلا أنها ضغطت نفسها أكثر قرباً، هازة رأسها كامرئ خدره النوم، أو ربما من الانفجار الناعم للقلبات التى تنبثق مثل فقاقيع الأوكسجين فى دم مريض. وهزتها فى رقة فهمست: «إننى شديدة الحساسية للغاية من أن أموت مع جمع من الناس فى مخبأ أشبه بجحر جرذان عجوزة. دعنا نذهب معا إلى الفراش ونتجاهل حقيقة العالم الفظة».

وهكذا غدت المضاجعة نفسها نوعا من تحدى الإعصار الذى
يجرى فى الخارج، والذى يطرق ويسحق مثل عاصفة رعدية من المدافع
والصفارات، تؤجج السماوات الشاحبة للمدينة بروعة ومضات صواعقها.
غدت القبلات ذاتها مشحونة بتأكيدات مقصودة يمكن أن تصدر فقط عن
الإدراك المسبق بالموت وحضوره. كان يمكن، حينئذ، أن يكون موت
المرء فى أية لحظة، أمرا طيبا، فقد تماسكت أيدى الحب والموت فى مكان
ما. كان رقادها هنالك فى حنية ذراعى مثل طائر برى أرهقته نضالاته مع
شرك من غصون، حيث العالم كله أشبه بليلة صيف عادية من السلام تعبيرا
عن اعتزازها بذاتها أيضا. وتذكرت وأنا أرقد يقظا إلى جوارها، أستمع إلى
الضوضاء الجهنمية لطلقات المدافع، وأرى طنات الضوء وقفزاته خلف
الستار، كيف أنها ذكرتني ذات مرة، فى الماضى البعيد، بالقيود التى يثيرها
الحب فينا. قالت شيئا ما عن أن قدرته فى كل نفس مقيدة إلى حدود حصّة
الجندي فى الميدان، مضيفة فى وقار:

«إن الحب الذى تكنه لميليسا، هو ذات الحب الذى يحاول أن يعبر
عن نفسه عبر جوستين».

«هل لى تمديدا لهذه الفكرة، أن أجد ذلك حقيقيا أيضا مع كليا؟».

لم أرحب بالتفكير هكذا - فتلك الأحضان الطوعية العذبة الغضة كانت
فطرية طاهرة مثلها مثل إبداع ما، وليست مثل نسخات رديئة الرسم لأفعال
ماضية. كانت هنالك تلك الفلتات المرتجلة للقلب ذاته، أو هكذا قلت
لنفسى، وأنا أرقد هنالك، محاولا أن أقبض بشدة من جديد على عناصر
المشاعر التى نسجتها ذات يوم حول تلك الوجوه الأخرى. نعم، الفلتات
التي تهبط على الحقيقة ذاتها، والمجردة، لمرة واحدة على الأقل، من
نبضات الإرادة المرة.

لقد أبحرنا كلية فى تلك المياه الهادئة دون تدبير سابق. تراحمت كل الأشرعة، ولأول مرة يكون إحساسى طبيعيا بوجودى حيث كنت، أنجرف إلى النوم وجسدها الهادئ يرقد إلى جوارى. إن كل رشق المدافع بتموجاته الطويلة، والذي يهز الدور هكذا، بل وحتى وابل الشظايا الذى يكنس الشوارع، لم يستطع أن يثير قلق الصمت الحالم الذى كنا نجنه معا. أوقدت - عندما استيقظنا لنجد كل شىء صامتا - شمعة واحدة. ورقدنا فى ظل ضوءها المرتعش، ينظر الواحد منا للآخر ونتحدث همسا.

«إننى دوما رديئة فى المرة الأولى، لماذا يحدث هذا الأمر هكذا؟».

«وأنا كذلك».

«هل أنت خائف منى؟».

«كلا ولا من نفسى».

«هل تصورت حدوث ذلك أبدا؟».

«كان على كلينا أن يفعلها، وإلا ما كانت تحدث».

«صمتا! اسمع».

كان المطر يتساقط فى ستائر، كما يفعل فى الغالب قبل فجر الإسكندرية، يشير قشعريرة الهواء، يغسل أوراق النخيل التى تطقطق متبسة فى حدائق البلدية، يغسل الحواجز الحديدية للبنوك والأرصفة. وتفوح الشوارع المتربة فى المدينة العربية برائحة تشبه رائحة مقبرة حديثة الحفر وباعة الورد لا بد قد أخرجوا ما لديهم من زهور حفاظا على نضارتها. إننى أتذكر نداءهم: «القرنفل، طيب الرائحة كأنفاس فتاة!». وانسابت من الميناء روائح القار والأسماك والشباك المليئة عبر الشوارع المهجورة، لتلتقى بتجمعات هواء الصحراء عديمة الرائحة، والتى يمكن

فيما بعد، مع أول شعاع ضوء للشمس أن تدخل المدينة من الشرق، تجفف واجهات بيوتها الرطبة. وفي مكان ما، ولفترة قصيرة، كانت لوعة الماندولين الناعسة تنخس صوت المطر الخافت، تنقش فوقه جوا محدودا يشوبه التأمل والكآبة. وخشيت دخول فكرة أو هاجس يقحم نفسه وسط تلك اللحظات من السلم الباسم، أن يثبطها، أن يحيلها إلى أدوات للحزن. فكرت أيضا في الرحلة الطويلة التي قطعناها من هذا الفراش بذاته، منذ رقدنا هنا معا آخر مرة، بأسرنا ثانية مجال جاذبية المدينة. دورة جديدة تفتح بما تعد به مثل تلك القبلات وريبات التحجب التي تبعث الدوار، والتي في وسعنا الآن تبادلها، إلى أين يمكن أن تحملنا؟ فكرت في بضع كلمات لأرناؤوطي، كتبت عن امرأة أخرى، وفي سياق آخر: «أنت تقول لنفسك إن تلك التي بين ذراعيك امرأة. لكنك وأنت تراقبها نائمة، سوف ترى نموها الكلي في ذات اللحظة، تفتح خلاياها الذي لا يخطئ. إنها تتجمع، تنظم نفسها في ذلك الوجه المحبوب والذي سوف يظل دوما غامضا وإلى الأبد، تكرر إلى ما لا نهاية تلك الحدة الطرية للأنف البشرية، وأذن استعيرت من صدفة حلزون بحري، وحاجب عيني تراه وقد تشكل على منوال السراخس، أو شفتان ابتدعتا من محارة ذات مصراعين وقد اتحدا في نومها. إن كل هذه العملية عملية إنسانية، تحمل اسما يخترق قلبك، وتقدم لك حلما مجنونا عن الخلود الذي يدحضه الزمن مع كل نفس يدخل الإنسان. ماذا لو كانت الشخصية البشرية وهما؟ وماذا لو كانت تحل محل كل خلية في أجسادنا، كما يخبرنا علم الأحياء، خلية أخرى كل سبعة أعوام؟ المسألة على أكثر تقدير، أنني أمسك بين ذراعي شيئا ما أشبه بينبوع من لحم، دائم اللهو والتلاعب، وفي عقلي أنا قوس قزح من تراب». وسمعت صوت بورسواردن الحاد، يجيء كالصدي من الطرف الآخر للبوصلة، قائلا، ليس هنالك من شخص آخر، هنالك ذات المرء فقط وهو يواجه إلى الأبد مشكلة اكتشاف نفسه.

وانجرفت مرة أخرى إلى النوم ، وعندما استيقظت مجفلا كان الفراش خالياً ، والشمعة ذابت وانطفأت . كانت تقف عند الستائر وقد أزاحتها لتراقب ظهور الفجر فوق الأسطح المختلطة للمدينة العربية ، عارية ونحيلة مثل زنبقة عيد الفصح . وتلقت مع مشرق شمس الربيع ، بندااه الكثيف المرسوم في خطوط فوق الصمت الذي يغلف المدينة كلها قبل أن توقظها الطيور ، الصوت العذب للمؤذن الأعمى من الجامع ينشد العبد (*) صوت معلق كشعرة في أجواء الإسكندرية العليا بنخيلها البارد : « أسبح بكمال الخالق ، الموجود إلى الأبد ، الإله الكامل ، المبتغى ، الواحد ، الأسمى ، كمال الخالق الواحد الأحد » وأدارت الصلاة العظمى نفسها في لفات متألقة عبر المدينة ، بينما أراقب وقار وحدة عاطفتها وهي تدير رأسها من حيث كانت تقف لتشهد الشمس المتسلقة تلمس بالضوء المنائر وأشجار النخيل : مستغرقة ومسيطة . وشممت ، وأنا أستمع ، رائحة شعرها الدافئة إلى جوارى فوق الوسادة . وتملكتنى فرحة بحرية جديدة أشبه بجرعة مما كان القابال يقول عنها ذات يوم : « ينبوع كل ما هو موجود » وناديت « كليا » ، في رقة ، إلا أنها لم تنبه إلى ، وهكذا نمت مرة أخرى . كنت أعرف أن كليا سوف تشاطرنى كل شيء ، دون أن تحتجز شيئاً - ولا حتى نظرة الرفقة التي تحتفظ بها النساء لمراياهن فقط .

* * *

(*) بالعربية بحروف لاتينية .

[٢]

استدعتنى المدينة ثانية، نفس المدينة التى غدت الآن أقل صرامة وأقل إثارة للرعب، على نحو ما، عما كانت عليه فى الماضى، وذلك بسبب بعض الإحلالات الزمنية الجديدة. كانت بعض أجزاء النسيج القديم قد بليت، إلا أن أجزاء أخرى تجددت. كان لدى، فى الأسابيع القليلة الأولى لعملى فى وظيفتى الجديدة، ما يكفى من الوقت كى أمارس كلاً من إحساسى بالألفة والاعتراب، أن أقيس الاستقرار فى مواجهة التغيير والماضى فى مواجهة الحاضر - وإن كان مجتمع أصدقائى قد ظل نسبياً كما كان، فإن مؤثرات جديدة قد دخلت، رياح جديدة قد هبت. لقد بدأنا جميعاً، مثلنا مثل تلك الشخوص الموجودة فوق الأقراص الدوارة فى متاجر تجار المجوهرات، ندير وجوها جديدة نحو بعضنا البعض. إن الظروف قد ساعدت أيضاً على توفير لحن جديد يصاحب اللحن القديم. كان من الواضح أن الجزء الذى لم يتغير من المدينة قد دخل الآن تحت مظلة الحرب. لقد جئت لأراها كما يجب دوماً أن تكون، ميناء بحرياً صغيراً رثاً، بنى فوق شعاب رملية، جدول مياه راكدة بلا روح، يشرف على الموت. إن هذا العامل المجهول، «الحرب» قد منحها، حقيقة نوعاً خادعاً من القيمة العصرية، إلا أن هذا ينتمى إلى العالم الخفى للاستراتيجيات والجيوش، وليس إلينا نحن قاطنى المدينة. لقد تضخم سكانها بآلاف

عدة من الالاجئين الذين يرتدون زيا خاصا، جذبتهم تلك الليالى الطويلة المشحونة بالكرب والألم الكئيب، والتي كانت خطرة نسبيا، حيث قصر العدو عملياته بدقة على منطقة الميناء. كانت منطقة صغيرة فقط من الحى العربى هى التى وقعت تحت النيران مباشرة، وظل الجزء العلوى من المدينة دون مساس نسبيا، إلا من خطأ فى التحكم، تحكمه المصادفة. كلا، كان الميناء فقط هو الذى يخمسه العدو، ويخمشه مثل كلب اشتعل بالجرب. كان رجال البنوك يصرفون أعمالهم، خلال النهار، على بعد ميل من الميناء كأنهم يتمتعون بمناعة نيويورك. كان اقتحام عالمهم أمرا نادرا وعرضيا. كانت رؤية واجهة متجر جرى نسفها تبدو كمفاجأة مؤلمة، كذا رؤية منزل أهل بالسكان وقد تفجر داخله إلى خارجه، وكل ملابس سكانه تتدلى قلائد من الأشجار المجاورة. لم يكن هذا جزءا مما هو متوقع للأشياء باعتباره أمرا طبيعيا. كان له وقع الصدمة التى تحدث فقط، وبصورة نادرة، عند وقوع حوادث الشوارع المفزعة.

كيف تغيرت الأمور؟ لم يكن ذلك هو الخطر حينذاك، لكن كانت هنالك خاصية أخرى أيسر تحليلا هى التى جعلت فكرة الحرب أكثر تميزا، إنه الإحساس بتغير ما فى الكثافة النوعية للأشياء. كان الأمر وكأن الأوكسجين المحتوى فى الهواء الذى نتنفسه يتناقص باطراد، يوما بعد يوم وبطريقة غير مرئية. وجاءت، جنبا إلى جنب، مع هذا الإحساس، بتسمم الدم الذى لا تفسير له، ضغوط أخرى مادية خالصة تسببت فيها الأعداد المتغيرة الهائلة من الجنود، وقد أطلق الموت المزدهر فيهم العواطف والفجور المدفونة فى كل قطيع. إن مرحهم العنيف إنما هو محاولة مستميتة لمجاراة ثقل الأزمة التى وضعوا فيها. كانت ثوراتهم الهائجة التى تتفجر عن ضغينة مستترة وضجر وسأم ترهق المدينة وتلفها، فى بعض الأحيان، حتى يشحن الجو بروح الكرنفال المجنونة. الباحثون

عن المتعة الحزينة البطولية، يشيرون الاضطراب والتمزق فى كل التآلف والتوافق القديم، الذى كانت تقوم عليه العلاقات الشخصية، ينهكون ويرهقون الصلات التى تربطنا ببعضنا البعض. كنت أفكر فى كليا وما يشير اشمئزازها من الحرب وكل ما كانت تناصره. كانت تخاف، كما أعتقد، أن تسمم هذه الحرب العالمية المنتشرة حولها، وحقيقتها الفظة المغموسة فى الدماء، قبلاتنا وتلوثها، ذات يوم.

«إنه من الصعوبة بمكان أن يحتفظ المرء برأسه، أن يتفادى هذا الاندفاع الجنسى الغريب للدم إلى الرأس، والذى يجىء مع الحرب، يستثير النساء بما يتجاوز قدرتهن على الاحتمال، لم أكن أتصور أن رائحة الموت يمكن أن تستثيرهن هكذا!

«دارلى، إننى لا أود أن أكون جزءا من هذه الخلاعة العقلية المريضة، ذلك الفيض من المواقير، وكل هؤلاء الرجال البؤساء يتزاحمون هنا. لقد غدت الإسكندرية ملجأ هائلا للأيتام. كل امرئ يغتصب الفرصة الأخيرة فى حياته. أنت لن يمضى عليك طويل وقت هنا حتى تحس بهذا الإنهاك، الذى يفقد المرء معرفته بوجهته. لقد كانت المدينة دوما محافظة، تمارس متعها بطريقة تتمسك بالسير على الوقع القديم، حتى فى مسألة السرر المؤجرة، إلا أنها لم تمارسها أبدا مستندة إلى حائط أو شجرة أو سيارة نقل! الآن تبدو المدينة، فى بعض الأحيان، أشبه بمبولة عامة كبيرة. إنك تتعثر فى أجساد السكارى وأنت عائد إلى منزلك ليلا. إننى أعتقد أن الظلمة قد سلبت منها حتى القدرة على تحقيق الشهوة، فكان الشراب هو العوض عن هذه الخسارة! إلا أنه ليس لى مكان فى كل هذا. إننى لا أستطيع أن أرى هؤلاء الجنود كما يراهم بومبال. إنه يتأملهم متشيا كطفل، وكأنهم جنود من رصاص لامع، إنه يرى فيهم الأمل الوحيد لتحرير فرنسا. إننى أحس فقط بالخجل من أجلهم، كما يحس المرء وهو يرى أصدقاءه فى لباس

المجرمين. إننى أحس، إن استبعدنا الخجل والإشفاق، أننى أدير وجهى بعيدا. أوه دارلى! إن الأمر لا يبدو مقبولا تماما من الناحية العقلية، فأنا أدرك أننى أوقع بهم ظلما غريبا. من المحتمل أن يكون ذلك مجرد أنانية، لذا فإننى أفرض على نفسى تقديم الشاى لهم فى المقاصف المختلفة، ألف لهم الضمادات، أنظم الحفلات الموسيقية. إلا أننى أحس فى أعماقى أننى أتضاءل كل يوم لقد آمنت دوما، رغم ذلك، أن حب البشر يمكن أن يزدهر بقوة أكبر، إن انبثق من نكبة مشتركة. ليس هذا صحيحا. إننى أخشى الآن أن تبدأ أنت أيضا فى التقليل من حبك لى، بسبب هذا الفكر الذى يتسم بالسخف، هذه المشاعر المنفعلة التى تثير النفور. أن نجلس هنا، أنا وأنت فقط، فى ضوء شمعة، يكاد يكون معجزة فى هذا العالم. ليس فى مقدورك أن تلومنى لمحاولتى ادخار هذه اللحظة وحمايتها فى مواجهة العالم الخارجى الذى يقتحم حياتنا. هل فى مقدورك أن تفعل ذلك؟ وللغرابة، فإن أكثر ما أكرهه فى كل ما يجرى، هو الإفراط فى رقة العاطفة والتى يصدر العنف عنها فى النهاية!

فهمت ما كانت تعنيه، وما كانت تخافه، ومع ذلك، ففى أعماق أنانيتى الداخلية كنت سعيدا بهذه الضغوط الخارجية، إذ إنها حددت معالم عالمنا بدقة، دفعتنا معا أقرب وأقرب، عزلتنا! كان على أن أقبل، فى الزمن الماضى، بأن يشاركنى فى كليا مضيف آخر من الأصدقاء والمعجبين، أما الآن، فلا.

ومن الغريب أيضا، أن بعض تلك العوامل حولنا، والتى تدخلنا فى شباك نضالاتها الميته، قد منحت عاطفتنا الجديدة أداء لا يقوم على اليأس، لكنه يقوم، على أى حال، وبالتأكيد أيضا، على إحساس بالوقتية فقط وعدم الدوام، كان من نفس طراز ذلك الهياج التناسلى للجوش المختلفة، والذى يتسم بالخلاعة والتهتك الكئيب، وإن كان مختلفا فى النوع. كان

من المستحيل تماما إنكار حقيقة أن الموت، على وجه التحديد (والذي ليس في القرب منا، وإن كان في الجو حولنا) يشحذ القبلات ويضيف توقدا يتجاوز القدرة على الاحتمال لكل ابتسامة وضمة يد. لم أكن جنديا، ورغم ذلك، فإن علامة الاستفهام القاتمة كانت تحوم فوق أفكارنا، إذ إن الموضوعات التي تشغل القلب كان متأثرة بشيء ما، نحن جميعا جزء منه، مهما كان ذلك على مريض: إنه عالم بأكمله، إن الحرب مالم تكن تعنى طريقة للموت، فإنها تعنى طريقة للشيخوخة، لتذوق الابتذال البشري، ولتعلم مواجهة التعبير في شجاعة. لا أحد يستطيع التكهّن بما يرقد خلف الباب المغلق لكل قبلة. كنا نجلس في تلك الأمسيات الهادئة الطويلة، قبل أن يبدأ القصف بالقنابل، فوق السجادة المربعة الصغيرة، في ظل ضوء الشموع، نناقش تلك القضايا، نقاطع صمتنا بالأحضان، والتي كانت هي الإجابة الوحيدة غير الوافية التي يمكن أن نقدمها لما عليه البشرية من وضع. كنا ونحن نرقد كل في حضن الآخر، خلال تلك الليالي الطويلة بنومها المتقطع، تحطمها صفارات الإنذار، لا نتحدث عن الحب أبدا (كأنما باتفاق سابق)، ربما كان نطق الكلمة اعترافا منا بنوع من الحالات الأكثر ندرة وإن كانت أقل كمالات من تلك الحالة التي تأخذ الآن بآلبابنا، تكمل تماما هذه العلاقة التي حدثت دون تدبير سابق هناك، في مكان ما، في كتاب «عادات» (*) تنديد عاطفي بهذه الكلمة. إنني لا أستطيع تذكر على لسان من وضع هذا القول، ربما على لسان جوستين: «يمكن تعريفه كنمو سرطاني مجهول الأصل، اتخذ موضعه في أي مكان دون معرفة من أصيب به أو رغبته. كم حاولت أنت عبثا أن تحب الشخص «الصحيح»، حتى بعد معرفة قلبك أنه قد عثر عليه بعد طول بحث؟ كلا، إن هذب عين، عطر، مشية كالطيف، حبة كرز فوق الرقبة، رائحة اللوز

(*) بالفرنسية في الأصل.

فى الأنفاس؁ إنما تشكل كلها العناصر المتواطئة التى تبحث الروح عنها
لتخطط لسقوطك وهزيمتك».

إننى عندما أفكر فى تلك المقاطع؁ وهى كثيرة فى ذلك الكتاب؁ بما
تحتويه من فراسة وحشية؁ أستدير إلى كليا النائمة؁ أتأمل المنظر الجانبى
الهادئ لوجهها حتى... حتى أستوعبها؁ أنهلها كلها؁ دون أن أريق منها
قطرة واحدة؁ أن أمزج نبضات قلبى بنبضاتها «إننا إن أردنا أن نكون
قريبين بأية وسيلة؁ فإننا سنظل بعيدين تماما عن بعضنا البعض»؁ هكذا
كتب الأرنأؤوطى.

بدا أن هذا ليس صحيحا بعد بالنسبة لظروفنا. أم هل كنت؁ فى بساطة؁
أخدع نفسى مرة أخرى؁ أحرف الحقيقة بما ورثته رؤياى من فوضى
واضطراب؟ إننى؁ وباللهراة الشديدة؁ لم أعد أعرف الآن أو أبالى.
أوقفت عقلى عن البحث والتدقيق؁ تعلمت أن آخذها كما آخذ جرعة
صافية من نبع ماء.

«هل كنت تراقبنى وأنا نائمة؟».

«نعم».

«هذا ظلم! ولكن فىم كنت تفكر؟».

«أشياء كثيرة».

«من الظلم أن تراقب امرأة نائمة؁ فى حالة من اللاوعى».

«لقد غيرت عيناك لونهما مرة أخرى. هل تدخنين؟».

(فم تلتخ أحمر شفاهه قليلا تحت القبلا؁ الشولتان الصغىرتان اللتان
تكادان تكونان نتوءين؁ متأهبتين للتحول إلى غمازتين؁ عندما تأخذ البسمات

الكسولة طريقها إلى السطح. إنها تتمطى، تضع ذراعيها تحت رأسها، تدفع إلى الخلف بقمة شعرها الأشقر الذى يمسك ببريق ضوء الشمعة. لم تكن تمتلك فى الماضى هذا السلطان على جمالها. لقد أصبحت تمتلك إيماءات جديدة وحركات جديدة، واهنة ضعيفة، لكنها كافية للتعبير عن هذا النضج الجديد. حسية صافية لا يشتها التردد، أو ما تلقىه على نفسها من أسئلة. تحولت الأوزة الساذجة القديمة إلى هذه الشخصية اللطيفة، المؤثرة حقاً، المنسجمة الروح والجسد تماماً كيف حدث هذا؟).

أنا: «كيف استطعت بحق الشيطان الحصول على كتاب بورسواردن المبتذل ذاك؟ لقد أخذته اليوم معى إلى مكتبى».

هى: «ليزاً، لقد طلبت منها شيئاً يذكرنى به. إنه أمر سخيف، كأنما يمكن للمرء أن ينسى هذا الوحش. إنه فى كل مكان. هل أفزعتك مذكراته؟».

أنا: «نعم. لقد بدا الأمر وكأنه قد ظهر إلى جوارى. إن أول ما وقعت عليه كان وصفا لرئيسى الجديد، ماسكيلين بالاسم. يبدو أن بورسواردن قد عمل معه ذات يوم. هل أقرؤها لك؟».

هى: «إننى أعرفها».

(كان مثل الغالبية من مواطنى يحمل شعاراً يدويا كبيراً مزخرفاً يتدلى على مقدمة عقله، يقول، لا إقلاق مهما كان السبب، كان يضبط، فى وقت ما فى الماضى البعيد، مثل ساعة من كوارتز. سوف يواصل طريقه ثابتاً لا يتردد «مثل آلة ضبط الزمن لا تجعل غليونيه يثير فزعك، فالمقصود به إعطاء جو من يحكم بالعدل والحق. الرجل الأبيض يدخن نفخات فى نفخات، الرجل الأبيض يمعن التفكير فى نفخات. والحقيقة أن الرجل الأبيض نائم فى عمق تحت شعارات المكتب، الغليون، الأنف، المنديل المنشى حديثاً والبارز من كم قميصه»).

هى: «هل قرأتها لماسكلين؟».

أنا: «بالطبع كلا».

هى: «هنالك فيها، عتا جميعا، أشياء جارحة. ربما كان ذلك هو سبب استحسانى لها! كان فى وسعى أن أسمع صوت الوحش وهو ينطقها. إننى أعتقد أننى الوحيدة، كما تعرف يا عزيزى، التى أحبت بورسواردن العجوز لذاته، بينما كان حيا. كنت أعرف ما يقصد. إننى أقول: إننى أحبته لذاته، لأنه تحديدًا لم يكن له ذات. بالطبع كان فى وسعه أن يكون متعبا، صعبا، قاسيا، مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر. إلا أنه تمثل شيئا ما - قبضة من شيء ما. ذلك هو السبب فى أن عمله سوف يبقى حيا، يمضى قدمًا، يبعث ضوءا، هذا ما يمكن قوله. أشعل لى سيجارة. لقد نحت لنفسه موطن قدم فى جرف الجبل، أعلى قليلا مما كنت أجرؤ على الذهاب إليه، النقطة التى ينظر المرء منها إلى القمة لأنه يخاف النظر إلى أسفل! لقد قلت لى إن جوستين قالت شيئا كهذا. أعتقد أنها قد توصلت إلى نفس الشيء بطريقة ما، إلا أننى أظن أنها كانت ممتنة له، مثلها مثل حيوان أخرج له سيده شوكة من كفه. لقد كانت فراسته أنثوية للغاية، وأشد حدة من فراستها - أنت تعرف أن النساء يحبين بالغريزة، ذلك الرجل الذى يتمتع بكثير من الأنوثة. إنهن يظنن بأن هنالك فقط، يوجد المحب الذى فى استطاعته أن يحقق هويته معهن ل... يخلصهن من مجرد كونهن نسوة، وسيط كيميائى، مسن أمواس، مسن زيت. إن كثرتهن تحب لعب دور أداة اللذة(*)!».

أنا: «لماذا تضحكين فجأة هكذا؟».

«كنت أتذكر كيف تصرفت بطريقة حمقاء مع بورسواردن. إننى أعتقد بضرورة أن أخجل مما فعلت! سوف ترى ماذا كتب عنى فى مفكرته. إنه

(*) بالفرنسية فى الأصل.

يدعونى بالأوزة الهانوفرية الريانة، الفتاة الوحيدة الجميلة بحق. إننى لا أستطيع تذكر ما الذى سيطر علىّ، غير أنى كنت قلقة على ممارستى لفن الرسم بالزيت، لقد نضب منى. لم أعد أستطيع التقدم بصورة ما، أصبح قماش الرسم يصيبنى بالصداع. وأخيرا قررت أن مسألة عذريتى، التى تعصف بى، هى السبب الجذرى لهذه المشكلة. أنت تعلم أنها مسألة رهيبية أن تكون الفتاة عذراء؛ إنها أشبه بعدم دخول المرء إحدى الكليات، أو حصوله على البكالوريوس، أنت تتوق إلى التخلص منها، ومع ذلك.. وفى نفس الوقت، يجب أن تكون تلك التجربة مع شخص تهتم أنت به، وإلا فإنها سوف تكون بلا قيمة لك فى داخلك. حسنا، هنا توقفت. وقررت بضربة من تلك الضربات الخيالية المتميزة والتى كانت تؤكد، فى الماضى، غبائى لكل امرئ. خمن ماذا قررت؟ أن أقدم نفسى جادة إلى الفنان الوحيد الذى كنت أعرف أننى أستطيع الثقة به، حتى يخلصنى من شقائى. فكرت أن بورسواردن سوف يدرك حالتى وبعض التقدير لمشاعرى. إننى أحس البهجة وأنا أتذكر ارتدائى حلة ثقيلة للغاية من فماش التويد وحذاء مسطحا ونظرات داكنة. كنت وجلة خجولة، كما ترى، وإن كنت أيضا مستميتة بنفس القدر. وأخذت أسير جيئة وذهابا، فى ممر الفندق خارج حجرته، فى يأس وتوجس، والنظارة القاتمة مشدودة إلى أنفى. كان هنالك فى الداخل. كان فى وسعى أن أسمعهم يصفر كما يفعل دائما عندما يرسم بالألوان المائية، صفارة بلا نغم، تثير الجنون. وأخيرا اقتحمت عليه الحجرة مثلما يفعل رجل الإطفاء منقضا على بناية تحترق، مما أثار فزعهم. قلت وشفطائى ترتعشان: «لقد جئت أسألك أن تزيل بكارتنى (*) أرجوك، إننى لن أستطيع التقدم فى عملى، أكثر من ذلك، مالم تفعلها».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

قلتها بالفرنسية. فقد كانت فى الإنجليزية ذات جرس قدر. وجفل. كل أنواع العواطف المتصارعة مرقت عبر وجهه مدة ثانية. ثم، وقد انفجرت دموعى جلست فجأة فوق مقعد. ألقى برأسه إلى الوراء وأخذ يزأر ضاحكا حتى سالت دموعه على وجنتيه، بينما جلست أنا هنالك بنظارتى القاتمة ألتقط أنفاسى.

«أخيرا انهار مرهقا فوق سريره، ورقد يحمق فى السقف. ثم نهض، وضع ذراعيه على كتفى، أزاح نظارتى، قبلنى، أعادها ثانية، وضع راحتيه على ردفه وأخذ يضحك ثانية، قال: «عزيزتى كليا، إنه حلم أى إنسان أن يأخذك إلى الفراش، وإنى لأعترف أننى قد سمحت كثيرا لهذه الفكرة بالتواجد فى ركن من عقلى أتساءل حولها ولكن.. يا أعز ملاك، لقد أفسدت كل شىء. ليست هذه هى طريقة التمتع بك، كما أنها ليست الطريقة التى تمتعين نفسك بها. اغفرى لى ضحكاتى! لقد أفسدت حلمى بطريقة فعالة. إن تقديم نفسك إلىّ بهذه الطريقة، دون أن تكونى راغبة فىّ، إنما هو إهانة لا اعتزازى بذكورتى، حتى إننى لا أستطيع، فى بساطة، الإذعان لمطلبك. إن اختيارك لى، دون غيرى، إنما هو تكريم لى، كما أعتقد إلا أن اعتزازى بذاتى أكبر من ذلك! إن مطلبك، إنما هو فى الحقيقة أشبه بدلو أفرغ فوق رأسى! سوف أعتز دوما بهذا التكريم. وآسف على الرفض، ولكن... لو أنك تخيرت طريقة أخرى لفعلها، لأسعدنى قيامى بها سعادة فائقة! لماذا كان عليك أن تدعينى أرى أنك لا تهتمين بى حق الاهتمام(*)؟»

«مخط فى وقار فى ركن الملاعة. أخذ نظارتى، وضعها على أنفه ليرى نفسه فى المرآة. عاد يحمق فىّ حتى فاضت التمثيلية الهزلية مرة أخرى، وأخذنا نضحك نحن الاثنين. وأحسست بشعور فظيع بالراحة. وافق،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

عندما أخذت أصلح زيتى التى تلفت فى المرأة، على أن آخذه إلى العشاء
لنناقش مشكلة الرسم بالزيت فى أمانة رائعة كريمة. استمع المسكين فى
صبر لما قلته من هراء! قال: «فى وسعى أن أخبرك فقط بما أعرف، وهو
ليس بالكثير. أولا يجب أن تعرفى وتفهمى، ذهنيا وفكريا، ما الذى تودين
فعله، ثم عليك أن تمارسى قليلا من المشى، وأنت نائمة لتصلى إليه. إن
العقبة الأساسية هى المرء ذاته. إننى أؤمن أن الفنانين يتكونون من الاعتداد
والاعتزاز، البلادة والتنبلة والإعجاب بالذات. إن عوائق العمل إنما تتأتى
من تضخم الأنا على واحدة من تلك الجبهات أو عليها كلها. أنت تفزعين
قليلا لما تتخيلينه من أهمية لما تقومين به من أعمال! إنها عبادة المرأة.
إن الحل الذى أراه هو أن تضعى كمادة فوق تلك الأجزاء المتلهبة، أن
تقولى للأنا الخاصة بك، اذهبى إلى الجحيم، ولا تكونى مصدر شقاء،
لما يجب أن يكون أساسا، مصدر مرح وفرح» قال فى ذلك المساء أشياء
أخرى كثيرة، إلا أننى نسيت البقية. إلا أن مجرد الحديث إليه كان شيئا
مثيرا للضحك، مجرد أن يتحدث إليك، أوضح الطريق أمامى ثانية وفى
اليوم التالى أرسل لى ورقة من الملاحظات النبؤية عن الفن (Φ). وبدأت
العمل، مرة أخرى، فى صبيحة اليوم التالى، صافية مثل ناقوس. ربما
كان، بطريقة ما تثير الضحك، قد نزع بكارتى (*) وأسفت أننى لم أكن
مستطاعة مكافأته بما يستحق، لكننى أدركت أنه كان على صواب. كان
على أن أنتظر عودة المد. ولم يحدث ذلك إلا مؤخرا، وأنا فى سوريا،
فيما بعد. كان فيه، عندما جاء، شىء مر وحاسم. وارتكبت نفس الأخطاء
المعتادة التى يرتكبها المرء لانعدام الخبرة، والتى عليه أن يدفع بسببها،
هل أخبرك بما حدث؟».

أنا: «إن أردت أنت ذلك فقط».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

هى: «لقد وجدت نفسى فجأة، وبلا أمل، قد ارتبطت بشخص كنت قد أعجبت به منذ سنوات عدة مضت، إلا أننى لم أتصوره أبداً فى مقام المحب، لقد ألفت بنا المصادفة معاً لشهور قليلة قصيرة. إننى لا أعتقد أن آيا منا قد تنبأ بهذه الصاعقة.

«أمسكت النار بكلينا، وكأن كأساً خفية مشتعلة كانت تصلينا بنارها، فى مكان ما هناك، دون أن نعى ذلك. كان غريباً أن تكون تجربة جارحة هكذا، تجربة جيدة أيضاً هكذا. إيجابية الخصوبة هكذا كنت، كما أعتقد، أتلهف، إلى حد ما، كى أجرح - وإلا ما كنت فعلت الأخطاء التى فعلتها. كان شخصاً مرتبطاً بالفعل بأخرى. وهكذا لم يكن هنالك البتة، منذ البداية، ادعاء أو دوام لارتباطنا. ومع ذلك (وهنا يجىء غبائى المشهود مرة أخرى) رغبت فى أن أحصل على طفل منه. إن التفكير للحظة فقط كان كفيلاً بأن يوضح لى استحالة هذا الأمر، إلا أن التفكير للحظة، ذاك، جاء فقط بعد أن غدوت حبلى بالفعل. واعتقدت أننى لن أبالى، إن كان لا بد أن يذهب بعيداً، وتزوج من واحدة أخرى، فأنا على الأقل، أحمل طفله، بين جنباتى! إلا أننى ما إن اعترفت بذلك، وفى ذات اللحظة التى خرجت فيها الكلمات من شفتى، استيقظت فجأة وقد أدركت أن ذلك سوف يخلق بينى وبينه رباطاً أبدياً ليس لى الحق فيه. وحتى أضع الأمر جلياً واضحاً، فقد كان ذلك يعنى حصولى منه على مزية، أخلق له مسئولية، لا بد أن تعيقه وتقيدته خلال زواجه. هبطت على الفكرة فى لمح البصر، فابتلعت لسانى. كان حسن حظى كبيراً فلم يسمع كلماتى. كان يرقد هكذا مثلك الآن، نصف نائم، ولم تلتقط أذناه همسى قال، «ماذا قلت؟» واستبدلت ما قلت بشيء آخر، جاء عفو الخاطر وغادر سوريا بعد شهر من ذلك. كان يوماً مشمساً مشحوناً بطنين النحل، وأدركت أنه يجب على أن أتخلص من الطفل لقد أسفت لذلك أسفاً مريراً، إلا أنه، على ما يبدو، لم يكن هنالك من وسيلة

شريفة أخرى لمعالجة الأمر. سوف تعتقد، على الأرجح، أنني كنت مخطئة، لكنني سعيدة إذ اتخذت هذا السبيل، حيث كان من الممكن أن يخلد شيء ليس له حق الوجود خارج هذه الشهور الذهبية القليلة. إنني، بغض النظر عن ذلك، ليس لدى ما آسف عليه. لقد نموت نموًا لا حد له بسبب هذه التجربة. لقد أفعمت بالامتنان ومانلت كذلك. وإن كنت أنا الآن سخية في مضاجعتي، فما ذاك إلا لأنني أرد ما على من دين. وأحيل حبا قديما اقترضته، فيما مضى، إلى حب جديد.

«دخلت أحد المستوصفات لأنهي هذا الأمر. وفيما بعد ناداني الرجل العجوز الحنون طبيب التخدير إلى بالوعة قدرة ليريني القزم الصغير الشاحب بأظفاره وأعضائه الدقيقة، وبكيت في مرارة. بدا مثل صفار بيض وقد سحق سحقًا. وقلبه العجوز في فضول، بشيء أشبه بسكين الصيدلي، كما يمكن للمرء أن يقلب شريحة رقيقة من لحم الخنزير المقدد في مقلاة، وعجزت عن مجاراة فضوله العلمي المجرد. ابتسم وقال، «لقد انتهى الأمر لا بد أنك تحسين بالراحة!» كان ذلك حقيقيا، إذ رغم حزني، كان هنالك ارتياح حقيقي بالفعل لأنني فعلت ما كنت أراه صوابا. كان هنالك، كذلك شعور بالضيق أحس قلبي وكأنه عصفور الجنة وقد سطا عليه من سرقة.

«وهكذا عدت مرة أخرى إلى الجبال، إلى نفس الحامل وقماش الرسم الأبيض. كان الأمر مثيرا للضحك، إذ أدركت بدقة أن أكثر ما جرحني كامرأة، هو أكثر ما أنعشني كفنانة. إلا أنني افتقدته بالطبع لزمان طويل. مجرد كائن مادي يفرض صلته دون إدراكي، مثل قطعة من ورق السجائر على الشفة. إن جذبها موجه، يسلخ أجزاء من الجلد! تؤلم أو لا تؤلم، أمر تعلمت احتماله، بل وحتى التعلق به. إذ مكنتني من الوصول إلى تفاهم مع تخيل آخر، أو بالأحرى رؤية العلاقة بين الجسد والروح على

نحو جديد، حيث إن بنية الجسد ليست إلا السطح الخارجى، الخطوط المحيطة بالروح، جزؤها الصلب إذ عبر الشم والمذاق والملمس نفهم بعضنا البعض، نشعل عقل بعضنا البعض. التعريف تنقله رائحة الجسد بعد رعشة الجماع، النفس، مذاق اللسان، رغم أن المرء «يعرف» كل تلك الأشياء بطريقة بدائية، هنا كان يوجد رجل عادى تماما دون مواهب استثنائية، إلا أنه كان بالنسبة لى، حسناً جداً، فى مجاله ومحيطه، هكذا يمكن القول، كان يفوح بشذا الأشياء الطبيعية الجيدة. مثل الخبز حديث النضج، البن المحمص، البارود وخشب الصندل. إننى أفتقده، عند تناول هذا المجال من الحديث، كما أفتقد وجبة لم أشبع منها. إننى أعرف أن لقولى هذا جرساً سوقياً!

«إن بارا سلسيوس يقول: «إن الأفكار إنما هى أفعال». وأنا أعتقد أن الجنس، منها كلها، هو أكثر الأفعال أهمية، أكثر فعل تكشف فيه أرواحنا عن ذواتها. ومع ذلك، فإن المرء يحس به كنوع من التعبير الشعري، العقلى، الفكرى، على نحو آخر أخرق، يشكل نفسه فى قبلات وعناق الحب الجنسى معرفة فى مجالى علم اشتقاق اللغة والحقيقة المجردة، «لقد عرفها»، هكذا يقول الإنجيل! الجنس هو الرابطة أو الاقتران الذى يوجد. مجرد نهايات المعرفة عند الذكر والأنثى، سحابة من المجهول! عندما تسير الثقافة نحو الأسوأ فى مجال الجنس، فإن المعرفة كلها تثبط وتعوق، نحن النساء نعرف ذلك. لقد حدث ذلك عندما كتبت إليك إن كان فى وسعى الحضور لزيارتك فى جزيرتك. كم أنا ممتنة لك أنك لم تجب على رسالتى. كان تصرفاً خاطئاً منى فى ذلك الوقت. لقد أنقذنى صمتك! آه، اغفر لى، يا عزيزى، إن أنا أثقلت عليك بتساؤلاتى، إذ أرى أنك تبدو ناعساً على نحو ما! إلا أن الثرثرة معك، فيما بين مضاجعة وأخرى، متعة غامرة! إنها بدعة استحدثتها ففىما عداك، ليس هنالك غير بلتازار العزيز،

والذى يجرى بالمناسبة، إعادة تأهيله فى خطى سريعة. لكنه أخبرك؟ لقد غرق فى الدعوات منذ مآدبة ماونت أوليف، ويبدو أنه سيواجه صعوبة محدودة حتى يعيد عيادته إلى العمل ثانية».

أنا: «لكنه بعيد عن التوافق مع سنتيه».

هى: «أعلم ذلك. إنه لا يزال مهزوزا وعصيبا، وكان يجب ألا يكون كذلك. إلا أن كل شيء يسير إلى الأمام بثبات، وفى اعتقادى أنه لن يسقط».

أنا: «ولكن ماذا عن شقيقة بورسواردن هذه؟».

هى: «ليزا! أعتقد أنك ستعجب بها، وإن كنت لا أستطيع القول إنك ستحبها. إنها رائعة، وربما كانت، فى الحقيقة، مخيفة بعض الشيء. إن العمى لا يبدو مصدر عجز لها، إنه أقرب إلى أن يضيف عليها تعبير يقظة مضاعفة. إنها تستمع إلى المرء، وكأنها تستمع إلى موسيقى، إنه تركيز يثير فى المرء، على الفور، إحساسا بتفاهة غالبية ما ينطق به. إنها مختلفة عنه، وإن كانت جميلة للغاية، رغم شحوبها شحوب الموت. حركاتها سريعة وواثقة بصورة مطلقة، خلافا لغالبية المصابين بالعمى. إننى لم أرها البتة تخطئ فى مقبض باب أو تتعثر فى حصيرة أو تتوقف لتحديد اتجاهها فى مكان غريب عنها. إن كل الأخطاء الصغيرة التى يقع فيها فاقد البصر، مثل الحديث إلى مقعد خلا لتوه ممن كان يشغله، غير موجودة. إن المرء ليتساءل، أحيانا، إن كانت عمياء حقا. لقد جاءت إلى هنا لتجمع إنتاجه، ولتحصل على مادة عنه من أجل سيرته الشخصية».

أنا: «لقد ألمح بلتازار إلى سر ما».

هى: «هنالك شك ما أن دافيد ماونت أوليف يحبها بلا أمل. لقد بدأ

الأمر فى لندن كما أخبر هو بـلتازار. إنه بالتأكيد ارتباط غير عادى، يقدم عليه شخص سليم تماما، ومن الواضح أنه يعود على كليهما بقدر كبير من الألم. إننى كثيرا ما أتخيلهما، والثلج يسقط فى لندن، وقد وجدا نفسيهما، وجها لوجه، مع «الشيطان الهازل»! يالدافيد المسكين! ومع ذلك، لماذا أنطق مثل تلك العبارة المتعطفة؟ يالدافيد المحظوظ! إن فى وسعى إخبارك بالقليل الذى يقوم على نتفة من حديث بـلتازار، فجأة، وفى سيارة أجرة تترنح، تسرع بعيدا نحو الضواحي، أدارت وجهها نحوه وقالت: إنه قد قيل لها: إن عليها توقع قدومه منذ سنوات عديدة مضت، وإنها لحظة أن سمعت صوته، عرفت أنه الغريب النبيل الأسمر الذى قالت به النبوءة. إنه لن يتركها أبدا - وطلبت منه، فقط، إذنا بالتيقن من ذلك، ضاغطة أصابعها الباردة على وجهه تتحسسه كله، قبل أن تغرق ثانية فى الوسائد الباردة وهى تتنهد! نعم، كان هو بالفعل. لا بد أنه كان غريبا، أن يحس المرء أصابع فتاة عمياء تضغط ملامحه بلمسة نحات - وقال دافيد: إنه أحس برعشة تسرى عبره، وإن كل الدم قد غادر وجهه، واصططكت أسنانه! فأمسك بها معا، وهو يئن أنينا عاليا. وهكذا جلسا هنالك، يدا فى يد، يرتعشان بينما ضوء الجليد المحيط بهما يتحرك فى سرعة على النوافذ، ووضعت، فيما بعد، إصبعه فوق الخط الدقيق فى يدها والذى ينبئ عن حياة مختلفة، وعن بزوغ تلك الشخصية غير المتوقعة لتسيطر عليها! إن بـلتازار، مثلك أنت، يشكك فى مثل تلك النبوءات، ولا يستطيع تفادى تعليقا عليها فيه تورية تهكمية فكهة وهو يستعيد القصة. إلا أن الافتتان قد دام، كما يبدو، حتى الآن. ولذا فإنك، وأنت المتشكك، ربما ستسلم بإرجاع شىء ما إلى قوة النبوءة!

«حسنا، بموت أخيها جاءت إلى هنا. أخذت فى فرز أوراق ومخطوطات، كما عقدت بالمثل لقاءات مع هؤلاء الذين كانوا يعرفونه.

لقد جاءت إلى هنا مرة أو اثنتين كى تتحدث معى. لم تكن المسألة برمتها، بالنسبة لى، سهلة، رغم أننى أخبرتها بكل ما استطعت أن أتذكره عنه. إلا أننى أعتقد أن السؤال الذى كان يشغل بالها حقاً، هو ذلك الذى لم تنطقه بالفعل. إنه تحديداً هل كنت فى أى وقت من الأوقات عشيقة بـ بـورسـواردن؟ إننى أعتقد، كلا، إننى واثقة أنها اعتبرتنى كاذبة، إذ إن ما قلته لها كان غير منطقى أبداً. ربما، فى الحقيقة، بسبب الغموض الذى أوحى بأن لدى شيئاً إداريه. إن قناع الموت الأسمى، المصنوع من الجص، والذى بينت لـبـلتـازار كيف يصنعه، لا يزال لدى فى المرسوم. لقد حملته إلى صدرها للحظة كأنما لترضعه، وقد اكتسى وجهها بتعبير ألم ممض بدت عيناها الكفيفتان وقد اتسعتا أكثر فأكثر حتى غمرتا الوجه كله، وتحولتا إلى كهف من الاستفهام والتساؤل. أحسست بضيق مرعب وحزن عندما لاحظت، فجأة أن نتفا صغيرة، قليلة، من شاربـه تلتصق بالجص. وعندما حاولت أن تضم القناع وتطابقه مع قسماتها هى، أمسكت بيدها تقريباً خشية أن تحس بها. إنه لأمر سخيف! إلا أن سلوكها أفرغنى وأثار كدرى. أحاطت بى أسئلتها. كان هنالك شىء ما يثير الخجل، بصورة غير قاطعة، حول هذه اللقاءات. كنت أعتذر طوال الوقت عقلياً لبـورسـواردن، لأننى لم أقدم عرضاً أفضل. إن على المرء رغم كل شىء، أن يكون قادراً على استخراج شىء ما معقول يقوله عن رجل عظيم عرفه تماماً خلال فترة حياته، وليس مثل أماريل المسكين الذى استشاط غضباً عندما رأى قناع موت بـورسـواردن يرقد قريباً من ذلك الذى لكيتس وبنلاك فى معرض الصور الوطنى. كان ذلك كل ما فى وسعه فعله، هكذا قال ليمنع نفسه من لطمه بيده. إنه بدلاً من ذلك سب الشىء قائلاً: «لماذا لم تخبرنى أنك كنت رجلاً عظيماً مر عبر حياتى؟ أحس أننى قد غبت لأنى لم ألاحظ وجودك مثل طفل نسى أحدهم أن يخبره

بمرور فخامة العمدة فى عربته، فضاع منه الحدث». لم يكن لدى مثل هذا العذر، ومع ذلك فما الذى كان فى وسعى أن أجده لأقوله؟ إننى أعتقد، كما ترى، أن هنالك عاملاً أساسياً فى كل هذا، إن ليزا تفتقد الإحساس بالفكاهة والمزاح، إذ عندما قلت: إننى ما إن أفكر فى بورسواردن حتى أجد نفسى أبتسم تلقائياً، بدت عليها تقطيع حائرة متسائلة ولا غير. من المحتمل أنهما لم يضحكا البتة معاً، هكذا قلت لنفسى، ومع ذلك فإن تماثلهم الوحيد الحقيقى كان فى الصحة البدنية، فى اصطفاف الأسنان ومقطع الفم. إنها عندما تكون متعبة، تضع على وجهها تعبير البراءة الذى ينبئ عن سرعة الخاطر إلا أننى أتوقع رؤيتك لها، وإخبارها بما تعرف، وبما فى وسعك أن تتذكر. ليس الأمر سهلاً، أن تواجه هاتين العينين الكيفيتين، وأن تعرف من أين تبدأ!

«أما عن جوستين، فقد كانت محظوظة، إنها قادرة حتى الآن على الإفلات من ليزا. إننى أعتقد أن القطيعة ما بين ماونت أوليف ونسيم قد قدمت عذراً كافياً وفعالاً، أو ربما أقنعها دافيد بأن أى اتصال بها قد يعرضه للخطر، من الناحية الرسمية. إننى لا أعرف إلا أننى أستطيع تأكيد أنها لم تر جوستين. ربما سيكون عليك أن تمدّها بصورة ما، إذ إن المراجع الوحيدة فى مذكرات بورسواردن قاسية ولا مبالية. هل لم تبلغ بعد تلك الفقرات فى كتابه المبتذل؟ كلا، سوف تبلغها إننى أخشى أن أحداً منا لم يفلت منه! أما عن أى سر حقيقى له أعماقه البالغة، فإننى أعتقد بخطأ بلتازار. إننى أعتقد أن المشكلة الأساسية التى تحيط بهما، هى فى بساطة تأثير كونها عمياء كلية. إننى فى الحقيقة متيقنة من الدليل الذى رأيته عيناى، خلال تلسكوب نسيم القديم... نعم نفس التلسكوب! كان من المعتاد وجوده فى القصر الصيفى، هل تتذكر ذلك؟ عندما بدأ المصريون تجريد نسيم من ممتلكاته، انشغلت الإسكندرية كلها فى الدفاع عن عزيزها -

اشترينا جميعا أشياء منه، وقد انتوينا الاحتفاظ بها حتى ينتهى كل شىء. اتباع آل سيرفونى حصته العربية، وجانزو السيارة التى عاد فباعها إلى بومبال، وبير بالبز التلسكوب. ولما لم يكن لديه مكان يضعه فيه فإن ماونت أوليف سمح له بأن يضعه فى شرفة المفوضية الصيفية. إنها موقع مثالى. إن فى وسع المرء، أن يمسح من خلاله، الميناء والجزء الأكبر من المدينة، كما أنه فى وسع الضيوف، وقت العشاء، أن يحملقوا فى النجوم حملة خفيفة. حسنا، لقد ذهبت إلى هنالك فيما بعد ظهر ذات يوم، حيث أخبرت أن كليهما قد خرج للنزهة، والتى كانت، بالمناسبة، عادة يومية لهما طوال الشتاء. كانا يقصدان الكورنيش بالسيارة، ثم يسيران، مدة نصف ساعة، أمام واجهة «ستانلى باى»، وذراع كل منهما فى ذراع الآخر. أخذت أعبث بالتلسكوب، إذ كان لدى ما يكفى من الوقت لقتله كان اليوم عاصفا، ومياه البحر عالية، والأعلام السوداء مرفوعة تنذر من خطر الاستحمام. كان هنالك عدد قليل من السيارات عند تلك النهاية من المدينة، ويكاد ألا يوجد هنالك من سائر على قدميه. سرعان ما رأيت سيارة السفارة تستدير عند الزاوية وتقف أمام واجهة البحر، وهبطت ليزا ودافيد منها، وأخذا يسيران بعيدا نحو نهاية الشاطئ. كانت رؤيتهما بهذا الوضوح أمرا مذهشا. كان لدى إحساس بقدرتى على لمسهما إن مددت يدي. كانا يتجادلان فى حدة وقد ارتسم على وجهها تعبير حزن وألم. رفعت من قوة التكبير، وأصابتنى صدمة إذ اكتشفت أنه فى وسعى أن أقرأ بدقة ما بينهما من حديث عبر حركة شفاههما! كان أمرا مخيفا، مخيفا حقا إلى حد ما لم أستطع «سماعه»، إذ كان وجهه مستديرا، إلى جانب، نصف استدارة، إلا أن ليزا كانت تنظر فى تلسكوبى وكأنها صورة عملاقة على شاشة السينما. كانت الريح تُطير شعرها الأسود إلى الخلف مثل الشوشة عند فوديهما، وبدت بعينيها الكفيفتين أشبه بتمثال يونانى قديم

يعود إلى الحياة. كانت تصرخ من خلال دموعها: «كلا، لا يمكن أن تكون لديك سفيرة ضريرة» كانت تدير رأسها من جانب إلى آخر وكأنها تحاول العثور على مخرج من هذه الحقيقة المخيفة، والتي يجب الاعتراف بأنها ما كانت تخطر ببالها حتى قيلت الكلمات. وأمسك بها دافيد من كتفها. كان يقول شيئاً ما بطريقة جادة تماماً، إلا أنها لم تكن تلتفت لما يقول. حررت نفسها في حركة مفاجئة، وعبرت في قفزة واحدة، مثل الوعل، الحاجز غير المرتفع لتهبط فوق الرمال. وأخذت تجرى نحو البحر، ودافيد يصرخ شيئاً ما. وقف مدة ثانية يشير نحو قمة الدرج الحجري الذي يقود إلى الشاطئ. استطعت أن أراه الآن في صورة واضحة، في تلك الحلة السمراء البيضاء، جميلة التفصيل، في لون الفلفل والملح، ووردة في عروة الزر، والصديري البني القديم الذي يحبه بأزراره المصنوعة من خليط النحاس والقصدير والتوتيا. بدا شخصاً عاجزاً محنقاً بصورة غريبة، كان شاربه يتطاير من الريح بينما وقف هناك. انطلقت تجرى في سرعة كبيرة إلى الماء مباشرة، فتناثر حولها، وقتم لون جونلتها حتى الفخذين، وتعطل اندفاعها. توقفت في حيرة مفاجئة واستدارت إلى الخلف، بينما اندفع هو خلفها ممسكاً بها من كتفها، يحتضنها، ووقفاً للحظة. كان المنظر غريباً للغاية والأمواج تلطم أرجلها، ثم عاد بها إلى الشاطئ وعلى وجهه نظرة امتنان وفرحة غريبة، وكأنه، في بساطة، كان مبتهجاً بهذه الحركة الغريبة منها. راقبتهما وهما يعودان إلى السيارة في عجلة كان السائق القلق واقفاً على الطريق وغطاء رأسه في يده. كان من الواضح أنه يحس بالراحة لعدم استدعائه كي يقوم بأي عمل يتطلبه إنقاذ الحياة. وحيثئذ قلت لنفسي: «سفيرة عمياء؟» ولماذا لا؟ إذن لو كان دافيد معتدل المزاج، فربما كان يفكر بينه وبين نفسه بأن «الأصالة وحدها يمكن أن تساعد مستقبلي، أكثر مما تعوقه، وذلك بخلق تعاطف مصنوع، يحل محل الإعجاب المشوب بالاحترام، والذي أستطيع الادعاء فقط بأن

الفضل فيه إنما يرجع إلى مكانتى!» ولكن، حتى تدخل مثل تلك الأفكار فى عقله، فلا بد أن يكون سليم الطوية تماما.

«ومع ذلك، فإنهما ما إن عادا من البحر مبللين بالمياه، حتى بدا جذلا بصورة غريبة». لقد وقعت لنا حادثة صغيرة صاح فى سعادة وهو ينسحب معها ليستبدلا ملابسهما - وبالطبع لم تكن هنالك أية إشارة إلى تلك الفلته، مرة أخرى، خلال ذلك المساء. وقد سألتنى فيما بعد إن كنت أقوم برسم صورة لليزا، وقد وافقت على ذلك. لم أدر بالضبط لماذا شعرت بالتوجس من هذا الموضوع. ما كان فى وسعى أن أرفض، ومع ذلك وجدت الكثير من الأساليب لتعطيل هذا الموضوع والعمل على إرجائه إلى ما لا نهاية إن استطعت. كان غريبا أن أشعر بما شعرت لا سيما أنها سوف تكون موضوعا رائعا، حتى إن اقتضى الأمر جلسات وأوضاع عدة، إذ ربما كنا نتعرف على بعضنا البعض أكثر من ذلك، كما أخفف التوتر الذى أحسه فى وجودها. كنت بالإضافة إلى ذلك، أود حقا القيام بهذا العمل من أجله، فقد كان دوما صديقا طيبا. لكن هنالك.. فضولى فى أن أعرف ماذا سوف تسألك عن أخيها، وفضولى فى أن أرى ما الذى سوف تجده لتقوله عنه».

أنا: «إنه يبدو وقد تغير شكله سريعا عند كل انحناءة فى الطريق، حتى إن المرء يكاد يجبر على مراجعة كل فكرة عنه بمجرد صياغتها. لقد بدأت أتساءل عن حق المرء فى الحكم بهذه الطريقة على أناس غير معروفين».

هى: «إننى أعتقد، يا عزيزى، أنك مصاب بهوس الدقة ونفاد الصبر، ارتباطا بمعرفة جزئية. وفى ذلك ظلم للمعرفة ذاتها، كيف يمكن أن يكون هذا، أى شىء، غير التصور؟ إننى لا أفترض أن يحمل الواقع البتة أى تشابه مع الحقيقة البشرية مثل السكوب ويعقوب. إننى أحب أن ترضينى الرمزية الشعرية بما تمثله، شكل الطبيعة ذاتها كما كانت.

ربما كان هذا ما حاول بورسواردن أن ينقله فى تلك الهجمات الغاضبة عليك، هل بلغت فى قراءتك الفقرات المعنونة بـ «أحاديث الصامته مع أخى الحمار»؟

أنا: «لم أبلغها بعد».

هى: «لا تدعها تصيبك كثيرا بالجراح. يجب أن تبرئ الوحش بضحكة دمثة. لقد كان، على أى حال، واحدا منا، واحدا من القبيلة. إن الحجم النسبى للكمال لا يهم، كما كان يقول هو نفسه، «ليس هنالك ما يكفى من الثقة والبر والرقه لإمداد هذا العالم بشعاع أمل واحد، ومع ذلك، فلطالما جلبت هذه الصرخة الحزينة فوق العالم، آلام ميلاد فنان، فإنه لا يمكن فقدان كل شىء! إن هذه الزقزقة الحزينة الصغيرة للولادة من جديد إنما تدل على أن كل شىء ما زال معلقا فى الميزان. انتبه إلى ما أقول أيها القارئ: «الفنان هو أنت. كلنا هذا التمثال الذى يجب أن يخلص نفسه من كتلة الرخام التى كانت تؤويه لبدأ الحياة، ولكن متى؟ متى؟» وفى مكان آخر يقول، «الدين، فى بساطة، إنما هو فن جُرد من كل معرفة»، فكرة خاصة مميزة. كانت تلك هى النقطة المحورية فى خلافه مع بلتازار والقبال. لقد قلب بورسواردن الوضع المحورى كله رأسا على عقب».

أنا: «ليلائم أغراضه الخاصة».

هى: «كلا، ليلائم احتياجاته الخالدة. لم يكن هنالك غش فى كل ذلك. إذ لو أنك ولدت فى قبيلة الفنانين، فإن محاولتك التصرف كقسيس إنما هى إهدار للوقت. يجب أن تكون أمينا لزاوية رؤيتك الخاصة، وأن تعرف فى ذات الوقت ما الذى تنحاز إليه. هنالك نوع من الكمال يمكن تحقيقه إذا تطابقت ذات المرء وقدراته، على كل المستويات. إن هذا - كما أتخيل - يجب تحقيقه بكل جهد وبكل تخيل

أيضا. لقد أعجبت أنا نفسي على الدوام بسكوبي العجوز كمثال ناجح تماما لهذا الإنجاز على طريقته الخاصة. إننى أعتقد، أنه هو ذاته، كان ناجحا تمامًا.

أنا: «نعم، أعتقد ذلك لقد كنت أفكر فيه اليوم. لقد برز اسمه فى المكتبة، على غير توقع مرتبطا بموضوع ما. كليا، حاكية مرة أخرى. إنك تفعلين ذلك بإتقان تام، حتى إن الإعجاب يلجمنى».

هى: «لكنك تعرف كل حكاياته».

أنا: «هراء إنها لا تنتهى».

هى: «أود لو أستطيع محاكاة نظرتة! تلك القبيحة التى تشبه بومة مريعة. حركة العين الزجاجية! لكن أغلق عينيك واستمع إلى قصة سقوط توبى، واحدة من سقطاته الكثيرة. هل أنت مستعد لذلك؟».

أنا: «نعم».

هى: «لقد أخبرنى بها أثناء حفل عشاء قبل ذهابى إلى سوريا مباشرة. قال: إنه حصل على بعض النقود وأصر على اصطحابى إلى لوتشيا بطريقة احتفالية، حيث تناولنا عشاء من السرطان البحرى ونبذ المائدة الأحمر (*)». بدا الأمر هكذا، فى نبرة منخفضة، نبرة من يأتى من آخر على سر من الأسرار. «إن الأمر الذى ارتبط بتوبى، وكان يميزه، هو الجرأة الفائقة، وهى ثمرة سلالة الخالية من كل عيب! لقد أخبرتك أن أباه كان عضوا فى البرلمان؟ كلا؟ ذلك شىء غريب، إذ أعتقد أننى ذكرت ذلك عرضا. نعم يمكنك القول: إنه كان ذا منزلة عالية للغاية إلا أن توبى لم يتباه بذلك أبدا. إنه فى

(*) كيانتى - المترجم.

الحقيقة، وذلك يوضح لك طبيعته، قد طلب منى أن أكون حصيفا أحسن التقدير فى التعامل مع هذا الأمر، وألا أذكره لزملائه البحارة. لم يكن يرغب فى نيل أى خطوة من وراء ذلك، هكذا قال، لم يكن يود أن يتذلل له أحد، لا لشيء إلا لأن والده كان عضوا فى البرلمان. كان يود أن يخوض الحياة متخفيا، كما قال، وأن يشق طريقه بالعمل الشاق. خذ بالك، كان يكاد أن يكون فى متاعب متصلة مع قيادة السفينة. كان ذلك بسبب معتقداته الدينية، أكثر من أى شيء آخر، كما أعتقد. كان ذوقه يتسم بالخشونة فيما يختص بالملبس، هذا التوبى العجوز. كان واضحا نشطا، وكان المستقبل الوحيد الذى يبتغيه هو أن يكون طيارا. إلا أنه، بصورة ما، لم يستطع أن يصبح هكذا. قالوا: إنه يشرب الخمر كثيرا جدا لكنه قال: إن سبب ذلك، إنما يرجع إلى أن شعوره بالفرض الدينى يدفعه نحو المزيد، وأنهم إن عينوه، فإن كل شيء سيصبح على ما يرام، كما قال، سوف يكف عن الشراب فورا. لقد أخبرنى بذلك مرات عديدة عندما كان على طريق سفر يوكوهاما. كان كلما ثمل، يحاول دوما إقامة الشعائر الدينية فى عنبر رقم ١ بالسفينة، واشتكاه الناس بالطبع، فأحضر الكابتن فى «جوا» قسيسا إلى ظهر السفينة لمجادلته وإقناعه ولكن دون جدوى. «سكير فى»، هكذا اعتاد القول لى «سكير فى» سوف أموت شهيد فوضى الدينية، ذلك هو الأمر. ليس هنالك من شيء فى الحياة مثل الإصرار، وكان توبى يمتلك الكثير منه. لم أفاجا البتة ذات يوم، بعد العديد من السنوات، وأنا أراه قادما إلى الشاطئ وقد تم تعيينه.

«أما كيف حشر نفسه فى الكنيسة، فإنه لم يفصح عن ذلك أبدا. إلا أن أحد زملائه قال: إنه استطاع التوصل إلى قسيس كاثولىكى فاسد، إلى حد ما، فعينه خلسة فى هونج كونج. وما إن توقع الأوراق وتختتم وتلف حتى لا يستطيع أحد فعل أى شيء، ويصبح على الكنيسة أن تضيف على هذا التلوث وعلى كل شيء مظهرا طيبا. وغدا، بعد ذلك، رعبا مقدسا،

يقيم الشعائر الدينية فى كل مكان، ويوزع بطاقات السجائر التى تحمل صور القديسين، وضافت به السفينة التى كان يعمل عليها، فأعطوه حسابه وصرفوه. لقد ادعوا عليه - كما قيل - أنه رأى يحمل حقيبة يد نسائية! وأنكر توبى ذلك قائلاً إنها كانت شيئاً دينياً، حلة القداس أو شىء ما التبس عليهم كحقيبة. ثم ظهر، على أى حال، فوق سفينة ركاب تالية تحمل حجاجاً. قال: إنه قد حقق ذاته أخيراً. إنه يقيم الشعائر الدينية طوال الوقت فى ردهة الاستراحة (أ). ولا أحد يعيق كلمة الرب. إلا أننى لاحظت، فى انزعاج، أنه كان يشرب الخمر بكثافة أكثر من ذى قبل، وأنه يضحك ضحكة غريبة مشروخة، لم يكن هو توبى العجوز. ولم أدهش لسماعى بوقوعه فى المتاعب مرة أخرى. كان من الواضح، وجود شك فى أنه يشرب أثناء تأدية واجباته. وأنه قد أشار بطريقة فظة إلى ماضى أحد الكهنة وكشف ذلك عن ذكائه الرائع، إذ إنه عندما قدم إلى مجلس عسكري، كان يمسك بناصية الإجابة المعدة المتقنة. إننى لا أعرف كيف يجرون مجالس عسكرية فى الكنيسة، لكننى أعتقد أن سفينة الحجاج تلك كانت مليئة بالقساوسة، أو شىء من هذا القبيل، إنهم أقاموها فى ردهة الاستقبال (أ) مستخدمين منضدة على شكل جلد الطبلية. إلا أن توبى، بجرأته كان ثابتاً فى مواجعتهم. ليس هنالك مثل أصالة المنبت لتكون حاضراً البديهة. كان دفاعه، إنه إن كان قد سمعه أحدهم وهو يتنفس فى تناقل أثناء القداس، فإن مرجع ذلك إلى داء الربو المصاب به.

«ثانياً: إنه لم يذكر البتة ماضى أى شخص ما. لقد تحدث عن كلب أحد القساوسة من نوع الترير! أليس ما فعل باهراً؟ كان ذلك أكثر ما قام به توبى العجوز من أعمال حاذقة، رغم أننى لم أعرفه البتة عاجزاً عن الإجابة الذكية. حسناً لقد ذهل القساوسة حتى إنهم أطلقوا سراحه محذرين له، على أن يردد «السلام لك يا مريم»، ألف مرة ككفارة عما فعل. كان ذلك أمراً

سهلا للغاية بالنسبة لتوبى، لا يثير له فى الحقيقة أية متاعب البتة. كان قد اشترى عجلة دعاء صينية صغيرة، ضبطها له «بدجى» لتردد «السلام لك يا مريم» كانت آلة صغيرة بسيطة، تم مواءمتها بطريقة ذكية متألّفة، بحيث تعمل فى أى وقت تبتغيه. كانت تقدم فى دورتها الواحدة «السلام لك يا مريم» مرة أو خمسين حبة من حبات المسبحة. إنها تبسط الصلاة، كما قال. كان فى وسع المرء فى الحقيقة، أن يستمر فى الصلاة دون تفكير. ووشى أحدهم به فيما بعد، فصادرها الرئيس ووجهه إلى توبى المسكين تحذيرا آخر. إلا أنه فى تلك الأيام، كان يتعامل مع كل شىء بتطويع رأسه والضحك هازئا. كان كما ترين يسعى نحو السقوط كان يتغلب على نفسه إلى حد ما.

«لم أستطع ملاحظة ما حل به من تغير، فقد كان يمر من هنا أسبوعيا تقريبا ومعه هؤلاء الحجاج الذين يطرفون بأعينهم. أعتقد أنهم كانوا إيطاليين يزورون الأماكن المقدسة. كانوا يذهبون جيئة وذهابا ومعهم توبى إلا أنه كان قد تغير. كان الآن يواجه المتاعب على الدوام، وبدا أنه قد ألقى بعيدا بكل ما يمكن أن يكبحه، لقد أصبح هوائيا تماما. زارنى ذات مرة وقد ارتدى ملابس كاردينال وبيريهما أحمر، وفى يده شىء أشبه بغطاء المصباح. قلت له لاهثا، «فاسق! فاسق! وأنت لست نصف أرجوانى ياتوبى!» وقد وبخ فيما بعد بعنف لارتدائه زيا أعلى من رتبته. كان فى وسعى أن أرى المسألة وقد غدت مسألة وقت فقط، ويسقط من البالون، هكذا يمكن القول. وفعلت كل ما فى وسعى كصديق قديم لمناقشته، إلا أننى، بصورة ما، لم أستطع أن أبصره بالأمر. حاولت أن أعود به إلى شرب البيرة إلا أنه لم يتحمس لذلك على الإطلاق. لم يعد يرضى توبى غير ماء النار، وكان علىّ فى أحد المرات أن أستعين بالشرطة لحمله إلى ظهر السفينة كان يرتدى حلة أسقف. أعتقد أنهم يطلقون عليها لفظا خاصا حاول أن يلعن المدينة من ظهر القارب (أ). كان يلوح فى صورة نصف

دائرة أو شيء من هذا القبيل. وكان آخر ما رأيته منه، كمية من الأساقفة الحقيقيين يحاولون كبح جماحه، كان الجميع يرتدون اللون الأرجواني مثل ذلك الذي كان قد استعاره. يا إلهي، كيف استطاع هؤلاء الإيطاليون أن يتصرفوا على هذا النحو. ثم جاء السقوط والانهار قبضوا عليه بتهمة تجرع نبيذ الأسرار المقدسة بشراهة. أنت تعرفين أنه كان عليه خاتم البابا، ألا تعرفين ذلك؟ أنت تشتريه من عند كورنفورد، باعة التجزئة الكنائسيين مختوما ومباركا. كان توبى قد حطم الخاتم وكان في ذلك نهايته. إننى لا أدري إن كانوا قد حرموه من عضوية الكنيسة أو ماذا، لكنه حذف، على أى حال، من السجل، كما يقتضى الأمر.

عندما رأيته فى المرة التالية كان شبعا، وقد ارتدى رداء بحار عادى، كان لا يزال يشرب ثقيلًا، ولكن بطريقة مختلفة. قال «سكير فى»: إننى أشرب الآن، فى بساطة، لأكفر عن آثامى. إننى أشرب كعقوبة وليس كمتعة. لقد جعلته المأساة بكاملها كئيبة للغاية وقلقا. تحدث عن الانطلاق إلى اليابان لتصبح شخصيته دينية هنالك. إن الشيء الذى منعه من ذلك، هو ضرورة أن يحلق رأسه وما كان فى مقدوره أن يفصل عن شعره الذى كان طويلا، ومحل إعجاب أصدقائه. قال بعد أن ناقش الفكرة: «كلا يا سكير فى العجوز، ليس فى وسعى أن أصبح أصلع مثل بيضة، بعد كل الذى مررت به. إن ذلك سوف يضيف علىّ مظهر تشرد غريب، وأنا فى ذلك العمر. كما أننى عندما كنت صبيا صغيرا، أصبت ذات مرة بالقوباء وفقدت تاجى الذى كنت أتباهى به. لقد استغرق الأمر أعواما لينمو مرة ثانية، والآن فإننى لا أستطيع احتمال الافتراق عنه، لأى سبب كان. «كنت أرى ورطته تماما، إلا أننى لم أستطع تبين أىّ مخرج له منها».

«سوف يظل توبى العجوز، على الدوام، غير قادر على التلاؤم مع ما يحيط به، يسبح ضد التيار. خذ بالك، كانت تلك علامة على أصالته،

وعاش لفترة قصيرة يبتز كل الأساقفة الذين كانوا يعترفون بين يديه، عندما كان فى الخدمة. حصل على إجازة مجانية مرتين فى إيطاليا، بعد فصله المبكر من الخدمة الدينية. إلا أن متاعب أخرى اعترضت طريقه، وأبحر إلى الشرق الأقصى حيث عمل فى دور ضيافة البحارة، وقت أن يكون على الشاطئ، متحدثا إلى كل شخص بأنه سوف يحقق ثروة بتهريبه الماس. كنت نادرا ما أراه فى ذلك الوقت، ربما مرة كل ثلاث سنوات. لم يرأسنى البتة، إلا أننى ما كنت أنسى أبدا توبى العجوز. كان دوما ذلك الإنسان المهذب، رغم مصائبه الصغيرة. إنه يتوقع، عند موت أبيه، حصوله على بضع مئات سنويا لحسابه، وحيث سوف نعمل معا مع بدجى، ونضع تجارة المراحىض الأرضية على أسس اقتصادية حقيقية. إن بدجى العجوز لا يستطيع العناية بالدفاتر والملفات. تلك وظيفة أستطيع القيام بها لخبرتى فى أعمال الشرطة «أو على الأقل هذا ما كان يقول به دوما توبى العجوز. إننى أتساءل أين هو الآن؟».

انتهى الحكى. همد الضحك فجأة. ارتسم على وجه كليا تعبير جديد، لا أتذكر البتة أنى قد رأيته من قبل. شىء ما بين الشك والإدراك، تلاعب على فمها كالظلال. أضافت فى طبيعية متعمدة منهكة، بصورة ما: «لقد أخبرنى، رغم كل شىء، بطالعى. أعرف أنك سوف تضحك، قال: إنه يستطيع فعل ذلك مع أناس بعينهم، وفى أوقات بعينها. هل تصدقنى إن قلت لك إنه قد وصف واقعة سوريا بأمانة وإخلاص تامين، وبالتفصيل».

أدارت وجهها نحو الحائط فى حركة مباغته، ورأيت لدهشتى شفيتها ترتعشان. وضعت يدى فوق كتفها الدافئ وقلت فى رقة شديدة: «كليا» صرخت فجأة: «ما هذا؟ دعنى لحالى ألا ترى أنى أرغب فى النوم؟».

* * *

[٣]

أحاديثي مع أخى الحمار

(اقتباسات من مذكرات بورسواردن)

إننا نعود إليها، مرة بعد أخرى، مكرهين بصورة مخيفة - كلسان فى فراغ أحد الأسنان - تلك هى مسألة الكتابة! هل يستطيع الكُتَّاب أن يتحدثوا فى لا شىء غير المهنة؟ كلا، إلا أننى كنت أقع مع العجوز دارلى فى قبضة نوع من الدوار التشنجى. كنت أجِد نفسى عاجزا عن الكلام معه البتة، رغم أن كل شىء مشترك بيننا. أعنى أننى كنت أتكلم بلا حدود: عاطفيا، هستيريا، دون أن أنطق كلمة واحدة فى صوت مرتفع. ليس هنالك من سبيل لإدخال إسفين بين أفكاره التى كانت، كما أو من، أفكارا متأملة مرتبة، إنها الجوهر الحقيقى «للصمت». رجلان يجلسان على مقاعد البار يقضمان العالم فى تأمل، كأنما يقضمان عودًا من قصب السكر، أحدهما يتحدث فى صوت خفيض رخيم يستخدم لغة تتسم باللباقة والفراصة، والآخر يتململ على إيتين خائرتين، يصرخ، على استحياء، داخل عقله، لا يجيب إلا بالنفى أو الإيجاب، وبطريقة عرضية، على تلك الآراء الصريحة غاية الصراحة، والتى هى فى غالبيتها، وبما لا يقبل الجدل، حقيقية وقيمة! ربما يصلح

هذا نواة لقصة قصيرة؟ «ولكن يا أخى الحمار، هنالك بُعد كامل مفقود فيما تقول. إذ كيف يمكن للمرء نقل هذا فى إنجليزية أوكسفورد؟» لا يزال الرجل الجالس على مقعد البار المرتفع يواصل، فى كآبة التائب الحزين، عرضه مشكلة الفعل الخلاق - إنه يطلق، ما بين الحين والحين، بنظرة جانبية خجلة نحو معذبه - إذ غدوت أنا، وبطريقة ما غريبه، معذبه بالفعل، وإلا ما كان يتوجه إلى دوما، مصوباً طرف سيفه إلى شقوق اعتدادى بذاتى، أو إلى المكان الذى يعتقد أننى أحتفظ فيه بقلبي. كلا إننا سنكتفى بموضوعات نقاش أكثر بساطة، كحال الجو مثلاً. كان يرى فى لغزاً، شيئاً ما يسعى جاهداً للتعرف على ما فى الأعماق. «لكننى، يا أخى الحمار، واضح وضوح جرس رنان، المشكلة قد تكون هنا أو هناك أو أنها ليست فى أى مكان!» كنت أحس أحياناً، وهو يتحدث هكذا، بدافع مفاجئ يستحثنى أن أقفز فوق ظهره، أمتطيه بطريقة مجنونة، صاعداً هابطاً شارع فؤاد، أضربه ضربات متتالية «بدائرة معارف» وأنا أصرخ «أفق أيها الأبله، دعنى أمسك بك من أذنك، أذننى الحمار، الطويلتين الناعمتين، وأدفع بك عدّوا عبر معرض التماثيل الشمعية لأدبنا، بين فرقة «صندوق الخيالات الوهمية»، التى تناولت كل منها لقطة سريعة، أحادية اللون، لما يسمى بالواقع. إننا معاً سوف نراوغ الغضب والجنون، ليحتفى بنا لتصويرنا المشهد الإنجليزى، مشهد الحياة الإنجليزى التى تتحرك نحو الإيقاع الجليل لجثة يجرى تشريحها لفحصها، هل تسمعننى يا أخى الحمار؟».

إنه لا يسمع، ولن يسمع. إن صوته يصلنى من بعيد، كأنما من فوق فائق أراضى «هالو، هل تسمعننى؟». صرخت وأنا أهرج جهاز الاستقبال. سمعت صوته واهنا أمام شلالات نياجرا المزمجرة: «ما هذا؟ هل قلت إنك تود أن تسهم فى الأدب الإنجليزى؟ ماذا، أن تضع بضعة فروع من البقدونس فوق سمكة الترس الميتة تلك؟ أن تضرب مثابراً منخرى هذه

الجثة؟ هل عبأت أدواتك، يا أخى الحمار؟ هل أعددت نفسك لإبطال كل ما تدربت عليه مبكراً؟ هل تستطيع التسلق مثل قطعة لصبة استرخت عضلاتها القابضة؟ ولكن ما الذى ستقوله حينئذ لمن كانت حياتهم المثيرة للعواطف هى تلك التى لأناس فى خان سويسرى؟ سوف أخبرك أنا. سوف أقولها أنا وأُعفى كل الفنانين من المشقة. إنها كلمة تتسم بالبساطة كالأبيض النبل (*) . قلها فى صوت خفيض جميل النغم، قلها فى تنهيدة ملساء! إن السر كله هنالك، فى كلمة تنمو فوق الثلج! وعليك حينئذ، وقد حللت مشكلة الغابات والوسائل، أن تواجه مجرد صعوبة أخرى؛ إذ لو حدث وكان على العمل الفنى أن يعبر القناة، فهو لا بد أن يعاد عند «دوفر»، باعتبار أنه لا يرتدى الملابس اللائقة! الأمر ليس سهلاً يا أخى الحمار. (ربما كانت دعوة الفرنسيين إلى مرستان ثقافى أكثر حكمة من ذلك). إلا أنك، كما أرى، غير ملتفت إلى أنك تواصل بنفس اللهجة دون أن تتلعثم، وصف المشهد الأدبى الذى لخصه ذات مرة، وإلى الأبد الشاعر «جراى»، فى ذلك السطر «خوار القطيع يهب كالريح فوق المرج»! هنا لا أستطيع أن أنكر حقيقة ما تقول. إنه قاطع مقنع، إنه عالم بمستقبل الأمور، إنه مدروس بعناية، إلا أننى اتخذت احتياطاتى الخاصة قبل أمة لها عقلية حيزبون. إن كل واحد من كتبى يحمل لفافة بنفسجية كتب عليها: «لا يفتح بمعرفة النسوة العجائز لأى من الجنسين» (العزیز د. هـ. ل. المخطئ، المصيب، العظيم، لعل روحه تهب كالنسمة علينا جميعاً!).

إنه يضع كأسه فى قرقة ماء، يجرى أصابعه فى شعره بينما يتنهد. الشفقة ليست عذراً أو مبرراً، هكذا أقول لنفسى، الطيبة الخالية من الغرض لا تحل حياة الفنان من مطالبها الأساسية. هنالك، كما ترى، يا أخى

(*) نبات صغير عشبى، زغبى صوفى، أبيض ينمو فى جبال الألب - المترجم.

الحمار، حياتى، ثم حياة حياتى يجب أن تكون الواحدة منهما للأخرى مثل الفاكهة وقشرتها. أنا لست قاسيا، وذلك فى بساطة لأننى لا أتساهل أو أتغاضى.

«كم أنت محظوظ، إن لم يكن مأرب لك من الكتابة» يقول دارلى، وفى نبرة صوته لمسة يأس شجى. «إننى أغبطك» إلا أنه لم يكن يغبطنى، حقيقة لم يكن يغبطنى البتة. أخى الحمار سوف أخبرك بقصة قصيرة. وصل فريق من علماء وصف الإنسان الصينيين إلى أوربا لدراسة عاداتنا ومعتقداتنا. مات الجميع خلال أسابيع ثلاثة، ماتوا من ضحك لا يمكن التحكم فيه. دفنوا بكل مظاهر التكريم العسكرية. ماذا تستنبط من ذلك؟ لقد حولنا الأفكار إلى شكل من أشكال السياحة مدفوعة الثمن.

«دارلى يتحدث، وعينه مائلة تنظر إلى حافة كأس الجن. أجيب فى صمت بلا كلمات. شعورى بالزهو بما أنطق يصيبنى فى الحقيقة بالصمم. الكلمات تدوى فى جمجمتى أشبه بجلجلة تجشؤات «زارا ثوسترا»، أشبه بالريح تصفر عبر لحية «مونتايين» كنت أمسك به، أحيانا من كتفيه فى عقلى وأصرخ، (هل على الأدب أن يكون دليل طريق أم عقارا مهدئا يستجلب النوم؟) عليك أن تقرر! عليك أن تقرر!».

وهو لا يلتفت إلىّ، لا يسمعنى لقد جاء لتوه من المكتبة، أو من المطعم، أو من حفلة موسيقية لباخ (المرق لا يزال يسيل على ذقنه). لقد صففنا أحذيتنا أسفل البار فوق القضيبي النحاسى المصقول، وقد بدأ المساء يثاءب حولنا مثيرا للضجر واعدة بفتيات يغوص المرء فيهن. والأخ الحمار، هنا، يحاضر عن الكتاب الذى يكتبه، والذى ألقى به من فوقه، مرة بعد أخرى، كما يلقي بالمرء من فوق حصان. لم يكن الفن حقيقة هو ما نناقشه، كنا نناقش ذواتنا هل ترضى دوما بالصلصة القديمة

المعلبة للرواية المعانة؟ أو أيس كريم القصائد الشعرية المبتذلة التى تعلن عن نفسها لتنام فى ثلاجة العقل؟ إن كان فى الإمكان تبني عروض شعرية أكثر جرأة، وإيقاع أكثر سرعة فربما نستطيع أن نتنفس جميعا بطريقة أكثر حرية! هل ستظل كتب دارلى المسكين دوما، هى ذلك الوصف المدقق لحالات الروح البشرية الأشبه بالعجة؟ (إن الفن يقع عند النقطة التى يُكرّم فيها الشكل بروح يقظة ناهضة).

«هذه المرة على حسابى».

«كلا، أيها العجوز، إنها على حسابى أنا».

«كلا، كلا، إننى مُصر على ذلك».

«كلا، إنها نوبتى».

لقد منحتنى هذه المماحكة الودودة، ذلك الجزء من الثانية الذى أحتاج إليه، لأدون فيه فى سرعة وإيجاز، أبرز نقاط صورتى، فوق طرف كم قميص يكاد يكون ممزقا. أعتقد أنها تغطى الأمر كله فى بلاغة محببة. الفقرة الأولى: «إننى مثلى مثل كل البدناء أميل إلى أن أكون بطل نفسى». الفقرة الثانية: «إننى مثلى مثل كل الشبان أنزع إلى أن أكون عبقرىا، إلا أن ضحكات رحيمة تتداخل فى هذا النزوع». الفقرة الثالثة: «لقد أملت على الدوام أن أحقق ما تراه عين الفيل». الفقرة الرابعة: «لقد أدركت أنه حتى يغدو المرء فنانا فإنه يتوجب عليه إسقاط كل عُقد الأنانية التى قادت إلى اختيار التعبير عن الذات باعتباره الوسيلة الوحيدة للنمو. ولما كان ذلك الأمر مستحيلا فقد أطلقت عليه «المزحة الكاملة»!».

إن دارلى يتحدث عن خيالات الأمل! إلا التخلص من الوهم، يا أخى، هو لب اللعبة، هل تتذكر، أى آمال كبار غزونا بها لندن، فى تلك الأيام القديمة الميته، قادمين من الأقاليم وقد امتلأت حقائبنا بمخطوطاتنا حتى

الانتفاخ؟ أى عاطفة حملقنا بها فى كوبرى وستمينستر؛ نشد قصيدة وردزورث اللامبالية ونتساءل إن كانت قد كبرت ابته وغدت أقل جمالا بسبب أصلها الفرنسى؟ كانت العاصمة كلها تبدو وكأنها تنتفض من دلائل موهبتنا، مهارتنا و فراستنا. كنا نتساءل ونحن نسير فى المتنزه، عمن يكون كل هؤلاء الرجال طوال القامة بملامحهم التى تشبه الصقر وقد حطوا فى الشرفات والأماكن المرتفعة لمسحون المدينة بمناظير مزدوجة؟ ما الذى يبحثون عنه بهذه الجدية؟ وأوقفنا شرطيا، سألناه ونحن واجفون. قال فى رقة، «إنهم الناشرون» ناشرون؟! توقفت قلوبنا عن الخفقان «إنهم يبحثون عن موهبة جديدة» يا إلهى، إننا نحن من كانوا ينتظرون وعندهم يبحثون! وخفض الشرطى الرحيم صوته ليقول لنا، باعتبارنا موضع ثقته، فى نبرات جوفاء وقورة: «إنهم فى انتظار ميلاد الترولوب الجديد!» هل تتذكر كم أحسنا بثقل حقائبنا عندما سمعنا تلك الكلمات؟ كيف أبطأت دماؤنا، وتلكأت خطانا؟ لقد تركنا نفكر، أيها الأخ الحمار، فى خجل وحياء فى نوع من التنوير مثل ذلك الذى حلم به «ريمبود» - قصيدة شعر تشير الضجر لكثرة ما بها من تأنيب، إنها لا تحمل حكمة ولا تقدم تفسيراً، لكنها ملوثة ناقلة للعدوى - إنها لا تتسم فى بساطة بفراصة عقلانية أعنى أنها ترتدى شيئاً شبه شفاف كالميكا! لقد جئنا إلى المتجر الخطأ، فى وقت التغيير الخطأ! لقد أصابتنا رعشة ونحن نرى الضباب يهبط فى ميدان ترافالجار، يلف حولنا زوائده الإيكتوبلازمية! كان هنالك فى الانتظار مليون كاتب أخلاقى من أكلة الفطائر. إنهم ليسوا فى انتظارنا، يا أخى الحمار، إنهم فى انتظار الترولوب المقدم المثير للضجر (إن لم تكن راضياً عن أسلوبك فابحث عن المكشطة) والآن، هل يثير دهشتك، إن أنا ضحكت قليلاً بعيداً عن الموضوع؟ هل تسأل نفسك ما الذى أحالنى إلى حكيم صغير فطرى خجول؟

متنكرا فى زى صانع للسلام، ماذا يمكن أن يكون؟

أنا لست إلا صياد ذوات الريش، شارب جرعات من خمر، آكل للضفادع. نحن الذين رغم كل شىء، مجرد صناع بؤساء، نعمل معا من أجل روح أمتنا، ما الذى علينا توقعه، من جمهور يستنكر التدخل، غير الرفض الطبيعى التلقائى؟ إن هذا أيضا صائب تماما. ليس هنالك من غبى فى هذا الأمر، فأنا أيضا أرفض التدخل، أيها الأخ الحمار، مثلك تماما. كلا، ليس الأمر أنك قد ظلمت، المسألة هى أنك كنت سيئ الحظ. إننى سوف أقدم لك السبب الأول من العشرة آلاف سبب لعدم رواج كتبى، إذ إنه يتضمن كل الأسباب الأخرى. إن وجهة نظر ثقافية متشددة عن الفن لا بد أن تتضمن شيئا يدعم الأخلاق ويتملق الوطنية، ولا شىء آخر غير ذلك. أراك ترفع حاجبيك. إنك أيضا، يا أخى الحمار، تعرف ما يكمن فى هذا الرأى من مجافاة أساسية للحقيقة. إن ذلك، على أى حال، يفسر كل شىء. فالثقافة المتشددة لا تعرف معنى الفن، إذن كيف يمكن توقع اهتمامها به؟ (إننى أترك الدين للأساقفة؛ فهنالك يمكنه أن يضير أكثر!).

لا ساق كسرت ولا عين عشى إيصارها

ولا بعض من سلالة أصابه التشوه

ولا حتى أن يصبح المرء نصف إنسان

ولا شىء مثلما يكون العقل الباطن بهواجسه

أنا مقيد إلى عجلة من الصبر

والزمن هو هذا العدم داخل الدائرة

إننا نصنف بالتدريج دواوين بلايانا، قواميس أفعالنا وأسمائنا، صلاتنا وصفاتنا المشتقة من الأفعال، ذلك الشرطى الذى كان دليلنا فى غسق

لندن، هو أول من همس بالرسالة لنا. ذلك الرجل الذى يتسم بحنو الأبوة قد وضع الحقيقة فى كلمات قليلة. وها نحن الاثنان، هنا فى بلد غريب مشيد من بلورة لونت وزر كشت بذلك الإفراز الشحمى ما بين القضيبي والقلقة، والتى إن وصفنا «عاداتها»، فسوف ينظر إلى هذا الوصف باعتباره نزوات عقولنا المختلة أمامنا، أيها الأخ الحمار، أشق الدروس جميعا لتعلمه - ذلك أن الحقيقة لا يمكن فرضها، لكن يجب السماح لها بأن تدافع عن نفسها! هل تسمعنى. إن خط الاتصال قد أصابه الخلل مرة أخرى. لقد ذهب صوتك بعيدا.

إننى أسمع اندفاع المياه!

كن كئيبا أيها الشاب ودع ذلك المرح الفرع

مجد فينوس إن استطعت مرتين كل ليلة

كل الأشياء التى على حد سواء عليك ألا ترفضها

حتى تدق أجراس بقر التأمل الإنجليزى البطيئة الحزينة

إن انعدام حقيقة الفن قد أوضح الأمر تماما

وإن لم يكن الأمر كذلك، فمن هو الشيطان إذن؟

رأيت وأنا أكتب فى حجرتى فى الليلة الماضية، نملة فوق المنضدة. مرت عابرة قرب المحبرة، رأيته تتردد أمام بياض فرخ ورق كنت قد كتبت عليه كلمة «الحب». تعثر قلمي، استدارت النملة، ذابت شمعتى فجأة وانطفأت. رفرفت خلف مقلتى درجات واضحة متتالية من ضوء أصفر. كنت أود أن أبدأ جملة بالكلمات: «المجادلون دفاعا عن الحب»، إلا أن الفكرة ذابت مع الشمعة! وواتنى فيما بعد فكرة، وواتنى مباشرة قبل أن أسقط نائما، فكتبت بالقلم الرصاص على الجدار فوق سريرى تلك الكلمات: «ما العمل إن لم يكن فى وسع المرء أن يشارك آراء الغير

حول الحب؟». وسمعت زفرتى الساخطة وأنا أسقط نائما. استيقظت فى الصباح رائقا مثل زائدة مثقوبة - كتبت فوق المرأة بإصبع الحلاقة عبارة تأبيني على قبرى:

«لم أعرف البتة أى جانب قد داهن فنى».

تلك هى آخر كلمات نطق بها بورسواردن المسكين.

أما المجادلون دفاعا عن الحب، فقد سعدت باختفائهم. لا بد أنهم كانوا سيقودوننى دون مقاومة نحو الجنس؛ ذلك الدين الردىء الذى يعلق فوق ضمائر مواطنينا. الحذقة. الجوهر الحقيقى لحذقة هذا العالم المضطرب، والميدان الوحيد الصحيح، أيها الأخ الحمار، لنشر مواهبنا. إلا أن كلمة واحدة حقيقية وأمينة دون تشدد فى هذا المضمار سوف تقود فى الحال إلى واحدة من أفعال الهمهمة والصهيل التى يختص بها مثقفونا. إن الجنس بالنسبة إليهم، أشبه بالاندفاع بحثا عن الذهب، أو التراجع عن موسكو. وماذا هو بالنسبة لنا؟ كلا، إلا أننى سأقوم بشرح ما أعنى، إن غدونا جادين للحظة (كوكو، كوكو*)، تغريد مرح، يصيب بالكدر من له أذن من جلد الخنزير). إن ما أعنيه أكثر مما يفكرون فيه (الشخص الخشى الغريب الحزين فى غسق لندن، الحارس الذى ينتظر فى شارع إيورى ظهور الرجل المهذب حامل القلب). كلا، إنها منطقة بحث أخرى لا يمكن بلوغها دون اختيار هذه الأرض الغامضة للأرواح الناقصة. إن موضوعنا، أيها الأخ الحمار واحد. إنه، دائما، وبطريقة لا يمكن تجنبها نفس الموضوع - إننى أتهجى الكلمة لك: الـ ح ب، حرفان، كل منهما مجلد بذاته! إنها نقطة ضعف الروح(**) البشرية. إنها فى ذات

(*) نداء طائر الكوكو - المترجم.

(**) بالفرنسية فى الأصل.

موقع الحقيقة الأساسية السرطانية! كيف ذلك وقد دمجها اليونانيون مثلما دمجت فتحة التبرز والإنجاب عند الطيور والزواحف؟ إنها لغز مكتمل يمسك اليهود بمفتاحه - مالم تكن معرفتي بالتاريخ خاطئة - إن هذا الجنس الموهوب المتعب، والذي لم يعرف الفن أبداً، قد استترف عملياته الإبداعية كلية في إقامة نظم أخلاقية فرضها علينا جميعاً، وهى نظم لقحت، بالمعنى الحرفى للكلمة، النفس الأوربية الغربية بكل آماذ الأفكار القائمة على «العرق والسلالة»، والمحتوى الجنسي الكامن فى التقدم العرقى تقدماً ناجحاً! إننى أسمع بلتازار يدمدم ويزمجر ويضرب بذيله. ولكن بحق الشيطان من أين جاءت كل تلك الأوهام عن مجارى الدم النقية الخالصة؟ هل أنا مخطئ إن عدت إلى المحظورات المخيفة المكتوبة فى سفر اللاويين فى التوراة، حتى أبين الغضب الذى يتسم بالهوس والإحباط للإخوة بليموث وجمهرة أخرى من المتعصبين المكتئبين؟ لقد زنقت الشريعة الموسوية خصياتنا لقرون، ومن ثم كان شحوب فتياتنا الصغيرات وأولادنا ونظرتهم المشدبة. ومن ثم شئت وقاحة البالغين المتكلفة، أن تديم المراهقة إلى الأبد. تكلم يا أخى الحمار! هل تحتاجنى؟ إن كنت أنا مخطئاً فما عليك إلا أن تقول ذلك! أما فيما يختص برأى فى الكلمة ذات الحرفين، والتى أحس بالدهشة لعدم إدراجها فى قائمة الناشر الإنجليزى السوداء مع الكلمات الأخرى الثلاث، فإننى، إلى حد ما، جسر وعاصف. أعنى على طول المدى اللعين، بدءاً من كسور عظام القلب البشرى الخضراء الصغيرة حتى أعلى درجات تواطئه الروحية مع... حسناً، مع أساليب الطبيعة المطلقة، إن شئت ذلك. هذه بالطبع، أيها الأخ الحمار، هى الدراسة التى لا تلائم الإنسان؟ إنها المجرى الأساسى لاستنزاف القلب؟ إن فى وسعنا أن نصنع أطلساً لزفرائنا!

طرح زيوس هيرا على ظهرها.

لكنه اكتشف فقدانها لمهارتها
لقد وهنت من كثرة ما أفرطت
كانت عاجزة، هكذا اعترفت
لا شيء يشبط عزم زيوس، إنه يحاول
بحكمته العديدة من أشكال التنكر الجيدة
نسر، كبش، ثور، ودب
مستجيبا في سرعة لصلاة هيرا
المرء يعرف أن الإله يجب أن يكون مسهبا
لكن... فكر في كل تلك الأمور المتباينة

إلا أنني أتوقف هنا مرتبكا. أرى أنني في خطر، إذ لم أكن جادا كما يجب
أن أكون! وهذه إهانة لا تغتفر، كما أنني أهملت ملاحظتك الأخيرة عن
اختيار أسلوب ما. حقا، إن اختيار أسلوب ما، يا أخى الحمار، هو أكثر
الأشياء أهمية. إن حديقة سوقنا الثقافية الوطنية تزدهر ازدهارا غريبا، مخيفا
مع ذكر كل زهرة يقف منتصبا. آه لو يكتب المرء مثل روسكين! كان على
«إفي جراي» المسكين عندما حاول أن يندس في فراشه، أن يصرف الفتاة
بعيدا. آه لو يكتب المرء مثل كارليل! خبائث العقل. هل يكون الربيع قد
ذهب بعيدا إلى الوراء عندما يحضر الأسكتلندي إلى المدينة؟ كلا، إن كل
ما نقوله صادق وسديد للغاية. الصدق النسبي، فكرة لا معنى لها بصورة ما،
إلا أنني سأحاول وأفكر، رغم ذلك، فيما يتدعه أصحاب الحواشي هؤلاء،
إذ إن الأسلوب، في وضوح، أمر مهم لى كما هو مهم بالنسبة إليك.

كيف نخوض في هذا الأمر؟ كان «كيتس» الذى يطرب للكلمة، يبحث

عن رنين بين حروف العلة والتي يمكن أن تمنحه صدى لدخيلة ذاته. كان يفحص التابوت الفارغ لموته المبكر بأصابع متتدة يستمع إلى الطنين الكئيب لخلوده المحقق. وكان «بيرون» فظا مع اللغة الإنجليزية يعاملها كما يعامل السيد الخادم. إلا أن اللغة ليست تابعا ذليلا. ومن ثم كانت تنمو النباتات الاستوائية المتسلقة فيما بين شقوق أشعاره تكاد تخنق الرجل. لقد عاش بحق. كانت حياته خيالية بالفعل. كان يكمن تحت بدعة هواه لذاته حكيمًا وفيلسوفًا، رغم أنه هو نفسه لم يكن يعي هذه الحقيقة. إن «دون»(*) يضغط العصب المكشوف، يثير الصخب في الجمجمة كلها. كان يؤمن بضرورة أن تلجم الحقيقة المرء. إنه يوجعنا، يخشى سهولته. إن أشعاره، رغم ألم ضغطها، يجب أن تمضغ حتى تغدو مزقا، «شكسبير» يجعل الطبيعة كلها مدلاة الرأس. «بوب» يصيبه الأسلوب بالألم المبرح، مثله في ذلك مثل طفل يعاني من الإمساك. إنه يدهن أسطح أوراقه رملا حتى تنزلق عليها أقدامنا. إن أعظم أصحاب الأساليب المتميزة هم هؤلاء الأقل ثقة في تأثيرهم. إن القصور الغامض في مادتهم يلزمهم دون أن يدركوا ذلك! ويضع «إليوت» حشية مخدر بارد فوق روح شدت بإحكام، بما جمعت من معلومات. إن أمانة معياره وشجاعته الحازمة في العودة إلى بلطة السياف، إنما تشكل تحديا لنا جميعا. ولكن أين الابتسامة في كل ذلك؟ إنه يلوى مفاصل أقدامنا بطريقة خرقاء في الوقت الذي نحاول نحن الرقص فيه! إنه يختار اللون الرمادي أكثر مما يختار النور والضياء، إنه «ورمبراندت» شريكاً في حصته، إن «الرجل الأبيض والأسود» إنما هي حزمة أوراق داكنة خرقاء مليئة بما هو مستعار من المعبد الذي سوف ينهار على المكان كله، عندما تتمزق الخيوط التي تشده، ويبشر «لونج

(*) جون (١٥٧٢ - ١٣٦١) كاهن كاتدرائية سانت بول، واعظ وشاعر ميتافيزيقي مؤلف: هجائيات، رسائل إنجيلية، قصائد تأملية - المترجم.

فيلو» بزم من الإبداع لأنه أول من فكر جهارا بالبيانو الآلى . ما إن تضع قدمك على دواسته حتى يبدأ فى الإنشاد. وكان «لورانس» فرعا فى شجرة البلوط الأصيلة، معه حاجته من حزام السرج والخيل . لماذا كشف لهم أن الأمر كانت له أهمية، معرضا نفسه بذلك لسهامهم؟ وكان «أودن» يتحدث دوما . لقد حرر اللغة الدارجة وأعتقها.

إلا أننى أقطع هنا، يا أخى الحمار، حديثى، إذ من الواضح أن هذا ليس بأعلى نقد أو حتى أدناه! إننى لا أفهم هذا النوع من المبالغة الذى يجرى فى جامعاتنا الأكثر قدما حيث ما زالوا يحاولون، بطريقة مؤلمة، استخلاص ظل ما من الفن، يبرر نمط حياتهم. لا بد، رغم كل شىء، من وجود ذرة أمل من أجل هذه الجماعة من المسيحيين المحترفين الأمناء، فى قلب كل هذا الهراء الذى تصبه قبيلتنا من جيل إلى جيل . أم هل الفن، فى بساطة، هو تلك العصا البيضاء الصغيرة التى تعطى للأعمى ليدق بها دقة دقة فوق طريق لا يراه، لكنه على يقين من وجوده هناك؟ أخى الحمار، إن تقرير ذلك مرجعه إليك!

عندما لامنى بـ«لنتازار» لأننى كنت مبهما أثير الالتباس، قلت له دون تردد: «إن الكلمات هى ما تكون عليه، والناس هم ما يكونون عليه، وربما كان من الأفضل، على الدوام، أن تقول عكس ما تعنى؟» وعندما أمعنت التفكير، فيما بعد، فى وجهة النظر هذه، (والتي لم أكن أعرف أننى أعتقد بها) بدت لى حقا وجهة نظر حكيمة عاقلة بصورة رفيعة! نحن الأنجلو ساكسون، إن أكثرنا من التفكير الواعى فإنك سوف ترى عجزنا عن أن نفكر لأنفسنا، إننا نفكر عن أنفسنا، وهذا حق، إننا ونحن نفكر عن أنفسنا نضفى كل نوع من بديع الأداء على كل صوت من الأصوات، من يوركشاير المشروخة، إلى البطاطا الساخنة من الفم المتحدث من الإذاعة البريطانية. هنا نبرع ونتفوق، إذ نرى أنفسنا على مقربة من الحقيقة، كمادة تحت

الميكروسكوب، إن هذه الفكرة عن الموضوعية هي في الحقيقة امتداد
مرائي لإحساسنا بخدا عنا ودجلنا. إنك عندما تفكر لنفسك، يغدو مستحيلا
أن تكون مرائيا، ونحن نعيش بالرياء. آه. إنني أسمعك تقول، وأنت تتنهد،
إنه واحد آخر من الكتاب الإنجليز، من سجانة الروح المرموقين، إنهم
يُشرون لنا المتاعب والقلق! هذا حق تماما، ومثير للحزن تماما.

سلاما: إنجلترا الموحشة الدار المولعة بالرياء

بورسواردن يبعث إليك بتحياته القليلة

إن أفكارك تجعله يرتد على أعقاب

إنه يمقت الرياء، إنه رائع

ولكن إن شئت تكبير الصورة فاستدر إلى أوروبا، أوروبا التي تمتد،
مثلا من «رايبيه» إلى «دي ساد» إنه تقدم من وعى البطن إلى وعى الرأس،
من اللحم والطعام إلى العقل الرائق (الرائق!)، مصحوبا بكل الشرور
المتبادلة والتي تسخر منا. تقدم من النشوة المتدنية إلى قرحة الاثنى عشر
(من المحتمل أن يكون الإنسان أكثر صحة إن فقد عقله تماما). إلا
أنك يا أخى الحمار، لم تضع هذا الشيء فى حسابك عندما اخترت
المنافسة بغية الحصول على حزام الوزن الثقيل لفنانى الألف عام التي
يحكم المسيح فيها على الأرض. لقد تأخر الوقت تماما للشكوى. لقد
اعتقدت أنه فى وسعك، على نحو ما، أن تفلت من القصاص والعقاب
دون أن يطلب منك فعل أى شىء أكثر من إثبات مهارتك بالكلمات،
لكن الكلمات... إنها فقط قيثارة الريح أو آلة موسيقية رخيصة ذات
قضبان خشبية متراسة يعزف عليها بالمطارق. إن سبع الماء نفسه، يمكنه
أن يتعلم كيف يحافظ على توازن كرة القدم فوق أنفه، أو أن يلعب على
البورى الطويل المتزلق فى سيرك ما. ماذا يكمن وراء ذلك؟

كلا، إننى أقولها جادا، إن شئت أنت أن تكون - وأنا لا أقول أصيلا - ولكن مجرد معاصر لجيلك - فإنه يمكنك أن تحاول خدعة الورقات الأربع فى صورة رواية ما، أن تمر بمحور مشترك عبر القصص الأربع، مثلا، وتكرس كل واحدة منها، لواحدة من رياح السماء الأربع. إنه تجسيد متصل متجانس، لا لزمن يستعاد ثانية ولكن لزمن الخلاص والنجاة(*) . إن منحني المكان ذاته سوف يعطيك رواية ستريو سكوبية(**)، بينما الشخصية البشرية التى ترى عبر تواصل متجانس قد تغدو منشورية؟ من الذى يستطيع تحديد ذلك؟ إننى أرفض الفكرة. إن فى وسعى تصور شكل يمكن، إن استوفى، أن يثير على أسس بشرية قضايا السببية أو الغموض... وكلاهما أمر غير مرغوب فيه إلى هذا الحد. مجرد فتاة عادية تلتقى بفتى القصة. ولكن إن تمت المعالجة هكذا، فإنك، مثل غالبية معاصريك، لن تشق طريقك بطريقة ناعسة على امتداد خط من نقط!

هذا هو نوع الأسئلة التى سوف تجبر على أن تسألها لنفسك («إننا لن نصل مكة المكرمة أبدا!»، كما قالت أخوات شيخوف فى إحدى التمثيلات التى نسيت عنوانها).

الطبيعة هى ما أحب، وتأتى العرايا بعد الطبيعة

كان يحاول مع كل امرأة تستحق المحاولة

يدفع الوجلتين بنار الحياة

وسقط خائضا معركة مع مليون امرأة محتشمة

من ذا الذى يجروء على أن يحلم بالإمساك بصورة الحقيقة العابرة فى سرعة بكل تعدديتها المخيفة؟ (كلا، كلا، دعنا نتعشى فى سعادة وبهجة

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) تجسيد الصور المزدوجة - المترجم.

بعيدا عن نفايات الكمادات القديمة الملقاة، وأن نسمح لأنفسنا بأن يصفنا العلم كذؤابات شعر ندية وجافة).

شخص من تلك التى أراها أمامى تصطاد الآماد الضاربة إلى الملوحة؟

إن المرء يكتب، يا أخى الحمار، من أجل الجياع روحيا، من أجل النفوس المنبوذة! إنهم دوما سيكونون الغالبية حتى وإن كان كل منهم مليونيرا من حر ماله. كن شجاعا، فأنت هنا ستكون دوما سيد المستمعين إليك. إن العبقرية التى لا يمكن تداركها، يجب تجاهلها فى أدب. إننى لا أعنى أنه لا جدوى من أن تتقن وأن تمارس حرفتك باستمرار، كلا فالكاتب الجيد قادر على كتابة أى شىء إلا أن الكاتب الكبير هو خادم الالتزامات الجبرية التى يكرسها بنيان الروح ذاته، لا يمكن التغاضى عنها. أين هذا الكاتب؟ أين هو؟

هيا بنا، دعنا نتعاون معا حول عمل يقوم على أربعة أو خمسة مستويات، هل نفعل ذلك؟ «لماذا زل القسيس» سوف يكون عنوانا جيدا. أسرع، إنهم ينتظرون هؤلاء الأشخاص المؤثرين بين مآذن لندن، المؤذن الذى يؤذن على البضاعة. «هل ينال القسيس فتاة كما ينال راتبه، أم ينال الراتب فقط؟ اقرأ الألف صفحة التالية واكتشف الإجابة؟». الحياة فى إنجلترا فجأة، مثلها مثل ميلودراما تقوم على الورع يمثلها وكلاء أملاك كنائس مجرمون محكوم عليهم بالهواجس والريب الجنسية مدى الحياة! إننا بهذه الطريقة نستطيع، لمصلحتنا المتبادلة، أن نضع غطاء إبريق شاي فوق الحقيقة، أن نكتبها كلها فى نثر واضح يمكن أن يتميز فقط عن الحديد المجلفن. إننا بهذه الطريقة سوف نضع غطاء فوق صندوق بلا أضلاع. دعنا يا أخى الحمار، نؤلف عالما من الأدبيات الخائرين الذين لا يبالون والذين يقرءون

لا ليتحققوا من فراستهم وصدق حدسهم، ولكن ليتحققوا مما يتوقعونه من ضرر وإجحاف!

إننى أتذكر داكابو العجوز وهو يقول ذات مرة فيما بعد الظهر، «إن لدى اليوم خمس فتيات. إن لدى اليوم خمس فتيات. إننى أعرف أن هذا سوف يبدو لك إفراطاً يتجاوز الحد. إننى لا أحاول أن أثبت بذلك أى شىء لنفسى. إذ لو قلت إننى قد خلطت خمسة أكواب من الشاي لتناسب ذوقى أو خمسة أنواع من التبغ لتناسب غليونى فإنك لن تفكر فى الأمر ولو لدقيقة واحدة، بل على عكس ذلك سوف تعجب بقدرتى على الاختيار، أليس كذلك؟».

إن كنيورث، مصقول الكرش، والذي يعمل «فى المكتب الأجنبى» قد أخبرنى ذات مرة، فى صوت نائح شجى، أنه قد «حط على غير انتظار» ومن باب الفضول، على جيمس جويس! وأنه اندهش وتألم لأنه وجده وقحاً، متعجرفاً، سريع الغضب. قلت له: «لكنه كان يكفر عن عزلته وخلوته بإعطاء دروس، لواحد إلى ستة من العبيد مدة ساعة! ربما كان من حقه أن يحس بالأمان من أشياء لا تحكى، مثلك أنت، أنت الذى يتخيل أن الفن إنما هو شىء، يمكن إن تعلمت تعليماً جيداً أن تصبح أهلاً له بصورة آلية، باعتباره جزءاً من العتاد الاجتماعى، من اللياقة الطبقية، كما كان الرسم بالألوان المائية بالنسبة لسيدة مجتمع من العصر الفيكتورى! إننى أستطيع تصور قلبه المسكين وهو يغوص بينما يتفحص وجهك، الذى يرتسم عليه تعبير تفضل عنيد - اعتداداً بالنفس بعيد الغور يمكن أن يراه المرء أحياناً يرفرف عبر وجه سمك المرجان الذهبى يحمل صك ملكية بالوراثه». ولم نتحدث أبداً بعد ذلك. كان هذا ما أسعى إليه، فن صناعة الأعداء الذين لا بد من وجودهم! ومع ذلك فقد أحببت فيه شيئاً واحداً. كان ينطق كلمة الحضارة وكأن حرف الرء ملوى فى داخلها.

(إن أخى الحمار يعبر الآن عن الأفكار بالرموز، وحتى أتحدث بإحساس طيب حقاً، يجب على الاعتراف بذلك) الرمزية! اختزال اللغة إلى شعر. الوجه المدرع للحقيقة! الرمزية. الرمزية هي عملية الترميم الكبرى لحاجيات النفس، أيها الأخ الحمار، أقصى ما فى طاقة النفس (*) إنها الموسيقى التى تحمل العضلة العاصرة على الاسترخاء، تحاكي تموجات الروح وهى تتقدم عبر اللحم البشرى، تتحرك، تلعب فى داخلنا مثل الكهرباء! (لقد قال بار العجوز ذات يوم وهو ثمل: «نعم، إلا أنه من المؤلم أن تعرف!»).

حقاً، من المؤلم أن تعرف إلا أننا نعرف أن تاريخ الأدب هو تاريخ الضحك والألم. إن الأمور القطعية التى منها هى: أن تضحك حتى تتألم، وأن تتألم حتى تضحك!

إن أعظم الأفكار متاحة لأقل عدد من الرجال لماذا علينا أن نصارع هكذا؟ لأن الإدراك ليس مهمة القياس المنطقى، إنه التعبير عن مرحلة نماء النفس. تلك أيها الأخ الحمار، هى النقطة التى نختلف عندها. إن أى قدر من الشرح والتوضيح لا يمكن أن يسد الفجوة. إنه الإدراك والاستيعاب فقط! سوف تستيقظ ذات يوم من سباتك تصرخ ضاحكاً.

أما فيما يختص بالفن، فقد كنت أقول، على الدوام، لنفسى: عليك تهريب الحقيقة فى عروقهم، مثلما يُمرر فيروس عبر مصفاة، بينما هم يراقبون عرض الألعاب النارية والجمال الصارخ. إن هذا الكلام أسهل فى القول عنه فى التنفيذ. إن المرء ليتعلم فى بطن شديد كيف يسلم بهذا التناقض الظاهرى. إننى لست هنالك بعد، إلا أننى رغم ذلك، وعلى أى حال، واحد من ذلك الفريق الصغير، فريق الرواد المستكشفين، «كنا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لا نزال على مسافة يومين سيرا على الأقدام من الشلالات، إلا أننا رغم ذلك، سمعنا فجأة هديرها يعلو عن بعد!».

آه، ربما يجازى ذات يوم، هؤلاء الذين هم أهل لذلك بشهادة ميلاد جديدة تقدمها لهم واحدة من إدارات الحكومة الرحيمة. إن ذلك سوف يمنحهم حق تسلم كل شيء مجاناً؛ إنها جائزة مخصصة لهؤلاء الذين لا يريدون شيئاً. الاقتصاديات رائعة الجودة التي يصمت عنها لينين صمتاً غريباً! الوجوه الكثيبة لشياطين الشعر الإنجليزى. سيدات المجتمع الشاحبات المجهدات وهن يرتدين القمصان النسائية وحبّات الخرز، يوزعن الشاي ويضعن الكعك والفطائر للغافلين!

الوجوه الثعلبية

لفضلاء العصر الإدواردى

وجوه الخيل تفيض بالسحر

بخيوط حبّات الخرز

وصرة الحبوب

وذؤابة قرد تحت كل ذراع!

المجتمع! دعنا نُعَقِّد الوجود إلى نقطة العنت والشقاء، حتى يفعل فعل المحذر فى مواجهة الحقيقة. هذا ظلم! ظلم ولكن يا عزيزى الحمار، إن الكتاب الذى أفكر فيه يدخل فى باب الكتب المرغوبة التى تحقق لنا الشهرة والثراء. لو استطاع اليهود، الآن، أن يتمثلوا الأمر فقط، فإنهم سوف يقدمون لنا قدوة ثمينة فى موضوع تحطيم التشدد والتزمت فى كل مكان.

إنهم أصحاب امتياز النظام المغلق، ورد الفعل الأخلاقى! حتى

محرمات طعامنا ونواهي، حول اللحم والدجاج، تلك المحظورات
المنافية للعقل مأخوذة كأنها نسخة من هراء كاهنهم المتحكم الكتيب.
نعم، نحن الفنانين لا تثير السياسة اهتمامنا، لكنها القيم - ذلك هو ميدان
معركتنا! إننا إن استطعنا ذات مرة، أن نفك أو نرخي القبضة الرهيبة لما
يسمى مملكة السماء، والتي أحالت الأرض إلى مكان مشرب بالدماء،
فربما نعيد اكتشاف مفتاح بحث وتنقيب ميتافيزيقى يحتويه الجنس،
هو عقلنا ورشدنا(*) هنا في الأسفل فوق الأرض لو أن النظام المغلق
والموانع الأخلاقية للحق الإلهي تراخت قليلا، فما الذي لم نكن نقدم
على فعله؟

ماذا حقا؟ إلا أن بلتازار الطيب كان يدخن تبغ لا كاديف في كآبة ويهز
رأسه الكث الأشعث. وفكرت في تأوهات جوليت السوداء المخملية،
والتزمت الصمت. فكرت في البراعم البيضاء الناعمة، وأشكال الورد التي
لم تفتح بعد، والتي تزين قبور النساء المسلمات! والوداعة المسترخية
اللينة التي بلا طعم لعقول هاته الإناث. كلا، إن سيرتى، في وضوح ركيكة
سخيفة إلى حد ما.

دعنا أيها الأخ الحمار، نتبع تقدم الفنان الأوروبي بدءا من كونه الطفل
اللغز أو المعضلة إلى حالة تاريخية، ومن الحالة التاريخية إلى الطفل
البكاء. لقد حافظ على روح أوروبا حية بقدرته على أن يكون مخطئا،
بجبهه ونذالته المتواصلة، تلك هي مهمته! طفل العالم الغربي البكاء.
اتحدوا يا أطفال العالم البكائين! لكن دعنى أتعجل فأضيف، إننى ملئ
بالأمل، خشية أن تكون تلك الأصوات ساخرة أو باعثة على اليأس. هنالك
دوما، وفي كل لحظة، احتمال أن يتغير الفنان فيما أدعوه فقط بالإشارة

(*) بالفرنسية في الأصل.

الكبرى! ومتى حدث ذلك، فإنه يغدو، فى الحال، حرا يستمتع بدوره فى الإخصاب، إلا أن ذلك لن يكتمل أبدا وبدقة كما يجب أن يكون ما لم تقع المعجزة؛ معجزة كومنولث بورسواردن المثالى! نعم إننى أؤمن بهذه المعجزة. إن وجودنا، كفنانين يؤكد ذلك! إنها عملية القول بنعم لكل ما يتحدث عنه شاعر المدينة التليد، فى شعر أريته لى، مترجما، ذات مرة (Φ). إن حقيقة ميلاد الفنان تؤكد وتعيد تأكيد هذا فى كل جيل. المعجزة هنالك، ترقد فوق الثلج، كما يقال: إنها سوف تزهر وتتفتح ذات يوم جميل لطيف وحينئذ سوف ينمو الفنان فجأة، ويتحمل تحملا كاملا مسئولية منبته من بين الناس، وعندما يدرك الناس، فى ذات الوقت، أهميته الخاصة وقيمته، يرحبون به كالطفل الذى لم يولد لهم من أرحامهم، طفل الفرحة! إننى لعللى ثقة من أنه الآن كالمصارعين الذين يدورون، فى عصبية، حول بعضهم البعض، يبحث كل منهم عن الكيفية التى يمسك بها الآخر. ولكن عندما تأتى المعجزة. اللحظة المضيئة ضياء قويا يعشى الأبصار، فإنه حينئذ فقط سيكون فى وسعنا الاستغناء عن السلطة الكهنوتية كشكل اجتماعى. إن المجتمع الجديد والذى هو مختلف للغاية عن كل ما نستطيع تخيله الآن - سوف يولد حول المعبد الأبيض الصغير الدقيق لطفل الفرحة! سوف يتخلق حوله الرجال والنساء، إنه النمو البروتوبلازمى للقرية، للمدينة، للعاصمة! لن يقف شىء فى طريق هذا الكومنولث المثالى، باستثناء أن زهو الفنان وكسله قد تطابق دوما، فى كل جيل، مع عمى انغماس الناس فى ذواتهم، ولكن عليكم أن تستعدوا، استعدوا! إنه فى الطريق، إنه هنا، إنه هناك، إنه لا يوجد فى أى مكان.

ستنفض مدارس الحب الكبرى، وتوقف المعرفة الحسية والذهنية تدافعهم فى بعضهم البعض. سيطلق سراح الحيوان البشرى وقد تظهر من كل تفاهاته الثقافية القدرة، وكل غائطه الحفرى المتحجر الراضى للمعتقد واليقين. ستطأ الروح البشرية التى تشع ضياء وضحكا، العشب

الأخضر، فى رقة راقص، ستبزغ لتضاجع أشكال الزمن وتنجب أطفالا لما هو جوهرى للعالم؛ حوريات ماء وسمندر وجنيات وحراس كنوز وآلهة النار وتصنيع المعادن، ملائكة وعفاريت نعم، أن يمتد مدى الحسية الجسدية ليحتضن الرياضيات وعلم اللاهوت: ليغذى، لا ليعيق، النمو الطبيعى للفراسة وصدق الحدس. إن الثقافة تعنى الجنس، وهو المعرفة الجذرية. لقد خرجت الملكة العقلية عن مسارها أو أصابها العجز، وأقبلت مشتقاتها، قزمية ملتوية، تمنحك بدلا من الرمزية الصوفية، قرنيطا يهوديا كالمرمون(*) أو النباتيين. وأطفال بكائين بدلا من الفنانين، وعلم تطور الكلمات بدلا من الفلسفة.

إن الطاقة الجنسية والطاقة الخلاقة تسيران يدا فى يد. إنهما تتحولان الواحدة منهما إلى الأخرى، إن الشمس الجنسية والقمر الروحانى يديران حوارا أبديا. إنهما تمتطيان لولب الزمن معًا، تحتضنان كل الدافع البشرى. إن الحقيقة لا توجد إلا فى أحشائنا فقط، حقيقة الزمن.

إن الجماع هو أنشودة الدهماء والصعاليك!، نعم، وهو أيضا جامعة الروح، إلا أنها جامعة لا يتبرع لها، فى الوقت الراهن، أحد، إنها بدون كتب أو حتى طلاب. كلا، هنالك القليل منهم.

كم هو رائع صراع الموت عند لورانس: أن تدرك تماما طبيعته الجنسية أن تتحرر من قيود التوراة، أن تتوهج عبر أجواء الفضاء كالرجل السمكة الأبيض الضخم المناضل، آخر شهيد مسيحى. إن نضاله هو نضالنا؛ حتى ننقذ يسوع من موسى. إن هذا يبدو ممكنا لبرهة من الوقت إلا أن سان بول أعاد الميزان إلى ما كان عليه، وأطبقت أغلال سجن اليهودية، إلى الأبد، على الروح النامية. إنه رغم ذلك، يخبرنا بوضوح فى «الرجل الذى مات»، بما يجب أن يكون، وما كان يجب أن تعنيه قيامة المسيح،

(*) طائفة دينية أمريكية تميز تعدد الزوجات - المترجم.

الميلاد الحقيقي لرجل حر. أين هو؟ ماذا حل به. هل سيأتى أبدا؟ إن روحى تنتفض بالفرحة وأنا أتأمل مدينة النور هذه، والتي يمكن أن تقع فيها، أمام أعيننا، وفى أية لحظة، حادثة جليلة! هنا يمكن للفن أن يجد شكله الحقيقي ومكانه. هنا يمكن للفنان أن ينساب، دون نزاع أو جدال، أو حتى دون محاولة، كالنافورة. إننى أرى وبوضوح أكثر وأكثر، أن الفن يشبه نوعا من تسميد الروح. ليس لى مآرب أو غرض، أى يمكن القول: لا مكان لعلم اللاهوت. إن تغذية الروح، بتسميدها، يعاونها فى العثور على منسوبها الخاص، مثلها فى ذلك مثل الماء، إن هذا المنسوب إنما هو طهر وبراءة أصيلة. من ذا الذى ابتدع ضلال الخطيئة الأصلية، تلك البذاعة الدنسة للغرب؟ الفن أشبه بمدلك ماهر فى أرض الملعب. إنه يقف هنالك دوما ليقدم العون إن وقعت إصابة. إنه يفعل مثلما يفعل المدلك تماما، إن مواساته تهون توترات جهاز الروح العضلى، إنه، من أجل ذلك، يذهب دوما إلى الأماكن التى تثير الحزن، يضغط بأصابعه فوق العضلات ذات العقد، فوق الوتر الذى ابتلى بتشنج وقتى، الخطايا، الضلالات، النقاط التى تثير الكدر والاستياء، والتي نتردد فى قبولها. إنه يكشفها برقته القاسية، يحل عقد التوترات، يحقق استرخاء الروح. يجب أن ينتمى الجزء الآخر من المهمة، إن كان هنالك ثمة جزء آخر، إلى الدين. إن الفن هو مجرد العامل المطهر، إنه خادم القناعة الصامته. إنه أساسى فقط للحب والمرح! إن هذه القناعات الغربية سوف تجدها، يا أخى الحمار، كامنة وراء فكاهاتى الحادة التهكمية، والتي يمكن وصفها فى بساطة، بالتطبيب التقنى. يقول بلتازار: «إن الطبيب الجيد، وخاصة الطبيب النفسى، يجعل الأمر عسيرا، إلى حد ما، وعميقا حتى يبل المريض بصورة أكثر سهولة. أنت تفعل به ذلك حتى تتعرف إن كانت نفسه تتمتع بأى قدر حقيقى من التوثب، إذ إن سر الالتئام يكمن فى المريض وليس فى الطبيب. إن المعيار الوحيد هو رد الفعل!».

لقد ولدت فى ظل كوكب المشترى، بطل النموذج الكوميدى! إن أشعارى أشبه بموسيقى ناعمة تغزو أحساسيس المحبين الشبان المتعبة، والذين يتركون بمفردهم آناء الليل... ماذا كنت أقول؟ نعم، إن أفضل ما تفعل مع الحقيقة الكبرى، كما اكتشف «رابليه»، هو أن تطمرها فى جبل من الحماقات حيث يمكنها أن تنتظر مستريحة معاول وكواريك الاختيار.

ما بين اللانهاية والأبدية يمتد الحبل المشدود الرفيع الصلب الذى على البشر أن يسيروا فوقه، وقد ضمت خصورهم معا! لا تدع هذه الآراء غير المحببة تثير يأسك، يا أخى الحمار. لقد كُتبت فى مرح خالص، لا تشوبها أى رغبة فى التبشير. إننى حقا أكتب إلى مستمع أعمى، ولكن ألسنا كلنا كذلك؟ الأدب الجيد يستخدم الإشارة، مثل مريض لا يستطيع الكلام، مثل طفل! ولكن إن أنت لم تتبع الاتجاه الذى يشير إليه، وتلقيته، بدلا من ذلك، باعتباره شيئا فى ذاته، له قيمة ما مطلقة، أو باعتباره أطروحة عن شيء ما يمكن شرحه وتأويله، فإنك بالتأكيد تفقد الإشارة، تفقد فى الحال نفسك بين تجريدات النقد المجذبة؟ حاول أن تخبر نفسك أن ما أستهدفه فى الأساس كان تجريدات النقد المجذبة؟ حاول أن تخبر نفسك أن ما أستهدفه فى الأساس كان استدعاء منتهى الصمت الذى التأم، وأن الرمزية التى يشتمل عليها الشكل والنمط، إنما هى إطار للإشارة يمكن من خلاله، كما يحدث فى المرأة، أن يمسك المرء بفكرة الكون فى وضع السكون، كون يهيم حبا بذاته سوف «تستحلب الكون مع كل نفس تأخذه»! مثلك فى ذلك مثل طفل محمول على الأذرع. يجب أن تتعلم قراءة ما بين السطور، ما بين الحيوانات.

لقد اعتادت ليزا القول: «إلا أن كمالها جعل المرء على يقين من أنها فى طريقها إلى النهاية». كانت على حق، إلا أن النساء لن يقبلن بالزمان وما تمليه لحظة الموت الجلييلة. إنهن لا يرين أن الحضارة إنما هى فى بساطة

مجاز واستعارة كبرى، تصف ما تصبو إليه روح الفرد في صورة مجمعة، ربما تفعل ما يمكن أن تفعله الرواية أو القصيدة الشعرية. إن الصراع يجرى دوماً لتحقيق أحاسيس أكثر سموًا. ولكن واأسفاه! إن الحضارات تموت إن هي وعت ذاتها. أنها تدرك، وهي تفقد قلبها، إن الحافظ غير الواعي للدفع إلى الأمام لم يعد له وجود هنالك. إنها تبدأ محاولة يائسة لتقليد صورتها في المرأة. ولا جدوى. إلا أنه من المؤكد وجود خدعة ما. الزمان هو الخدعة! المكان فكرة محدودة، إلا أن الزمان فكرة مجردة إنك ترى ذلك بوضوح تام في أثر جراح أنسجة قصيدة «بروست الكبرى». إن أعماله هي الأكاديمية العظمى للوعي بالزمان. ولما كان راغبًا عن تجميع معنى الزمان، فقد دفع به للعودة إلى الذاكرة، سلف الأمل!

آه، لقد كان يمتلك الأمل - لكونه يهوديًا - ومع الأمل تجيء الرغبة التي لا تقاوم للتدخل فيما لا يعنيه. إننا السلتيين (*) نراهم الآن اليأس، الذي ينمو، فقط من خلاله الضحك والغرام المتهور للقنوط الأبدى. إننا نقتنص ما لا يمكن إدراكه. إن الأمر بالنسبة لنا هو فقط بحث لا ينتهى.

كانت عبارتي «مد الطفولة إلى الفن» لا تعنى شيئًا بالنسبة إليه. إن منصة القفز، يا أخى الحمار، وأرجوحة الترايز تتواجدان شرق هذا الموقع بالضبط! إنها قفزة واحدة عبر القبة الزرقاء تنقلك إلى حال جديد، فقط عليك ألا تخطئ الحلقة! لماذا، مثلاً، لم يستطيعوا التعرف، فى المسيح على الساخر الكبير الذى كأنه الكوميديان؟ إننى لعلنى ثقة أن تلثى السعادة إنما هى مزح ودعابات أو هجو وتقريع على طريقة «شوانج تزو». إن أجيالاً من معلمى أسرار الدين والمتحذلقين قد فقدوا القدرة على الفهم. إننى واثق من ذلك، على أى حال، إذ لا بد أنه قد عرف أن الحقيقة تختفى عند

(*) نسبة إلى سكان غرب أوروبا الأقدمين - المترجم.

القول بها. إنها من الممكن إيصالها، لكنه لا يمكن قولها بصورة مكررة. إن التهكم وحده هو سلاح تلك المهمة.

دعنا نقلب الأمر على وجه آخر. إنك أنت من تناول بالذكر، منذ لحظة مضت، افتقارنا إلى ملاحظة كل ذلك الذى يهم بعضنا البعض؛ حدود الرؤية ذاتها. لقد تكلمت فى شجاعة! إلا أننا إن ترجمنا ذلك روحيا، فإننا نجد أن هذا القول قد أضفى عليك صورة رجل يسير حول منزله، بحثا عن عويناته الموجودة فوق جبهته. أن ترى إنما يعنى أنك تتخيل. وما الذى يمكن، يا أخى الحمار، أن يكون أفضل تصويرا لذلك، من طريقة رؤيتك لجوستين، والتي أضاءتها، بصورة متقطعة، إيماءات خيال كهربية؟ إنها بصورة واضحة، ليست نفس المرأة التى شرعت فى محاصرتى، والتي أبعدتها فى النهاية عني، ضحكاتى الساخرة المستهزئة. لماذا رأيت أنت فيها رقة وجاذبية؟ بدت لى أنا خشونة محسوبة على نحو خاص، لم يكن ما رأيته أنت فيها من ابتداعها، لكنه كان مما بعثته أنت فيها. كل تلك الثثرة الصادرة من الحلق، الضغط، والإكراه لإظهار الهستيريا على السطح، تذكرنى بمريض يחדش ملاءة! إن الحاجة العنيفة لتجريم الحياة، لشرح حالاتها الروحية، تذكرنى بمتسول يستجدى الشفقة، يعرض أحزانه عرضا جيدا لقد كانت تدفعنى عقليا إلى أن أخدم نفسى على الدوام؟ ومع ذلك، فقد كان بها الكثير الذى يشير الإعجاب. لقد غمست فضولى مستكشفا خطوط شخصيتها فى شىء من التعاطف، شقاء حقيقى، رغم أنه كانت لها على الدوام رائحة طلاء، زلق! قصة الطفلة مثلا!

لقد عثرت عليها بالطبع، أو بالأحرى فعل منميجيان ذلك. عثر عليها فى ماخور. ماتت من شىء ما، ربما كان التهابا سحائيا. جاء دارلى ونسيم ليعيدانى. أدركت فجأة أننى لا أستطيع احتمال العثور. عليها. كنت طوال بحثى عنها أعيش على أمل العثور عليها لكن، ما إن مات هذا الشىء، حتى

بدا وكأن هذا الموت قد حرمنى فجأة من كل مقاصدى. لقد أدركت ذلك، إلا أن عقلى الداخلى ظل يصرخ: إن ما أدركته ليس حقيقيا، رافضا أن يدعى أدرك ما أدركت، رغم أننى قد أدركت بوعى هذا الأمر بالفعل. إن مزيج تلك العواطف المتضاربة كان مثيرا للاهتمام حتى إننى دونته فى كراسة مذكراتى على نحو يقع بين الشعر ووصفة صناعة خبز الملائكة التى حصلت عليها من العلاف وترتيبها مجدولا كالآتى:

١ - الراحة عند نهاية البحث.

٢ - اليأس عند نهاية البحث. ليس هنالك من قوة دافعة فى الحياة إلى أبعد من ذلك.

٣ - الرعب عند الموت.

٤ - الراحة عند الموت. أى مستقبل متاح أمامها؟

٥ - الخجل المكثف (لا تحاول فهم هذه العبارة).

٦ - الرغبة المفاجئة فى استمرار البحث بلا جدوى حتى لا يعترف بالحقيقة.

٧ - تفضيل الاستمرار فى تغذية آمال كاذبة.

إنها عملية تجميع مربكة لتنف تترك بين مقتطفات أدبية لشاعر مشرف على الموت! ولكن هنا كانت تكمن النقطة التى أحاول الوصول إليها. لقد قالت: «لم يلحظ نسيم أو دارلى، بالطبع، أى شىء. إن الرجال أغبياء إلى حد كبير. إنهم لا يلحظون البتة أى شىء. لقد كان فى مقدورى أن أنسى الأمر وأن أحلم حقيقة أننى لم أكتشف هذا الأمر أبدا إلا أن هنالك منمجان الراغب فى الجائزة، والمقتنع بحقيقة قضيته إلى حد إثارة شغب هائل. لقد تحدث بلتازار عن تشريح الجثة لفحصها. وكنت أناحمقاء للغاية إذ

ذهبت إلى عيادته أعرض رشوته حتى يقول: إن الطفلة ليست طفلتى؛ لقد أصابته الدهشة إلى حد ما، لقد أردت منه أن ينكر حقيقة، أعرف أنا صدقها تماما. وذلك حتى لا يكون علىّ تغيير نظرتى، أن أحرم، إن شئت القول، من حزنى وحسرتى. لقد أردت أن يدوم الأمر؛ يستمر بحثا شديدا الحماس لما لم أكن أجرؤ على كشفه. لقد أثرت خوف نسيم وأوقعت الشك فى نفسه بالأعبيى المضحكة حول خزائنه الخاصة، هكذا سار الأمر. أخذت أبحث، مدة من الوقت طويلة، بطريقة آلية، حتى أستطيع وقف ضغط الحقيقة والوصول إلى تواؤم معها. أن أرى الأمر فى وضوح تام، أرى الديوان والمسكن.

وهنا وضعت على وجهها أجمل تعبيراتها، تعبير الحزن المكثف، ووضعت راحتها على نهديها. هل أخبرك بشيء ما؟ لقد شككت فى كذبها. كان فكرة غير لائقة، لكننى شخص لا يستأهل شيئا.

أنا: «هل عدت إلى المكان، فى أى وقت من الأوقات؟».

هى: «كلا لقد وددت ذلك كثيرا، لكننى لم أجرؤ على الذهاب - وارتعدت قليلا - لقد غدت ذاكرتى مشدودة إلى الديوان القديم لا بد أنها تتجول هنالك فى مكان ما. إننى ما زلت، كما ترى، نصف مقتنعة بأن كل ما حدث إنما كان حلما».

وتناولت للحال غليونى وكمانى، غدوت كصائد الأيائل، شرلوك حقيقى. كنت على الدوام الرجل الذى يحدد اللحظة. قلت فى خفة ونشاط: دعينا نذهب ونعيد زيارة المكان. كنت أعتقد أن الزيارة سوف تكون، فى أسوأ الحالات، كالدواء المُسهل. لقد كان الاقتراح، فى الحقيقة، عمليا بصورة فائقة، نهضت فى الحال وارتدت معطفها، سرنا صامتين عبر الأطراف الغربية للمدينة، وذراع كل منا فى ذراع الآخر.

كان هنالك احتفال ما يجرى فى المدينة العربية. كان يضوى بالأنوار الكهربية والأعلام. البحر سكن وسحب صغيرة مرتفعة وقمر أشبه بأرشمندريت(*) مستنكر لآى عقيدة أو إيمان، رائحة السمك، حبات الحبهان والأحشاء المقلية المتبلة بالكمون، والثوم(**). الجو مشحون بضوضاء المندولين التى تخربش الليل بأرواحها الصغيرة، كأنما ابتليت بالبراغيث، تخربش وتخربش بأرواحها حتى يظهر الدم فوق تلك الليلة المليئة بالقمل المخدر! كان الهواء ثقيلًا، تخترقه الأنفاس بطريقة غير مرئية. إنك تحسه داخلا خارجا من رئتين كوسادتين من جلد! هو! كل تلك الأضواء والضوضاء البشعة، هكذا فكرت. ويتحدثون عن رومانسية الشرق! أعطني «المتروبول» فى «برايتون»، فى أى يوم! اجتزنا هذا المقطع الضوئى بخطا سريعة متعمدة. سارت فى خطا سديدة وقد أحتت رأسها غارقة فى أفكارها. أخذت الشوارع تظلم تدريجيا، تشحب ألوانها إلى الظلمة البنفسجية، غدت أكثر ضيقًا، ملتوية منحنية. أخيرا بلغنا مكانا خاليا تنيره النجوم، ومبنى كالثكنة كبير وقاتم. سارت الآن فى بطء، غدت أقل يقينا تبحث عن باب. قالت همسا: «المطراوى العجوز يعتنى بهذا المكان. إنه طريح الفراش. الباب مفتوح دائما، إلا أنه وهو فى فراشه يسمع كل شىء. خذ بيدى». لم أكن أبدا ممن يأكلون النار. يجب على الاعتراف بأننى أحسست بالاضطراب إلى حد ما ونحن نسير عبر هذه اللقافة من الظلام الدامس. كانت يدها راسخة باردة، وصوتها حريص دقيق لا يشوبه أى قدر من التشديد، لا ينم عن أى إحساس بالاضطراب أو الخوف. أعتقد أننى سمعت صوت مروق فئران ضخمة فى البنيان العطن حولى. إنها عوارض الليلة ذاتها (حدث ذات مرة، وهنالك عاصفة رعديّة، أن رأيت

(*) رتبة كهنوتية - المترجم.

(**) بالعربية فى حروف لاتينية.

أجسادها اللامعة تبرق هنا وهناك وهى فى وليمة تتغذى على الفضلات). أرجوك يا إلهى، تذكر أننى، رغم كونى شاعرا إنجليزيا، فإننى لا أستحق أن تأكلنى الفئران، هكذا صليت فى صمت.

أخذنا نسير عبر دهليز طويل من الظلمة، وألواح الخشب العطن تزيق تحتنا، ألواح يفتقد أحدها هنا أو هناك. كنت أتساءل إن كنا لا نسير فوق الحفرة نفسها التى بلا قرار. كان الجو يفوح برائحة الرماد المبتل، ورائحة اللحم الأسود وهو يعرق. إنها تختلف كثيرا عن الأجساد البيضاء. إنها رائحة كثيفة كريهة نتنة، مثل قفص الأسود فى حديقة الحيوان. كان الظلام نفسه يتصبب عرقا ولماذا لا؟ يجب أن يرتدى الظلام جلد عطيل. ورغبت فجأة باعتبارى مرافقا فزعا هيبابا، أن أتوجه إلى دورة المياه إلا أننى سحقت الفكرة كما يسحق المرء خنفساء. دع مثنائى تنتظر. تقدمنا إلى الأمام يحيط بنا حائطان من ظلام، تغطى أرضيتهما الألواح العطنة. همست فجأة: «أعتقد أننا قد وصلنا». دفعت بابا لينفتح على قطعة أخرى من الظلام الأصم الذى لا يمكن اختراقه. كان حجرة محددة الحجم إذ كان الهواء باردا. كان فى إمكان المرء أن يحس بالمكان رغم أنه لا يرى شيئا أيا كان وأخذ كلانا شهيقا عميقا.

«حسنا»، قالت همسا وهى تفكر فى تأمل، بحثت فى حقيبة يدها عن علبة الثقاب أشعلت أحدها مترددة. الحجرة طويلة طويلة مسقوفة بالظلام رغم الرفرفة الصفراء لشعلة الثقاب. كان هنالك نافذة واحدة تسمح بدخول واهٍ لضوء النجوم. الحوائط بلون صدى النحاس والملاط ساقط فى كل مكان، والزخرفة الوحيدة عليها بصمات أكف صغيرة زرقاء تتناثر على الجدران الأربعة بطريقة عشوائية، وكأن العديد من الأقزام الذين أصابهم جنون اللون الأزرق، أخذوا يقفزون، واقفين على أكفهم، فوق الجدران! استكان إلى اليسار، على بعد قليل من الوسط، ديوان كبير كئيب، يطفو فوق العتمة كنعش من نعوش الفايكنج. كان أثرا من مخلفات

أحد الخلفاء العثمانيين وقد طحن مرتين، تخرمه الثقوب. انطفأ الثقاب «هاك، هو» - قالت ذلك وهي تضع العلبة في يدي وتترك جانبي - عندما أشعلت عودا آخر كانت تجلس إلى جوار الديوان وقد أراحت وجنتها عليه وهي تربته في رقة براحة يدها. كانت رابطة الجأش تماما، تربت بلمسات شهوانية هادئة ثم مرت فوقه ببرائتها، مما ذكرني بلبؤة تجلس منفرجة الساقين تتناول وجبتها. كانت لحظة من التوتر الحبيس إلا أن هذا لم ينعكس على وجهها (إن البشر يشبهون أرغن أنبوبى، ما إن تشد حاجزا موسوما بعلامة «المحب» أو «الأم»، حتى تنثال العواطف المناسبة دون ضابط أو رابط، دموع وتنهدات، أو أصوات إعزاز وتحبيب. إننى أحاول فى بعض الأحيان أن أجرب وأفكر فينا جميعا كأنماط سلوكية أكثر مما نكون بشرا. ألم تكن فكرة روح الفرد التى غرزها اليونان فينا، يحكمها أمل عنيف فى أن يتم استيعابها، بما لها من جمال خالص، أو كما نقول أن تفعل فعل التطعيم؟ أن يكون فى وسعنا النماء إلى حجم الفهم والإدراك، وأن ننمى الشعلة السماوية فى قلب كل منا؟ هل تم الاستيعاب أم لم يتم؟ من ذا الذى فى وسعه قول ذلك؟ إن البعض منا لا يزال لديه هذه الفكرة، ولكن كم تبدو بائدة منقرضة ربما....).

«لقد سمعونا».

كان هنالك، فى مكان ما، فى الظلام، صوت دمدمة خافتة، وامتلاء الصمت فجأة بوقع أقدام فوق أخشاب عطنة. ورأيت فى الرفرفة الخامدة للثقاب، وكأن ذلك فى مكان ما بعيد للغاية، حاجزا من ضوء - وكأن باب أتون بعيد يفتح فى السماء. وجاءت أصوات، أصوات نمل! جاء الأطفال عبر كوة ما أو باب أرضى مسحور، مصنوع من الظلام، فى قمصان نومهن القطنية، وهن مدهونات بطريقة سخيفة منافية للعقل، وقد وضعن خواتم فى أصابع أيديهن وأجراسا فى أصابع أقدامهن، وبذا تصاحب الموسيقى الواحدة منهن أينما ذهبت! إحداهن تحمل طبقا يطفو فيه ضوء شمعى.

كانت تصدر عنهن ولولة كالخنة وهن يتجهن نحونا يسألننا، فى صراحة لا فحة، عن رغباتنا، إلا أنهن دهشن عندما رأين جوستين تجلس إلى جوار نعش الفاىكنج ووجهها (وهى تبسم الآن) قد استدار نصف دورة نحوهن.

«أعتقد أنه يجب علينا أن نغادر»، قلت فى صوت منخفض، فقد كانت رائحتهن مخيفة، تلك الأشباح الضئيلة، والتى أخذت تبدى ميلا لبرم أذرعهن الجلدية حول خصرى، بينما يتملقن وينغمن إلا أن جوستين استدارت إلى إحداهن وقالت، «أحضرى الضوء هنا، حيث نستطيع جميعا أن نرى». وعندما أ حضر الضوء، أدارت نفسها فجأة، ووضعت ساقىها متقاطعتين تحتها، وأخذت تترنم فى تلك النبرة العالية ذات الجرس التى يتميز بها رواية القصص فى الشوارع: «الآن، تجمعوا حولى كلكن يا من باركن الله، واستمعن إلى عجائب القصة التى سوف أرويها لكن». كان وقع الكلمات كمس الكهرباء! استقررن حولها كما تستقر أوراق شجرة جافة فى ربح تراحمن مقتربات من بعضهن البعض، بل إن البعض منهن تسلقن الديوان القديم، وهن يضحكن ضحكات مكتومة، يلكنن بعضهن البعض فى سعادة. وبدأت جوستين، مرة أخرى، فى نفس الصوت الثرى المنتصر، فى صوت راوى القصص المحترف»، آه، استمعن إلى كلكن أيتها المؤمنات الحقيقيات، وسوف أروي لكن قصة عزيزة ويونس(*) وحبهما الكبير المورق، والنكبات التى حلت بهما من أفعال «أبو على سرق المعزة(**)» كان ذلك فى زمن الخلافة العظيم، عندما سقطت كثير من الرءوس وسارت كثير من الجيوش...».

(*) جاءت فى الأصل يونا وعزيز وأميل إلى الاعتقاد بأنها عزيزة ويونس وأن المؤلف قد أنث يونس بيونا وذكر عزيزة بعزيز - المترجم.

(**) عربية بحروف لاتينية.

كانت شعرا وحشيا حول الزمان والمكان، الدائرة الصغيرة للوجوه
الذاوية، الديوان، الضوء المتراخي، والمطرب العربي الأسر، على نحو
غريب، بما فيه من ثقل التصوير المزخرف - والنسيج المطرز للتكرار
الجناسي الاستهلاكي، والنبرات التي لها رنة وخنة، أضفت بهاء علمانيا
جعل الدموع تطفرف من عيني، دموع غزيرة! كان ذلك غذاء دسما للروح!
وجعلني ذلك أدرك كم كان القوت الذي قدمناه نحن المحدثين، إلى قرائنا،
هزيلا. الخطوط الملحمية التي تتسم بها قصتها! أحسست أني أغبطها.
كم كانت تلك الصغيرات الشحاذات ثريات. كنت أيضا أحد المستمعين
إليها، وهي تتحدث عن العدالة المعطلة. كن غارقات في شخوص قصتها
مثل ثقالات من رصاص. كان في وسع المرء أن يرى أرواحهن الحقيقية
خارجة مثل الفئران، تزحف خارجة من تلك الأقنعة المطلية في تعبيرات
دهشة دقيقة، تعبيرات إثارة وفرحة. كن في تلك الغبشة الصفراء تعبيرات
تجسد الحقيقة الرهيبة. أنت ترى كيف يمكن أن يكن عندما يبلغن أوساط
العمر، العرافة، الزوجة الصالحة، الثرثرة والسليطة. كان النظم الشعري قد
سلخن حتى العظام، ترك فقط أنفسهن الطبيعية لتزدهر هكذا في تعبيرات
صادقة أمينة تصور أرواحهن الضئيلة العاجزة.

ما الذي كان في مقدوري تقديمه من عون غير الإعجاب بها إذ منحتنى
أكثر اللحظات دلالة وعمقا في حياة الكاتب؟ ووضعت ذراعي حول كتفها
وجلست ذاهلا مستغرقا مثلي مثل أي واحدة منهن، أتتبع المنحنيات
المتوجة المتعرجة للقصة الخالدة وهي تفضها أمام عيني.

كان من العسير عليهن تحمل فراقنا وقد بلغت القصة أخيرا نهايتها
تعلقن بها، يتوسلن المزيد. قالت وهي تبسم في هدوء: «لم يعد هنالك
وقت، إلا أننى، يا صغيراتي سوف أحضر ثانية». بالكاد تنبهن إلى النقود
التي كانت توزعها عليهن، وقد تراحمن وراءنا في الممرات المظلمة

حتى سواد الساحة. التفتُ إلى الخلف عند أحد الأركان فلم أر غير ظلال ترفرف. قلن وداعًا في أصوات تمزق عذوبتها نياط القلوب. سرنا في صمت عميق تشملنا القناعة والرضا عبر المدينة المضغضة المحطمة التي أفسدها الزمن حتى بلغنا واجهة البحر الرطبة. وقفنا لزمان طويل نستند إلى الدعامات الحجرية الباردة فوق البحر، ندخن ولا نقول شيئًا! أدارت، أخيرًا، وجهها نحوي، وقد ارتسم عليه إرهاق هائل، وهمست: «خذني الآن إلى المنزل. إنني أكاد أموت تعبًا». نادينا عربية حنطور كانت تتسكع. انطلقنا عبر الكورنيش في رصانة رجال البنوك بعد مؤتمر ما. «أعتقد أننا جميعا نبحث عن أسرار النماء!» كان ذلك كل ما قالته ونحن نفترق.

كانت ملاحظة غريبة تلك التي أبدتها عند الفراق. راقبتها وهي تسير متعبة تصعد الدرجات إلى المنزل الكبير تتلمس مفتاحها. كنت ما زلت ثملًا بقصة يونس وعزيزة!

أخى الحمار، إنه لمما يؤسف له أنه لن تكون لديك الفرصة لقراءة كل هذا الهراء المطول الممل. إنه لمما يطربنى أن أدرس تعبير وجهك الحائر المرتبك وأنت تفعل ذلك. لماذا يحاول الفنان دوما أن يتخم العالم بكربه الخاص. لقد سألتني أنت ذلك ذات مرة. لماذا حقا؟ سوف أقدم لك عبارة أخرى: الغنغورية العاطفية(*) لقد كنت أنا، على الدوام، طيبًا مع مبدعى العبارة المهذبة.

الوحدة تخلق الرغبة. وملك الذباب يقتنص الفرصة

تلك هي إمبراطورية الشر أعمق ما يباغت النفس

تعال إلى تلك الذراعين يا عزيزى الهولندى العجوز

(*) أسلوب أدبي يتسم بالغموض والزخرفة اللفظية - المترجم.

وأحكم إغلاق الباب جيدا

إننى لا أستطيع، يا عزيزى أن أحبك كثيرا جدا

أنا لا أحب..... أكثر!

فيما بعد، بينما كنت أسير بلا هدف، من الذى كان يمكن أن ألتقى به غير بومبال عائدا لتوه من الكازينو، يترنح قليلا، ومعه مbole مليئة بأوراق نقدية، وظمأ عارم لكأس أخيرة كبيرة من الشمبانيا، التى كنا نتناولها معا فى «الإيتوال». كان غريبا أننى لم أكن راغبا، فى تلك الليلة، فى أى فتاة. كان يونس وعزيزة قد سدا الطريق أمامى، على نحو ما. لقد همت، بدلا من ذلك، عائدا إلى فندق «جبل النسر» ومعى زجاجة فى جيب معطفى لأواجه مرة أخرى سوء طالع صفحات كتابى، التى سوف تغدو بعد عشرين عاما، من الآن، مصدرا لكثير من الجدل فيما بين الأشكال الدنيا من مدارسنا. لقد بدت كهدية، هى نوع من الكوارث تقدم إلى الأجيال التى لم تولد بعد. لقد كنت حريا أن أترك شيئا مثل يونس وعزيزة، إلا أن ذلك لم يعد ممكنا، منذ شوسر(*) ربما كانت سفسطة المستمعين العلمانيين هى السبب؟ إن فكر كل تلك الدنايا الصغيرة الموجهة قد جعلتنى أغلق دفتر مذكراتى فى طرقات متتالية غاضبة. إن الشمبانيا، على أى حال، شراب رائع ملطف، منعنى من أن أكون غاية فى الاكتئاب ثم عثرت مصادفة على مذكرتك القصيرة والتى دفعت بها، يا أخى الحمار، من الباب، مبكرا فى المساء، مذكرة تثنى علىّ فيها بمناسبة سلسلة الأشعار الجديدة التى تصدرها «الأنفيل» (وبها خطأ مطبعى فى كل سطر). ولما كان الكتاب هم ما جبلوا عليه، فقد فكرت فىك برقة شديدة، ورفعت كأسى فى نخبك. لقد

(*) جيفرى شوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) شاعر إنجليزى يعتبر الأبرز قبل شكسبير - (المترجم).

غدوت فى عينى ناقدًا يملك أنقى فراسة، وسألت نفسى ثانية فى نبرات ساخطة، لماذا بحق الشيطان لم أضيع المزيد من الوقت معك؟ كان ذلك، حقيقة، تراخيا منى. وأعدت، بينما أسقط نائما، مذكرة ذهنية لأصطحبك إلى العشاء فى الأمسية القادمة، وأتحدث عن حماقات ماتتجه رأسك، عن الكتابة بالطبع، أو ماذا غير ذلك؟ آه! لكن تلك هى النقطة ما إن يكون الكاتب مقلا فى حديثه، وأنا أعرف ذلك، صامتا كحداد، حتى يتوجب على أن أجلس واضعا راحتى فى إبطى بينما تتكلم أنت!

إننى أرى فى نومى مومياء ذات شفتين فى لون الخشخاش، ترتدى ملابس العرس البيضاء الطويلة، مثل عرائس الحلوى العربية، إنها تبسم، لكنها لا تستيقظ، رغم أنى قبلتها وتحدثت إليها حديثا مقنعا. كانت عيناها مفتوحتين، إلا أنهما أغلقتا ثانية، وانزلت إلى الوراى فى نوم باسم. همست باسمها الذى كان عزيزة، والذى غدا ليزا بطريقة لا يمكن تعليلها. ولما لم تكن هنالك جدوى فقد طمرتها ثانية فى الرمال المتحركة (حيث تتغير أشكال الرمال سريعا) وحيث لن يبقى لهذه البقعة من أثر. استيقظت مبكرا عند الفجر. أخذت عربية حنطور إلى شاطئ رشدى حتى أظهر فى فجر البحر. لم يكن هنالك فى ذاك الوقت من أحد حولى غير كليا، على الشاطئ البعيد فى رداء استحمام أزرق وشعرها الرائع يتأرجح حولها مثل «بوتوسيلى» شقراء. لوحت لها فردت على ملوحة، إلا أنها لم تبد أى ميل للحضور والحديث مما جعلنى أشعر نحوها بالامتنان. رقدنا، على بعد ألف ياردة من بعضنا البعض، ندخن مبتلين مثل عجول البحر. وفكرت للحظة فى جسدها الصيفى البديع بلون البن المحروق، وتلك الشعرات القليلة فوق فوديتها وقد تحول لونها إلى الرمادى. وأخذت أستنشقها بصورة مجازية، مثل نفحة بن محمص، أحلم بفخذيها الأبيضين وتلك العروق الزرقاء فيهما! حسنا، حسنا... إنها قادرة على إثارة المتاعب مالم

تكن بهذا الجمال. إن تلك النظرة المتألفة تفصح عن كل شيء، وتفرض على الاحتماء منها.

إن المرء ليكاد يسألها أن تعصب عينيها حتى يستطيع مضاجعتها! ومع ذلك فإن هذا أشبه بارتداء الجورب الحريري الأسود الذي يصر عليه بعض الرجال. هناك عبارتان تنتهيان باقتراح! ما الذي يقدم عليه بورسواردن المسكين؟

إن نشره قد أيقظ شبقا موجعا

بين الطبقات الوسطى

إن اقتراحاته قد نالها التنديد

باعتبارها خطرا على الجماهير

إن أعماله الكبرى قد صنفت

بين الغازات المهلكة

استيقظي يا إنجلترا!

أيها الأخ الحمار، إن ما يسمى بعملية الحياة إنما هو في الحقيقة خيال.

في العالم الذي نصوره على الدوام باعتباره العالم الخارجي، إنما هو خاضع فقط للاستقصاء الذاتي! إن مواجهة مثل تلك القسوة، والتي هي تناقض ظاهري ضروري، تفرض على الكاتب أن ينبت خياشيم وذيولا، والأفضل له أن يسبح ضد تيارات الجهالة. ربما ما يبدو فعل عنف جائر، يكون نقيض ذلك. إذ عند استبدال هذه العملية بما هو ضدها، على هذا النحو، يتوحد المجري المتدفق للإنسانية في ذروة الخمود والهمود

وانعدام الطعم والرائحة، الذروة التي اشتق منها الذروة، اشتق منها جوهر دافعه وحافزه. (نعم، إلا أنه من المؤلم أن يعرف!) وإن كان عليه أن يتخلى عن دوره، فإن كل أمل في كسب موطئ ارتكاز فوق سطح الحقيقة سوف يفقد، وكل شيء في الطبيعة سوف يختفى! إلا أن هذا الفعل الشعري سيكشف عن أن يكون ضروريا عندما يستطيع كل امرئ أن يؤديه لنفسه. إننا نسأل، ما الذي يمنعهم؟ حسنا إننا جميعا خائفون بالطبع، من أن نستسلم لأخلاقنا المعللة بطريقة تثير الشفقة، والقفزة الشعرية التي أتحدث عنها ترقد في الجانب الآخر منها. إنها مرعبة فقط لأننا نرفض التعرف على الوجوه المنحوتة الغريبة الرهيبة في أنفسنا والتي تزين أعمدة الطوطم في كنائسنا - قتلة، كذبة، زناة وهكذا (آه ما إن يتم التعرف عليها، حتى تتلاشى هذه الأقنعة المصنوعة من ورق خضار السلطة) إن كل من يقدم على هذه القفزة الغامضة إلى حقيقة الحياة الشعرية المنذرة المبشرة سوف يكتشف أن للحقيقة أخلاقها المشيدة في داخلها! ليس هنالك من حاجة لارتداء قماط يفيد المرء أكثر من ذلك. إن الأخلاق في داخل هذا النوع من غبش الحقيقة يمكن التغاضي عنها، لأنها أمر يفترض العلم به، إنها جزء من الشيء، وليست معوقا له، ليست أمرا محظورا. إنها هنالك كي يعيشها المرء، وليست لمجرد التفكير والتأمل! آه يا أخى الحمار، سوف يبدو هذا، كصرخة بعيدة تستهدف ما يشغل البال من أدب خالص يحدق بك. إلا أنك ما لم تتعرض لهذا الركن من الحقل بمنجلك الصغير فإنك لن تحصد أبدا ذلك المحصول الذي في داخلك، وهكذا تنجز مهمتك الحقيقية، هنا أسفل.

ولكن كيف؟ إنك تسألني في حزن وشجن. أنت هنا تمسكني من شعري القصير، إذ إن الشيء يحدث، مع كل منا، بطريقة مختلفة. إنني فقط أرى أنك لم تغدو يائسا بما يكفي، مصمما بما يكفي، أنت في مكان

ما، من قلب الأشياء لا تزال كسول الروح. ومن ثم، لماذا النضال؟ إذ لو ألم بك شيء، فإنه سوف يلم من تلقاء نفسه. ربما تكون على صواب تماما، وأنت معلق هكذا تنتظر. لقد كنت أنا متشامخا للغاية أحسست أنه يجب عليّ أن أمسك به من قرنيه، أمسك بهذا السؤال الحيوى عن حقى المكتسب بحكم مولدى. كان الأمر بالنسبة لى قائما على فعل تحكمه الإرادة لذا فإننى أقول لمن هم على شاكلى: اغتصب القفل عنوة، اسحق الباب بقوة واجه، اعص، ادحض الكهانة والوسيط الروحى، تصبح الشاعر المقتحم المتحدى!

لكننى أعى أن هذه التجربة يمكن أن تحدث بأى شكل أو أسلوب، إذ ربما تكون، فى العالم الجسدى، لطمة بين العينين، أو سطورا قليلة يخربشها قلم فوق ظهر غلاف خطاب متروك فى أحد المقاهى. إن الحقيقة المبشرة يمكن أن توجه ضربتها فى أية نقطة: من أعلى، من أسفل، إنها ليست شيئا ما له خصوصيته إلا أنه بدونها يظل الإبهام قائما. ربما تسافر، تنتقل، حول العالم وتستوطن أطراف الأرض بسطورك، لكنك أبدا لن تسمع بنفسك الشدو والغناء.

* * *

[٤]

وجدت نفسى أقرأ تلك الصفحات، من كراسة مذكرات بورسواردن، بكل ما تستحق من انتباه و متعة، دون أى تفكير فى «دفع تهمة» ما - إن استخدمت عبارة كليا. بدا لى، على عكس ذلك، أن ملاحظاته لم تكن تنقصها الدقة، وأنه مهما وضع على صورتى من أسواط وعقارب، فقد كانت مبررة تبريرا جيدا بالإضافة إلى ذلك من المفيد والصحى أن يرى المرء صورته بهذه الصراحة الحارقة صادرة عن شخص يكن له الإعجاب! إلا أننى، اندهشت، رغم ذلك، إذ لم أحس حتى بأن احترامى لذاتى قد أصابته الجراح، ليس فقط لأن عظامى لم تتكسر، ولكن لأننى كنت فى بعض الأحيان أضحك عاليا من هجماته ونكاته. ووجدت نفسى أخاطبه هامسا، كأنه موجود أمامى بالفعل، يقول، أكثر مما يكتب، تلك الحقائق الذاتية البغيضة، قلت هامسا، يا ابن الزنا، فقط انتظر قليلا وكأننى أستطيع يوما ما أن أصفى الحساب معه وأربح النقاط. لقد كان أمرا شاقا أن أرفع رأسى وأدرك فجأة أنه قد خطا بالفعل وراء الحجب، يندفع فى كل مكان، بهذا المزيج الغريب من القوة والضعف الذى شكل شخصيته الغامضة.

«ما الذى يضحكك؟» قال تلفورد، وهو يتشوق دوما إلى المشاركة فى

تبادل النكات والمزح التى تتسق والفطنة المكتبية التى يحتاجها محتضر
فى النزاع الأخير.

«كراسة مذكرات».

كان تلفورد رجلا ضخما يرتدى ملابس رديئة التفصيل، ورباط عنق
به نقط زرقاء. كان جلد بشرته مليئا بالبقع. إنه من ذلك النوع الذى يتمزق
بسهولة تحت حد الموسيقى ولذا فقد كانت هنالك على الدوام باقات قطن
ملتصقة بذقنه أو بأذنه، لوقف نزيف جرح ما. كان على الدوام كثير الكلام،
ينفجر بالخطأ الذى يصدر عن طيبة قلب وسذاجة(*)، ومما يعطى انطبعا
بأنه فى صراع دائم مع طاقم أسنانه الصناعية، سيئ التثبيت. كان يغرغر
مثل ديك رومى، يشهق، يعرض فوق موانع سائبة، أو يتلعحنكا. لينا
طريا، يشهق مثل سمكة وهو ينطق مزحه أو يضحك على نكاته مثل رجل
يمتطى لعبة هزاز العظام، والجزء العلوى من أسنانه يضرب إلى أعلى وإلى
أسفل فوق لثته. كان يصرخ: «إننى أقول إن ذلك كان لذيذا، أيتها الثمرة
العتيقة» كما أننى لم أجد فيه زميل عمل كره فى حجرة المكتب التى كنا
نتشاركها فى الرقابة، إذ لم يكن العمل محكما، وكان هو باعتباره قديما،
مستعدا على الدوام لتقديم النصيح أو المساعدة كما كنت أستمتع أيضا
بإصراره وعناده وهو يعود إلى قصصه عن «الأيام الخالية» الأسطورية،
عندما كان هو «ليتل تومى تلفورد» تلك الشخصية عظيمة الأهمية، والتى
تلى، مباشرة، فى الرتبة والقوة، ماسكيلين العظيم، رئيسنا الحالى، كان
يشير إليه دوما «بالبريج»(**)، قائلا فى وضوح تام، إن الإدارة التى كانت،
يوما ما «المكتب العربى» قد رأت أياها أفضل. لقد خفضت، فى الحقيقة،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) اختصار بريجادير - المترجم.

مرتبتها إلى مجرد إدارة للرقابة تتعامل مع جزر ومد المراسلات المدنية في الشرق الأوسط. دور حقير إن قورن بـ «التجسس» والتي نطقها في أربعة مقاطع لفظية متفرقة.

كانت قصص المجد القديم، والذي تلاشى الآن بعيدا عن الأذهان، تشكل جزءاً من «الدورة الهوميروسية»، إن جاز القول، لحياة المكتب. إنها تتلى في كآبة خلال فترات تختطف من العمل، أو فيما بعد الظهر، عندما تقع بعض المصائب الصغيرة، عندما تجعل مروحة مكسورة الوجود، في مثل تلك الأبنية عديمة الهواء، مستحيلاً. إنه تلفورد الذي عرفت منه بذلك الصراع الطويل القاتل بين بورسواردن وماسكيلين، صراع استمر، على نحو ما، على مستوى آخر، بين البريجادير الصامت وماونت أوليف، إذ إن ماسكيلين كان يتلهف مستيئساً على الانضمام ثانية إلى فوجه وطرح بذته المدنية. كانت تلك الرغبة معطلة. كان ماونت أوليف، كما شرح تلفورد في تنهدات لافحة (وهو يلوح بيدين مشققتين قصيرتين سميتين محشوتين بتجمعات عروق عنقودية زرقاء أشبه بالبرقوق في كعكة)، قد تقدم إلى «مكتب الحرب» وأقنعهم ألا يشجعوا ماسكيلين على الاستقالة. يجب أن أقول إن البريجادير، والذي كنت أراه مرتين في الأسبوع، لم يكن يترك انطباعاً بالامتعاض أو الغضب العابس، لحبسه في إدارة مدنية، بينما يجرى الكثير في الصحراء، وإن كان أي جندي منتظم، لا بد أن يفعل ذلك. قال تلفورد في صراحة «عندما تأتي الحرب، هنالك كما ترى، فرص للترقية، أيها الشيء العتيق، فرص عديدة. إن من حق البريج أن يفكر في مستقبله المهني مثل أي إنسان آخر. إن الأمر مختلف بالنسبة لنا، لقد ولدنا، إن جاز القول، مدنيين». لقد قضى هو نفسه العديد من السنوات في تلك الحرفة الجارية في الشرق الأدنى، مقيماً في أماكن مثل زانت وباراس، إن أسباب مجيئه مبهمة ربما وجد أن الحياة تلائمه في مستعمرة بريطانية

أكبر. كانت السيدة تلفورد بطة صغيرة سمينة تستخدم أحمر شفاه بنفسجيا زاهيا، وترتدى قبعات أشبه بوسائد الدبابيس. كانت تبدو وكأنها تعيش في انتظار دعوة للسفارة بمناسبة عيد مولد الملك إن ««مافيس»» تحب عملها الرسمي المحدود، إنها تحبه بالفعل».

قال تلفورد: إنه وإن كانت الحرب الإدارية مع ماونت أوليف خالية تماما من أى نصر، فإن هنالك ما يعزى، وما يُمكن البريج من استخراج متعة مدروسة: إذ إن ماونت أوليف يقيم فى نفس القارب. إن هذا القول قد جعله (تلفورد) «يشخر ضاحكا» وهى عبارة متميزة كثيرا ما كان يستخدمها، ويبدو أن ماونت أوليف لم يكن أقل لهفة على ترك منصبه. كان قد طالب، حقيقة، مرات عدة بنقله من مصر، إلا أن الحرب بسياستها، لسوء الحظ، تدخلت، على أى حال، لتجميد الشخصيات، وأرسل كنييلورث، والذي ليس للسفير بصديق، لتنفيذ سياسته. وإن كان البريجادير قد دبس فى مكانه بمكائد ماونت أوليف، فإن المستشار الشخصى الذى عين حديثا قد دبس ماونت أوليف أيضا، فى مكانه، ثبت فى مكانه «من أجل البقاء والدوام». ودعك تلفورد راحتيه الدهنيتين، بينما يروى لى كل هذا. قال، «إنها عضّة العضاض» وإن سألتنى فإن البريج سوف يستطيع الإفلات فى وقت أسرع من سير دافيد. استمع إلى ما أقول «أيتها الثمرة العتيقة» إن إيماءة واحدة تتسم بالوقار كانت تكفى لإرضائه باعتبار أن مقاله قد وضع فى الحسابان.

كان تلفورد وماسكيلين مرتبطين بنوع غريب من الرباط. كان يأسرنى الجندى المتوحد المنزوى كالمقطع الوحيد للكلمة، والتاجر المتنقل المندفع فى إظهار مشاعره، ما الذى يمكن أن يكون مشتركا فيما بينهما؟ (إن اسميهما، بالتحديد فى جدول الخدمة يوحى بفريق موسيقى داخل قاعة، أو بشركة تجارية لحنوتية محترفين). ومع ذلك فإننى أعتقد أن

الرباط كان رباط إعجاب. كان تلفورد يتصرف فى حضور رئيسه بإقدام ودهشة، يثير حوله، وهو قلق، جلبة لا داعى لها، يتحرق شوقا انتظارا لأوامره، وأن يحظى منه بكلمة مديح أو ثناء، كانت كلماته المثقلة باللعب، «نعم سيدى» «كلا سيدى»، تندفع بقوة من بين طاقم أسنانه الصناعية بنفس الطريقة المنتظمة الخالية من كل حس التى يصدر بها صوت الوقواق من الساعة. ومن الغريب حقا، أنه لم يكن هنالك أى ادعاء فى هذا التملق الدليل. كان فى الحقيقة شيئا ما أشبه برابطة غرامية إدارية، إذ حتى لو كان ماسكيلين غائبا فإن تلفورد يتحدث عنه بأكبر قدر من التوقير والتبجيل، سيادة البطل الأعرق تفكيراً - خليط متساو من الإعجاب الاجتماعى برتبته واحترام عميق لشخصيته وسداد رأيه - لقد حاولت من باب الفضول أن أرى ماسكيلين بعينى زميلى، إلا أننى فشلت فى رؤية أكثر من مجرد جندى كئيب حسن التربية، محدود القدرات، تمسك به، تثقله هموم لهجة مدرسية عامة ومع ذلك فإن.. «البريج سيد مدقق حقا» كان تلفورد يقول فى عاطفة عارمة إلى حد تكاد تطفر فيها الدموع من عينيه: إن البريج العجوز مستقيم مثل جبل مشدود، لا ينحنى لفعل أى شىء دون مستواه. ربما كان ذلك حقيقيا، إلا أن هذا، رغم ذلك، ما كان ليُجعل رئيسنا شخصية بارعة رائعة فى عينى.

كان تلفورد قد انتقى العديد من الواجبات الخدمية التى يقوم بإنجازها لبطله، مثال ذلك. شراء الجريدة الأسبوعية العتيقة «ديلى تلجراف» ووضعها كل صباح فوق مكتب الرجل العظيم. كان يلتزم بمشية غريبة متكلفة عندما يجتاز الباب المصقول لغرفة مكتب ماسكيلين الخالية (حيث كنا نأتى مبكرين إلى العمل) يكاد يكون خائفا من أن يترك آثار أقدامه خلفه. كان لا بد أن يتسلل عبر الحجرة إلى المكتب. كانت الرقة التى يطوى بها الجريدة، ويجرى بها أصابعه فوق الثنيات قبل أن يضعها

باحترام فوق النشافة الخضراء، تذكرنى بامرأة تمسك بقميص زوجها
المنشى حديث الكى.

لم يكن البريجادير نفسه غير راغب فى قبول ثقل مثل هذا الإعجاب
الصادق الصريح. إننى أتخيل عددا قليلا من الناس هم من فى وسعهم
مقاومة ذلك. كنت فى البداية أحس الحيرة من حقيقة أنه كان يزورنا مرة أو
مرتين فى الأسبوع. كان من الواضح أنه ليس هنالك، فى ذهنه، من مسألة
خاصة. كان يسير فى بطء جيئة وذهابا بين مكتبيننا، يطلق أحيانا، فى تبسط
مزحة حافلة بالألوان الرمادية، مشيرا إلى متلقى هذه المزحة بتوجيه عنق
غليونه إليه، فى إيماءة تكاد تكون خجلا. ورغم ذلك، فإن وجهه الداكن
البشرة الشبيه بكلب سلوقى، كان خلال هذه الزيارات، بما فيه من تغضن
الجلد أسفل العينين، لا يغير تعبيره أبدا، كذلك كان صوته لا يفقد البتة
نغماته المدروسة طبقا لكل معنى فى البداية، كما أقول، كان هذا المظهر
يحيرنى بعض الشيء، إذ إن ماسكيلين كان أى شىء غير نفس حلوة
المعشر. كان نادرا ما يستطيع الحديث عن أى شىء غير العمل الذى يجرى
إنجازه، ثم تبينت، ذات مرة، فى ذلك الشخص البطيء المتكلف الذى
يسير بين مكتبيننا، آثار دلال عن غير قصد، ذكرنى بالطريقة التى يفرد بها
الطاووس ذيله الكبير الأشبه بمروحة مرصعة بالعيون، أمام الأنثى،
أو الطريقة التى تدور بها المانيكان فى تصميم هندسى لتظهر الملابس
التي ترتديها حقيقة. لقد جاء ماسكيلين ليحظى، فى بساطة، بالإعجاب،
ليشيع كنوز شخصيته وتربيته أمام تلفورد. هل كان من الممكن أن يمدّه
هذا النصر السهل بيقين ما داخلى كان يفتقده؟ كان من العسير الإجابة
عن ذلك إلا أنه كان يستدفى فى أعماقه بما فى عيني زميله الواسعتين من
إعجاب. إننى لعلى ثقة أن ذلك كان يحدث عن غير قصد، هذه الإيماءة
الصادرة عن رجل متفرد نحو المعجب الوحيد به، بكل قلبه، والذى لم

يخرج بغيره حتى الآن من هذا العالم. لم يكن فى وسعه، من جانبه هو، على أى حال، إلا أن يلتقى هو والتربية القائمة على التلطف والتفضل التى تعلمها. كان فى أعماقه، يضع تلفورد فى موضع الازدراء، لأنه لم يكن سيدا. كان يمكن سماعه وهو يقول متنهدا «تلفورد المسكين» عندما يكون بعيدا عن أسماع الآخرين «تلفورد البائس».

كان الرثاء الذى يتسم به صوته يوحى بالإشفاق على شخص ما يستحق الشفقة، وإن كان شخصا غير ملهم إلى حد يدعو إلى اليأس. هؤلاء، إذن، كانوا خلانى خلال كل هذا الصيف الأول المرهق، ولم تكن رفقتهم تطرح أية مشكلة فى مواجهتى. كان العمل بالنسبة لى مريحا لا يثير أى قلق ذهنى. وكان منصبى متواضعا لا يفرض على أى التزامات اجتماعية. لم نكن نتزاور خارج المكتب. كان تلفورد يسكن فى مكان ما بالقرب من رشى، فى فيلا صغيرة فى الضواحي بعيدا عن وسط المدينة، بينما نادرا ما كان يغادر ماسكيلين حجرته الهزيلة فى أعلى طابق بفندق سيسيل. إننى ما إن أتحرك من المكتب حتى أنساه تماما، وأستأنف ثانية حياة المدينة أو ما بقى منها.

كانت العلاقة الجديدة بكليا لا تثير أية مشاكل، ربما لأننا تجنبنا، عن قصد، توصيف هذه العلاقة بصورة قاطعة. تركناها تتبع منحنيات طبيعتها الخاصة، حتى تستكمل تصميمها الخاص. لم أكن، مثلا، أقيم دوما فى شقتها؛ إذ إنها عندما تعمل فى إحدى الصور، كانت تحتاج إلى أيام قليلة تحقق لها توحيدها وعزلتها لتتمكن من الإمساك بموضوعاتها. كانت تلك الخلوات المتقطعة، والتى تمتد فى بعض الأحيان إلى أسبوع أو أكثر، تزيد من حدة العاطفة وتنعشها دون أن تضر بها. كنا، على أى حال، نلتقى فى بعض الأحيان مصادفة، فنستأنف، بلا ضعف، علاقتنا المعلقة قبل أن تنتهى الأيام الثلاثة أو الأسبوع المتفق عليه! لم يكن ذلك سهلا علينا.

كنت أقع عليها، فى بعض الأمسيات، شاردة جالسة بمفردها فى الشرفة الخشبية الصغيرة الملونة لمقهى «بودروت» تحملى فى الفراغ، وأمامها ترقد مجموعة رسوماتها التخطيطية دون فتحها. كانت تجلس هنا أشبه بأرنب برى، وقد نسيت أن تزيل من شفيتها ذلك الشارب الدقيق من قشدة قهوتها الفينواز! كانت مثل تلك اللحظات تفرض على كل تحكم فى ذاتى حتى لا أثب على السور الخشبي وأضع ذراعى حولها. كم كان فعل هذه اللمسة يبدو مفعما بالحيوية وهو يومض فى ذاكرتها، كم كانت تبدو كالأطفال ساكنة هادئة. ما أن تنهض صورة كليا المحبة الوفية المتقدمة أمام ناظرى، حتى يبدو لى فى الحال أن الانفصال عنها أمر لا يطاق وربما، على عكس ذلك، أحس فجأة (وأنا جالس أقرأ فوق مقعد فى حديقة عامة) بيدى باردتين تضغطان فوق عينيّ، فأستدير فجأة لأعانقها وأستنشق ثانية عبير جسدها عبر فستانها الصيفى الرقيق. وفى أوقات أخرى، غالبا فى اللحظات التى أفكر بالفعل فيها، فإنها تدخل شقتى بما يشبه المعجزة وهى تقول: «لقد أحسست أنك تدعونى للمجىء»، أو لقد أحسست فجأة أننى فى أشد الحاجة إليك». كان لهذه المصادفات عذوبة حادة لاهثة، تشعل فجأة شوقنا لبعضنا البعض. كان الأمر وكأننا قد بعدنا عن بعضنا سنوات لا أيام.

كان هذا التحكم فى الذات وتخطيط التباعد عن بعضنا البعض يشعل شرارة إعجاب بومبال، والذى كان أيسر عليه أن يصعد إلى القمر من ممارسة نفس الأسلوب مع فوسكا. كان يبدو فى الصباح وكأنه يستيقظ واسمها على شفتيه. كان أول ما يفعل هو الاتصال بها هاتفيا فى قلق، للاطمئنان عليها، وكأن غيابها قد عرضها لأخطار رهيبة مجهولة. كان يومه الرسمى بما فيه من واجبات متنوعة، كربا وعذابا. كان يهرع إلى المنزل يتغذى حتى يراها ثانية. يجب أن أقول، بكل حق وعدل: إن ارتباطه هذا

كان مشاركة كاملة، إذ كانت علاقتهما فى نقائهما أشبه بتلك التى بين اثنين من كبار السن المتقاعدين، من أرباب المعاشات. وإن حدث واحتجز إلى ساعة متأخرة فى عشاء رسمى، فإنها كانت تغرق فى حمى الخشية واحتمال الشر. («كلا، ليس إخلاصه ما يشغل بالى، إنها سلامته إنه يسوق السيارة فى إهمال، كما تعرف»).

ولعب القصف الليلى للميناء، لحسن الحظ، دورا فى النشاطات الاجتماعية، يكاد يكون حظرا للتجوال. كان من الممكن أن يقضيا معا كل ليلة تقريبا، يلعبان الشطرنج أو الورق، أو يقرآن فى صوت مرتفع. كانت فوسكا، كما عرفتھا، مفكرة متأملة، تكاد تكون امرأة شابة قوية، تفتقد المرح، إلى حد ما، إلا أنها مجردة من الإعجاب بذاتها، والذى كنت ميالا إلى اتصافها به طبقا لوصف بومبال لها عندما التقينا أول مرة. كان لها وجه صارم سريع التأثير، توحى تجعيدات المبكرة أنها تتميز بتجاربها كلاجئة. لم تكن تضحك أبدا فى صوت مرتفع، وكان لابتسامتها لمسة حزن تنعكس عليها. لكنها كانت حكيمة عاقلة، لديها دوما إجابة جاهزة صادرة عن تفكير وإمعان، وذات مغزى ومضمون. كانت من نوع «الروح» التى يعتبرها الفرنسيون، عن حق، شيئا نفيسا فى المرأة. وجعل اقترابها، من نهاية حملها، بومبال يبدو أكثر فطنة وحبا وهياما، كان يتصرف حقيقة، على نحو ما، أشبه بالسرور، والرضا بالطفل. أم هل كان يحاول، فى بساطة، الإيحاء بأن الطفل طفله، كمظهر يقدمه للعالم حوله والذى يمكن أن يفكر فيه باعتباره «خصيا عديم الرجولة؟» لم يكن فى وسعى أن أقرر. كان، فى الصيف، فيما بعد الظهر، يبحر فى الميناء بسفينته الصغيرة بينما تجلس فوسكا فى المؤخرة تضع يدا واحدة بيضاء فى البحر. كانت تغنى له، فى بعض الأحيان، فى صوت رقيق يشبه حقا صوت الطائر. كان ذلك

يطربه، فتكتسى ملامحه بتعبير أب الأسرة البورجوازي(*) الطيب بينما يدق بأصابعه الميزان الموسيقى. كانا يفضلان الجلوس فى الليل إلى رقعة الشطرنج، بعيدا عن القصف الجوى، وهو اختيار فريد بصورة ما. إلا أنه ما إن تؤدي الضوضاء الجهنمية للمدافع إلى إصابته بصداع عصبى حتى يضع فى أذنيه سداتين أعدهما بمهارة من الطرفين الراشحين لسيجارتين. وهكذا كان فى مقدورهما الجلوس مركزين فى صمت!

إلا أنه حدث مرة أو مرتين أن خيمت على هذا الانسجام السلامى أحداث خارجية أثارت الهواجس والتي يمكن إدراكها تماما فى إطار علاقة كانت مبهمة إلى حد كبير، أعنى علاقة كثيرا ما بحثت وحللت دون ممارستها. لقد وجدته يسير ذات يوم فى جلباب النوم وخف فى قدميه، يبدو مكروبا بصورة مريبة، بل حتى عيناه كانتا محمرتين قليلا. «آه، دارلى»، تنهد بطريقة عاصفة وهو يسقط من كرسى النقرس، يمسك بلحيته بين أصابعه كأنه يوشك أن يقتلعها كلها «لن نفهمهن أبدا. النساء! ياله من حظ سيئ، أو ربما لا أكون غير مجرد غبى فوسكا! زوجها!».

«هل قتل؟»، سأله.

هز بومبال رأسه فى حزن: «كلا، لقد أخذ أسيرا وأرسل إلى ألمانيا».

«حسنا، ولماذا إذن هذه الجلبة».

«إننى خجل، ذاك كل ما فى الأمر لم أكن أعرف بالأمر تمام المعرفة، ولا هى أيضا، حتى جاءت هذه الأنباء. لقد كنا حقا نتوقع مقتله. بالطبع كان ذلك شعورا لا إراديا. والآن تفيض هى بازدرائها لذاتها. لقد قامت خطة حياتنا كلها، دون وعى منا، على أن يختار هو تسلم نفسه، إن ذلك

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أمر فظيع كان موته سيمنحنا حريتنا، إلا أن المشكلة برمتها قد أجلت لسنوات، وربما إلى الأبد».

كان يبدو حائرا تماما، يُروّح لنفسه بإحدى الجرائد، يتحدث همسا، «إن الأمور تأخذ أكثر الانحناءات غرابة، «استمر أخيرا»، إذ إن فوسكا التي كانت قادرة على الاعتراف له بأمانة بالحقيقة بينما كان في الجبهة، لن تقدر البتة على فعل ذلك وهو أسير. لقد تركتها وهي تبكى. لقد تأجل كل شيء حتى نهاية الحرب.

كان يجلس محمقا فيّ، يطحن أسنانه الخلفية معا. كان من الصعب معرفة ماذا على أن أقول حتى أواسيه.

«لماذا لا تكتب إليه، تخبره بالأمر؟».

«هذا مستحيل. من القسوة الشديدة أن تفعل ذلك والطفل قادم؟ حتى أنا بومبال ما كنت لأرغب في أن تفعل مثل هذه الفعلة أبدا. لقد وجدتها تبكى، يا صديقي، وهي ممسكة بالبرقية. قالت في نبرات تتسم بالغم والكرب، «أوه، جورجس جاستون، إنني لأحس للمرة الأولى بخجلي من حبي، وقد أدركت أننا كنا نتمنى موته أكثر من وقوعه أسيرا على هذا النحو». ربما بدا الأمر لك معقدا، إلا أن مشاعرهما رقيقة للغاية، إحساسها بالشرف والكبرياء، وهكذا. ثم حدث شيء غريب كان ألما مشتركا حتى إنني، وأنا أحاول التسرية عنها، انزلقت وبدأنا نمارس الجنس بطريقة حقيقية دون أن نلاحظ ذلك، إنها صورة غريبة، كما أنها ليست بالعملية السهلة. وعندما استعدنا أنفسنا بدأت في العويل ثانية وقالت «الآن، ولأول مرة، أحس أنني أكرهك يا جورجس جاستون، لأن حبا الآن قد غدا على نفس مستوى أي حب آخر لقد جعلناه رخيصا، بخس الثمن».

إن النساء دوما يحملنك الخطأ على نحو ما. كانت السعادة تغمرني وقد

استطعت أخيراً.. ثم أغرقتنى كلماتها فى اليأس فاندفعت بعيداً. إننى لم أرها حتى الآن منذ خمس ساعات. ربما كان ذلك هو نهاية كل شىء. آه، ربما يمكن أن يكون بداية لشىء يسندنا، على الأقل، حتى نرى المشكلة كلها ضوء النهار.

«ربما كانت غبية للغاية».

وأصابت الدهشة بومبال: «كيف يمكنك قول هذا! إن كل ذلك إنما يصدر عن جمال روحها الرائعة. هذا هو كل ما فى الأمر. ولا تزد شقائى بقولك أشياء سخيفة عن امرأة بهذا القدر من الرقة».

«حسناً، اتصل بها هاتفياً».

«إن هاتفها لا يعمل. آى! إن ذلك أسوأ من ألم الأسنان. لقد كنت أعبت، لأول مرة فى حياتى، بفكرة الانتحار. إن ذلك يبين لك النقطة التى وصلت أنا إليها».

إلا أن الباب فتح فى تلك اللحظة، وخطت فوسكا إلى داخل الغرفة. كانت تبكى هى أيضاً. وتوقفت فجأة فى وقار غريب وبسطت يديها لبومبال الذى أطلق صرخة فرح مدممة لا تبين معالمها، وخطا عبر الغرفة فى جلباب نومه ليعانقها فى انفعال شديد، ثم شدها إلى طوق ذراعه وسارا معا فى بطء، عبر الممر، إلى غرفته، وأغلقا الباب وراءهما.

رأيته، فيما بعد، فى المساء، آتياً نحوى عبر شارع فؤاد وهو مشع متلألئ «هورا!»، صرخ وهو يلقي بقبعته المرتفعة عالية الثمن فى الهواء: أخيراً هأنذا(*)!

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ورسمت القبعة فى الهواء قطعاً مخروطياً كبيراً، ثم استقرت وسط الطريق، حيث مرت عليها للحال ثلاث سيارات فى تتابع سريع شبك بومبال راحتيه معا وقد أشرق كأنما منحه المنظر فرحة كبرى. ثم أدار وجهه الأشبه بالقمر امتلاء واستدارة، نحو السماء كأنما يبحث عن إشارة أو نذير. وما إن غدوت بجانبه حتى أمسك بيدي وقال: «يا المنطق النساء القدسى! حقاً، ليس هنالك من شىء، فوق الأرض، أروع من امرأة تفكر فى مشاعرها. إننى أهيم بها حبا، أهيم بها حبا.. إن حبنا.. فوسكا! إنه كامل الآن. إننى غاية فى العجب والدهشة. إننى مندهش حقاً. ما كان فى وسعى أن أفكر فى الأمر بهذه الدقة. استمع، إنها ما كانت تضع نفسها موضع تخدع فيه الرجل الذى كان معرضاً كل ساعة لخطر الموت حقاً، لكن الأمر اختلف الآن وهو فى أمان خلف القضبان. إننا أحرار فى أن نكون على سجيتنا. إننا بالطبع، لن نسبب له ما يسىء إليه بإخباره بالأمر إننا، فى بساطة، سوف نعاون أنفسنا على الخروج من الكرار، كما اعتاد بورسواردن القول. أليس ذلك رائعاً يا صديقى العزيز؟ إن فوسكا ملاك».

«إنها تبدو امرأة رغم كل شىء».

«امرأة! إن الكلمة بكل ما فيها من روعة لا تكاد تفى روحاً مثل روحها».

وانفجر فى ضحك كالصهيل. لكزنى فى مودة فى كتفى سرنا معا أسفل الشارع الطويل:

«إننى ذاهب إلى بير أنتونى لأبتاع لها هدية ثمينة.. أنا الذى لم أعط أية هدايا لأى امرأة أبداً، أبداً فى حياتى كلها. كان ذلك يبدو لى، على الدوام، أمراً سخيفاً. لقد رأيت ذات مرة فيلماً عن طائر البنجوين فى موسم التزاوج. كان ذكر البنجوين، والذى ليس شبيهاً بالرجل، أكثر بعثاً

على الضحك، منه، يجمع الأحجار ويصفها أمام السيدة التي اختارها وهو يتقدم إليها بعرض الزواج. لا بد أن يظهر بمظهر من يعرف قدرها. والآن أتصرف أنا كما يتصرف ذكر البنجوين. لا تبالى بما أقول، لا تبالى. إن قصتنا الآن لا يمكن أن تكون إلا قصة ذات خاتمة سعيدة».

كلمات تنبئ عن الغيب استعدتها كثيرا منذ ذلك الحدث، إذ إنه فى غضون شهور قليلة غدت فوسكا مجرد مشكلة ولا أكثر.

* * *

[٥]

مرت فترة من الزمن طويلة لم أسمع فيها شيئاً عن شقيقة بورسواردن، رغم معرفتي بوجودها في المفوضية الصيفية. أما ماونت أوليف فقد كانت زيارته تسجل في مفكرات المكتب، حتى إنني عرفت أنه يحضر من القاهرة كل عشرة أيام ليقضى ليلة واحدة. وتوقعت، لفترة ما، إشارة منه أو رسالة، إلا أنه مع مرور الوقت ثقيلًا، نسيت، كما من المرجح أن يكون هو قد نسي وجودي أيضًا. ثم جاء صوتها يسبح طافيا عبر هاتف المكتب، مقتحما على غير توقع، كان مفاجأة في عالم تقل فيه المفاجآت، مفاجأة تقابل بالترحيب. كان صوتا مجردا من الجسد بصورة غريبة. كان يمكن أن يكون صوت مراهق حائر يقول: «أعتقد أنك قد سمعت عني. إنني أود الحديث باعتبارك صديقا لأخي» - وقد وصفت هي الدعوة للعشاء، في مساء اليوم التالي، باعتبارها «دعوة خاصة وغير رسمية» - مما أوحى إليّ بأن ماونت أوليف شخصيا سوف يكون حاضرا. استثار ذلك فيّ فضولا غير عادي وأنا أسير عبر الممشى الطويل وماحوله من أسوار أشجار البقس، وعبر أيكة أشجار الصنوبر الصغيرة التي تحيط بمقر الإقامة الصيفي. كانت ليلة حارة انعدم فيها الهواء - كما يجب أن تنبئ بذلك تجمعات رياح الخماسين، في مكان ما في الصحراء، والتي سوف

تكر بسحب ترابها على شوارع المدينة وميادينها مثل أعمدة من دخان.
إلا أن هواء الليلة، حتى الآن، كان لا يزال قاسيا صافيا.

دققت الجرس مرتين دون مجيب. كنت قد بدأت التفكير في أنه
عاطل عن العمل عندما سمعت خطا سريعة ناعمة في الداخل.
فتح الباب، وهنالك كانت تقف ليزا وعلى وجهها العزيز تعبير رغبة
انتصرت. وجدتها، من النظرة الأولى جميلة للغاية وإن كانت
قصيرة القامة قليلا. كانت ترتدى رداء من نسيج ناعم غامق ذي ياقة
عريضة للغاية، تنهض منها رقبتها ورأسها وكأنهما التويج يخرج من
الزهرة. وقفت أمامي وقد رفعت رأسها إلى أعلى، نحو الأمام - يحيط
بها جو شجاعة طيفية - كأنها تقدم رقبتها الجميلة إلى جلاد غير مرئي.
ما إن نطقت اسمي حتى ابتسمت وأومأت. رددته مرة أخرى في همسة
متوترة مثل خيط مشدود:

«شكرا لكرمك أن جئت أخيرا»، قالت، وكأنها كانت تنتظر زيارتي
لأعوام مضت! أضافت في سرعة عندما خطوت متقدما: «أرجو أن تغفر
لي إن أنا... إنها وسيلتي الوحيدة للتعرف».

أحسست فجأة بأصابعها الملساء الدافئة تتحرك في سرعة فوق وجهي
وكانها تتهجي معالمة. انتابني اضطراب غريب مثير، هو مزيج من الحسية
والاشمئزاز، بينما تلك الأصابع تنقل انطبعا بالركة غير عادي. بدت كأنها
تستدير قليلا عند أطرافها لتقدم باطنها الأبيض، إلى العالم، أشبه بقرون
الاستشعار. لقد رأيت ذات مرة لاعب بيان عالمي مشهور له مثل تلك
الأصابع تماما، إنها حساسة إلى حد أنها تبدو وكأنها تنمو ما إن تلمس
مفاتيح البيان. تنهدت تنهيدة قصيرة، كأنما تعبر عن ارتياحها. أخذتني
من خصري وهي تجذبني عبر البهو وفي حجرة المعيشة بأثاثها الرسمي

التمين الذى بلا معالم، حيث كان يقف ماونت أوليف أمام المدفأة، يحيط به جو من الاهتمام المضطرب. كان هنالك، فى مكان ما، مذياع تصدر عنه موسيقى ناعمة. تصافحنا، فأحسست فى قبضته بشيء ما متردد غير حاسم توافق معه صوته الشارد وهو يعتذر عن صمته الطويل. قال بطريقة أقرب إلى الغموض: «كان على أن أنتظر حتى تصبح ليزا على استعداد».

لقد تغير ماونت أوليف كثيرا، رغم أنه لا يزال يحمل كل دلائل الكياسة الظاهرية اللازمة لعمله - كانت ملابسه منتقاه بطريقة شديدة التأنق - إذ حتى التبسط فى التجرد من الملابس لا يزال (كما أعتقد عابسا) زيا للدبلوماسى. كان لطفه القديم وفطنته لا يزالان كما كانا، ومع ذلك فقد تقدم به العمر، إذ لاحظت أنه الآن فى حاجة إلى عوينات للقراءة، كانت ترقد هنالك فوق نسخة من جريدة التيمس إلى جوار الأريكة. كان قد أطلق شاربه ولم يشذبه مما غير شكل فمه، مؤكدا وهنا رقيقا معينا فى ملامحه بسبب تربيته. بدا أنه من غير الممكن تخيله، فى أى وقت من الأوقات، وقد وقع فى قبضة عاطفة قوية إلى الحد الذى يجعله قادرا على تكييف ردود الفعل المثالية التى تعملها والتى لها هذا القدر من الاكتمال. كما لم يكن فى وسعى الآن، وأنا أنقل البصر منه إليها، أن أصدق الهواجس والظنون التى جاهرت بها كليا من حبه لهذه الضريرة الغريبة، التى تجلس الآن فوق الأريكة كفيفة تحمق فى وقد طوت يديها فى حجرها، هاتان اليدان الجشعتان الشحيتان الأشبه بيدي الموسيقىار. هل لفت نفسها مثل حية صغيرة بغیضة فى قلب حياته المسالمة؟ تقبلت شرابا من أصابعه. ذكرنى دفء ابتسامته بأنى كنت أحبه وأعجب به، وما زلت كذلك.

«لقد كان كلانا فى شوق لرؤيتك، وليزا على وجه الخصوص، إذ

أحسست أنك ربما تكون قادرا على مساعدتها. إلا أننا سوف نتحدث في كل ذلك فيما بعد».

وتحول في نعومة هادئة مفاجئة عن الموضوع الحقيقي لزيارتي، ليستفسر إن كانت وظيفتي تروق لي، وإن كنت أنا سعيدا بها. إنه استبدال للموضوع بمداعبتين تتسمان بالمجاملة، تثيران إجابتين مناسبتين لهما، ورغم ذلك، برقت هنا وهناك معلومة جديدة.

«كانت ليزا مصممة تمام التصميم على بقائك هنا، وهكذا اجتهدنا في تدبير هذا البقاء! لماذا؟ كان عليّ، في بساطة، أن أخضع لما تريد من أسئلة وأجوبة عن أخيها، الذي لا أكاد أزعم، في الحقيقة، معرفته. والذي يبدو لي كل يوم، أكثر فأكثر غموضا - أقل أهمية كشخصية، وأكثر فأكثر كفنان؟ كان من الواضح أنه يجب عليّ الانتظار حتى تفصح عما في عقلها. ومع ذلك فقد كانت إضاعة الوقت عبثا - في تبادل الحديث في مسائل سطحية - أمرا محيرا.

لكن الذي ساد هو تلك الأمور غير الرسمية، وأصابتنى الدهشة؛ إذ إن الفتاة ذاتها لم تقل شيئا، ولا كلمة واحدة. جلست هنالك فوق الأريكة، في رقة ويقظة كأنما هي جالسة فوق سحابة. كانت تضع، كما لاحظت، وشاحا مخمليا حول رقبتها، وخطر لي أن شحوب لونها، والذي صدم كليا كثيرا جدا، إنما يرجع إلى أنها لا تستطيع أن تصلح من شأنها وتزوق نفسها أمام المرأة، إلا أن كليا كانت محقة فيما قالته حول فمها، إذ استطعت مرة أو اثنتين أن أمسك بتعبير قاطع ساخر، هو صورة طبق الأصل من أخيها.

أدخل خادم العشاء فوق عربة. كنا لا نزال نتبادل أحاديث قصيرة، فجلسنا لتأكل. كانت ليزا تأكل في سرعة، كأنها جائعة، دون الوقوع في

خطأ، من الطبق الذى أعده ماونت أوليف لها. لاحظت أن أصابعها المعبرة ارتعشت قليلا عندما طالت كأس نبيذها. نهض ماونت أوليف أخيرا، عندما انتهى العشاء، فى جو من يفسح المجال بطريقة لا تكاد تكون خافية.

«سوف أدعك بمفردك حتى تتحدث فى الأعمال مع ليزا. إن على أن أقوم ببعض الأعمال هذا المساء فى مكتب الاستقبال. سوف تعذرني لذلك. أليس كذلك؟» ورأيت للحظة ظل تقطية إشفاق ترتسم على وجه ليزا، إلا أنها سرعان ما اختفت تقريبا، وحل محلها تعبير يوحى بشيء ما بين اليأس والاستسلام. كانت أصابعها تنتش ذؤابة الوسادة بطريقة موحية رقيقة. كانت لا تزال تجلس صامته عندما أغلق الباب خلفه، إلا أنها غدت الآن ساكنة بطريقة غير عادية، وقد تدلت رأسها إلى أسفل، كأنها تحاول فك شفرة رسالة مكتوبة فى راحة يدها. أخيرا تكلمت فى صوت بارد دقيق، ناطقة الكلمات بطريقة حادة كأنما تسعى إلى أن تكون واضحة المعنى.

«لم يكن لدى أدنى فكرة عن صعوبة شرح الأمر لك عندما فكرت فى أن أطلب العون منك والمساعدة. هذا الكتاب».

تلا ذلك صمت طويل. قطرات عرق قليلة رشحت فوق شفتها العليا وصدغيها، كأنها كانت هنالك يتحكم فيها ضغط ما. أحسست نحوها بالتعاطف لحزنها. قلت لا أستطيع ادعاء معرفته معرفة جيدة، رغم أننى كثيرا ما التقيت به. إننى، فى الحقيقة، لا أعتقد أننا قد أحببنا بعضنا البعض كثيرا.

قالت فى نفاد صبر وحدة، تزيح ما أعانيه من غموض والتباس:

«لقد فكرت فى الأساس، أن أقنعك بكتابة كتاب عنه، إلا أننى أرى الآن أنه لا بد لك وأن تعرف كل شيء. ليس يسيرا أن أعرف من أين أبدأ.

إننى أشك إن كانت حقائق حياته يمكن كتابتها ونشرها. إلا أننى مدفوعة للتفكير فى الأمر، أولاً لأن ناشريه يصرون على ذلك، يقولون: إن هنالك طلباً عاماً كبيراً على ذلك، إلا أن ما يدفعنى أكثر من أى شىء، هو ذلك الكتاب الذى يكتبه أو كتبه هذا الصحفى الدنىء، كيتس».

«كيتس»، رددت مندهشاً.

«إننى أعتقد أنه هنا، فى مكان ما، إلا أننى لا أعرفه. لقد أغرته زوجة أخى بالفكرة. إنها كما تعرف، تكرهه بعد أن اكتشفت الأمر. إنها تعتقد، أننى وأخى، فيما بيننا، قد دمرنا حياتها. إننى حقيقة، أخشاها، إننى لا أدرى ما الذى قالته لكيتس، أو ما الذى سوف يكتبه. إننى أرى الآن أن فكرتى الأساسية فى إحضارك إلى هنا كانت لكتابة كتاب يمكن أن... يوارى الحقيقة، بصورة ما. لقد أصبح ذلك الأمر واضحاً لى الآن بعد أن التقيت بك. سوف يؤلمنى، بطريقة تجل عن الوصف، إن هو نشر شيئاً يسىء إلى ذكرى أخى».

سمعت دمدمة الرعد، فى مكان ما، ناحية الشرق. وقفت وقد ألمّ بها الفزع. عبرت الحجرة، بعد لحظة تردد، إلى البيان الكبير. ضربت أحد أوتاره. صفقت الغطاء ثم استدارت إلى ثانية قائلة:

«إننى أخاف الرعد. أرجو أن تسمح لى أن أمسك يدك بقوة».

كانت يدها باردة برودة الموت. هزت شعرها الأسود إلى الوراء قالت:

«لقد كنا، كما تعرف، عاشقين. ذلك هو المعنى الحقيقى لقصتى وقصته. حاول فصم هذه العلاقة. قام زواجه على هذه الفكرة. ربما لم يكن أمانة منه ألا يخبرها بالحقيقة قبل أن يتزوجها. إن الأمور تقع بطريقة

غريبة، لقد استمتعنا سنوات عديدة بسعادة حقيقية، أنا وهو. إن النهاية
المأساوية لذلك، في اعتقادي، ليست خطأ أى أحد، لم يستطع تحرير
نفسه من قبضتى عليه فى داخله، رغم أنه حاول ذلك وناضل من أجل
تحقيقه. أنا لم أستطع تحرير نفسى منه، رغم أننى حقيقة لم أرغب البتة
فى ذلك حتى.... جاء اليوم الذى تنبأ هو به منذ سنوات عديدة سابقة،
عندما جاء الرجل الذى كان يدعوه دوما «بالغريب الأسمر». كان يراه فى
وضوح تام وهو يحملق فى النار. كان دافيد ماونت أوليف. ومرت فترة
من الزمن لم أخبره خلالها أننى وقعت فى الحب المقدر لى (لم يسمح
دافيد لى بذلك. كان الشخص الوحيد الذى أخبرناه هى والدته نسيم. لقد
استأذنى دافيد فى ذلك). إلا أن أخى عرف بالأمر بدقة تامة، وكتب إلى
بعد فترة طويلة من الصمت يسألنى إن كان الغريب قد جاء. وعندما تسلم
خطابى بدا أنه قد أدرك فجأة أن علاقتنا يمكن أن تتعرض للخطر أو تتحطم
على نفس المنوال الذى حل بعلاقته بزوجته، ليس لأى شىء فعلناه، كلا،
ولكن بسبب الحقيقة البسيطة، حقيقة وجودى؛ لذا أقدم على الانتحار لقد
شرح لى كل ذلك فى وضوح تام فى خطابه الأخير. فى وسعى أن أتלוه عن
ظهر قلب، قال: «لقد انتظرت خطابك، فى توقع كئيب، لأعوام عديدة.
كثيرا ما كتبت لك فى مخيلتى أُرَقِّى كل كلمة فيه بكلمة سحرية. كنت أعرف
أنك وأنت فى سعادتك سوف تستديرين إلى لتعبرى عن امتنان عاطفى
لما أعطيتك؛ لتعليمك معنى الحب كله من خلالى، حتى إن جاء الغريب
تكونين على استعداد لذلك... واليوم جاءت تلك الرسالة التى انتظرتها
طويلا، تقول: إنه قد قرأ الخطابات، وعندما قرأت أنا السطور عرفت،
لأول مرة، إحساسا لا يوصف بالراحة، كذا بالفرحة، التى لم أحلم أبدا
أن أعيشها فى حياتى، أن أفكر فىك وقد انغمست فجأة فى ثراء الحياة،
لم تعودى بعد مقيدة، تشدك أصفاد صورة أخيك المعذب! لقد انهالت

الدعوات من شفتى تباركك. لكننى أحسست حيثئذ، وبالتدريج، بعد أن ارتفعت السحابة وتلاشت، بمدى ثقل حقيقة أخرى، حقيقة لم تكن فى الحسبان، وما كان يمكن البتة توقعها. الخوف من أنه طالما ظللت أنا حيا، موجودا فى مكان ما من العالم، فإنك سوف تجددين أنه من الصعوبة حقا الفرار من الأغلال التى أحطت بك بها فى قسوة طوال كل هذه السنوات. ما إن حل بى هذا الخوف حتى برد الدم فى عروقى، إذ إننى أعرف حقيقة أنه لا بد أن أقدم شيئا ما أكثر تحديدا، إن كان عليك أن تتخلى عنى وأن تبدئى الحياة. يجب أن أهجر ك حقا، أزيح نفسى من على المسرح حقا، بطريقة لا تسمح بأى غموض فى قلبينا المترنحين. نعم لقد توقعت الفرحة، لكننى لم أتوقع أنها سوف تحمل معها مثل ذلك التعبير الواضح للموت المؤكد. لقد كان هذا تجديدا هائلا! ومع ذلك فإنه سوف يكون أكمل عطية يمكن أن أقدمها إليك كهدية زواج! إنك لو نظرت فيما وراء الألم الآتى، فسوف ترين كم يبدو منطق الحب مكتملا عند المرء الذى هو على استعداد للموت من أجله».

نشجت نشجة واضحة قصيرة وتدلت رأسها. تناولت المنديل من جيب صدر سترتى وضغطته إلى شفتها المرتعشة. أحسست أنى مذهول ضائع الرشد تحت ثقل هذه المعلومات الحزينة المفجعة. أحسست وأنا أعانى الألم مشفقا على بورسواردن، أن معرفة جديدة به قد أخذت تنمو فى داخلى، استنارة جديدة. وهكذا غدت أشياء عديدة أكثر وضوحا. ورغم ذلك لم أجد من كلمات المواساة أو الرثاء ما يمكن أن يوفى بحق مثل هذه الحالة المأساوية. إنها تتكلم مرة أخرى.

«سوف أعطيك الخطابات الخاصة لتقرأها حتى يمكنك تقديم النصيح لى. إن هذه الخطابات هى التى ليس لى أن أفتحها، على أن أحفظها حتى يجيء دافيد كان عليه أن يقرأها لى ثم نلتفها معا. أو هكذا قال. كان غريبا

الخطابات العادية قرئت لى بالطريقة المعتادة، إلا أن هذه الخطابات الخاصة، وهى عديدة للغاية، ثقت كلها بدبوس فى القمة عند الركن الأيسر، حتى أستطيع التعرف عليها وصفها جانباً. إنها فى تلك الحقيقة هناك. إننى أود أن تأخذها معك وتدرسها. أوه، دارلى، إنك لم تقل ولا كلمة واحدة هل أنت على استعداد لمساعدتى فى هذا الوضع البشع؟ كم أود لو كان فى وسعى قراءة ما على وجهك من تعبير».

«سأعاونك بالطبع ولكن كيف، وبأى معنى؟».

«انصحنى، ماذا أفعل! ما كنت لأثير شيئاً من هذا لولا تدخل هذا الصحفى الدنىء ولقاؤه بزوجته».

«هل عين أخوك وصياً أدبياً؟».

«نعم، إننى الوصية المنفذة».

«إذن، فلك الحق فى رفض السماح بنشر أى من أعماله غير المبيعة، بينما ما زالت فى حدود حقوق المؤلف. إننى لا أستطيع أن أرى بالإضافة إلى ذلك، كيف يمكن إعلان هذه الحقائق على الملأ دون إذن منك؟ حتى فى حدود تاريخ حياته الشخصية دون أن يكون هنالك تفويض بذلك. ليس هنالك من داع، أيا كان، لقلقك. لا يوجد كاتب مدرك يمكن أن يلمس تلك المادة، ولا يوجد فى العالم ناشر يقوم بالطبع. إن فعل الكاتب ذلك إننى أعتقد أن أفضل ما فى وسعى فعله هو محاولة اكتشاف أى شىء عن كتاب كيتس هذا. ومن ثم، تستطيعين على الأقل معرفة أين تقف».

«شكراً لك يا دارلى. إننى لم أستطع التقدم إلى كيتس بنفسى لأننى أعرف أنه يعمل معها. إننى أكرهها وأخشأها، ربما ظلماً، كما أننى أحس بإساءتى إليها دون رغبة منى. لقد كان خطأ مؤسفاً من جانبه أنه لم يخبرها

قبل زواجها. أعتقد أنه أيضا قد أدرك ذلك، إذ أصر على ألا أكرر نفس الخطأ عندما ظهر دافيد. ومن ثم جاءت الخطابات الخاصة التي لا تترك مجالا للشك. ومع ذلك، وقعت الأمور تماما كما خطط لها، كما تنبأ لها. لقد اصطحبت دافيد، في ذات الليلة الأولى، التي أخبرته فيها، إلى المنزل مباشرة ليقراها. جلسنا فوق السجادة أمام مدفأة الغاز، وقرأها لى واحدا بعد واحد، في ذلك الصوت الذى لا يمكن أن يخطئه المرء، صوت الغريب».

ابتسمت، عند تلك الذكرى، ابتسامة عمياء غريبة. ظهر أمامى فجأة ماونت أوليف فى صورة عاطفية، وهو يجلس أمام النار يقرأ لها هذه الرسائل فى صوت بطىء متهدج، وقد أذهلته رؤية دوره فى هذا القناع السحري، والذى خطط له منذ سنوات سابقة، دون علمه. جلست ليزا إلى جانبى غارقة فى تفكير عميق وقد تدلى رأسها. كانت شفتاها تتحركان فى بطء وكأنها تتهجد شيئا ما فى داخل عقلها، تتابع تلاوة داخلية ما. هزرت يدها فى رقة كأنما أوقظها:

«يجب أن أغادر الآن»، قلت فى رقة، «ولماذا على أن أرى أصلا هذه الخطابات الخاصة؟ ليس هنالك من حاجة إلى ذلك».

«إننى أطلب منك، وقد عرفت الآن الأسوأ والأحسن، أن تنصحنى فيما يخص موضوع إتلافها. لقد كانت تلك هى رغبته. إلا أن دافيد يعتقد أنها تنتمى إلى كتاباته، وأنه يقع علينا واجب الحفاظ عليها. عليك إذن أن تخبرنى إن كنت ترغب فى الحفاظ عليها أم لا. إنها كلها هنالك فى الحقيقة. هنالك شذرة أو أخرى يمكنك المعاونة فى تحريرها إن كان لديك وقت لذلك أو إن تر ذلك مناسبا. لقد كان يثير دوما حيرتى، ما عدا وقت أن كنت آخذه بين ذراعى».

وعبر وجهها تعبير مفاجئ يعكس غضبا وحشيا، كأنما قد نخستها
فجأة ذكرى كريهة. مرت بلسانها فوق شفيتها الجافتين. أضافت، بينما
نقف معا، فى صوت أجش قصير:

«هنالك شىء آخر. أما وقد غُصت فى حياتنا فلماذا لا تنظر إلى القاع
مباشرة؟ إننى أحتفظ بهذه دوماً بالقرب منى».

ثم مالت حتى بلغت أسفل رداثها حيث أخرجت صورة ناولتها لى.
كانت باهته متغضنة. صورة طفلة صغيرة ذات شعر طويل فى شرائط،
وقد جلست فوق مقعد فى متزّه، تحملق فى اكتئاب، تبسم لآلة التصوير
ابتسامة فطنة بينما تمسك فى يدها عصا بيضاء. استغرق الأمر منى لحظة أو
ما يقرب منها للتعرف على خطوط الفم والأنف التى تثير الحيرة باعتبارها
ملامح بورسواردن ذاته ولإدراك أن البنت الصغيرة كانت عمياء.

«هل تراها؟» قالت ليزا فى همسة تهز العواطف، تصدم الأعصاب
بما فيها من توتر غريب، ومزيج من الوحشية والمرارة والعذاب المنتصر
- «هل تراها؟ لقد كانت طفلتنا. لقد سيطر عليه، بعد أن ماتت، شعور
التأنيب والتبكي، بعد أن كان هذا الوضع يعود علينا فيما قبل بلا شىء
غير الفرحة. لقد أحاله موتها إلى مذنب آثم. هنا تعثرت علاقتنا، إلا أنها
غدت، رغم ذلك، أكثر كثافة وأكثر قربا. كنا مرتبطين معا بجريرتنا منذ
تلك اللحظة. لقد تساءلت كثيرا، لماذا يجب أن يكون الأمر على هذا
النحو سعادة هائلة لا تنقطع ثم.. نغدو، ذات يوم مذنبين، مثل سقوط
ضلفة شباك جديدة».

سقطت الكلمة مثل نجم هابط، ثم تلاشت فى الصمت وأخذت هى
هذا الأثر الأكثر تعاسة من كل المخلفات الأثرية وضغطته فى راحتها
الباردتين.

قلت «سأخذ الخطابات».

قالت وقد بدت مرهقة ذاهلة: «شكرا لقد عرفت أن لنا فيك صديقا. سوف أعتمد على عونك لى».

سمعت، بينما أغلق الباب الأمامى خلفى، ضربة وتر فى البيانو رقيقة، وتر واحد علق فى الهواء الصامت، تتلاشى ذبذباته مثل الصدى. لمحت، وأنا أعبر بين الأشجار ماونت أوليف يتسلل نحو باب المنزل الجانبى. فجأة تكهنت أنه كان يسير جيئة وذهابا خارج المنزل فى عذاب التوجس والإشفاق، فى حالة أشبه بحالة تلميذ خارج مكتب سيد الدار فى انتظار أن يتلقى علة. أحسست بغصة تعاطف معه، لضعفه، للورطة الفظيعة التى وجد نفسه فيها. وجدت، لدهشتى، أن الوقت لا يزال مبكرا. كانت كليا قد ذهبت اليوم إلى القاهرة، ولم يكن من المتوقع عودتها. أخذت الحقيبة الصغيرة إلى شقتها جلست فوق الأرض وفتحتها.

بدأت أقرأ، فى تلك الحجرة الهادئة، وفى ضوء شموعها، الخطابات الخاصة، وأنا أحس بهاجس من فضول داخلى، باضطراب شىء ما أشبه بالخوف. ما أبشع أن تستكشف أعماق أسرار حياة إنسان آخر. لم يتضاءل هذا الشعور وأنا أتقدم فى القراءة، بل تعمق إلى فزع يكاد يكون رعبا مما يمكن أن يأتى بعد ذلك. كانت الخطابات شرسة، عابسة، متألقة، فياضة. كان سيل الكلمات الجارفة يفيض إلى مالا نهاية، فى قبضة اليد تلك، ترصعه صور ماسية الصلابة، تحليل وحشى ذاتى لجنون اليأس، التبكيت والعاطفة. وأخذت أنتفض كما يجب أن يحدث فى حضرة سيد عظيم، انتفض وأهمهم. أدركت، وقد صدمت أعماقى، أنه لا يوجد فى كل أدبنا، طولا وعرضا، ما يمكن مقارنته بها وأيا كانت الروائع الأدبية التى يمكن أن يكون بورسواردن قد كتبها، فإن تلك الخطابات تبرزها جميعا بما فيها من

ضراوة وتألق تلقائي وإسهاب. الأدب كما أقول! لكن تلك كانت الحياة ذاتها، ليست تعبيراً مدروساً عنها فى شكل ما، إنها الحياة بذاتها، نهر الحياة المنساب المتكامل بكل ذكرياته المشرية للثرءاء، إرادته النشوانة، آلام الحياة بما فيها من رعب وإذعان وخضوع. هنا امتزج الوهم والحقيقة فى رؤية واحدة تعمى الأبصار، رؤية عاطفة صافية غير قابلة للفساد، تعلق فوق عقل الكاتب مثل نجم أسود، نجم الموت! إن الأسى الهائل والجمال الذى عبر عنهما هذا الرجل فى يسر وسهولة، إن غزارة عطاياه وهباته المخيفة، قد ملأتنى بياس عاجز ومتعة فى ذات الوقت. القسوة والثراء! بدت الكلمات كأنها تنهال من كل مسام جسده، اللعنات والأنات ودموع الفرحة والياس تمتاز معاً، كلها تلاحمت بالدلالة الموسيقية السريعة العنيفة للغة أحكمها وأتقنها الغرض منها. هنا، أخيراً، يواجه المحبان كل منهما الآخر وقد تجردا عاريين، تجردا حتى العظام.

وأمسكت، للحظة، من هذه التجربة الغريبة المخيفة، بلمحة من بورسواردن الحقيقى، الرجل الذى راغ منى دوماً. فكرت فى خجل فى الصفحات البذيئة فى مخطوط جوستين والتي كرستها له، لصورتى عنه. لقد اخترعت، بسبب حسدى أو غيرتى الواعية، بورسواردن حتى انتقده. لقد اتهمته فى كل ما كتبه عنه بنقاط ضعفى أنا، وحتى الهبوط إلى تقديرات غير صحيحة لصفاته وسجاياءه، مثل الدونية الاجتماعية، كانت خاصة بى أنا، ولم تكن خاصة به البتة. إننى فقط الآن، وأنا أتابع السطور المكتوبة بذلك القلم السريع الذى لا يضطرب ولا يتلعثم، قد أدركت أن المعرفة النسبية الخالصة. وأن فكاهاته السوداء إنما كانت، فى بساطة، تهكما وسخرية ناتجة عن هذه المعرفة الغامضة المبهمة والذى كان مجالها يفوق، يتجاوز تلك التى تنتمى إلى البحث النسبى عن الحقيقة. ليس هنالك من إجابة عن الأسئلة التى أثرتها فى صدق حقيقى. لقد كان

هو محققا تماما، وكنت أنا أعمى مثل خلد أوروبي، أحفر، أنقب فى جبانة الحقيقة النسبية، أكوّم البيانات، وأكثر من المعلومات، وأفقد تماما ذلك الشعر الأسطورى الذى يكمن تحت الحقيقة. وأطلقت على كل هذا، «البحث عن الحقيقة»! لم يكن هنالك من طريق آخر يرشدنى إلى هذا الأمر غير التهكم والسخرية التى وجدتها جارحة للغاية. لقد أدركت الآن أن هذا الاستهزاء إنما كان، فى الحقيقة، رقة مقلوبة إلى الخارج مثل القفاز. إننى وأنا أرى بورسواردن، هكذا لأول مرة، رأيت أنه كان يبحث، من خلال أعماله، عن الرقة ذاتها لعلم المنطق ذاته، يبحث عن الطريقة التى توجد بها الأشياء، ليس القياس المنطقى أو علاقات مد العاطفة وجزرها، ولكن المحتوى الفعلى للبحث عن الحقيقة، الحقيقة العارية، الإيماء والإشارة... الدعابة التى لا تستهدف شيئا، نعم، الدعابة! واستيقظت فى فزع وأنا ألعن وأسب.

إن كان هنالك تفسيران، على نفس القدر من الجودة، أو أكثر لفعل إنسانى واحد، إذن ماذا يعنى هذا الفعل غير أن يكون وهما. إيماءة تصدر فى مواجهة الخلفية الضبابية للحقيقة، غدت ملموسة فقط نتيجة الطبيعة الخداعة للانقسام البشرى؟ هل تأمل أى روائى قبل بورسواردن هذه المسألة؟ إننى لا أعتقد بذلك.

تعثرت أيضا فجأة وأنا أتأمل هذه الخطابات الرهيبة، بالمعنى الحقيقى لعلاقتى ببورسواردن، وبكل الكتاب من خلاله. رأيت أننا فى الحقيقة، نحن الكتاب، نشكل واحدة من تلك السلاسل البشرية الحزينة التى ينظمها البشر لتمرير دلاء المياه إلى الحريق، أو للإنزال إلى قارب النجاة، سلسلة متصلة من بشر ولدوا لاستكشاف الثراء الداخلى للحياة المتفردة باسم مجتمع لا يبالى ولا يتسامح، وقد قيدتهم نفس الموهبة معا.

بدأت أرى أيضا، أن «الرواية» الحقيقية لا توجد فى صفحات أرناؤوطى أو بورسواردن، ولا حتى فى صفحاتى، إن الحياة نفسها هى التى كانت رواية، نقولها جميعا بطرائقنا المختلفة، وبقدر فهم كل منا لها طبقا لطبيعته وموهبته.

بدأت الآن فقط أرى مدى غموض الشكل الذى تكونت به حياتى من خواص عناصر توجد خارج الحياة النسبية، توجد فى المملكة التى يدعوها بورسواردن بـ «العالم البشير». لقد كنا، كما أرى الآن، كُتابا ثلاثة، نأمن إلى مدينة أسطورية، كان علينا أن نستخرج منها غذاءنا، وأن نؤكد فيها مواهبنا. أرناؤوطى، بورسواردن، دارلى - مثل أفعال الماضى والحاضر والمستقبل! وكانت فى حياتى الخاصة (المجرى الذى ينساب فى رخاوة من جانب الزمن الجريح) هؤلاء النسوة الثلاث، اللاتى نظمن أيضا أنفسهن، كأنما ليمثلن الأمزجة الثلاثة للفعل العظيم، الحب: ميليسا، جوستين وكليا.

ما إن تحققت من ذلك حتى انتابنى فجأة، يأس واكتئاب هائلان، إذ أدركت الطبيعة المحدودة تماما لقدراتى، التى كانت تُسيِّجها حدود ذكاء له فى ذاته، قدرة كبيرة للغاية، إلا أنه يفتقد السحر الخالص للكلمة، قدرة الدفع إلى الأمام، العاطفة وأن يحقق هذا العالم الآخر من الإنجازات الفنية.

كنت قد أقفلت لتوى على هذه الخطابات التى يصعب احتمالها، جالسا مكتبا لإدراكى هذه الحقيقة، عندما انفتح الباب، ودخلت كليا مشعة باسمه.

«لماذا أنت هكذا يا دارلى، ما الذى تفعله وأنت جالس وسط أرضية الحجرة فى هذا الوضع المحزن الكسيف؟ هنالك يا عزيزى دموع فى عينيك».

وللحال كانت إلى جوارى، بكل حنانها ورقتها، جالسة فوق ركبتيها.

قلت.. «دموع الحنق والغيط» - ثم احتضنتها - «لقد أدركت لتوى أننى لست فنانا البتة. ليس هنالك من بارقة أمل أن أكون كذلك فى أى وقت».

«ماذا بالله كنت تفعل؟».

«أقرأ خطابات بورسواردن إلى ليزا».

«هل رأيتها؟».

«نعم، إن كيتس يكتب كتابا سخيفا».

«لقد التقيت به لتوى. لقد عاد الليلة من الصحراء».

جاهدت كى أنهض على قدمى. بدا لى أنه من الضرورى أن أجده وأن أكتشف مشروعه بقدر استطاعتى. قالت كليا:

«لقد تحدث عن ذهابه إلى شقة بومبال للاستحمام. إننى أتوقع، إن أسرع، أن تعثر عليه هناك».

كيتس! فكرت وأنا أسرع أهبط الشارع إلى شقته، كان عليه أن يلعب هو أيضا دوره فى هذا التقديم الملىء بالظلال، للوحة حياة الفنان. كان هنالك على الدوام كيتس ما يقع عليه الاختيار حتى يترجم السير، يجر جر ذيله الطينى اللزج فوق حياة مشوشة تثير الشفقة، استخرج منها الفنان بمثل ذلك الألم، تلك الدرر الغريبة المتفردة لاستنارته الذاتية. لقد بدا لى، بعد قراءة هذه الخطابات، أنه من الضرورى، أكثر من أى وقت مضى، إبعاد أمثال كيتس من التدخل فى شئون تتجاوز اهتماماتهم الطبيعية. إنه

كصحفى وقع على قصة رومانسية (فالانتحار هو أكثر الأفعال رومانسية عند الفنان) لا بد شعر بنفسه أمام ما يمكن أن يطلق عليه فى الأيام القديمة «بالضربة الصاعقة بالقصة الأبرز فى المليون»، لقد فكرت فى أننى أعرف كيتس، لكننى بالطبع نسيت تماما، مرة أخرى، أن أضع فى اعتبارى ما يفعله الزمن، إذ إن كيتس قد تغير كما تغيرنا جميعا وكان ناتج لقائى به على غير ما توقعت منه، مثله فى ذلك مثل كل شىء آخر فى المدينة.

كنت قد أضعت مفتاحى. وكان على أن أدق الجرس حتى يفتح حميد الباب لى. نعم، قال: إن السيد كيتس هنالك فى الحمام. قطعت الممر ودققت على الباب الذى جاء من خلفه صوت اندفاع الماء وصفير مرح. «دارلى، يا إلهى، كم هو رائع» صرخ مجيبا ندائى، «أدخل بينما أجفف نفسى لقد سمعت بعودتك».

وقف تحت الدش إله يونانى! كنت مندهشا للغاية لهذا التحول حتى إننى جلست فجأة فوق المرحاض أدرس وأتفحص هذا... الطيف. كان كيتس محترقا، يكاد يكون أسود، وقد تحول شعره إلى اللون الأبيض. ورغم أنه كان أكثر نحافة، إلا أنه بدا فى أفضل حال من الناحية البدنية. إن الجلد البنى والشعر الرمادى قد جعلاً زرقه عينيه المتلاشتين أكثر عمقا من أى وقت مضى. إنه لا يحمل، بالقطع، أى شبه بذكرىاتى عنه!

«لقد تسللت لأقضى الليلة فقط» قال وهو يتحدث فى صوت جديد سريع واثق، «إننى أعالج قرحة فوق مرفقى، من تلك القرحة الصحراوية اللافحة، وهكذا حصلت على إذن، وهأنذا هنا. إننى لا أدرى أى جحيم ذلك الذى يسبب هذه القرحة، ولا أحد يدري، ربما كان بسبب الزبل المعلب الذى نأكله هنالك فى الصحراء! إلا أن قضاء يومين فى الإسكندرية وأخذ بعض الحقن فى سرعة، تبرئ المرء، مرة أخرى، من هذا الشىء اللعين!

دارلى، إنه لأمر غريب أن نلتقى ثانية. هنالك الكثير الذى أود إخبارك به. هذه الحرب!». كان يبق فى معنويات عالية. «يا إلهى، إن هذه المياه. وليمة إننى أفرح وأطرب».

«إنك تبدو فى قالب رائع».

«إننى كذلك! إننى كذلك». وقرع بقوة وإفراط فوق إيتيه. «أما والمرء كذلك، فإنه لأمر طيب أن يأتى إلى الإسكندرية. إن التباينات تجعلك تقدر الأمور بصورة أفضل كثيرا. إن تلك الدبابات تسخن إلى حد يشعرك كأنك سمك صغير يلقى. تناول شرابى. هنالك ما يكفى أيها الشاب». كان ينتصب فوق الأرض كأس طويل، به الويسكى والصودا وكعب ثلج هز الكأس وهو يقربه إلى أذنه مثل طفل، «استمع إلى الثلج وهو يجلجل»، صاح فى نشوة وطرب، «موسيقى الروح، هى جلجلة الثلج». رفع كأسه وغضن أنفه نحوى وهو يشرب فى صحتى. «أنت أيضا تبدو فى صحة جيدة تماما»، قال وقد تجعدت عيناه فى ضوء جديد من الخبث والشقاوة. «والآن على أن أرتدى بعض الملابس، ثم.... إننى ثرى يا عزيزى الشاب. سوف أدعوك إلى عشاء ظريف فى «البتى كوان». لن أقبل عذرا أو رفضا. إن شيئا لن يوقفنى. كنت أرغب فى رؤيتك والحديث معك بصورة خاصة. إن لدى أخبارا».

قفز إلى حجرة النوم ليرتدى ملابسه، وجلست أنا فوق سرير بومبال لأكون فى رفقة وهو يفعل ذلك. كانت معنوياته العالية معدية تماما. كان يبدو غير قادر على البقاء ساكنا. كانت تبق فى داخله آلاف الأفكار والآراء التى يرغب فى الإفصاح عنها فى ذات الوقت. قفز السلالم هابطا مثل تلميذ، طائرا فى النهاية فى وثبة واحدة. تصورت أنه سوف يندفع راقصا فى شارع فؤاد، «ولكن فى جدية». قال وهو يعصر مرفقى فى قسوة أمتنى «فى جدية، فالحياة رائعة»، وكأنما أراد أن يصور جديته فانفجر فى

ضحكة رنانة، «عندما أفكر كيف اعتدنا التأمل وانشغال البال». كان من الواضح أنه يضعنى ضمن النظرة، الجديدة المرححة، للحياة. «إننى أحس بالخجل كلما تذكرت كيف كنا نتناول كل شىء فى بطة».

حجزنا فى «البتى كوان»، منضدة ركنية بعد مشاجرة ودود مع ملازم بحرى، وللحال أمسكنا بـ «مينوتى»، وأمرناه بإحضار الشمبانيا. من أين، بحق الشيطان، جاء بهذا السلوك الضاحك الأمر، والذي يفرض، فى الحال، احتراماً وتعاطفاً دون أن يصدر عنه ما يسىء؟

«الصحراء!»، قال كأنما يجيب عن سؤالى الذى لم أنطق به «الصحراء، يا دارلى، أيها الولد العجوز. إنها شىء لا بد من رؤيته». وأخرج من جيب واسع نسخة من «أوراق بيكويك» قال: «اللجنة، يجب ألا أنسى رد تلك النسخة، وإلا فإن الطاقم الذى أعمل معه سوف يقلونى قلياً طيباً». كان كتاباً صغيراً مشرباً بالبلل ملوثاً بالزيت، أوراقه بها ثنيات، وبالغلاف ثقب طلاقة «إنه مكتبتنا الوحيدة، ويبدو أن واحداً من أبناء الزنا قد نشف نفسه فى ثلثه الأوسط. لقد أقسمت أن أعيده. هنالك بالفعل نسخة فى الشقة، ولا أعتقد أن بومبال سوف يبالى إن أنا أخذتها. إن الوضع سخيف، إذ عندما لا يكون هنالك عمل ما، فإننا نستلقى، نقرؤه تحت النجوم، يتلوه الواحد منا للآخر فى صوت مرتفع! إنه سخف يا عزيزى الشاب، إلا أن كل شىء، بعد ذاك، أكثر سخفاً. أكثر وأكثر سخفاً كل يوم».

«إلا أنك توحى بسعادة شديدة»، قلت دون أن أغبطه بصورة معينة.

«نعم»، قال فى صوت أكثر انخفاضاً، ثم غداً، ولأول مرة، جاداً بصورة نسبية. «كذلك بالفعل دعنى أستودعك، يا دارلى سرا. عدنى ألا تزوم أو تزمجر».

«إننى أعدك بذلك».

مال إلى الأمام، قال هامسا وعيناه تطرفان: «أخيرا، غدوت كاتباً!». ثم ضحك فجأة ضحكته الرنانة. «لقد وعدت ألا تزمجر». «إننى لا أزمجر».

«حسنا، لقد بدوت مزمجرا متشامخا كان المفروض أن يكون رد الفعل الصحيح هو الصباح. هورا!»

«لا تصرخ هكذا عاليا، وإلا طلبوا منا مغادرة المكان».

«آسف، فقد خلبت الفكرة لى».

شرب كأسا كبيرة مترعة من الشمبانيا، فى جو من يشرب نخب نفسه، ثم اتكأ إلى الخلف فى مقعده يحملق فى مازحا بنفس بريق التخابث فى عينيه الزرقاوين.

«ماذا كتبت؟» تساءلت.

«لا شىء» - قال مبتسما - «ولا كلمة واحدة حتى الآن إنها هنا» - وأشار بإصبع بنى إلى صدغه، «إلا أننى الآن، على الأقل، أعرفها، إننى سواء كتبت أم لم أكتب فليس ذلك بالأمر المهم. إن تلك إن شئت، ليست القضية الكلية كى تصبح كاتباً بأى حال لقد اعتدت التفكير هكذا».

كان يعزف، فى الخارج، فى الشارع أرغن أحد المتسولين فى ترجيع حزين أجوف. كان أرغنا إنجليزيا قديما للغاية عشر عليه «عريف» العجوز الضرير فى كومة من أكوام النفاية، فقام بإصلاحه بطريقة ما تقريية. إن بعض النغمات الموسيقية قد أخفقت فى تحقيق الأثر المطلوب، وبعدت عدة أوتار عن التناغم بطريقة لا أمل فى علاجها.

«استمع»، قال كيتس فى عاطفة عميقة، «استمع فقط إلى عريف العجوز».

كان فى تلك الحالة العذبة من الإلهام والتى تحل بالمرء فقط عندما يحتسى الشمبانيا فى أعقاب حالة من التعب والإرهاق، نشوة السخرية الموحية، «جوش» (*). استمر فى طرب وبهجة. أخذ يغنى فى صوت أجش هامس رقيق للغاية، يضبط الإيقاع بإصبعه، «اصمت أيها البدوى الصغير».

ثم تنهد تنهيدة امتلاء عميقة. اختار لنفسه سيجارا من حقبة عينات مينوتى. أخذ يتجول ثم عاد إلى المنضدة حيث جلس أمامى ثانية، يبتسم فى طرب ذاهل. قال فى النهاية:

«يجب أن أخبرك أن هذه الحرب... مختلفة تماما عن الحال التى تخيلت ضرورة أن تكون عليه».

وفجأة غدا، تحت تأثير نشوة الشمبانيا الزاهية، وقورا بصورة نسبية قال: «لا أحد يرى الحرب للمرة الأولى، ويستطيع أن يمنع نفسه من الصراخ بكل ما فى عقله من عقل احتجاجا عليها أن يصرخ: «يجب وقفها»! إنك، يا عزيزى الشاب، كى ترى أخلاقيات الإنسان، طبقا لمعايير، يجب أن ترى معركة حربية. إن الفكرة العامة يمكن إجمالها فى العبارة المعبرة، إن لم تستطع أكلها أو...، إذن... عليها - «ألفا عام من الحضارة تسليخ فى لمح البصر!» اخمش بإصبعك الصغير ولسوف تصل إلى وشم الحرب أو نقشها تحت الطلاء الكاذب المموه! فقط افعل ذلك!» ثم خدش الهواء، فيما بيننا، فى وهن، بسيجاره الثمين «ومع ذلك، ما الذى تعرفه عنها؟ إنها أكثر الأشياء إثارة للحيرة والتى يمكن تعليلها. لقد جعلت منى رجلا، كما يقول المثل. وأكثر من ذلك كاتباً! إن روحى صافية تماما. إننى أعتقد أنه فى وسعك أن تنظر إلى باعتبارى مشوهاً بصورة دائمة! لقد بدأت أخيرا كتابى

(*) الإله، يا إلهى - المترجم.

المتع اللعين. إنه يتشكل فصلا بعد فصل فى رأس الصحفى العجوز، كلا، ليس بعد الآن، رأس الصحفى، إنه رأس الكاتب». ضحك ثانية كأنما يضحك من فكرة محالة. «دارلى، إننى عندما أنظر حولى إلى تلك المعركة الحربية فى الليل، فإننى أقف فى نشوة الخجل، أطرب للأتوار الملونة، التوهج واللمعان يكسو السماء، كما يكسو الورق الجدار، وأقول، كان لا بد من وقوع كل ذلك حتى يمكن لجون كيتس المسكين أن ينمو إلى رجل. ذلك هو الأمر. إنه لغز كامل بالنسبة لى، ومع ذلك فإننى متيقن منه تمام اليقين. لم يكن هنالك من سبيل آخر يمكن أن يعاوننى، إذ كنت ملعونا غبيا تماما. هل ترى ما أقول؟

صمت للحظة كأنه يعيد هذه القطعة الأخيرة من الحديث ليقدر صحتها وصوابها، كلمة كلمة، كما يختبر المرء قطعة من آلة. ثم أضاف، ولكن فى حذر وعناية، وبتعبير معين لتركيز مشئت: «إن كلاً من رجل الفعل ورجل الفكر حقيقة، نفس الرجل. إنهما يعملان فى مجالين مختلفين ولكن وصولاً لنفس النهاية. انتظر. إن هذا الذى أقول قد بدأ يعطى انطبعا بالغباء».

ودق صدغه فى تأنيب ثم عبس واستمر بعد لحظة من تفكير، وهو ما زال عابسا: «هل أخبرك بمفهومي عنها.... عن الحرب؟ ما الذى بدأت أؤمن به؟ إننى أؤمن أن الحرب قد أوت أول ما أوت فى الغرائز، أشبه بفعل صدمة بيولوجية، لدفع أزمة روحية، ما كان يمكن معالجتها على أى نحو آخر، بين أناس محصورين. إن الذين على قدر أقل منا حساسية، فيما بيننا، ليسوا بقادرين على تكوين صورة ذهنية عن الموت إلا بصعوبة، بل وهم، أكثر من ذلك، يتتهجون بمعاشته. ولذا أحست القوى التى تنظم أمورنا أنها يجب أن تثبته، حتى يأوى الموت فى الزمن الحاضر فعليا. إن ذلك من باب المنفعة الخالصة، إن كنت ترى ما أعنى!» وضحك ثانية،

لكن فى حزن هذه المرة. «الأمر بالطبع مختلف الآن إلى حد ما، إذ يضرب المشاهد والمتفرج بقسوة أشد من ذلك الموجود فى الخط الأمامى. إن رجال العشيرة الذين يودون ترك الزوجات والأولاد فى أمان نسبى، قبل أن يسيروا منتصبين متناقلين إلى تلك الرسامة(*) البدائية لمظلومين. إننى أعتقد أن الغريزة قد خدمت إلى حد ما، وقد تكون فى طريقها إلى الزوال تماما، ولكن ما الذى سيضعونه موضعها، ذلك هو ما يحيرنى؟ أما بالنسبة لى، يا دارلى، فإننى لا أستطيع إلا القول بأنه ما كان فى إمكان نصف دسنة من العشيقات الفرنسيات، أو رحلات حول العالم، أو مغامرات زمن السلم الذى عرفناه، أن تؤدى إلى نمو، فى نصف هذا الزمن، بكل ما فى كلمة النمو من معنى. إنك تتذكر ما اعتدت أنا أن أكون عليه؟ إننى الآن ناضج حقا، لكننى، بالطبع، أتقدم فى العمر سريعا، بسرعة كبيرة للغاية، بكل ما فى الكلمة من معنى! سوف يكون لهذا صده السخيف اللعين لديك، إلا أن وجود الموت هناك كظاهرة طبيعية للحياة، وبأعلى معدل سرعة، إن جاز القول، قد أوحى لى بأن الحياة باقية أبدا! ما كان هنالك من سبيل آخر يمكننى من فهمهما، عليها اللعنة آه حسنا، من المحتمل أن أقتل هنالك وأنا متمالك تماما لغبائى وبلاهتى، كما يمكن لك أن تقول».

وانفجر ضاحكا مرة أخرى، وهو يحيى نفسه مستحسنا بلا صوت ثلاث مرات، رافعا سيجاره كل مرة بطريقة احتفالية، ثم غمز لى بعناية وهو يملأ كأسه ثانية، مضيفا خاتمة مبهمة: «للحياة معناها الكامل، فقط عند هؤلاء الذين يختارون الموت!».

كان فى وسعى رؤية أنه قد ثمل الآن، إذ زالت تأثيرات الدش الساخن الملطفة عنه، وبدأ أن إرهاب الصحراء يؤكد ذاته.

(*) مثل رسامة الكاهن - المترجم.

«وماذا عن بورسواردن؟» قلت وأنا أتلمس تلك اللحظة التي يمكنني أن ألقى فيها باسمه مثل خطاف في مجرى حديثنا.

«بورسواردن!»، ردد الاسم في نغمة مختلفة تتسم بالاكثاب والحزن والمحبة. «إلا أنه، يا عزيزي دارلي، أشبه بشيء ما حاول هو إخباري به، بطريقة الخاصة التي تكاد تكون لعبته. وماذا عنى؟ إننى لا أزال أحمر خجلا كلما فكرت فى الأسئلة التي ألقيتها عليه. ومع ذلك فإن إجابته التي بدت حينذاك مبهمة بطريقة لعينة قد غدت الآن مفهومة لى تماما. إن الحقيقة ذات حدين كما ترى وليس هنالك من وسيلة للتعبير عنها بمصطلحات لغوية. اللغة هذا الوسيط الغريب المتشعب بثنائيته القاعدية. ما هو صراع الكاتب إن لم يكن صراعا لاستخدام هذا الوسيط بدقة قدر الإمكان، إلا أنه لا بد أن يكون عارفا بما فيه من غموض أساسى معرفة تامة؟ إنها مهمة ميثوس منها، إلا أنها على الأقل مجزية لكونها تدعو إلى اليأس. فالمهمة نفسها، الصراع مع مشكلة لا حل لها، ينمى الكاتب! هذا ما أدركه ذلك العجوز ابن الزنا. يجب أن تقرأ خطاباتة إلى زوجته، إذ رغم كل ما فيها من تألق انظر كيف كان يتأوه، يتضرع، كيف قدم نفسه بازدراء، مثل شخصية ما من شخصيات دوستيوفسكى. وقد أهدق بها، رغما عنها، عصاب كرية. إنها حقا تترنج، تلك النفس الحقيمة التافهة التي يكشف عنها هناك».

كان ذلك فهمًا ثاقبا، يشير الدهشة، للخطابات المعذبة والتي هى رغم ذلك كائن كلى كامل، والتي كنت أنا نفسى قد قرأتها لتوى! قلت: «كيتس، أخبرنى بالله عليك، إن كنت تكتب عنه كتابا؟».

رشف كيتس شرابه فى بطاء وتأمل، وضع كأسه قلقا، بصورة ما، قبل أن يقول: «كلا». مس ذقنه وصمت.

«إنهم يقولون إنك تكتب شيئاً ما»، قلت فى إصرار، هز رأسه فى عناد. تأمل كأسه بنظرة مبهمه. «لقد أردت ذلك». أقر أخيراً فى ببطء. «لقد أعددت عرضاً طويلاً لرواياته، ذات مرة، لمجلة صغيرة. تلقيت بعد ذلك رسالة من زوجته. كانت تريد كتاباً عنه. إنها فتاة أيرلندية ضامرة، عصبية للغاية، قليلة العناية بنفسها، وسيمية كما أعتقد إلى حد كبير. تمخط أنفها دوماً فى لفاع قديم. ترتدى دوماً خف سجادة. يجب القول إننى رقت له متأثراً. إلا أننى تعثرت على الفور فى عش دبابير هناك - كانت تشمئز منه. يبدو أنه كان هنالك الكثير مما يثير الاشمئزاز، يجب أن أقول ذلك. قدمت لى قدراً كبيراً من المعلومات، وفى بساطة، أكداً من خطابات ومخطوطات، مجموعة ثمينة حقاً. إلا أننى، يا عزيزى الشاب، لم أستطع استخدام هذا النوع من المواد لا لى سبب كان، لأننى أحترم ذكراه وأعماله. كلا، كلا، لقد خدعتها. أخبرتها أنها لن تستطيع نشر مثل تلك الأشياء. كانت تبدو راغبة فى تحقيق استشهاد علنى، فى كتاب مطبوع، لا لشيء إلا لتسترجه - بورسواردن العجوز. لم أستطع أن أفعل مثل هذا الشيء، بالإضافة إلى أن المادة كانت توقف شعر الرأس. إننى لا أود الحديث عنها. إننى حقاً، لن أعيد أبداً تكرار الحقيقة على مسمع أى إنسان».

جلسنا نفكر فى تأمل، بل حتى يراقب الواحد منا الآخر لوقت طويل، قبل أن أتكلم ثانية: «هل قابلت شقيقته ليزا؟».

هز كيتس رأسه فى ببطء: «كلا. بأى غرض أقابلها؟ لقد تخليت للتو عن المشروع. ولذا لم تكن هنالك حاجة لمحاولة سماع قصتها. أنا أعرف أن فى حوزتها قدراً كبيراً من المادة الخطية. لقد أخبرتنى زوجته بذلك إلا... أنها هنا، أليس كذلك؟». وتجعدت شفته تجعيدة دقيقة للغاية توحى بالاشمئزاز. «حقيقة لم أرغب فى لقاءها. إن الحقيقة المرة فى هذا الأمر، تبدو لى فى أن الشخصية التى أحبها بورسواردن أكثر الحب - أعنى حبا

روحيا خالصا - لم تدرك أبدا حالته الروحية، إن جاز القول، عندما مات: أو حتى كان لديها أية فكرة عن مدى إنجازاته. كلا، لقد كانت مشغولة بعلاقة غرامية سرية مبتذلة، يشير اهتمامها إضفاء شرعية على علاقتها ببورسواردن. إننى أعتقد أنها كانت تخشى أن يتعرض زواجها من دبلوماسى للخطر بفضيحة محتملة. ربما أكون مخطئا، إلا أن ذلك هو الانطباع الذى خرجت به. إننى أعتقد أنها كانت تحاول إصدار كتاب يبيض الصورة لكننى الآن، وبصورة ما، أمتلك بورسواردن الخاص بى، نسختى الخاصة منه، إن شئت القول وفى ذلك ما يكفينى. ماذا تهتم التفاصيل، ولماذا كان على لقاء أخته؟ إن أعماله، وليست حياته، هى التى تشكل ضرورة لنا: إنها تقدم واحدا من المعانى العديدة للكلمة ذات الأوجه الأربعة!

وأحسست برغبة فى أن أصبح، «هذا غبن»، إلا أننى ردعت هذه الرغبة. إنه لمن المستحيل تحقيق العدالة التامة لكل امرئ. وسقط جفنا كيتس. «تعال»، قلت وأنا أنادى فى طلب ورقة الحساب: «لقد حان وقت ذهابك إلى المنزل والنوم».

كانت هنالك عربة حنطور مشدود إليها جواد هرم فى شارع جانبى. سعدنا غاية السعادة لعثورنا عليها. أخذ كيتس يحتج بأن قدمه قد بدأت توجعه، وأن ذراعه قد بدأ يؤلمه. كان فى حالة عقلية مرهقة تتسم بالانبساط. كان نشوانا، إلى حد ما، بعد ما تناوله من جرعات الشراب. استند إلى الخلف فى العربة العجوز ذات الرائحة وأغلق عينيه: «هل تعرف، يادارلى، أننى كنت أنوى إخبارك، لكننى نسيت. لا تغضب منى أيها الزميل، الراعى العجوز، أرجو ألا تغضب. إننى أعرف أنك وكليا... نعم أعرف، وأنا سعيد بذلك إلا أن لدى أكثر الأحاسيس غرابة، وهى أننى سأتزوجها ذات يوم. حقا لا تتصرف بحمق بهذا الخصوص. بالطبع لن أنطق بكلمة، ربما يحدث ذلك بعد سنوات عدة من هذه الحرب البلهاء

العجوز إلا أنني أحس، فى مكان ما، على امتداد هذا الخط، أنني مقيد
برباط معها».

«والآن، ماذا تتوقع منى أن أقول؟».

«حسنًا، هنالك مئات السبل لمواجهة ذلك. إنك لو كنت قلت لى مثل هذا
الشيء لبدأت للتو فى الزعيق والصراخ. كنت انتهيت من شخصك فى سرعة،
دفعت بك خارج العربة، أى شيء ولكنك لكنت نفسى فى عيني».

وقفت العربة أمام المنزل وهى تتدحرج قلت: «لقد وصلنا». عاونت
صاحبى على النزول إلى الطريق: «إننى لست ثملاً إلى هذا الحد»، صاح
فى مرح، نافضاً عونى له، «إنه ليس أكثر من تعب، أيها الصديق العزيز».
بينما أجادل السائق فى أجر المشوار، ذهب إلى الجواد ليتسامر معه فى
حديث خاص طويل، وهو يربت له أنفه.

«إننى أمنحه بعض الحكم التى تعينه على الحياة». شرح لى ونحن
نشق طريقنا الشاق فوق السلم، «إلا أن الشمبانيا قد شوشت مخزونى من
الاقتباسات. ماذا كان ذلك الشيء الذى قاله شكسبير عن العاشق والديوث
وارتباطهما المحكم معاً، وهما يبحثان عن سمعة خداعة كالفقاعة حتى
فى فوهة مدفع». نطق العبارة الأخيرة بطريقة إلقاء غريبة، كتلك التى كان
يتحدث بها تشرشل، كرجل ينشر الخشب «أو شيء ما عن السابحين قفزا
فى النقاء - شيء ما سابق التجهيز فى العقل الأزلى، ولا أقل من ذلك!»
«إنك تغتال كليهما».

«جوش، إننى متعب يبدو أنه لن تكون هنالك غارات جوية الليلة».

«إن الغارات الجوية تتناقص».

انهار فوق فراشه وهو فى كامل ثيابه. أخذ يفك فى بطاء حذاءه

الصحراوى الجلدى اللين الناعم المزغب، يملص أصابعه حتى انزلق
فى بطاء وسقط فوق الأرض.

«هل رأيت كتاب بورسواردن الصغير والذي يحمل عنوان، «الصلوات
المختارة للمثقفين الإنجليز». إنه كتاب يثير الضحك، «عزيزى يسوع،
أرجو أن تحافظ علىّ كما كان الحال فى القرن الثامن عشر، ولكن بدون....
» ثم ضحك ضحكة ناعسة، واضعاً ذراعيه تحت رأسه، منساقاً فى نوم باسم
عندما أطفأت النور، تنهد فى عمق وقال: «حتى الموتى يغمروننا جميعاً
بالعطف والحنان طوال الوقت».

فجأة بدت لى صورته صورة صبي صغير يسير على حافة جروف
شديدة الانحدار ليجمع بيض طيور البحر. زلة واحدة....
إلا أننى ما كنت لأراه ثانية. وداعاً.

* * *

أصابع معبودتى العمياء العشرة الظلماتى تمن على وجهى بسحرها الحسى

جرت السطور عبر رأسى وأنا أضغط جرس المقر الصيفى، مساء اليوم التالى، أحمل فى يدى الحقيبة الخضراء التى تحتوى خطابات بورسواردين الخاصة، تلك الطلقات المتتالية المتألقة القوية، فى كلمات لا تزال تنفجر فى ذاكرتى أشبه بعرض للألعاب النارية، يلفحنى. لقد اتصلت هاتفيا بليزا من مكتبى فى الصباح لأحدد موعدا للقائها. فتحت الباب ووقفت أمامى وقد ارتسم التوقع على وجهها فى تعبير يتسم بالجدية. «حسنا»، همست عندما نطقت اسمى، قالت، «تعال». استدارت تسير أمامى فى مشية متصلبة منتصبة ذكرتنى بطفلة ترتدى ملابس الملكة إليزابيث فى لغز تمثيلى. بدت متعبة مشدودة، وإن كانت متشامخة بطريقة غريبة كانت حجرة المعيشة خالية، وقد عاد ماونت أوليف كما أعلم، إلى القاهرة هذا الصباح. ودهشت إذ رأيت كتلة خشبية تشتعل فى المدفأة. وقفت أمامها وقد أحنى ظهرها ناحية الدفء، تدعك يديها كأنما تعاني من البرد.

«لقد كنت سريعا، سريعا للغاية»، قالت بطريقة تكاد تكون قاطعة، تكاد تحمل لمحة من تبكيت ضمنى فى لهجتها «لكننى سعيدة». كنت

قد أخبرتها بالفعل، هاتفيا، بخلاصة حديثي مع كيتس حول الكتاب الذي لا وجود له.

«إنني سعيدة لأننا نستطيع، أخيرا، أن نقرر شيئا ما. لقد جافاني النوم طوال الليلة الماضية. ظللت أتخيلك تقرأ الخطابات وظللت أتخيله يكتبها».

«إنها رائعة. لم أقرأ في حياتي كلها ما يماثلها». وأحسست في لهجتي بنغمة حزن وكدر.

«نعم» قالت وهي تتنهد في عمق «ومع ذلك فإنني كنت خائفة أن تصل إلى تلك النتيجة، خائفة أن تشارك دافيد رأيه وتنصحني بالإبقاء عليها مهما كان الثمن. ومع ذلك فقد طلب هو مني صراحة أن أقوم بحرقها».

«أعرف ذلك».

«اجلس يا دارلى. أخبرنى بما تفكر فيه حقا».

جلست واضعا الحقيبة الصغيرة فوق الأرض إلى جوارى. قلت: «ليست هذه ياليزا بمشكلة أدبية مالم تضعيها أنت على هذا النحو. إنك لست فى حاجة إلى نصيحة أحد. لن يستطيع أى امرئ أن يقرأها إلا ويأسف بالطبع لفقدها».

«ولكن، لو كانت تلك الخطابات، يا دارلى، خطاباتك، وقد كتبها إلى شخص ما... تحبه؟».

«كنت أحس الراحة لمعرفتى أن تعليماتى سوف يجرى تنفيذها. إننى أظن، أن ذلك، على الأقل، هو ما سوف يحس به الآن، حيثما كان».

أدارت وجهها الضرير إلى المرأة. بدت كأنها تستكشف صورتها فيها،

فى جدية واجتهاد. أراحت أطراف أصابعها المنمقة فوق رف المدفأة أخيرا قالت: «إننى متطيرة مثله تماما إلا أن الأمر يتجاوز ذلك. لقد كنت دوما مطيعة، إذ كنت أعرف أنه يرى أبعد مما أرى، ويفهم أكثر مما أفهم».

إن هذه الصور المنعكسة الحبيسة لا ترد إليها شيئا

تلك المرأة تنهل من المرايا مثل أياثل عطشى

كم غدا الكثير من شعر بورسواردن محددا جليا كالبلور فى ضوء كل هذه المعرفة الجديدة! كم حشد من خواطر وتباريح شخصية ليزا وهى تستكشف عماها فى المرأة الكبيرة، وشعرها الداكن ملقى إلى الخلف فوق كتفها!

استدارت أخيرا مرة أخرى وهى تنهد ثانية. رأيت نظرة جنون تنساب على وجهها، وقد غدت أكثر تعبيرا وإزعاجا بفراغ مقلتى عينيها. خطت إلى الأمام خطوة، قالت: «حسنا، إذن فقد تقرر الأمر. فقط قل لى: إنك ستساعدنى على حرقها. إنها عديدة للغاية سوف تأخذ وقتا قصيرا».

«إن شئت ذلك».

«دعنا نجلس معًا إلى جوار النار».

جلسنا فوق السجادة يواجه كل منا الآخر. وضعت الحقيبة بيننا. ضغطت القفل حتى أطلق الغطاء قافزا محدثا صوتا حادا.

قالت: «نعم هكذا يجب أن يكون الأمر. كان على أن أدرك طوال الوقت ضرورة طاعته». تناولت فى ببطء خطابا مثقوب الغلاف بعد خطاب، أفضه وأناوله لها لتضعه فوق الكتلة المشتعلة.

«لقد اعتدنا كأطفال أن نجلس معًا مثل هذه الجلسة، فى الشتاء أمام

النار، وصندوق ألعابنا فيما بيننا. كنا نفعل ذلك مرات كثيرة، بل دومًا. يجب عليك أن تعود بعيدا إلى الوراء لتفهم الأمر كله. وحتى إن أنت فعلت ذلك، فإننى أتساءل: إن كنت ستفهم. طفلان صغيران تركا وحيدين فى بيت متداع، فى مزرعة، بين بحيرات متجمدة، وسط ضباب وأمطار أيرلندا. لم يكن لنا من مورد للثروة غير ما فى كل منا للآخر. لقد حول عماى إلى قصيدة شعرية، رأيت الأشياء بعقله، ورأى هو الأشياء بعينى. وهكذا خلقنا معا عالما شعريا كاملا لا يفنى. أعظم بكثير من أفضل كتبه. لقد قرأتها كلها بأصابعى. إنها كلها موجودة فى المعهد. لقد قرأتها وأعدت قراءتها، أبحث فيها عن مفتاح الإثم الذى حول كل شىء. لم يؤثر فىنا شىء من قبل. كان كل شىء يتواطأ على عزلنا، على بقائنا معًا. مات والدانا فى الوقت الذى كنا فيه أصغر من إدراك ذلك. عشنا فى منزل المزرعة القديم المتداعى ذاك، فى رعاية عمه عجوز صماء غريبة الأطوار، كانت تقوم بكل العمل، حتى يمكن أن توفر لنا غذاءنا. وتركنا لما نستنبطه نحن بأنفسنا. كان هنالك كتاب واحد فقط، كتاب لبلوتارك، حفظناه عن ظهر قلب، أما ما خلا ذلك، فقد كان من اختراعه هو. هذه هى الطريقة التى غدوت بها ملكة حياته الأسطورية الغريبة، أعيش فى قصر فسيح من التنهيدات - كما اعتاد أن يقول - كان ذلك فى مصر أحيانا، وفى بيروت أحيانا وفى بيزنطة أحيانا أخرى. أعتقد أننى قد عرفت أن ذلك لم يكن حقا غير مطبخ بيت المزرعة العتيق بأثاثه الرث من خشب أبيض وأرضيات من قرميد أحمر. كنت أدرك ذلك، على الأقل، عند ما كانت تغسل الأرضية بصابون منتول، برائحته المتميزة التى أعرفها بنصف عقلى. إنها أرضية بيت المزرعة وليست قصرا بأرضيات فاخرة من فسيفساء تتألق بالحيات والصقور والأقزام. إلا أنه كان يعيدنى إلى الواقع، كما كان يدعو، بكلمة واحدة وفيما بعد، عندما بدأ النظر فى تبرير حبنا، بدلا من مجرد التباهى به، فى بساطة قرألى اقتباسا

من كتاب: «كانت الأخت فى شعائر الدفن الإفريقية هى التى تعيد الملك الميت إلى الحياة. كان الملك الذى يعتبر إلها فى مصر، وكذا الأمر فى بيرو، يتخذ من شقيقته زوجة له. إلا أن الدافع إلى ذلك كان هو الطقوس الدينية وليس الجنس، إذ كانا يرمزان إلى القمر والشمس فى التثامهما. الملك يتزوج شقيقته لأنه باعتباره الإله النجم، الهائم فوق الأرض، خالد لا يموت، ومن ثم لا يتناسل فى أطفال امرأة غريبة، وأن يستمر كذلك حتى يسمح له بالموت ميتة طبيعية، كان ذلك سبب سعادته لحضوره إلى مصر، كان يشعر، كما قال، برابطة شعرية داخلية مع إيزوريس وإيزيس، مع بطليموس وأرسينو - سلاله الشمس والقمر!».

وضعت الخطاب بعد الخطاب فى هدوء، وبطريقة منهجية فوق المحرقة المشتعلة، وهى تتحدث إلى نفسها، أكثر مما تتحدث إلى، فى نغم مطرد.

«كلا، ليس فى الإمكان جعل الأمر مفهوما تماما، لمن هم ليسوا من سلالتنا. لكن، ما إن دخل الإثم، حتى بدأت الحياة الشعرية القديمة تفقد سحرها - لم يكن ذلك بالنسبة لى - لكنه كان بالنسبة إليه. إنه هو الذى جعلنى أصبغ شعرى باللون الأسود حتى أبدو كأخت غير شقيقة، وليست له. لقد آلمنى بعمق أن أعرف، على حين غرة، أنه كان آثما بطريقة مفاجئة. لقد تدخل العالم، أكثر فأكثر فى أمورنا، ونحن ننمو. وأخذت حيوات أخرى تقتحم عالمنا المتوحد وقصورنا وممالكنا. واضطر هو للذهاب بعيدا لفترات طويلة. لم يكن لى، وهو غائب، أى شىء مهما كان، غير الظلام، وكل ما استطاعت ذاكرتى أن تمتلئ به عنه، كنوز إبداعه كان تتألق، على نحو ما، حتى عودته، صوته، لمستته. إن كل ما كنا نعرفه عن والدينا، مجمل معرفتنا عنهما، كان دولا با قديما من خشب البلوط، ملئء بالملابس. كانت تبدو هائلة بالنسبة لنا ونحن صغيران. ملابس. عمالقة،

وأخذية عمالقة. قال ذات يوم، إن هذه الملابس تقمعه وتضطهده. إننا لسنا في حاجة إلى والدين. أخذناها إلى الخارج في الباحة. صنعنا منها نارا كبيرة في الخلاء وسط الجليد. بكينا بكاء مرًا، لا أدري لماذا. رقصنا حول شعلة النار نغنى أغنية صيد قديمة بإحساس انتصار وحشى، ومع ذلك كنا نبكى».

وجلست صامته لفترة طويلة، وقد تدلت رأسها في تركيز شديد العمق حول هذه الصورة القديمة، مثل عرافة تحملق بثبات في بلورة الشباب الداكنة، ثم تنهدت، رفعت رأسها وقالت: «إننى أدرك لماذا تتردد. إنه الخطاب الأخير أليس كذلك؟ لقد عددتهم كما ترى. أعطه لى يا دارلى».

وناولته لها دون كلمة، فوضعتة فى النار فى رقة وهى تقول: «لقد انتهت أخيرًا».

* * *

[٧]

بدأنا، والصيف يمضى منهكا إلى الخريف، والخريف ثانية إلى الشتاء، نتنبه إلى أن الحرب التى طوقت المدينة، قد بدأ جزرها. إنها تنساب بعيدا، تدريجيا، على امتداد الطرق الساحلية التى تشكل حواشى الصحراء، تفك قبضتها عنا وعن مسراتنا. تترك وراءها، وهى تتراجع، تتقهقر، مثل المد والجزر، فضلاتها التذكارية، على امتداد الشواطئ التى استخدمناها، يوما ما، لنجدها بيضاء، كما كانت دوما، مهجورة تحت طيور النورس المحلقة. لقد حرمتنا الحرب منها زمنا طويلا، لكننا الآن، وقد أعدنا اكتشافها، وجدنا أنها مفروشة بالدبابات التى عجت والمدافع التى التوت، وحطام، يصعب تمييزه، لإمدادات مؤقتة للموانئ، هجرها المهندسون، لتتعطن وتصدأ تحت شمس الصحراء، ولتغطس تدريجيا تحت الكثبان المحركة، تبعث فى المرء طمأنينة سوداوية غريبة ليستحم الآن هناك كأنما بين أشجار متحركة من العصر النيوليتى: الدبابات مثل هياكل الديناصورات، والمدافع تتصب مثل أثاث مبتذل بطل استعماله، وحقول الألغام تشكل شيئا ما تكمن فيه المخاطر: والبدو غالبا ما يقعون فيه أثناء رعيهم. لقد انحرفت كليا ذات مرة، إذ كان الطريق مفروشا بقطع تتألق من جمل تبعثر فى حادثة ما حديثة. إلا أن مثل تلك الحوادث كانت نادرة. أما الدبابات ذاتها، فقد كانت خالية ممن كانوا بها رغم احتراقها، لم تكن بها أى أجساد بشرية،

وكانت، على الأرجح، قد استخرجت منها ودفنت في وقار في واحدة من تلك المقابر الهائلة التي نمت في أركان لا يتوقعها المرء من الصحراء الغربية، مثل مدن الموتى، والمدينة، أيضا، كانت تجد طريقها إلى الورا، إلى عاداتها وإيقاعاتها الطبيعية، إذ توقفت قذائف المدافع الآن تماما، وعادت حياة الشرق الأدنى العادية إلى الازدهار ثانية، إن البذات الرسمية قد غدت الآن أقل كثرة، إلا أن البارات والنوادي الليلية ما زالت مثابرة على تجارتها الرائعة مع الجنود أثناء إجازاتهم.

أخذت حياتي الخالية من أى حدث، تستقر على خط روتيني طبيعي، مقسمة بصور مصطنعة بين حياتي الخاصة والتي أسلمتها استغراقا كاملا في كليا، وحياة المكتب، التي لم تكن ذات معنى لى، رغم أنها لم تكن شاقة. لقد حدث تغير محدود: نعم، أخيرا استطاع ماسكيلين تحطيم قيوده والهرب عائدا إلى فوجه. لقد زارنا في زيه ليقول لنا: وداعا، مشيرا في خجل إلى زميله، الذي يبصص له بذنبه، ليس بغليونه كما اعتاد ولكن بعصا جديدة مفتولة يختال بها. قال تلفورد وفي صوته رنة حزن منتصر، «لقد أخبرتك أنه سوف يفعلها، كنت أعرف ذلك دوما». إلا أن ماونت أوليف ظل كما هو، إنه لا يزال، كما هو واضح «مجمدا» في منصبه.

كنت، من وقت إلى آخر، وذلك بناء على اتفاق وترتيب، أقوم بزيارة الطفلة في كوم أبو جيرج لأرى كيف تتقدم. ووجدت، لبهجتي، أن شتلها، والذي كان لدى العديد من الهواجس حوله، يسير بطريقة مرضية تماما. لقد تطابقت، بوضوح، حقيقة حياتها الحالية مع الأحلام التي ابتدعتها لها. كانت كلها كما يجب أن تكون، شخصيات أوراق اللعب الملونة، والتي يمكن أن تعدها هي الآن بنفسها. ظلت جوستين، إلى حد ما، شخصية منحسرة، لا يمكن التنبؤ بحالها ومزاجها، لصمتها وسكونها، ولم يكن ذلك، بقدر ما استطعت أن أرى، غير إضافة إلى الصورة القاتمة

للإمبراطورة التى جردت من أملاكها وتعرفت فى نسيم على الأب. اكتسبت صورته تحديدا، بما كان يتوافر له من ألفة كبيرة نسبية بسبب رفته الإنسانية. كان الآن الأب المرافق لها، المثير لبهجتها. استكشفا معا، فوق ظهر الخيل، الأراضى الصحراوية المحيطة بالمنزل. كان قد أعطاها قوسا وسهاما، وفتاة صغيرة تناهزها فى العمر «تاؤور» كخادمة خصوصية وأمة(*) واجتاز أيضا ما سميناه بالقصر، والذي تخيلناه معا، الاختبار الواقعى بطريقة رائعة. كان تيه حجراته العطنة وكنوزها المتداعية، متعة خالدة. إنها الآن تكاد تكون قد نسيت الجزيرة. كانت مستغرقة تماما فيما بين تلك الكنوز الجديدة. لم أر جوستين خلال تلك الزيارات، ولم أحاول فعل ذلك. كان نسيم هنالك فى بعض الأحيان، إلا أنه لم يكن يصطحبنا البتة فى نزعاتنا على الأقدام أو ممتطين الخيل. وكانت الطفلة عادة ماتأتى إلى مخاضة النهر لتلقانى ومعها حصان آخر.

كان بلتازار، فى الربيع، قد استعاد نفسه تماما، ملقيا بها ثانية فى عمله. دعانى وكليا للمشاركة فى حفل يرضى - بصورة ما - مزاجه الساخر. كان ذلك هو الاحتفال بوضع الزهور على قبر كابوديستريا بمناسبة الذكرى المئوية لعيد ميلاد «بورن العظيم». قال يشرح الأمر: «إننى أمثل السلطة الصريحة لكابوديستريا ذاته. إنه يدفع دوما ثمن الزهور كل عام». كان يوما مشمسًا لطيفا للنزهة. وأصر بلتازار على ضرورة أن نسير على أقدامنا. كان فى حالة طيبة، رغم أن باقة الزهور التى كان يحملها كانت تعرقله. كان يزهو بشعره إلى حد لا يطاق، وقد أذعن، كما يجب لخدمات منمجان، «الذى طمس له معالم عمره»، كما عبر هو عن ذلك حقا. كان التغيير رائعا. لقد غدا الآن ثانية بلتازار العتيد بعينه الداكتين الفطنتين، وهما تنظران فى

(*) عربية بحروف لاتينية.

سخرية إلى أفعال المدنية. ولم يكن الأمر بأقل من ذلك مع كابوديستريا الذى كان قد تلقى منه للتو رسالة طويلة. «ليس لديكم أى فكرة عما بلغه هذا الوحش من سطوة على الماء. لقد سار فى الدرب الشيطاني، منغمسا فى السحر الأسود. إلا أنني سوف أقرؤه لكم. إن جوار مقبرته، كما أرى الآن، هو أنسب الأماكن لقراءة بيانه عن تجاربه!».

كانت الجبانة مقفرة تماما فى ضوء الشمس. إن كابوديستريا لم ييخل، بالقطع، بأية نفقات لجعل قبره مهيبا مؤثرا فى النفس. كان قد زينه بطريقة سوقية مخيفة تكاد تصيب العقل بالجراح، بملائكة الشاروبيم تلك والكتابة على قراطيس ملفوفة مثل أكاليل الزهور. وقد حفر على اللوحة تلك العبارة الساخرة، «لم يفقد، لكنه سبق بالذهاب». وضحك بلتازار فى ود وهو يضع الأزهار فوق القبر ويقول له، «عيد ميلاد سعيد». انتحى جانبا، خلع سترته وقبعته، فقد كانت الشمس عالية مشرقة جلسنا جميعا فوق دكة تحت شجرة السرو بينما كليا تأكل الحلوى. تلمس جيبه بحثا عن الحزمة الكبيرة المكتوبة بالآلة الكاتبة، والتي تحتوى على آخر وأطول خطاب لكابوديستريا قال: «كليا، اقرئي لنا، فقد نسيت نظارة القراءة، كما أنني أحب أن يلقيها آخر على مسمعى، لأرى إن كان وقعها أقل أم أكثر هل تقرئينها؟».

أخذت كليا الصفحات المكتوبة على الآلة الكاتبة فى امثال، وبدأت القراءة:

«عزيزى م. ب.»

«إن هذين الحرفين فى أول الكلمات» - «تدخل بلتازار» - إنما يقومان مقام اللقب التهكمى الذى ألصقه بى بورسواردن - «ماليخوليا

بوريا ليس(*)»، وليس أقل من ذلك، إنها تنويه عن كآبتي اليهودية
المزعومة، واصلي يا عزيزتي كليا.

كان الخطاب مكتوباً بالفرنسية.

«إننى أدرك، يا صديقى العزيز، أننى مدين لك بتقديم حساب ما عن حياتى الجديدة هنا، لقد كتبت لك الكثير، إلا أننى رغم ذلك، اعتدت التهرب من المشكلة. لماذا؟ حسنا، كان قلبى يغوص دائما وأنا أفكر فى ضحككتك الساخرة، وهذا أمر سخيـف، إذ إننى لم أكن البتة رجلا حساسا أو سريع القلق حول رأى جيرانى عنى. هنالك شىء آخر، كان يقتضى منى شرحا طويلا مرهقا لما كنت أحسه دوما من ضيق وانعدام انسجام فى اجتماعات القابال التى كانت تسعى إلى أن يجرع العالم خيره خالصا، لم أكن أعرف حينذاك أن طريقى لم يكن طريق النور بل الظلام. خلطت الأمور، حيثئذ، وأربكتها أخلاقيا أو معنويا بالخير والشر. إننى أعرف تماما الطريق الذى أطؤه الآن، مثل رمانة الميزان المستقر النهائى للأرجوحة - كما كانت - والتى تبقى على الجانب الأخف وزنا معلقا فى الهواء. السحر! إننى أتذكرك، ذات مرة، وأنت تقتبس لى نبذة كانت حينذاك، لا تحمل أى معنى بالنسبة إلى من براسيلسوس. وأعتقد أنك أضفت فى ذلك الوقت، أن تلك التمتمة يجب أن تعنى أيضا شيئا ما. وقد كانت كذلك بالفعل. إن الكيمياء السحرية الحقيقية التى تعلم كيف تصنع (أوه من المعادن الخمسة القاصرة غير المكتملة)، لا تحتاج إلى مواد أخرى غير المعادن فقط. إن المعادن المكتملة المتقنة تستنبط من المعادن القاصرة غير المكتملة، من خلالها وبها فقط؛ إذ هنالك القمر (الإبداع الخيالى) مع الأشياء الأخرى، إلا أن الشمس (الحكمة) توجد فى المعادن الأخرى.

(*) السوداوية الشمالية - المترجم.

«إننى أترك لحظة من صمت لضحكتك المتميزة، والتي لم أكن، فى الماضى، أتوانى عن ترديدها! أى جبل من نفاية ذلك الذى يحيط بفكرة الصباغة الفيزيائية. لا بد أنك قد لاحظت ذلك حسنا، ولكن..»

«لم يكن شتائى الأول، فى ذلك البرج العاصف، بهيجا. كان السقف يرشح. لم تكن معى حينذاك كتبى لتؤنسنى. كان مسكنى ضيقا وأنا حائر فى كيفية توسيعه. تناثرت فوق قطعة الأرض التى يقف عليها البرج: فوق البحر، أكواخ وحظائر هنا. كان يقيم الإيطاليان العجوزان الأصمان اللذان يرعيان شئونى، يطعماننى، يغسلان وينظفان المكان لى، إلا أننى كنت أتساءل، ماذا إن عجزت عن تبديل استخدام إسطنبولين زائدين ملحقين بمسكنهما. كان ذلك هو الوقت الذى اكتشفت فيه، أدهشنى، أنهما يأويان شخصا آخر لم أره البتة. كان غريبا متوحدا لا يخرج إلا ليلا، يرتدى ثياب الرهبان. إننى مدين بكل توجهى الجديد للقائى مع هذا الرجل. إنه راهب إيطالى جرد من وظيفته، وهو يصف نفسه بأنه روزيكروسى(*)، وعامل بالكيمياء السحرية. إنه يعيش هنا فى قلب جبل من المخطوطات الماسونية - بعضها عتيق للغاية - والتي كان يقوم على دراستها. لقد كان هو أول من أقنعنى أن هذا الخط من البحث (رغم بعض المظاهر غير المقبولة) مهتم بزيادة القبضة الداخلية للإنسان على ذاته، على المناطق التى ترقد غير مكتشفة فى داخله. إن هذا البحث يقوم بحزم على المنهج، فقط بمقدمات أو فرضيات مختلفة! ولو كان له، كما أقول، بعض المظاهر غير المقبولة، فلماذا إذن يقوم العالم الرسمى بتشريح حيوان حى، مثلا، بغرض البحث العلمى أو الطبى. إننى، على أى حال، قد حققت وثاما مع ذاتى، وشققت لنفسى مجالا من الدراسة يتعمق انهماكى فيه أكثر كلما مرت الشهور.

(*) نسبة إلى روزا كروسييس مؤسسة حركة مسيحية بهذا الاسم فى القرن ١٥ - المترجم.

واكتشفت أخيرا شيئا يناسب أيضا طبيعتى بطريقة خاصة للغاية. إن كل شيء فى هذا المجال يبدو، حقيقة، منعشا ومعضدا لى! كذلك أصبحت قادرا على تقديم قدر كبير من المساعدة العملية للأب الروحى (ف) كما سادعوه؛ إذ كان بعض تلك المخطوطات (المسروقة من مخابئها السرية فى أثوس كما أعتقد) باللغات اليونانية والعربية والروسية - التى لم يكن يعرفها جيدا. ونضجت صداقتنا إلى حد المشاركة، إلا أنه مضت شهور قبل أن يقدمنى إلى شخصية أخرى غريبة مهيبة كانت تخوض أيضا فى هذه الأمور. كان بارونا نمساويا يعيش فى دار كبيرة فى الداخل وكان مشغولا (كلا، لا تضحك) بالمشكلة الغامضة التى ناقشناها ذات مرة، هل كانت عن طبيعة الأشياء؟ أعتقد أنها عن تخليق بشر صغار(*) . إن لديه ساقيا تركيا، هو أيضا تابعه الذى يعاونه فى تجاربه وسرعان ما غدوت شخصية مقبولة هنا أيضا، وسمح لى أن أعاونهما بأقصى ما عندى من قدرة.

«والآن، فإن هذا البارون، والذى سوف تجد فيه بالقطع شخصية غريبة ومؤثرة - بذقنه الكثيفة وأسنانه الكبيرة مثل بذور كوز الذرة - هذا البارون قد.. آه يا عزيزى بلتازار.. قد أنتج بالفعل عشرة من البشر الصغار أطلق عليهم اسم (أرواحه المتنبئة). كانت محفوظة فى صناديق زجاجية ضخمة تستخدم هنا فى الجوار، فى غسيل الزيتون أو حفظ الفاكهة وهم يعيشون فى الماء. إنهم يقفون فوق حامل صلب طويل من خشب البلوط. لقد أنتجت أو جرى تنميطها. وأنا هنا أستخدم تعبيره الخاص، خلال أسابيع خمسة من أعمال الفكر المكثف وإقامة الطقوس. لقد كانت أشياء رائعة الجمال، غامضة، تسبح هنالك مثل أحصنة البحر. كانوا يتكونون من ملك، ملكة، فارس، راهب، راهبة، مهندس معمارى، عامل مناجم،

(*) باللاتينية فى الأصل.

ملاك. وفي النهاية روح زرقاء وأخرى حمراء! كانوا يسترخون فى كسل فى تلك الجرار الضخمة. كانوا يتنبهون، على ما يبدو، بنقرة من ظفر الإصبع. كان طول الواحد منهم حوالى الشبر تقريبا. ولما كان البارون قلقا متلهفا عليهم يود أن ينمو إلى حجم أكبر؛ فإننا عاوناه على دفنهم فى العديد من حمولات سبلة الخيل. كان هذا السماد العظيم يرش كل يوم بسائل شيطاني الرائحة، كان يعده البارون وخادمه التركي بجهد كبير. كان يحتوى على بعض العناصر التى تكاد تثير التقزز. كان السماد فى كل مرة يرش فيها، يبدأ فى البخر كأنه يسخن بنار تحت السطح. كان حارا للدرجة يصعب معه وضع إصبع فيه. وكان الأب الروحي والبارون يقضيان الليل بطوله، كل ثلاثة أيام، يصليان ويبخران السماد بالبخور، حتى يرى البارون أخيرا أن هذه العملية قد اكتملت. فتقل القوارير بعناية وتعاد إلى أرفف المعمل. كان كل البشر قد نموا إلى حجم لم تعد فيه القوارير الآن كبيرة بما يتناسب معهم، وأصبح للذكور منهم لحى كثيفة. وكان هؤلاء الذين يمثلون أوضاعا بشرية اجتماعية يرتدون الملابس التى تناسب مقامهم وألقابهم. كانوا يتسمون بنوع من القبح الجميل وهم يطفون هنالك، على وجوههم تعبير لم أره من قبل إلا ذات مرة، على وجه رأس من بيرو منقوعة فى الخل! تحولت العينان إلى أعلى فى الجمجمة، والشفاه شفاه أسماك شاحبة مشدودة إلى الوراء لتكشف عن أسنان صغيرة رائعة التشكيل! ولم يكن فى القارورتين اللتين تحتويان على الروح الحمراء والزرقاء، على التوالي، أى شىء يمكن رؤيته. كانت كل القوارير، بالمناسبة، محكمة السداد تماما بمثانة ثور وشمع يحمل طابع خاتم سحرى. إلا أن المياه كانت تتلون عندما يدق البارون بظفر إصبعه على القوارير ويكرر بعض الكلمات بالعبرية، فتأخذ فى التحول إلى اللون الأحمر ثم الأزرق على التوالي، ويبدأ البشر الصغار فى إظهار وجوههم، ليتحولوا إلى شكل

ضبابى أشبه بالطبعة الفوتوغرافية، ويزدادون فى الحجم تدريجيا. كانت الروح الزرقاء جميلة جمال أى ملاك إلا أن الحمراء كانت تكتسى بتعبير مخيف حقا.

«كان البارون يطعم هذه الكائنات، كل ثلاثة أيام، بمادة جافة ووردية محفوظة فى علب فضية مبطنة بخشب الصندل. كانت كرات فى حجم حبة البسلة الجافة كما كان يتم، أيضا تفريغ مياه القوارير مرة كل أسبوع، ليعاد ملؤها بمياه الأمطار الطازجة. كان لا بد من فعل ذلك فى سرعة كبيرة، إذ كانت الأرواح، خلال تلك اللحظات القليلة المعرضة فيها للهواء، تبدو ضعيفة وقد أصابها الإغماء وكأنها توشك أن تموت كالأسماك. إلا أن الروح الزرقاء ما كانت تطعم أبدا، بينما كانت الحمراء تتلقى، مرة كل أسبوع، ملء كستبان من دم طازج لحيوان ما - دجاجة كما اعتقد - كان هذا الدم يختفى للحال فى الماء دون أن يصبغه أو حتى يثير فيه أى اضطراب. ما إن تفتح تلك القارورة حتى تصبح عكرة داكنة، كما تصدر عنها رائحة بيض فاسد!

وقد بلغ هؤلاء البشر الصغار، خلال شهرين، كامل قوامهم ومرحلة التنبؤ - كما يدعوها البارون - ثم إن القوارير كانت تحمل كل ليلة إلى كنيسة صغيرة متهدمة، قائمة داخل غابة صغيرة، على مسافة ما من المنزل، حيث كانت تقام صلاة قداس، «وتُسأل» القوارير عما يجرى من أحداث المستقبل. كان يحدث ذلك بكتابة أسئلة بالعبرية فوق شرائح من ورق تضغط إلى القارورة أمام عيني الكائن البشرى الصغير. كان الأمر أقرب إلى تعريض ورق التصوير الحساس للضوء، أعنى لم يكن الأمر وكأن هذه الكائنات تقرأ الأسئلة، ولكن تتكهن بها، فى بطاء وفى كثير من التردد. كانت تتهجد الإجابات، ترسمها بإصبع فوق الزجاج الشفاف وكان البارون يدون هذه الردود فورا فى كتاب عادى كبير. كان كل بشرى

صغير يُسأل الأسئلة التي تناسب وضعه، وكانت الروحان الحمراء والزرقاء تجيبان فقط بابتسامة أو تقطعية لتحديد الرضا أو الخلاف، ومع ذلك فقد بدا أنهم يعرفون كل شيء. وأنه يمكن طرح أى سؤال عليهم. كان الملك لا يتناول غير السياسة فقط، والراهب الدين... وهكذا وقد جعلنى ذلك شاهدا على تجميع وتصنيف ما يسميه البارون «بتأريخ الزمن»، وهى وثيقة لها أثرها، على الأقل، مثل تلك التى تركها نوستراداموس وراءه. إن كثيرا من هذه النبوءات قد أثبت صدقه خلال الشهور القليلة الأخيرة، حتى إننى لا أشك إلا قليلا، فى أن البقية سوف تثبت صحتها أيضا، إنه لإحساس غريب أن تمعن النظر فى المستقبل هكذا!

«حدث ذات يوم أن سقطت الجرة التى تحتوى على الراهب فوق البلاطات الحجرية، مصادفة وتحطمت. ومات الراهب المسكين بعد شهقتين صغيرتين مؤلمتين، رغم كل الجهود التى بذلها البارون لإنقاذه ودفن جسده فى الحديقة. وجرت محاولة أخرى عميقة لإنتاج راهب آخر على نفس النمط إلا أنها فشلت، إذ نتج عنها شيء ما أشبه بدورة العلق دون أى حيوية، ثم مات هذا الشيء فى غضون ساعات قليلة».

«وحاول الملك بعد فترة وجيزة، فيما بعد الهروب من قارورته أثناء الليل. وُجد جالسا فوق القارورة التى توجد الملكة بداخلها، يخمشها بإصبعه حتى يزيل الخاتم. كان قد خرج عن مدار عقله، سريع الحركة للغاية، رغم ضعفه الشديد بسبب تعرضه للهواء. ومع ذلك فقد أرهقنا بمطاردة حقة بين القوارير التى كنا نخشى انقلابها. لقد كان غريبا بحق وهو على هذا القدر من الرشاقة، حتى إننى كنت أشك فى قدرتنا على الإمساك به، لولا أنه كان يزداد ضعفا لبعده عن عناصر موطنه الأصلي. أمسكناه، على أى حال، ودفعنا به، وهو يخمش ويعض، إلى قارورته. إلا أننا لم ننجح فى ذلك إلا بعد أن خمش ذقن الأب الروحى. كان قد أطلق أثناء العراك

رائحة غريبة، كرائحة لوحة معدنية ساخنة تبرد ولمس إصبعي ساقه، كانت رطبة مطاطية القوام، أرسلت بقشعريرة في سلسلتى الفقرية.

«إلا أن مصيبة وقعت، إذ أخذ وجه الأب الروحي المخموش يتورم ويتسمم ورقد وقد أصابته حمى شديدة. وحمل إلى المستشفى حيث يرقد حتى الآن فى دور النقاهة. إلا أن أشياء كثيرة وهى الأسوأ حدثت بعد ذلك. كان البارون، باعتباره نمساويا، محل بحث واستقصاء دائم هنا، وعلى نحو أخص الآن، وقد غدا جنون التجسس، الذى تجلبه الحرب معها، فى أعلى مستوياته. بلغ مسمى أن السلطات سوف تجرى معه تحقيقا دقيقا. استقبل هو الأخبار بهدوء اليأس. كان من الواضح أنه غير قادر على احتمال حضور أناس غير مختصين لفحص معمله. كان قد تقرر «إذابة» البشريين الصغار ودفنهم فى الحديقة. وقد وافقت على معاونته فى ذلك بسبب غياب الأب الروحي. لم أعرف ما الذى صبه فى القوارير، إلا أن كل لهب الجحيم قفز منها يغطى سقف المكان بالسناج ونسيج العنكبوت. تضاءل حجم الكائنات إلى حجم ديدان العلق المجففة، أو الخيط البحرى المجفف، والذى يحتفظ به القرويون فى بعض الأحيان. كان البارون يزمجر عاليا، من وقت لآخر، زمجرات امرأة تكدح وقد تفصدت جبهته عرقا. أخيرا اكتملت العملية، وأخذت القوارير فى منتصف الليل لطمرها تحت بعض البلاطات السائبة فى الكنيسة الصغيرة، حيث يجب أن تظل هناك، كما أظن واعتقل البارون، وختم حارس الأملاك على كتبه وأوراقه، والأب الروحي يرقد، كما قلت، فى المستشفى وأنا؟ حسنا، إن جواز سفرى اليونانى قد جعلنى محل اشتباه أقل من غالبية هؤلاء الذين فى الجوار. واعتزلت فى برجى فى الوقت الحاضر. لا تزال كتلة البيانات الماسونية هنالك فى الإسطبلات التى كان يسكنها الأب الروحي، وأنا من يتعهدا الآن. لقد كتبت إلى البارون، إلا أنه، ربما من باب اللياقة

لم يرد علىّ، ربما عن اقتناع بأن ربطى به قد يقود إلى الضرر وهكذا.. حسنا، الحرب تمضى حولنا وأنا أعرف نهايتها وما يلى ذلك حتى نهاية هذا القرن: إنها ترقد هنا إلى جوارى، وأنا اكتب إليك، فى صورة سؤال وجواب ولكن من ذا الذى سيصدقنى إن أنا نشرتها كلها، وأنت طبيب العلوم التجريبية، الشكاك الساخر، أقلهم جميعا؟

«أما عن الحرب فقد قال بارسيلوس: «كم هى عديدة تفوق الحصر ذاتيات الإنسان، ففيه ملائكة وشياطين، سماء وجحيم، كل ممالك الخلق الحيوانى والنباتى والمعدنى وكما يمكن أن يمرض الرجل الصغير الفرد، فهكذا أيضا يمرض الرجل العالمى الكبير، أمراض تفصح عن نفسها كأمراض تصيب الإنسانية كلها. وفوق تلك الحقيقة، قام التنبؤ بأحداث المستقبل» وهكذا يا صديقى العزيز، اخترت أنا الطريق المظلم نحو ضيائى الخاص. إننى أدرك الآن أنه يجب علىّ اتباع هذا الطريق مهما كانت النهاية التى يقودنى إليها. أليس ذلك إنجازا؟ ربما كلا، إلا أنه، بصدق وأمانة، يبدو لى كذلك لكننى أسمع الآن ضحكك تلك!»!

المخلص لك أبدا
داكابو(Φ)

والآن، قالت كليا، «تفضلوا بالضحك».

قلت: «ضحكة كتلك التى أسماها بورسواردن، «الضحكة السوداء لبلتازار» التى تنبئ عن الإيمان بأن النفس لا تعرف شيئا غير ما كيفها هى، وأن النفس هى الشئ الوحيد الباقي».

كان بلتازار يضحك الآن بالفعل، يصفع ركبتيه، يكور نفسه، ليصبح أشبه بالمدية قال: «هذا الملعون الأحمر، داكابو. ومع ذلك، فلنكن

معقولين(*)، إن كان ذلك حقا هو التعبير المناسب؛ إذ لن يحكى لنا حزمة من الأكاذيب. أو ربما يفعل ذلك، كلا، إنه لن يفعل ذلك، ولكن هل يصدق كلاكما، أنتما الاثنان، ما يقول».

«نعم» قالت كليا. وهنا ابتسم كلانا، إذ إن ارتباطها بعرافي الإسكندرية يجعلها تنحاز بصورة طبيعية نحو فنون السحر. قالت في هدوء: «أنتما تضحكان». قال بلتازار في رزاة أكثر: «إن المرء، إحقاقا للحق، عندما يفتش فيما حوله من مجالات ما يسمى بالمعرفة التي شققنا طريقها جزئيا، يفيق على احتمال وجود مناطق كاملة من الظلام، يمكن أن تنسب إلى المناطق البارسيلسينية - الجزء المغمور من جبل جليد المعرفة - كلا، عليه اللعنة. يجب أن أعترف أنك على صواب. لقد اعتدنا اليقين من أنفسنا، نسافر جيئة وذهابا على خطوط ترام الحقيقة التجريبية. لكن المرء ينال أحيانا ضربة خفيفة على الرأس من طوبة شاردة، ألقى بها من منطقة أخرى بالأمس فقط، على سبيل المثال، أخبرني بويد بقصة لم يكن صداها أقل غرابة، عن جندي دفن في الأسبوع الماضي. في وسعي، بالطبع، تقديم تفسيرات تتناسب والحالة، لكن دون أي يقين. هذا الصبي الشاب ذهب في إجازة مدة أسبوع إلى القاهرة. عاد بعد أن قضى وقتا ممتعا، أو هكذا قال. أصيب فيما بعد بحمى غربية متقطعة، بلغت فيها درجة حرارته أقصاها. مات في غضون أسبوع تكونت قبل وفاته بساعات قليلة، مياه بيضاء سميقة فوق مقلتي عينيه، وظهر نتوء ما أحمر مضىء فوق شبكية العين. كان كل ما رده الصبي أثناء هذيانه، عبارة واحدة: «لقد فعلتها هي بإبرة ذهبية»، ولا شيء غير تلك الكلمات. وكما قلت، كان في وسع المرء أن ينهى الحالة في العبادة بتخمين ذكي ولكن... حتى أكون أمينا فإنني مجبر على الاعتراف بأنها لم تكن تتواءم بالضبط مع أي حالة مسلم بها عرفت من قبل، كما أن تشريح الجثة لم يفصح، بالمناسبة، عن أي شيء

(*) بالفرنسية في الأصل.

يُمكن المرء من المتابعة: اختبارات الدم، السائل النخاعي، المعدة... إلخ. ولم يكن هنالك أى اختلال سحائي دقيق أو مألوف (وإن وجد فربما لا يمكن تأويله). كان المخ بديعا غضا! هكذا كان على الأقل، كما يقول بويد. كان يحس بمتعة كبيرة وهو يستكشف الشاب فى عناية. سر يحوطه الغموض! والآن ماذا كان يفعل هذا الشيطان فى تلك الإجازة؟ يبدو أن التعرف على هذا الأمر، غاية فى الصعوبة. إن إقامته غير مسجلة فى أى فندق أو دار ضيافة متنقلة من دور الجيش. إنه لا يتحدث أى لغة غير الإنجليزية. إن تلك الأيام التى قضاها فى القاهرة مفقودة تماما عدًا وحسابًا ثم تلك المرأة وإبرتها الذهبية؟

«إلا أن هذا، فى الحقيقة، يحدث دوما، وفى اعتقادى أنك على صواب (موجهها الحديث إلى كليا) فى إصرارك بعناد على وجود القوى السوداء، وحقيقة إن بعض الناس يفتحون المندل بنفس البساطة التى أحملق بها فى ماسورة الميكروسكوب. ليس الجميع، ولكن البعض منهم، بمن فيهم أشد الناس غباء كسكوبيكى العجوز، على سبيل المثال. خذى بالك إننى أعتقد أن ما قاله - أعنى المادة المفترضة عن ناروز - إنما كانت هراء من ذلك الذى كان يخرج أحيانا عندما يكون نشوان، يرغب فى الاستعراض: لقد كانت كلها أيضا تمثيلية إلى حد لا تؤخذ معه مأخذ الجد. وحتى إن كانت بعض التفاصيل صحيحة، فإنه قد أضاف إليها أثناء قيامه بواجباته. إن نمرود، رغم كل شيء، هو الذى كتب المحضر. ولا بد أن هذه الوثيقة كانت تنقل من يد إلى يد».

«ماذا عن بلتازار؟» تساءلت فى دهشة، وأنا أحس بالاستياء فيما بينى وبين نفسى، لأن كليا ائتمنت بلتازار على أشياء حجبتها عني. ولاحظت الآن أنها كانت تنظر بعيدا، وقد شحبت تماما. إلا أن بلتازار بدا وكأنه لم يلحظ شيئا واستمر فيما هو منغمس فيه.

«إن عناصر الأقصوصة - أعنى محاولته جرك معه إلى المقبرة. آه، ألا تعتقدين بذلك؟ وعن البكاء الذى يمكن أن تسمعيه». وتوقف فجأة لقد لاحظ، أخيرا، ما على وجهها من تعبير، «يا إلهى، كليا يا عزيزتى»، واستمر يؤنب نفسه «آمل ألا أكون قد خنت شيئا ائتمنتنى عليه. لقد تكدرت فجأة. هل طلبت منى ألا أكرر حكى قصة سكوبى؟» وأمسك بكلتا يديها، وأدارها لتواجهه.

كانت بقعة حمراء قد ظهرت على كل من وجتيها. هزت رأسها، عضت شفتيها، رغم أنها لم تقل شيئا، كأنما قد أصابها الحق والغيط. أخيرا قالت: «ليس هنالك من أسرار. إننى، فى بساطة، لم أخبر دارلى بذلك لأننى... حسنا، إنه تصرف أحقق كما تقول. إنه لا يؤمن بمثل هذا الهراء. لم أرغب فى الظهور أمامه بمظهر أكثر غباء مما أنا عليه». ومالت تقبلنى على وجتى معتذرة. لقد أحست بضيقى، كما أحس به بلتازار أيضا. فتدلت رأسه وقال: «لقد تحدثت بعيدا عما نحن فيه! سيغضب الآن منك».

«يا إلهى، كلا!» قلت محتجا: «لقد انتابنى الفضول، فى بساطة. ذلك كل ما فى الأمر. ليس لدى أية نية للتدخل، يا كليا، فيما لا يعينى».

صدرت عنها إيماءة حنق يشوبه الألم المبرح، وقالت: «حسنا، ليس الموضوع بذى أهمية. سوف أخبركم بالأمركله». وبدأت تتكلم فى سرعة كأنما تتخلص من مسألة كريهة هى مضیعة للوقت». كان ذلك أثناء العشاء الأخير الذى أخبرتك عنه، قبل أن أذهب إلى سوريا. كان ثملا، وأنا لا أنكر ذلك. قال ما أخبرك به بلتازار الآن، وأضاف وصفا لشخص ما، وقد أوحى لى هذا الوصف بأنه شقيق نسيم. قال وهو يحدد المكان بإبهامه فوق شفتيه هو، (شفتاه مشقوقتان هنا)، لقد رأيت مغطى بجراح صغيرة، يرقد فوق منضدة. كانت هنالك بحيرة فى الخارج. لقد وصل إلى

قرار سوف يعمل على جرك إليه. سوف تكونين فى مكان مظلم، مسجونة، عاجزة عن مقاومته حقا، هنالك أحدهم فى الجوار يمكن أن يعاونك إن استطاع، إلا أنه لن يكون قويا بما يكفى». ووقفت فجأة، وأنهت قصتها كمن يقصف غصنا. قالت: «وهنا تفجرت دموعه عند هذه النقطة».

كان غريبا ذلك الاكتئاب الذى حط فوق أرواحنا بسبب هذه التلاوة الأشبه بالهذيان، وإن كانت منذرة بالسوء، شىء ما كرهه، مثير للقلق، كان يغزو شمس الربيع الساطعة الرائعة والهواء الطفيف الحدة. وأخذ يلتazar، فى ذلك الصمت الذى تلا، يطوى ويفرد معطفه، فى غم وكدر، فوق ركبته، بينما استدارت كليا تتأمل المنحنى البعيد للميناء الكبير، بما فيه من أساطيل صغيرة، من زوارق مدهونة بطريقة تكعيبية، وفلوكة السباق المتناثرة كأوراق زهر مضيئة، تقطع هدير الميناء، تنشر بهجتها وهى تتجه نحو الشمندورة الزرقاء البعيدة. إن الإسكندرية تعود فى الواقع، الآن، إلى طبيعتها ثانية، ترقد فى المياه العميقة الراكدة للحرب المتراجعة، تستعيد مسيراتها. ورغم ذلك، أظلم النهار حولنا فجأة، ضاغطا على أرواحنا - إنه شعور يزيد من غيظنا بسبب سخف باعته. ولعنت إحساس سكوبى بأهمية ذاته والتى أقامها على قراءة الطالع.

«إن تلك المواهب، كان يمكن أن تدفع به فى مهنته، قليلا إلى الأمام، إن كانت هى حقيقية بالفعل». قلت وقد ضاق صدرى.

ضحك بلتازار، إلا أن ضحكته كان يشوبها شك حزين. كان شعوره بالندم لإثارة هذه القصة الغبية واضحا للعيان تماما.

«دعونا نذهب من هنا»، قالت كليا فى حدة بدت وقد أصابها الضيق أيضا إلى حد ما. أفلتت ذراعها للحال عندما أمسكت به. وجدنا عربة حنطور عتيقة سارت بنا فى بطاء وصمت إلى المدينة.

«كلا، عليه اللعنة». صاح بلتأزار أخيرا. «دعونا نذهب، على الأقل، إلى قرب الميناء لنشرب».

أعاد توجيه سائق العربة، دون انتظار إجابة منا، ليسرع الخطا في صمت عبر المنحنيات الهينة للكورنيش الكبير، نحو نادى اليخت، فى الميناء الخارجى، حيث أصابنا منه الآن، شىء خطير رهيب. إننى أتذكره بوضوح دون خلل، فى هذا اليوم الربيعى. بحر أخضر نافر يضىء المنائر، بقع رقيقة، هنا وهناك، من دفقات داكنة لريح ناعمة سريعة. آلات الماندولين تعزف فى ضجر فى المدينة العربية، وكل رداء يتوهج متألقا مثل عربة أطفال ملونة. إن كل هذه الروعة سوف تظلم، تتسمم، فى غضون ربع ساعة بسبب موت مفاجئ، لا معنى له على الإطلاق، لكن المأساة إن كانت تضرب ضربتها فجأة، فإن اللحظة الفعلية للضربة تستمر فى ذبذبتها، تمتد فى الزمن مثل الصدى الكريه لناقوس كبير، يخدر الروح والإدراك. فجأة، نعم، لكنها تسرى فى بطاء شديد فى الوعي بها وفهمها، تموجاتها تنبسط، تنتشر دوما فوق العقل والرشد، توسع دوائر الخوف. إلا أن الحياة العادية تسير طوال الوقت رغم ذلك، خارج مركز اللوحة، إن جاز القول، بحكايتها الصغيرة المأساوية، دون أن تعير أى شىء التفاتا (إننا حتى لم نسمع صوت الطلقات، مثلا إذا حملت الرياح خنتها الكثيية بعيدا).

ومع ذلك شُدت أنظارنا، كما تشد قوة خطوط لوحة زيتية بحرية كبيرة، شدت إلى فوضى بالغة الضلالة لقوارب تصطدم ببعضها البعض، عند الجانب البعيد عن مهب الريح لبارجة حربية كانت تحوم فى الفضاء مثل كاتدرائية رمادية. كانت أشرعة القوارب ترفرف، تهتز مثل فراشات تبارى النسيم. كان هنالك حركة غامضة لمجاديف وأذرع أشخاص صغار للغاية على هذا المدى، حتى إنه يصعب التعرف عليهم أو تبيينهم. وكان لهذا الاضطراب الضئيل للغاية، رغم ذلك، قوة جاذبة للأنظار لمن كان

يعرف معنى الهاجس الداخلى. رأينا المنظر أمامنا ينبسط مثل منظر بحرى فخيم لأستاذ ماهر. كان التنوع المميز لقوارب اللاجئيين الصغيرة من كل أركان الشرق الأدنى، تصميم القوارب ونظام قلوها قد أضفى على المنظر حسية وإيقاعا جميلا فى مواجهة المياه المتلاثة. كان كل شىء يحبس الأنفاس، رغم أنه كان طبيعيا. رفاصات قطر السفن تنعق. الأطفال يصرخون. وجاءت من المقهى خشخشة الألواح «تريك تراك» وأصوات الطيور. طبيعية عالم بأكمله. كانت تحيط اللوحة الضئيلة المركزية بقلوعها الخفاقة، والإيماءات التى لم يكن فى وسعنا ترجمتها، والأصوات الواهنة. وتمايلت الزوارق، وارتفعت الأذرع وسقطت.

«حدث شىء ما». قال بلتازار، وهو ينظر بعينيه الداكنتين الضيقتين إلى المشهد. وتوقف الحصان للحال فجأة، وكأن هذه العبارة قد أثرت عليه. لم يكن هنالك غيرنا، إلى جوار الرصيف غير شخص واحد كان قد رأى ما رأينا، فوقف، هو أيضا، يحملق بفم مفتوح، مندهشا، ذاهلا متنبها إلى أن شيئا ما، خارج عن المألوف، يجرى هنالك على قدم وساق. ومع ذلك، فهنالك أناس يلغطون ويضجون، وباعة ينادون ويصيحون. وعند قدمى الرجل وقف أطفال ثلاثة يلعبون فى استغراق تام، وقد وضعوا قطعاً من زجاج فوق خط الترام، يأملون أن يروها وقد طحنت إلى مسحوق عندما يمر عليها الترام التالى. وحامل ماء يدق أكوازه النحاسية صائحا: «تعالوا إلى أيها العطاشى». وانسلت، فى الخلفية، باخرة ركاب دون ضجة، كأنما تسير على حرير عبر دربها العام الأخضر نحو البحر المفتوح.

«إنه بومبال»، أخيرا صاحت كليا فى نبرة حيرى، واضعة ذراعها فى ذراعى فى حركة قلقة. كان حقا بومبال. وكان ما حل بهما قد جرى هكذا؛ كانا ينساقان على غير هدى حول الميناء، فى زورقه الصغير، بما اعتاده من تراخ وغفلة، فشردا إلى قرب شديد من البوارج الفرنسية، حملتهما، إلى جانبها البعيد عن الريح، خارجا عن مجراها، لفحة ريح لم تكن فى

الحسبان، انقضت عليهما. كم كان مثيرا للسخرية، ذلك الذى خططه سادة المسرح غير المرئيين، والذين يوجهون أفعال الإنسان، والسرعة التى تتم بها! لقد كانت السفن الفرنسية، رغم وجودها فى الأسر، تحتفظ بكل من أسلحتها الصغيرة وإحساس بالخجل، مما وسم تصرف الفرنسيين بسرعة الغضب، وعدم القدرة على التنبؤ بما يمكن أن يقدموا عليه. كان لدى الحراس، فوق تلك السفن، أوامر بإطلاق طلقة تحذيرية على مقدم أى قارب يقترب إلى اثني عشر مترا من أى بارجة. وحدث، إذن، تنفيذا لتلك الأوامر فقط أن أطلق أحد الحراس طلقة على شراع قارب بومبال، عندما اندفع متجاوزا الخط الأحمر نحو سفينته. كان ذلك مجرد إنذار وتحذير دون أى نية لضرر متعمد كان من الممكن حتى الآن أن... ولكن كلا، ما كان للأمر أن يقع هكذا إذ إن صديقى، وقد تغلب عليه الغضب وشعور بالخيبة، لمعاملته هكذا من هؤلاء الجبناء الضعفاء الذين هم أبناء جلدته، تحول لونه إلى الأرجوانى حنقا وغيظا، فترك محرك الدفة تماما ليتصبب واقفا معرضا نفسه للخطر، هازا قبضته الضخمة، صارخا: «أوباش»(*) و«أيها المخادعون!»(*) وما يمكن أن يكون صفة محدودة: «جبناء أنذال!»(*).

هل سمع الطلقات بنفسه؟ هذا أمر مشكوك فيه، فى ظل كل هذا الإرباك الذى أحدثه، إذ إن الزورق مال وجمع واستدار حول نفسه متخذًا مسارًا آخر ما أدى إلى وقوعه. ولاحظ فى تلك اللحظة، وهو راقد هناك، يستعيد الإمساك بذراع الدفة الثمين، لاحظ فوسكا فى ذات لحظة سقوطها، ولكن فى ببطء لا نهائى. لقد قال، فيما بعد: إنها لم تعرف بإصابتها، ربما أحست، فى بساطة بغمة وبتشتت انتباهها بطريقة غامضة غير عادية، بالخدر السريع

(*) بالفرنسية فى الأصل.

للصدمة الناتج، فى سرعة شديدة، عن جرحها. لقد تمايلت مثل برج عال، وأحست بالواح مؤخرة السفينة تقترب فى ببطء لتضغط نفسها إلى وجتها. رقدت هنالك، مفتوحة العينين على اتساعهما، لينة طرية، مثلما يرقد ديك برى جريح، عيناه تبرقان رغم الدم المتدفق من منقاره. نادى اسمها ولم يتلق غير صمت الكلمة الجسيم، إذ إن طوفانا كان يشتد، يدفع بهما الآن نحو اليابسة لقد جاء فى أثر ذلك اضطراب من نوع آخر، انجذبت قوارب أخرى كما تجذب الجراح الذباب. أخذت تتجمع، تصرخ، تقدم النصيحة وتظهر الإشفاق. كانت فوسكا، فى تلك الأثناء، بعينين مفتوحتين غائمتين تبسم لنفسها ابتسامة ذلك النوع الآخر من الأحلام.

كانت تلك هى اللحظة التى استيقظ فيها بليتازار من سباته فجأة، مناضلا للخروج من العربة، دون كلمة واحدة، بدأ ترنحه الغريب، أخذ يجرى عبر المرسى إلى هاتف الإسعاف الميدانى الأحمر، بما فيه خط الطوارئ. وسمعت تكة المستقبل الصغيرة وصوته يتحدث متأنيا ثابت الجأش. واستجاب المركز الميدانى، الذى كان على بعد حوالى خمسين ياردة فقط، إلى الاستدعاء فى سرعة تكاد تكون إعجازية. وسمعت الصليل العذب لجرس سيارة الإسعاف ورأيتها تسرع نحونا عبر الحصى. عادت الوجوه تتجه ثانية ناحية قافلة القوارب الصغيرة، وجوه ارتسم عليها فقط الصبر والاستسلام أو الفرع. كان بومبال راقدًا فوق الألواح على ركبتيه وقد أحنى رأسه. وكان وراءه، «على» النوتى، أول من أدرك الأمر وقدم العون، يدير الدفة بمهارة. كانت كل القوارب الأخرى، تطير على امتداد نفس المسار، تتجمع حول بومبال كأنما تواسيه فى همة. استطعت قراءة الاسم «مانون»، والذى كان قد أطلقه، منذ مدة لا تزيد على أشهر ستة، على القارب فى فخر واعتزاز. بدا كل شىء وكأنه قد غدا محيرا مربكا، يهزه بعد جديد تضخمه الشكوك والمخاوف.

وقف بلتازار فوق الرصيف، يؤلمه نفاذ صبره، يستحثهم فى عقله أن يسرعوا. سمعت لسانه يتكثك فى سقف حلقه، تك تك، يتكثك فى رقة وتأنيب، وتساءلت إن كان ذلك موجهًا ضد بطئهم أم ضد الحياة ذاتها وأنماطها التى لم تعد سلفًا.

أخيرًا وصلوا إلينا. كان فى وسع المرء أن يسمع فى وضوح صوت أنفاسهم وصوت أنفاسنا تشاركهم، قرقة سيور الحمامة الجلدية، صليل الصلب المصقول، القرقة الصغيرة للكعوب المرصعة بمسامير النعال كبيرة الرأس. اختلطت كلها معا فى نشاط مضطرب الانحناء والرفع، أصوات كالقبايع بينما الأيدي الداكنة تجد لها مكانًا تمسك به الحبل حفاظًا على ثبات الزورق، والأصوات الحادة كالسنون للأصوات المتصادمة وهى تعطى الأوامر: «تقدم للمساعدة» و«برفق الآن»، اختلطت كلها بموسيقى رقصة «الفوكس تروت» البعيدة القادمة من مذياع إحدى السفن وتمرجحت النقاله مثل أرجوحة الطفل، مثل سلة فاكهة فوق كتفى عربى داكنين، وفتحت أبواب الصلب عن مدخل أبيض كالنحر.

كان وجه بومبال يكتسى بضباية شاردة. كانت تقاطيعه مشتة، مزرقه اللون تمامًا. ارتمى فوق الرصيف مترنحا كأنما ألقى به من سحابة. سقط على ركبتيه ثم عاد إلى قدميه. كان يسير هائما مترددا وراء بلتازار وحامل على المحفة، يمامى مثل شاة ضالة. لا بد أن الدم المتناثر فوق «أسباندريلها» الأبيض الثمين، والذي اشتراه لها منذ أسبوع مضى من سوق جوشن التجارى، كان معها. إن التفاصيل الصغيرة هى التى تصدم المرء كالضربات فى مثل تلك اللحظات. بذل محاولة كى يتشعبط فى النحر الأبيض، إلا أنه نُهر بحدة. أغلقت الأبواب فى وجهه. لم تعد فوسكا الآن ملكا له، غدت ملكا للعلم. وقف متذللا وقد أحنى رأسه، مثل امرئ فى كنيسة، حتى يفتحوا ثانية ويسمحوا له بالدخول. كان يبدو وكأنه لا يكاد يتنفس.

أحسست برغبة لا إرادية فى الذهاب والوقوف إلى جواره، إلا أن ذراع كليا منعتى. انتظرنا صابرين مدعين مثلنا مثل الأطفال، نستمع إلى الحركات الغامضة القادمة من داخل سيارة الإسعاف، صوت الأحذية ثم فتحت الأبواب بعد فترة دامت طويلا، وهبط بلتازار مرهقا «ادخل، تعال معنا». نظر بومبال إليه نظرة واحدة مضطربة وحشية، ثم حول فجأة وجهه إلى وإلى كليا وقد كسا ملامحه ألم ممض. صدرت عنه إيماءة واحدة، ماذا ذراعيه فى يأس من لا يدرك شيئا، قبل أن يصفق بيد سميئة على كل من أذنيه، كأنما يتجنب سماع شيء ما. فجأة، فرقع صوت بلتازار مثل رق من جلد، «ادخل»، قال فى خشونة وغضب كأنما يتحدث إلى مجرم. سمعته يضيف، بينما يصعدان إلى داخل السيارة الأبيض، فى صوت أكثر انخفاضاً، «إنها تموت». صفقت الأبواب الحديدية وهى تغلق، وأحسست بيد كليا تتحول إلى ثلج فى يدي.

وهكذا جلسنا، جنباً إلى جنب، دون كلام، فيما بعد ظهر هذا اليوم الربيعى الرائع، والذي كان قد بدأ غوصه بالفعل فى الغسق. أشعلت، أخيراً، سيجارة. سرت بضع ياردات، على امتداد الرصيف بين العرب الذين كانوا يتبادلون الحديث، يصفون الحادث، كل للآخر، فى نبرات كالعواء. كان «على» على وشك أن يعود بالزورق إلى مرسى القوارب فى نادى اليخت. كان كل ما يحتاجه منى شعلة لسيجارته. لاحظت، عندما نفخ الدخان، أن الذباب قد وجد طريقه إلى الدم فوق ألواح أرضية الزورق، «سوف أنظفها»، قال على، وقد لاحظ اتجاه نظرتى. قفز إلى القارب فى رشاقة مثل قط. كان يود أن يقول: إن ما حدث كان عملاً سيئاً، إلا أن إنجليزيتة كانت قاصرة، فصاح «سما سيئا يا سيدى». أومأت برأسى. كانت كليا لا تزال جالسة فى العربة تنظر إلى راحتها. بدت هذه الحادثة المفاجئة وكأنها قد فصلتنا عن بعضنا البعض.

«لنعد» قلت أخيرا. طلبت من السائق أن يعود بنا إلى المدينة التي كنا تركناها منذ قليل.

«لنصل لله أن تكون بخير»، قالت كليا أخيرا. «إنه لأمر قاس للغاية».

«لقد قال بلتازار إنها تموت. لقد سمعته».

«ربما يكون مخطئا».

«ربما يكون مخطئا».

إلا أنه لم يكن مخطئا، إذ إن فوسكا والطفل كانا قد ماتا، رغم أننا لم نعرف تلك الأخبار إلا أخيرا في المساء. أخذنا نطوف غرف مسكن كليا في كسل وفتور عاجزين عن التركيز في شيء ما. أخيرا قالت:

«من الأفضل أن تعود، تقضى الأمسية معه، ألا ترى ذلك». لم أكن متأكدا مما قالت.

«أعتقد أنه يفضل البقاء منفردا».

«عد»، قالت ثم أضافت في حدة - «إنني لا أتحملك وأنت تتسكع هنا في وقت كهذا.. أوه، يا عزيزي، لقد أسأت إليك. إنني آسفة».

«بالطبع لم تسيئي إليّ أيتها الساذجة لكنني سأذهب».

كنت أفكر طوال الطريق عبر شارع فؤاد: إن لمثل تلك الإزاحة المحدودة النمط لحياة بشرية واحدة، قوة قادرة على التغيير إلى حد كبير. إن مثل ذلك الاحتمال لم يقع حرفيا لأي منا، إننا نستطيع، في بساطة، أن نهضمه. أن نضعه في الصورة التي شيدها بومبال بنفسه، بمثل تلك العناية. إن هذه الحقيقة الصغيرة السخيفة قد سممت كل شيء، حتى مشاعرنا نحوه تحولت إلى فزع ومشاركة وجدانية! كم كانت قاصرة لا تفي

بالغرض! مثلها فى ذلك مثل العواطف، كم هى عاجزة عن أن تكون ذات نفع! كان على أن أستبعد غريزتى تماما! أحسست كأنى لا أود رؤيته البتة ثانية؛ حتى لا أثير خجله. سم سىء حقا. رددت عبارة «على» إلى مرة بعد أخرى.

كان بومبال، عندما عدت إلى هنالك، يجلس على كرسى النقرس، غارقا، كما هو واضح، فى التفكير. كان إلى جواره كأس ملىء بالويسكى الخالص، بدا أنه لم يمسه. كان، على أى حال، قد غير ملابسه وارتدى «الروب دى شامبر»، المرسوم عليه صورة طاووس ذهبى، وفى قدميه خف مصرى قديم بال أشبه بجواريف ذهبية. دخلت الحجرة غاية فى الهدوء. جلست قبالة دون أن أنطق كلمة. لم يبد عليه أنه ينظر إلىّ بالفعل، ورغم ذلك أحسست، على نحو ما أنه يدرك وجودى، إلا أن عينيه بدتا غائمتين مثبتتين على منتصف المسافة بيننا. كانت أصابعه تمارس معا فى رقة، لعبة قرن الغزال قال، وهو لا يزال ينظر نحو النافذة، فى صوت ضئيل له صرير، وكأن للكلمات قدرتها على تحريكه رغم أنه لم يكن يعرف بالضبط معناها. «لقد ماتت يا دارلى. لقد مات كلاهما». أحسست بثقل من رصاص فوق قلبى - «ليس هذا من العدل فى شىء» (*) أضاف وهو ذاهل، ثم أخذ يشد جانب لحيته بإصبعه السمين. كان يتصرف بطريقة مسطحة تماما، غير عاطفية، كرجل يفوق من ضربة حادة. تناول فجأة جرعة من الويسكى، ثم أجفل يسعل مختنقا. مال إلى الأمام، تناول قلما وإضمامة الورق التى فوق المائدة، أخذ يشخبط، تماما مثل طفل، حلقات من أزهار وأقراص وتنين «يجب أن أذهب غدا، لأول مرة منذ أجيال إلى الاعتراف»، قال فى بطاء كأنما يحتاط فيما يقول تحوطا لا نهائيا.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لقد أخبرت حميد أن يوقظنى مبكرا. هل تمنع فى مجيء كليا فقط؟»
هزرت رأسى. فهمت أنه يعنى حضورها الجنازة. تنهد فى ارتياح. «حسنا»،
قال متناولا كأس الويسكى بينما يقف. فتح الباب فى تلك اللحظة، وظهر
بوردر سارح الفكر. تغير بومبال فى لمح البصر، ربما كان ذلك بسبب
وجود واحد ما من جنسه. أطلق سلسلة طويلة من الشهقات العميقة
تعانق الرجلان وهما يتبادلان كلمات وعبارات غير مترابطة، كأنما يواسى
كل منهما الآخر فى كارثة أصابت كليهما بنفس القدر من الجراح. رفع
الدبلوماسى العجوز قبضته النسائية البيضاء فى الهواء، وقال فجأة فى عمق
وسخف: «لقد قدمت بالفعل احتجاجا قويا».

أصابتنى الحيرة، لمن قدم احتجاجه؟ للقوى الخفية التى تصدر مرسوما
بأن الأشياء سوف تنتهى على هذا النحو أو ذاك؟ خرجت الكلمات تبقيق
بلا معنى فى هواء حجرة الاستقبال الباردة. كان بومبال يتكلم.

قال: «سوف أكتب إليه، أخبره بكل شىء، أعترف له بكل شىء».

«جاستون» - قال رئيسه فى حدة وتأنيب. يجب ألا تفعل أبدا مثل هذا
الشىء. إن ذلك سوف يزيد من شقائه فى سجنه. ليس فى ذلك أى عدل.
استمع إلى نصيحتى، يجب نسيان الأمر برمته».

«نسيان!» صاح صديقى كأنما لدغته نحلة - إنك لا تفهم الأمر. نسيان!
يجب أن يعرف هو، من أجلها هى».

«يجب ألا يعرف أبدا» قال الرجل الأكبر سنا «أبدا».

وقفا لفترة طويلة، أيديهما متماسكة، يحملقان فى بعضهما البعض
عبر دموعهما وهما شاردان. فتح الباب فى تلك اللحظة، ليسمح بظهور
المعالم الختيرية للأب بول، والذى لم يكن يوجد البتة بعيدا عن مركز

أى فضيحة، كأنما لتكتمل الصورة. وقف فى مدخل الباب يحيط به جو من المداهنة. وقد تشكلت ملامحه بنهم رضائه عن ذاته «يا بنى المسكين»، قال وهو يسلك زوره، ثم قام بحركة غامضة بكفه ذات المخالب، كأنما ينثر علينا الماء المقدس، وتنهد، ذكرنى بنسر ما عديم الشعر. ولدهشتى أخذ يقعع عبارات قليلة مواسية باللاتينية. تركت صديقى بين هذين المعزين ضخمى الأجسام كالأفيال، يخفف عنى، على نحو ما، أنه لا مكان لى فى كل ذلك الاحتفال المفكك من الرثاء اللاتينى. ضغطت يده وانسلت من الشقة موجهها خطاى نحو غرفة كليا.

أقيمت الجنازة فى اليوم التالى. عادت كليا منها شاحبة مشدودة. ألقت بقبعتها عبر الحجرة، وهى تهز شعرها بحركة قلقة، كأنما لتطرد كل الذكرى الكريهة للحادثة. رقدت منهكة فوق الأريكة، ووضعت ذراعيها فوق عينيها.

«كان الأمر شنيعا»، أخيرا قالت «شنيعا بحق يا دارلى. أولا وقبل كل شىء كانت هنالك مسألة حرق الجثة. أصر بومبال على تنفيذ رغباتها رغم الاحتجاجات العنيفة التى صدرت عن الأب بول. أى وحش هو هذا الرجل؟! لقد تصرف كأنما جسدها قد غدا ملكا للكنيسة. غضب بومبال المسكين، ونشب بينهما شجار رهيب حول ترتيب التفاصيل التى سمعتها كما... أننى لم أزر المحرقة الجديدة أبدا! إنها لم تنته بعد. إنها تقف هنالك فى أرض رملية للنفايات، يتناثر فيها القش وزجاجات الليموناندة المستعملة، تكتنفها كومة من نفايات هياكل السيارات القديمة إنها تبدو حقا مثل فرن ارتجل على وجه السرعة فى معتقل. طبقات تثير الفزع من قرميد مرصوص وأزهار نصف ميتة تنبت من الرمال، قضيب حديدى قصير به سحاجات ينزلق النعش عليها. ياله من قبح! ووجوه كل هؤلاء القناصل أو ممثليهم! حتى بومبال، بدا مأخوذا تماما من هذه

البشاعة وعملية الإشعال! كان الأب بول، بالطبع، فى مقدمة الصورة، يستمتع بدوره، ثم أخذ النعش يصير صريرا نابيا وهو يتدحرج بعيدا فى ممر الحديقة، ليميل إلى كوة من صلب. ووقفنا معلقين، على هذه الساق مرة وعلى تلك أخرى، واتجه الأب بول إلى ملء هذه الفجوة المربكة بصلوات ارتجالية، إلا أن مذياعا فى الجوار أخذ خلال كل تلك اللحظة، يصدر فالسات من فيينا. وبذل سائقون عديدون محاولات لتحديد مكانه وإسكاته، ولكن دون جدوى. لم أحس فى حياتى أبدا بمثل هذا الشقاء، أنا واقفة فى عشة الدواجن الموحشة تلك، وقد ارتديت أفضل ثيابى. كانت هنالك رائحة تفحم بشعة تصدر عن الفرن. لم أكن أعرف حينئذ أن بومبال كان يتنوى نثر رمادها فى الصحراء، وأنه قد قرر أننى وحدى من سوف تصطحبه فى رحلته. ولم أكن أدري أن الأب بول، فيما يخص هذا الأمر - وقد اشتهم فرصة لمزيد من الصلوات - كان قد حسم أمره بحدة، أن يفعل نفس الشيء، كان كل ما تلا ذلك مفاجأة لى.

«حسنا، أخيرا أصبح الناووس(*) معدا - وأى ناووس! كان وخزة حقيقية فى عيوننا جميعا. كان أشبه بما يزهو به حلوانى بذل جهدا لإعداد شىء ما مناسب لشيكولاتة رخيصة الثمن. وحاول الأب بول خطفه، إلا أن بومبال المسكين أمسك به بقوة بينما نجر جر أنفسنا نحو السيارة. يجب أن أقول إن بومبال قد أظهر هنا ثبات عزمه «لن يكون أنت»، قال بينما بدأ القس صعود السيارة «سأذهب وحدى وكليا»، وأوما لى برأسه.

«يا بنى» قال الأب بول فى صوت شرس منخفض. سوف آتى أنا أيضا».

«لن تأتى» قال بومبال، «لقد أديت مهمتك».

(*) تابوت صغير فى حجم صندوق الحلى يوضع فيه الرماد - المترجم.

«يا بنى، إنى قادم»، قال هذا الوغد العنيد.

وبدا للحظة أن الأمر سوف ينتهى بتبادل اللكمات. هز بومبال رأسه للقس، محملاً فيه بعينين غاضبتين. صعدت إلى السيارة، وأنا أحس بالحمق الشديد. دفع بومبال الأب بول بأفضل الأساليب الفرنسية - بقوة فى الصدر - صعد وصفق الباب. انتشر الهمس بين القناصل المجتمعين تعليقا على هذا الازدراء العلنى للكاهن، إلا أن أحدا لم ينطق بكلمة. شحب القس غضبا. تحرك حركة ما لا إرادية - كأنه سيهز قبضته فى مواجهة بومبال، إلا أنه عدل عن فعل ذلك.

«وانطلقنا. اتخذ السائق طريقه إلى الصحراء الغربية. كان يتصرف، كما هو واضح، طبقاً لأوامر سابقة. جلس بومبال ساكناً تماماً وقد وضع على ركبتيه هذه البونبونيرة(*) المروعة. يتنفس من خلال أنفه وعيناه مغلقتان، كأنما يستعيد رباطة جأشه بعد كل محاولات الصباح. مديده يمسك بيدي، وقد جلسنا، هكذا، صامتين نراقب الصحراء تمتد على جانبي السيارة... مضينا بعيدا جدا قبل أن يطلب من السائق أن يقف. ثقلت أنفاسنا خرجنا من السيارة ووقفنا للحظة، دون هدف إلى جانب الطريق، خطأ خطوة أو اثنتين فى الرمال ثم توقفنا نظراً إلى الوراء! «الآن سوف أقوم بالمهمة». انطلق فى مشيته المثاقلة الكسولة حوالى العشرين ياردة فى الصحراء. قلت للسائق فى عجلة: «سق مدة خمس دقائق، ثم عُد إلينا». لم يلتفت بومبال لصوت السيارة وهى تبدأ سيرها. سقط فجأة فوق ركبتيه مثل طفل يلعب فى حفرة رملية، إلا أنه ظل ساكناً مدة طويلة. كان فى وسعى أن أسمعنه وهو يتحدث فى صوت حميم، رغم أننى لا أستطيع القول، إن كان يصلى أم يتلو شعرا. أحسست أننى بائسة بصورة يائسة فى هذا الطريق الصحراوى الخالى والأسفلت يومض بالحرارة».

(*) علبة حلوى - المترجم.

«بدأ يمشى فى الرمل أمامه، ليملاً كفيه منه مثل المسلمين ويصبه فوق رأسه، كان يصدر عنه ضجيج أنين غريب. رقد، أخيراً، ووجهه إلى الأرض.

«وظل ساكناً تماماً. أخذت تكات الدقائق تتوالى. سمعت صوت السيارة قادمة من بعيد فى بطء نحونا - كانت تسير بسرعة أشبه بخطوة السائر.

«بومبال»، قلت أخيراً. لم يصدر عنه أى رد. سرت أقطع المسافة بيننا، أحس بحدائى يمتلىء بالرمال الحارقة. لمست كتفه، فوقف للحال، وأخذ ينفض التراب عن نفسه. بدا، فى الحال، فجأة، مسناً بطريقة مخيفة، «نعم»، قال فى تردد، ونظرة جفلة تدور حوله فى المكان كله، كأنما أدرك، لأول مرة، أين هو: «خذينى إلى المنزل، يا كليا». تناولت يده كأنى أقود رجلاً أعمى، جذبته على مهل عائدة إلى السيارة التى كانت قد وصلت الآن.

«جلس إلى جوارى، ينظر فى حيرة، ثم بدأ يعوى، كأنما مسته ذكرى ما، حتى لحمه الحى. كان مثل صبي صغير جرح ركبته. وضعت ذراعى حوله، كنت سعيدة للغاية أنك لست هناك، كانت روحك الأنجلوساكسونية قد تلوت حتى الأطراف. ومع ذلك ظل يردد، «لا بد أن المسألة قد بدت سخيفة. لا بد أن المسألة قد بدت سخيفة». وفجأة أخذ يضحك بطريقة هستيرية. كانت لحيته مليئة بالرمال «تذكرت فجأة وجه الأب بول»، أخذ يشرح موضحاً، وهو لا يزال يضحك ضحكة هستيرية عالية، أشبه بتلميذة ثم تماسك فجأة، مسح عينيه، قال وهو يتنهد فى حزن: لقد غُسلت كُليةً، إننى منهك تماماً. أحس أننى قادر على النوم أسبوعاً بكامله» وكان ذلك، على الأرجح، ما سوف يفعله. أعطاه بلتازار جرعة منوم قوى. أنزلته عند مسكنه، وجاءت بى العربة إلى هنا. إننى لا أقل عنه

إرهاقا. الحمد لله، لقد انتهى كل ذلك. إنه سوف يبدأ حياته، على نحو ما، حياة جديدة تمام الجدة».

دق جرس الهاتف جاء صوت بومبال مرهقا حائرا، كأنما يجسد هذا الاقتراح الأخير، قال:

«دارلى، أهو ذا أنت؟ حسنا نعم، لقد فكرت فى وجودك هناك. لقد أردت، قبل ذهابى إلى النوم أن أخبرك حتى يمكنك اتخاذ الترتيبات اللازمة حول المسكن. إن بوردر سوف يرسلنى فى بعثة إلى سوريا. سوف أغادر مبكرا فى الصباح. سأحصل، إن حدث ذلك، على علاوات، وأصبح قادرا على الحفاظ، فى سهولة على الجزء الخاص بى من المسكن حتى أعود إليه؟».

«لا تقلق بالك بهذا الأمر»، قلت.

«لقد كانت مجرد فكرة».

«نم الآن».

تلا ذلك صمت طويل. أضاف: «إلا أننى سأكتب لك بالطبع، آه؟ نعم حسنا جدًا. لا توقظنى إن جئت هذا المساء». ووعده ألا أفعل ذلك.

إلا أنه لم يكن هنالك أى داع لهذا التنبيه، إذ إننى عندما عدت إلى الشقة متأخرا فى تلك الليلة، كان لا يزال يقظا، يجلس فى كرسى النقرس، فى جو من الخشية واليأس.

«إن هذه المادة التى أعطاها بلتازار لى، غير ذات نفع». قال، «إنها تسبب لى قيئا خفيفا، ذلك كل ما فى الأمر. إنها تجعلنى أكثر وهما عندما أشرب الويسكى. إلا أننى على نحو ما، لا أود الذهاب إلى الفراش. من يدرى أى أحلام سوف أحلم؟».

إلا أنني أقنعتة فى النهاية، بالذهاب إلى الفراش، فوافق شريطة أن أظل إلى جواره وأتحدث إليه حتى يذهب فى النوم. كان الآن هادئاً، نسيباً، كما كان يزداد وسناً. تحدث فى نبرة هادئة مسترخية، كما يمكن أن يتحدث المرء إلى صديق يتخيله بينما يكون تحت المخدر.

«إننى أعتقد أن الأمر كله سوف ينقضى ويزول. ذلك مآل كل شىء. كل شىء ينقضى فى النهاية. كنت أفكر فى أناس آخرين فى نفس هذا الوضع إلا أن الأمر لا ينقضى، بالنسبة للبعض، فى يسر وسهولة. جاءت ليذا ذات ليلة إلى هنا. جفلت عندما وجدتها على عتبة الباب بعينيهما اللتين تبعثان فى القشعريرة - مثل أرنب بلا عينين فى متجر دواجن. كانت تود منى أن أصطحبها إلى حجرة شقيقها فى فندق جبل النسر. قالت: إنها تود أن تراه. سألت: ما الذى سوف تراه؟ قالت فى غضب: لى طريقتى الخاصة فى الإبصار. حسناً، كان على أن آخذها. أحسست أن هذا العمل قد يسعد ماونت أوليف. إلا أنني لم أكن أعرف حيثئذ أن جبل النسر، لم يعد فندقاً، لقد تحول إلى ماخور للقوات العسكرية. كنا فى منتصف المسافة على السلم، عندما بزغت لى تلك الحقيقة. كل تلك الفتيات العاريات والجنود العرقى بنصف ثيابهم وأجسادهم المليئة بالشعر وصلبانهم التى تصلصل مع أقراص هويتهم، ورائحة العرق والروم والعطور الرخيصة. قلت: يجب أن يغادر هذا المكان، لقد تبدل وتحول. إلا أنها ضربت الأرض بقدمها، وأصرت فى غضب مفاجئ. حسناً، تسلقنا السلم. كانت الأبواب مفتوحة عند كل بسطة من بسطاته. كان فى مقدور المرء أن يرى كل شىء. سعدت أنها ضريرة. أخيراً بلغنا غرفته. كانت مظلمة، وهناك فوق فراشه نامت امرأة عجوز، وإلى جوارها غليون الحشيش. كان لها رائحة بالوعة. كانت ليذا مستثارة للغاية، قالت: «صفها». بذلت أقصى ما عندى من جهد. تقدمت نحو الفراش. قلت وأنا أحاول جذبها إلى الوراء:

هنالك امرأة نائمة. هذا الآن، منزل سيئ السمعة يا ليزا. إننى أكرر إخبارك بذلك. هل تعرف ماذا قالت؟ «هذا أفضل بكثير»، جفلت. ضغطت وجنتها إلى الحشية إلى جوار المرأة العجوز التى أخذت تن فى الحال. ربت ليزا جبهتها كأنما تربت طفلا قالت: «نامى الآن». جاءت فى بطء وتردد إلى القرب منى، ضحكت ضحكة غريبة ساخرة، وقالت: «أردت محاولة أخذ طابعه وأثره من الوسادة، إلا أنها كانت فكرة عديمة الجدوى. يجب على المرء أن يحاول كل شىء لاستعادة الذكرى. إن مخابئها عديدة للغاية». لم أفهم ما الذى قصدته بذلك. أخذنا فى هبوط السلم ثانية. رأيت عند البسطة التالية بعض الأستراليين السكارى يصعدون. كان فى وسعى أن أرى وجوههم. إن متاعب سوف تحدث معهم. كان أحدهم قد خدع أو شىء من هذا القبيل. كانوا سكارى بصورة مخيفة وضعت ذراعى حولها، تظاهرت بأننى أمارس الحب معها فى ركن من البسطة حتى مروا فى سلام. كانت تنتفض، لا أدري من الخوف، من الانفعال، قالت: «قل لى ما تعرف عن نسائه، كيف كن يبدون؟» هزتها بقوة قلت: «لقد أصبحت الآن مبتذلة». توقفت تنتفض وقد شحبت من الغضب. فى الطريق قالت: «أحضر لى سيارة أجرة، إننى لا أحبك». فعلت ما شاءت وانصرفت دون كلمة واحدة. أسفت فيما بعد لوقاحتى، إذ كانت تعانى. إن الأحداث تقع الآن فى سرعة تفوق استيعاب المرء لها، حتى يكون فى وسعه وضعها فى حسابانه، كما أن المرء لن يعرف أبدا ما يكفى عن الناس، وعما يعانون، حتى يكون قادرا على رد الفعل الصحيح فى لحظتها. قلت لها، فى عقلى، فيما بعد، أشياء كثيرة، أتعاطف بها معها إلا أن الوقت كان متأخرا للغاية. دائما متأخرا للغاية».

أفلت من شفتيه شخير خفيف ثم صمت. كنت أوشك أن أطفئ المصباح الذى إلى جوار فراشه وأخرج من حجرته على أطراف أصابعى،

عندما استمر فى الكلام، فقط من بعيد للغاية، يسترجع خيط أفكاره فى موضوع آخر: «عندما كانت ميليسا تلفظ أنفاسها الأخيرة، قضت كليا اليوم بطوله معها. لقد قالت لكليا ذات مرة، إن دارلى يمارس الحب وهو يعانى نوعا من عذاب الضمير، نوعا من اليأس. إننى أعتقد أنه يتخيل جوستين. إنه لم يسترنى البتة كما يفعل باقى الرجال. إن كوهن العجوز مثلا، كان مجرد رجل قدر العقل، إلا أن شفتيه كانتا، رغم ذلك، مبللتين دوما بالنيذ، وأنا أحب ذلك. كان يدفعنى إلى احترامه، إذ كان رجلا، إلا أن بورسواردن عاملنى كما يعامل الأوانى الصينية الثمينة، كان خائفا أن يهشمنى، مثل ميراث ثمين. كم هو جميل أن يحس المرء بالراحة ذات مرة!»

* * *

[٨]

دار العام على أعقابها، عبر شتاء عاصف، الصقيع فيه أحد من الشجن، لا يكاد يمدنا بالاستعداد لاستقبال ذلك الصيف الرائع الأخير، والذي تلا الربيع في عجلة شديدة. جاء هذا الصيف، يتثنى، كأنما هو قادم من خط عرض طال نسيانه، كان أول ما حُلم به في عدن، وأعيد اكتشافه ثانية، بمعجزة، بين أفكار الجنس البشرى الهاجعة. لقد رسا علينا رسو سفينة ثلجية البياض شهيرة، من سفن العقل، لتسقط مرساتها أمام المدينة، وأشرعتها البيضاء مفرودة مثل أجنحة طائر من طيور البحر آه! إننى أتصيد المجاز الذى يمكن أن ينقل شيئاً من السعادة المؤثرة والتي نادرا ما ينعم بها على هؤلاء العشاق. إلا أن الكلمات، والتي ابتدعت أول ما ابتدعت فى مواجهة اليأس، تبدو فجأة للغاية حتى إنها لا تعكس، بقدر عميق، خصائص شىء ما فى سلام مع ذاته، خصائص امرئ ما مع ذاته. إن الكلمات ما هى إلا مرايا ضجرتنا ومللنا لا غير، إنها تحتوى كل البيض الهائل الحجم، لأحزان العالم، والذى لم يفرخ بعد، مالم تكن أكثر بساطة حتى يمكن ترديدها همسا من بعض السطور المنزوعة من قصيدة يونانية، كتبت ذات مرة، فى ظل شراع، فوق رأس بر ظمآن، فى بيزنطة، شىء ما يقول:

خبز أسود، مياه صافية، سماء زرقاء

نحر ساكن أبيض ليس له نظير
الرجبة انطوت فوق الرغبة
العينان أغلقتا فى رقة فوق العينين
الأهداب ترتعش، والأبدان عارية

لكنها سيئة باللغة الإنجليزية، وما لم يسمعها المرء باليونانية تنثال فى رقة، كلمة بعد كلمة، من فم أليف يخصه، هرسته قبلات التحبب المسرفة، فإن السطور سوف تظل دوما، صورا فقدت، فى بساطة، سحر الحقيقة التى تتجاوز مجال رؤية الشاعر ومداهها، إننى حزين أن يظل كل ذلك الريش الرائع لهذا الصيف، أبعد من أن يمسك به - إذ عمر المرء وقد تقدم، لن يكون فيه إلا القليل من مثل تلك الذكريات التى سوف يقيم عليها سعادة تتسم بالأسف والندم، هل يمكن للذاكرة أن تمسك بها - بذلك النمط من الأيام التى لا نظير لها - إننى أتساءل حائراً؟ تمسك بالظلال البنفسجية الكثيفة للشرع البيضاء، بما تحت أسطح أشجار التين المقببة كالمصابيح فى الظهيرة المكفهرة، بما فوق الطرق الصحراوية الشهيرة حيث تسير قوافل التوابل وتستلقى الكثبان أرضاً بعيداً عن السماء، تمسك فى نومها وهى غائبة عن الوعي، بصوت طبول أجنحة النورس وهى تتحول إلى رذاذ؟ أم بالضربات الباردة الأشبه بضربات السوط، ضربات المياه وهى تسحق نفسها فوق الكرانيش الساقطة لجزر منسية؟ بضباب الليل الهابط فوق مرافق مهجورة وخطوط حدود المد العربية القديمة على الشاطئ وهى تبين فى أصابع متآكلة؟ إن مجمل هذه الأشياء سيظل بالتأكيد باقياً، فى مكان ما. ليس هنالك من أماكن عامرة بعد. اليوم يلى اليوم فوق نتيجة(*) الرغبة، كل ليلة تنقلب فى نومها لتبدل الظلام، تغسلنا ثانية فى ضوء الشمس البديع. كل شىء يتواطأ ليكون الأمر كما نحتاجه.

(*) النتيجة هنا بمعنى التقويم السنوى للأيام والشهور - المترجم.

ليس من العسير الكتابة عن هذا الانتقال في الزمن، أن تعرف أن كل هذا قد حدث بالفعل، قد نظم ورتب على هذا النسق أو ذاك. لقد كان هذا، كما يمكن القول، مجرد «حدث جرى» - مجرد مسرح للإعلان والظهور. إلا أن السيناريو قد أعد بالفعل في مكان ما، وتم اختيار الممثلين، ورواج التوقيت مرارا حتى آخر التفاصيل في عقل هذا المؤلف الخفى - والذي ربما يثبت أنه لم يكن غير المدينة ذاتها: الإسكندرية بمنزلتها الإنسانية. إن بذور أحداث المستقبل محمولة في ذواتنا. إنها داخلنا، تنتشر طبقا لقوانين طبيعتها الخاصة. إننى أعرف أنه من العسير على المرء أن يصدق عندما يفكر في كمال ذلك الصيف وماتلاه.

كان هنالك الكثير مما يشير الاهتمام باكتشاف الجزيرة! كيف راغت منا هكذا لوقت طويل؟

لم يكن هنالك، حرفيا، ركن واحد من هذا الساحل لم نعرفه، ولا شاطئ لم نسع إليه، ولا مرسى لم نستخدمه. ومع ذلك، فإنها كانت هنالك تحملق في وجوهنا «إن أردت أن تخفى شيئا» يقول المثل العربى «فأخفه في عين الشمس». إنها ترقد غير مخفية البتة، إلى الغرب، بصورة ما، من مقام سيدى العجمى الصغير، المنحدر الأبيض والتواء الثلجى للضريح، وهما بيرزان من تيه أشجار النخيل وشجيرات التين. كانت، فى بساطة، قطعة من الجرانيت محمولة على الأعناق، دفع بها زلزال من قاع البحر، أو انتفاضة ما تحت سطح البحر، فى الماضى البعيد. كانت تغمرها المياه بالطبع عندما يرتفع البحر. إلا أنها ظلت هنالك، للغرابة، غير محددة فوق خرائط الإدميرالية، إذ إنها تشكل خطرا حقيقيا على زورق متوسط الغاطس.

كانت كليا هى أول من اكتشف جزيرة ناروز الصغيرة. «من أين نبتت هذه الجزيرة؟» - تساءلت فى دهشة - كان معصمهابنى يؤرجح ذراع

دفة القارب الشراعى بقوة ليحملنا إلى جانبها البعيد عن الريح. كانت كتلة الجرانيت الكبيرة، طويلة بما يكفى لتشكيل مصدا للرياح. كانت دائرة من مياه زرقاء ساكنة وسط حركة المد والجزر التى تمشط المنطقة. كان فى جانبها الأيمن، ناحية الأرض، حرف «ن» محفورا بطريقة خشنة فى الصخر فوق حلقة حديدية عتيقة متآكلة، بها مرساة كالحجة لدعمها وتقويتها، حتى تخدم كمرسى آمن للمراكب. من السخف أن يتحدث المرء عن التقدم نحو الشاطئ، إذ إن الشاطئ كان مكونا من شريط ضيق، من حصى أبيض باهر، لا يزيد اتساعه عن اتساع مدفأة: «نعم، إنها، إنها جزيرة ناروز»، صاحت وهى تطير فرحة وبهجة بهذا الاكتشاف - إذ إنها وجدت، هنا، أخيرا، مكانا يمكنها أن تنغمس فيه كلية فى ممارسة مزاجها فى الخلوة. هنا يمكن للمرء أن يكون على حدة مثل طائر من طيور البحر. كان الشاطئ متجها ناحية البحر. وكان فى وسع المرء أن يرى خط الساحل المتمایل كله وبه أطلال الطوابى الساحلية والكثبان الرملية الراحلة بعيدا نحو تابوزيريس العتيق. فككنا مؤننا فى بهجة، إذ هنا كان فى وسعنا أن نستحم عرايا، ونأخذ حمام شمس يبعث فىنا المسرة حتى أعماق قلوبنا دون أن يقطع أحد علينا خلوتنا.

هنا كان أخو نسيم الغريب المتوحد يقضى وقته فى الصيد. «لقد كنت أتساءل دوما، أين يمكن أن تكون جزيرته تلك؟ لقد اعتقدت أنها ربما تكون ناحية الغرب بعد أبى الصير. إن نسيم لم يستطع إخبارنا إلا أنه كان يعرف أن هنالك بركة صخرية عميقة بها حطام سفينة».

«هنالك «ن» منحوته هنا». صفقت كليا بيديها فرحة. أخذت تخلع رداء الاستحمام، «إننى لعلى يقين من ذلك. لقد قال نسيم: إنه ظل لشهور، فى معركة، يبارز سمكة ما كبيرة لم يستطع تحديد نوعها. كان ذلك عندما أعطانى بندقية الصيد بالحربة التى يمتلكها ناروز أليس ذلك غريبا؟ لقد

حملتها دوما، فى صندوقها، فى لفافة من مشمع. كنت أعتقد أننى سوف أصطاد بها شيئا يوما ما. إلا أنها ثقيلة للغاية حتى إننى لا أستطيع استخدامها تحت الماء.

«أى نوع من الأسماك كانت تلك السمكة؟»

«إننى لا أعرف».

إلا أنها تسلقت عائدة إلى القارب الشراعى وأخرجت اللفة الضخمة التى كان هذا السلاح الفريد ملفوفا فيها. كانت اختراعا قبيح المنظر، بندقية تعمل بالهواء المضغوط ولا أكثر، ذات دبشك مجوف. كانت تطلق حربة من صلب رفيع إلى مسافة تصل إلى المتر ونصف. لقد صنعت له خصيصا فى ألمانيا طبقا للمواصفات. كانت تبدو مميتة بما يكفى لقتل سمكة كبيرة.

«إنها تبدو بشعة المنظر إلى حد ما».

«يجب أن نحاول استخدامها».

«إنها ثقيلة جدا بالنسبة لىّ، ربما تستطيع أنت ذلك. لقد وجدت أن الماسورة تعوقنى فى المياه. لم أستطع حملها بطريقة صحيحة. إلا أنه كان هدافا ماهرا، اصطاد العديد من الأسماك الكبيرة، كما قال نسيم، إلا أنه كانت هنالك واحدة كبيرة للغاية، نادرا ما كانت تظهر. ظل يراقبها، ينتظرها، فى كمين شهورا عديدة. لقد أطلق عليها العديد من الطلقات، إلا أنها كانت تخطئها على الدوام. آمل ألا تكون من أسماك القرش؛ إننى أخافها».

«لا يوجد الكثير منها فى البحر المتوسط، إنها هنالك فى البحر الأحمر، حيث تجدونها فى أعداد كبيرة».

«إننى، على أى حال، أرقب حولى بعين يقظة».

كانت، كما رأيت، آلة ثقيلة جدا لسحبها تحت الماء، بالإضافة إلى أننى لم أكن مهتما بصيد السمك. ولذا قمت بلفها ووضعها ثانية فى صندوق الزورق الفسيح. رقدت هى هنالك عارية فى ضوء الشمس، ناعسة مثل فقمة، تدخن سيجارة قبل أن تبدأ مزيدا من الاستكشاف. كانت البركة الصخرية تتوهج تحت قاعدة القارب اللامعة مثل زمردة ترتعش، وشرائط الضوء التى فى لون اللبن تخترقها فى بطء، تتلصص هابطة مثل مجسات ذهبية. كان العمق ستة أقدام، كما اعتقدت، فأخذت نفساً عميقاً وتدحرجت تاركا جسدى يتلوى. هابطا مثل سمكة، دون استخدام ذراعى.

كان جمالها ساحرا فتانا، والغوص فيها أشبه بالغوص فى سرية كاتدرائية، ترشح نوافذها، الملونة الزجاج، ضوء الشمس عبر دسته من قوس قزح. كانت جوانب المدرج تنفتح تدريجيا نحو البحر العميق، كأنما نحتها فنان حزين القلب من العصر الرومانسى، إلى دسته من الدهاليز نصف المنتهية، التى تحدها التماثيل. كان بعضها كبير الشبه بمجموعة تماثيل حقيقية، حتى إننى اعتقدت، للحظة، أننى قد عثرت على لقية من الآثار القديمة. إلا أن تلك العمدة التى على هيئة امرأة ملطخة كانت من صنع الأمواج، ضغطها وصبها المد والجزر، مصادفة، فى تماثيل آلهات وأقزام ومهرجين. كانت لها لحى من طحلب صخرى بحرى خفيف يتلأأ أصفر اللون وأخضره، وستائر ضحلة من عشب يتأرجح فى رشاقة مع المد والجزر، تنفرج، تنغلق، كأنما لتكشف أسرارها بطريقة موحية، ثم تغطيها ثانية. ودفعت بإصبعى عبر تلك الفروة من ورق النبات الكثيفة الزلقة لأضغط بها على وجه ديانا الضرير أو الأنف الخطافية لقزم من العصور الوسطى. كانت أرضية هذا القصر المهجور مكونة من الطين السيلينيتى اللدن، طرية عند اللمس، لكنها ليست زلقة بأى حال. أرض حمصت

إلى ستة من ألوان تتفاوت ما بين الأرجواني والبنفسجى والذهبى. لم تكن المياه بالقرب من الجزيرة عميقة، ربما كان عمقها قامة ونصفا، إلا أن الجزيرة كانت تهبط فى انحدار، حيث يمتد الدهليز إلى البحر. كان لون حدود المياه الأكثر عمقا يتغير من الزمردى إلى خضرة التفاح، ومن الأزرق البروسى إلى الأسود، مما يوحى بعمق كبير. هنا أيضا، كان حطام السفينة التى تحدثت كليا عنها. كنت آمل أن أجد جرة أثرية رومانية أو اثنتين إلا أنها كانت قد انتهت إلى سفينة غتيقة للغاية وعرفت من انحناءة مؤخرة السفينة المتوهجة، أنها من تصميم إيجى. إنها نوع من الركوة(*) الذى كان اليونانيون يطلقون عليه اسم «تريكانديرى». كانت مدكوكة قرب مؤخرتها وقد تهشم سطحها، مليئة بحمولة مائة من إسفنج أسود حاولت العثور على العينين الملونتين على مقدم السفينة وكذا اسمها، إلا أن كل ذلك كان قد تلاشى واختفى. كان الوحل يزحف فوق أخشابها، والسرطانات المتوحدة تملأ كل شق فيها كطرف العين. لا بد أنها كانت مملوكة، كما اعتقدت، لصيادى الإسفنج القادمين من كاليمنوس، إذ إن أسطولهم كان يعبر كل عام ليصطاد عند الساحل الإفريقى، ويحمل شباكه عائدا حيث يعالج الصيد فى جزر الدوديكانيز.

اندفعت عبر السقف الآن حزمة من ضوء يعشى الأبصار، وبرق جسد كليا مفصحا عن نفسه، متجها إلى أسفل، وخصلات شعرها المتفجرة تميل إلى أعلى خلفها يدفعها اهتزاز الماء، وقد فردت ذراعيها، أمسكت بها. وأخذنا نتدحرج، نزلق جانبا، الواحد بين ذراعى الآخر، نلعب مثل الأسماك، حتى دفعنا افتقاد الأنفاس للصعود إلى أعلى ثانية فى ضوء الشمس. أن نجلس، فى النهاية، لاهثين فى الظلال، يحملق كل منا فى الآخر فى بهجة، وقد تقطعت أنفاسه.

(*) الزورق الصغير - المترجم.

«يا لها من بحيرة رائعة». صفقت بيديها فرحة.

«لقد رأيت الحطام».

صعدنا عائدين إلى الشاطئ الصغير الأشبه بالمنجل، بحصاه الدافئ. قالت وشعرها المبلل يتأرجح حولها: «إننى أؤمن بفكرة أخرى، لا بد أن تكون هذه هى تيمونيوم؛ كنت أود تذكر التفاصيل بطريقة أكثر وضوحًا».

«ماذا تكون؟».

«إنهم لم يعثروا البتة على موقعها كما تعرف. إننى لعلى ثقة أن هذه لا بد أن تكون هى. أوه، دعنا نعتقد أنها هى، هل نفعل ذلك؟ لقد عاد أنطونيوم مهزوما من أكتيوم؛ حيث فرت كليوباترا بأسطولها فزعة، فاتحة ثغرة فى خط معركته، تاركة إياه تحت رحمة أوكتافيوس، ليعود بعد ذلك بانهياء عصبى لا معنى له، حيث لم يكن هنالك ما يفعلانه غير انتظار الموت المؤكد بعد وصول أوكتافيوس. ولهذا بنى لنفسه صومعة فوق جزيرة صغيرة. لقد أطلق عليها اسم فيلسوف شهير، كان يتجنب الناس لكراهيتهم له وريبتهم فيه، ربما كان فيلسوفا يدعى تيمون؟ لا بد أنه كان يقضى عطلاته هنا، هنا يا دارلى. كان يستعيد الأمر كله فى عقله، تلك المرأة بسحرها وفتنتها القادرة على طرح شباكها. لقد غدت حياته حطاما! ثم مرور الإله، وكل تلك الأحداث، ونداؤه أن يقول لها وداعا، للإسكندرية، لعالم بأكمله!».

وابتسمت العينان المتألفتان قليلا تشاقان استنطاق عيني.

«هل تنتظرين منى القول بأنها هى؟».

«نعم».

«حسنا، إنها هى».

«قبلنى».

«إن لفمك طعم البرتقال والنبيذ».

كان الشاطئ صغيرا جدا، لا يكاد يزيد على فراش. كان غريبا أن يمارس اثنان الجنس هناك وكعبا أحدهما فى الماء الأزرق، وشمس ساخنة تشتعل فوق ظهر الآخر. وأخيرا قمنا بمحاولات عشوائية لتحديد مكان الصومعة أو أى شىء يمكن أن يتطابق وخيالها، ولكن دون جدوى. كان يرقد ناحية البحر خليط من عوائق جرانيتية ناتئة تسقط منحدره فى الماء الأسود، وعصا غليظة تحدد منسوب مرفأ قديم، ربما لتحديد اتجاه الرياح وخصائص انكسار بحر الجزيرة. كان هنالك صمت وسكون، لا نسمع غير حركة الرياح الضئيلة عبر آذاننا، بعيدا كصدى صدفة ما صغيرة للغاية. نعم، كان نورس الرنجة يطير أحيانا يحوم، يحدد عمق الشاطئ مسرح عملياته المحتملة، أما غير ذلك فالأجساد ترقد، سكرى بالشمس، فى نوم عميق، وإيقاعات الدم الهادئة لا تستجيب إلا لإيقاعات البحر والسماء الأكثر عمقا. ملاذ لما يرضى الحيوان، بما تعجز الكلمات عن الإحاطة به.

ومن الغريب حقا أن يتذكر المرء أى وئام غريب أوجده البحر الذى تقاسمناه هذا الصيف الذى لا ينسى. بهجة تكاد تكون عميقة عمق رباط القبلات - أن ندخل إيقاع المياه معا، يستجيب الواحد منا للآخر ولعبة المد والجزر الطويلين. كانت كليا على الدوام سباحة ما هرة، وكنت أنا سباحا هزيعا، ولكن شكرا لما قضيته من وقت فى اليونان، إذ غدوت الآن خبيرا أيضا، غدوت أكثر من نذلها. لعبنا تحت الماء واستكشفنا عالم ما تحت سطح البحيرة مثل أسماك فى اليوم الخامس لخلقها. كنا نلعب باليه ماء رائعا، صامتا، يسمح لنا فقط بتبادل الابتسامات والإيماءات. إن صمت الماء قد حول كل شىء إلى حركة بشرية، حتى إننا أصبحنا مثل صورة

ملونة لبحوريات الماء مرسومة فوق هذه الستائر من الصخور والأعشاب،
نعكس إيقاعات الماء، نحتذيها. هنا أفنى الفكر نفسه وأبيد، متحولاً إلى
رضاء بلا قاع للفعل البدنى. ورأيت الصورة البراقة، مثل نجم عبر هذا
الفلك وقت الشفق. كان شعرها يمشط إلى أعلى وإلى الخارج فى باقة
من ألوان متموجة إلا أن الأمر لا يقف بالطبع عند ما هنا من حدود، إذ
عندما تكون واقعا فى حب واحدة من مواطنى المدينة، فإن المدينة تصبح
عالما بأكمله. إن جغرافيا جديدة تماما قد انبثقت عن كليا، إحياء معان
قديمة، تحديد عوالم محيطية نصف منسية، تاريخ جديد يرقد مثل دفقة لون
حافلة، حياة شخصية جديدة تحل محل القديمة، ذكرى المقاهى العتيقة
الممتدة على واجهة البحر فى ضوء القمر البرونزى، وتنداتها المخططة
ترفرف مع نسيم بحر منتصف الليل. أن يجلس المرء يتناول العشاء فى
وقت متأخر حتى تطفح الكئوس بنور القمر. أن يجلس فى ظلال مئذنة
أو فوق شريط رملى يضيئه وميض مصباح نفطى، أو يجمع كومات من
زهور الربيع فى رأس التين، زهور بخور مريم وشقائق النعمان الرائعة، أو
نقف معا فى مقابر كوم الشقافة نستنشق الفواح الرطب للظلام الذى يفور
من أماكن الراحة تحت الأرضية للسكندريين الذين ماتوا منذ زمن بعيد،
مدافن نحتت فى تربة سوداء كالشيكولاتة، واحد فوق الآخر، مثل سرر
فى قمرة سفينة، إنها عديمة الهواء متعفنة، ورغم ذلك باردة، بصورة ما،
بردا قارصا. («امسك يدي»)، كانت ترتعش، إلا أن ذلك لم يكن حيثئذ
بسبب ما يثيره الموت من مشاعر مسبقة، ولكن بسبب الثقل الخالص
للأرض الحبلى المكومة فوقنا مترا بعد متر. إن أى كائن من أبناء ضوء
الشمس لا بد أن يرتعش. ابتلع الظلام ذلك الرداء الصيفى الرائع. «دعنا
نذهب من هنا، فأنا أحس البرد!». حقا، كان الجو باردا فى الأسفل هناك.
إلا أن المرء يحس بالسعادة وهو يخطو مرة ثانية من الظلام إلى الحياة

الصاخبة التى تتسم بالفوضى للشارع المفتوح. إن إله الشمس لا بد أن يصعد يهز نفسه، يتحرر من قبضة ظلام التربة، يتسم للسماء المطبوعة بالأزرق التى تجرى فيها نوبة الترحال والخلاص من الموت وتجديد حياة الكائنات عامة. نعم، إن الموتى فى كل مكان لا يمكن التهرب منهم فى يسر وسهولة، يحس المرء بهم يضغطون بأصابعهم الحزينة الكفيفة المحرومة فوق لوحات حياتنا السرية. يسألون أن يظلوا فى الذاكرة، وأن يعادوا إلى حياة الجسد - يقيمون بين ضربات قلوبنا، يغزون أحضاننا. إننا نحمل فى نفوسنا تلك الآثار البيولوجية التى أورثوها لنا وقد فشلوا فى استنفاد الحياة حتى آخرها - خط عين، تقوس أنف، صور أكثر زوالاً مثل ضحكة بلا حياة لا مرئى ما، أو غمازة تظهر ابتسامة طال طمرها. إن أبسط ما فى تلك القبلات، التى نتبادلها، له فى الموت أصل ونسب. إننا نحقق فيها حبا منسيا، له معزته، يحاول أن يولد من جديد. إن جذور كل تنهيدة شوق، مدفونة فى الأرض.

ومتى يغزونا الموتى؟ إنهم يظهرون بذواتهم للعيان فى بعض الأحيان فى هذا الصباح الرائع، مثلاً وكل شىء طبيعى بصورة خداعة، انطلقت من البركة، مثل صاروخ، وهى تلهث، شاحبة شحوب الموت «هنالك رجال موتى، فى أسفل البحيرة»، مما أثار فزعى! ومع ذلك، لم تكن مخطئة إذ إننى عندما استجمعت شجاعتي لأهبط بنفسى وأرى، كانوا هنالك حقيقة، سبعة منهم، يجلسون فى غبش الحوض يحيط بهم جو من الانتباه يثير الريب، وكأنهم يستمعون إلى نقاش خطير، سوف يحدد مصير كل شىء بالنسبة إليهم. إن هذا الاجتماع السرى لتلك الشخصوص الصامته، كان يشكل نصف دائرة صغيرة.

عبر المدخل الخارجى للبحيرة كانوا مربوطين فى جوالات وقد وضعت على أقدامهم أثقال كالرصا ص، حتى إنهم يقفون الآن منتصبين،

كقطع شطرنج فى حجم بشرى. لقد رأى المرء تماثيل، فى مثل هذه الحال، ترحل فوق سيارة نقل عبر المدينة، محمولة إلى متحف إقليمى كئيب. كانوا قابعين، على نحو ما، دون وجوه، يستجيبون للوصلات التى تربطهم. وقفوا رغم ذلك فى إحجام يرفرفون فى رقة مثل أشخاص فى الأفلام الأولى الصامتة.

إنهم، على ما يبدو، بحارة يونانيون، كانوا يسبحون إلى جوار سفينتهم الحربية عندما انفجرت شحنة أعماق، بسبب حادثة ما، فقتلتهم فى الحال صدمتها. إن أبدانهم غير المميزة، والتى تلمع مثل أسماك الماكريل، قد جمعت بجهد كالصيد فى شبكة سفينة طوربيد عتيقة، ليمددوا فوق ظهر السفينة يقطرون ماء، حتى يجفوا قبل الدفن، ثم قذف بهم من فوق السطح ثانية وهم فى زى البحارة الجنائزى التقليدى، ليأتى بهم المد والجزر بحركته المجعدة، إلى جزيرة ناروز.

قد يبدو غريباً أن يصف المرء كيف اعتدنا، فى سرعة شديدة، هؤلاء الزوار الصامتين للبحيرة لقد استطعنا خلال أيام أن نريحهم، أن نضعهم فى مكان خاص بهم، كنا نسبح فيما بينهم حتى نصل إلى المياه الخارجية كنا ننحنى فى تحية تهكمية لرءوسهم المائلة فى انتباه.

لم يكن ذلك سخرية بالموت، لكنه كان؛ لأنهم غدوا ودودين حالمين، رموزاً تعبر بصدق عن المكان، هؤلاء الأشخاص الصابرين المثابرين. إن أكياس قماش القنب السمكة لم تظهر هى أو الحبال المتينة التى كانت تربطهم أى دلائل على التآكل. كان يغطيها، على عكس ذلك، الطل الفضى الكثيف كالزئبق، والذى يجمعه على الدوام قماش القنب، الذى لا ينفذ منه شىء، عندما يغمس فى الماء. تبادلنا الحديث مرة أو مرتين حول مطالبة السلطات البحرية اليونانية بنقلهم إلى مياه أعمق، إلا أننى كنت أعرف من

خبرتى الطويلة أنهم لن يتعاونوا فى ذلك. إن نحن حاولنا معهم. أسقطنا الموضوع باتفاق مشترك خيل لى، ذات مرة، أننى رأيت سمكة من أسماك السلور تتحرك فيما بينهم، إلا أننى لا بد كنت مخطئاً، بل إننا فكرنا فى أن نطلق عليهم أسماء، إلا أن الفكرة أوقفت لأنهم، بالضرورة، لهم أسماءهم الخاصة، تلك الأسماء السخيفة للسفستائيين والقادة العسكريين القدامى أمثال أناكسيماندر، بلاتو، ألكسندر.

وهكذا سار هذا الصيف الساحر، بأيامه السائرة قدما تلفحها الشمس الحارقة طويلاً، نحو نهايته، دون نذر. حدث، كما أعتقد، أن قتل ماسكيلين أثناء هجمة للخروج من حصار فى الصحراء، فى نهاية الخريف، إلا أن ذلك الحديث مر دون أن يترك صدى فى نفسى، كانت هنالك مادة محدودة للغاية عنه فى عقلى، باعتباره شخصية حية. كان الأمر الغامض، حقيقة، أن أجد تلفورد جالساً إلى مكتبه، بعد ظهر أحد الأيام، أحمر العينين، يكرر وهو يعصر يديه الورديتين معاً، وقد سحق وتحطم: «لقد فعلها البريجادير العجوز المسكين». كان من العسير أن أعرف ماذا على أن أقول. استمر تلفورد وفى صوته نوع من الحيرة المفككة المحببة: «ليس له من أحد فى هذا العالم، هل تعرف ماذا فعل؟ لقد قدم اسمى باعتبارى أقرب أقربائه». كان متأثراً للغاية بهذا الدليل على الصداقة. أخذ، على أى حال، يطلع على ممتلكاته الشخصية فى وقار كئيب. كان الميراث ضئيلاً للغاية باستثناء القليل من الملابس المدنية غير المناسبة حجماً. والعديد من ميداليات ونجوم الحملات، وحساب ائتمانى بخمسة عشر جنيهاً فى فرع بنك اللويدز الواقع فى طريق توتنهام كورت. كان أكثر ما أثار اهتمامى من آثاره هى تلك المحتواة فى جراب جلدى صغير - دفتر معاش بال، وشهادة تسريح مكتوبة على رق تعود إلى جده. إن القصة التى يحكيانها تفصح عن تاريخ يندرج ضمن تقليد ما. لقد التحق صبى - مزرعة

سوفولك، والمنسى الآن، التحق عام ١٨٦١ بيورى سانت ادموندز خدم فى حرس «الكولد ستريم» اثنين وثلاثين عاما إذ سُرح عام ١٨٩٣. تزوج أثناء خدمته فى كنيسة برج لندن الصغيرة، حيث أنجبت له زوجته ابنتين. كان هنالك صورة شاحبة أخذت له أثناء عودته من مصر عام ١٨٨٢. إنه يظهر فيها مرتديا خوذة بيضاء إسفنجية وسترة حمراء وسروالا صوفيا خشنا أزرق اللون وطماقا جلديا رشيقا أسود، وأحزمة متقاطعة جرى تلميعها. وكانت مثبتة إلى صدره ميدالية الحرب المصرية، قطعة فضية بشريط عليها معركة التل الكبير ونجمة الخديو، ولم يكن مسجلا بين الممتلكات أى شىء يشير إلى والد ماسكيلين.

«إنها لمأساة»، قال تلفورد الصغير بطريقة عاطفية، «إن ملفيس لم تستطع، عندما أخبرتها، أن تكف عن البكاء. لقد قابلته مرتين فقط. إن ذلك ليوضح مدى التأثير الذى يمكن أن يتركه رجل متين الخلق، كان دوما الرجل النبيل الكامل، إنه البريج».

إلا أننى كنت أتأمل الشخص الشاحب الباهت فى الصورة الفوتوغرافية بعينه المتجهمتين وشاربه الثقيل، والأحزمة المتقاطعة اللامعة وميداليات الحملات. كان يبدو وكأن هذه الصورة الفوتوغرافية تلقى بالضوء على صورة ماسكيلين ذاته. إنها تضيف عليه وضوحا أكثر. أليست، كما تساءلت، قصة نجاح، نجاح تام متكامل فى إطار النمط الرسمى لشيء أكبر من حياة الفرد، لتقليد ما؟ إننى أشك أن ماسكيلين نفسه كان يبغي وقوع الأمور على نحو آخر. هنالك، فى كل ميتة، بذرة لشيء ما، يمكن للمرء أن يتعلمه. ومع ذلك فإن مغادرة ماسكيلين الهادئة لم تترك إلا أثرا ضئيلا فى مشاعرى، رغم أننى فعلت ما فى وسعى لمواساة تلفورد البائس. إلا أن خطوط مد وجزر حياتى كانت قد بدأت الآن تشدنى فى قوة، وبصورة غير مرئية، نحو مستقبل لا يمكن التكهن به. حقا، إنه فى هذا الخريف

الجميل، بوابل أوراقه البنية النحاسية التى تتساقط فى زخات من الشجر فى الحدائق العامة، غدت كليا أمرا يثير قلقى. هل حدث ذلك، إحقاقا للحق، لأنها سمعت البكاء؟ إننى لا أعرف. إنها لم تعترف بذلك صراحة البتة. لقد حاولت أنا نفسى تصور سماعى لها، فى بعض الأوقات، هذه الصرخة الواهنة لطفل صغير أو حيوان أليف أغلق الباب عليه لمنع من الدخول، إلا أننى عرفت أننى لم أسمع شيئا، لا شىء على الإطلاق يمكن للمرء، بالطبع، أن ينظر إلى ذلك بطريقة واقعية، وتصنيفه فى إطار الأحداث الطبيعية التى يهذبها الزمن ويجدها طبقا لنزواته الخاصة. أعنى أن الحب يمكن أن يذوى مثل أى نبات آخر. ربما كانت تتهاوى بعيدا عن الحب؟ ولكن حتى يمكن تسجيل الطريقة التى أنهت بها علاقتها بالحب فإننى أحس باضطرابى إلى تقديم الأمر على أنه شىء آخر. وهو أمر ربما يبدو محالا كتفقد مكتب تجارى. إنها قوة ما تنشط فى منطقة غير مألوفة فيما وراء آفاق التخيل العادى. إن البداية، على أى حال كانت حاسمة محددة مثل تاريخ فوق جدار أبيض. كانت فى الرابع عشر من نوفمبر، قبل الفجر تماما. كنا معا طوال اليوم السابق، نتسكع فى المدينة، نتبادل القيل والقال ونتسوق. كانت قد ابتاعت بعض قطع موسيقى البيان، واشترت لها هدية، عطرا جديدا من بازار العطور (شممت فجأة فى نفس اللحظة التى استيقظت فيها، ورأيتها واقفة، أو بالأحرى جاثمة إلى جوار النافذة، رائحة العطر فى معصمى، والذى كان قد دهن بعينات من الزجاجات ذات السدادات). كان المطر قد هطل فى تلك الليلة، وهدد حفيفه الممتع نومنا. وكنا قد قرأنا، على ضوء الشموع، قبل أن ننام.

لكنها كانت تقف الآن إلى جوار النافذة تستمع. كان جسدها كله متصلبا فى وضع تساؤل يقظ حاد إلى حد يوحى بأنها تعاني شبه أزمة خوف من شر مرتقب. كان رأسها قد استدأر قليلا إلى جانب، كأنما تقدم

أذنها إلى النافذة الخالية من الستائر، والذي يوجد وراءها، على نحو معتم بعض الشيء، فجر غسله المطر وقد بدأ ييزغ فوق أسطح المدينة. إلام تستمع؟ إننى لم أر مثل هذه الحالة من قبل. ناديتها، فأدارت نحوى، لأمد قصير وبصبر نافد، وجها ذاهلا لا يرى. وكأن صوتى قد مزق غشاء تركيزها الرقيق. صرخت، عندما جلست، فى صوت عميق مختنق أوه، كلا، وصفقت براحتيها فوق أذنيها، وسقطت ترتعد فوق ركبتها، كأن طلقة رصاص قد أطلقت عبر رأسها. سمعت قطعة عظامها وهى تتدلى جاثمة وقد التوت ملامحها مقطبة. كانت راحتها مثبتتين فوق أذنيها بقوة شديدة حتى إننى لم أستطع إزاحتهما، وعندما حاولت رفعها من معصميهما سقطت، فى بساطة، مرة أخرى إلى ركبتها فوق السجادة، وقد أغلقت عينيها مثل معتوه فقد عقله.

«كليا، ما الذى جرى؟» ظللنا لفترة طويلة راكعين معا، وأنا فى حيرة كبرى، عيناها مغلقتان فى إحكام. أحس الريح الباردة تصب من النافذة إلى داخل الحجرة. الصمت باستثناء صرخاتنا، مطبق. تنهدت أخيرا تنهيدة استرخاء عميقة. شهقت نفسا طويلا. حلت يديها عن أذنيها. مددت أطرافها فى بطء كأنما ترخيها فى تشنج عضلى مؤقت مؤلم. هزت رأسها كأنما تقول لى: أن ليس هنالك من شىء. سارت تترنح مثل ثمل إلى الحمام حيث بدت مريضة للغاية. فى المغسل وقفت أنا هنالك كالسائر فى نومه، أحس كأن جذورى قد اجتثت. عادت أخيرا، تصعد الفراش وقد أدارت وجهها للحائط.

«ما الأمر يا كليا؟» سألتها ثانية وأنا أشعر بأنى أحرق لحوح. انتفض كتفاها قليلا تحت يدي، واصطكت أسنانها قليلا من البرد.

«لا شىء، حقا لا شىء. صداد مفاجئ يفلق الرأس لكنه انتهى، دعنى أنم الآن، هل ستفعل ذلك؟».

استيقظت مبكرة فى الصباح، لتعد الإفطار. بدت شاحبة بطريقة شاذة ذلك الشحوب الذى يعقب ألما طويلا ممضا فى الأسنان. كانت تشكو من إحساسها بالفتور والإرهاق.

«لقد أثرت خوفاً الليلة الماضية»، قلت. إلا أنها لم تجب. انصرفت بطريقة مراوغة عن الموضوع، وفى عينيها قلق وضيق. طلبت أن تمكن من قضاء اليوم بمفردها ترسم. غادرت أتمشى طويلا عبر المدينة، تزعجنى أفكار لم تتشكل تماما بعد، ونذر عجزت، على نحو ما، عن تبينها. كان يوما جميلا، البحر العالى يعدو ركضا والأمواج تضرب الصخور الناتئة مثل مكابس آلة هائلة، سحبات كثيفة من رذاذ تندفع بقوة عاليا فى الجو مثل انفجار بقاليل عملاقة لتعود تسقط فى زبد يئز على قمة الموجة التالية. وقفت أرقب المنظر مدة من الزمن طويلة، أحس الريح تجذب طرف معطفى والرذاذ البارد فوق وجتى. أعتقد أننى أدركت أنه بدءا من هذه النقطة ومستقبلا، فإن كل شىء قد تغير بطريقة غامضة. لقد دخلنا، إن جاز القول، فلكا جديدا من المشاعر سوف يغير علاقتنا.

يتحدث المرء عن التغيير، إلا أن شيئا من ذلك التغيير لم يحدث فجأة، متماسكا، قاطعا. كلا، لقد جرى التحول فى ببطء نسبى، يتزايد ويتناقص، مثل المد والجزر، يتقدم مرة، ويتراجع أخرى. كانت هنالك أوقات، أسابيع كاملة، نعود فيها كلية إلى ما كنا عليه فى الماضى، نجدد أوقات السعادة المفرطة القديمة بطريقة حادة أولدها الشعور بافتقاد الأمان. كنا نعود ثانية، لفترة من الوقت، يحقق الواحد منا ذاته تماما فى الآخر. لا نفصل ولا نفترق. لقد انقشعت الغمة. إننى أقول لنفسى الآن - دون أن أعرف على أى أساس - إن تلك كانت مراحل طويلة من الوقت لم تكن تسمع فيه البكاء الذى وصفته، منذ وقت بعيد، على أنه صوت ناقة تعاني الضيق أو لعبة ما آلية بشعة. ولكن ماذا يمكن أن يعنى هذا الهراء، حقيقة،

لأى أحد - كيف يمكن أن يفسر تلك الفترات الأخرى التى كانت تسقط فيها فى الصمت والكآبة، والتى تغدو فيها نسخة أخرى، حادة الطبع من ذاتها القديمة؟ إننى لا أعرف. إننى أعرف فقط أن هذه الشخصية الجديدة كانت عرضة الآن لفترات طويلة من الصمت والذهول، وإحساس غير عادى بالإرهاق. إنها ربما تسقط، مثلاً، نائمة فوق أريكة فى منتصف حفل ما وتبدأ فى الشخير، كأنما قهرها الإرهاق بعد سهر طويل للغاية. وبدأ الأرق أيضاً يلعب دوره، وعادت إلى جرعات كبيرة نسبياً من الباربيتال(*) تبحث عن خلاص منه. كانت تدخن حقاً، بكثافة شديدة.

«من هى هذه الشخصية العصبية التى لا أعرفها؟»، تساءل بلتازار فى حيرة ذات مساء عندما قصفت رأسه إثر ملحّة تافهة ثم غادرت الحجرة وهى تصفق الباب فى وجهى.

قلت: «هنالك خطأ ما». نظر إلىّ، للحظة، من فوق عود ثقاب مشتعل تساءل: «إنها ليست حبلى؟» هزرت رأسى: «أعتقد أنها قد بدأت تضيق بى حقاً». كلفنى ذلك جهداً حتى أخرج الكلمات. إلا أنه كانت لهذه الكلمات فضيلة تقديم شىء ما، كتفسير معقول لهذه الحالات النفسية، مالم يكن على المرء تفضيل الاعتقاد بأنها تتآكل من مخاوف خافية.

«الصبر»، قال، «إذ لم يكن هنالك البتة ما يكفى من تلك المشاعر».

«إننى أفكر جاداً، فى الابتعاد فترة من الزمن».

«قد تكون تلك فكرة طيبة. ولكن ليس لفترة طويلة جداً».

«سوف أرى».

(*) عقار منوم - المترجم.

كنت فى بعض الأحيان أحاول، بطريقتى الحمقاء، جس مصادر هذا القلق الكئيب بإبداء ملاحظة مزعجة: «لماذا، يا كليا، تنظرين دوما من فوق كتفيك - إلام تنظرين؟».

إلا أن ذلك كان خطأ قاتلا. كان رد فعلها، دوما، هو سوء الخلق أو الهياج، وكأني، بكل إشارة إلى اضطرابها مهما كانت مستترة، إنما أسخر منها بطريقة ما. كان مفزعا أن يرى المرء كيف يقتم وجهها فى سرعة، وشفتاها مضمومتان. كان الأمر وكأني قد حاولت وضع يدي على كنز سرى، تقوم هى على حراسته بحياتها.

كانت أحيانا تغدو عصبية بصورة خاصة. حدث ذات مرة، ونحن نغادر السينما، أن أحسست بها تتصلب فى ذراعى. أدت عيني فى اتجاه نظرتها. كانت تحملق فزعة فى رجل عجوز بوجهه جرح غائر. كان إسكافيا يونانيا أصيب أثناء غارة جوية إصابات متعددة. كنا نعرفه جميعا، بالنظر، معرفة جيدة. وكان أماريل قد عالجه حقا على قدر استطاعته. هزرت ذراعها فى رقة أطمئنتها، وبدت فجأة وكأنها تعود إلى يقظتها. انتصبت قامتها بغتة وقالت: «تعال، دعنا نذهب من هنا». ارتعدت ارتعاده خفيفة واستعجلتني أن نبتعد.

كنت عندما أبدى، فى أحيان أخرى، دون أن أكون حذرا، تلميحا ما عن قلقها الداخلى - عن هذا الجو المجنون عن الاستماع دوما لشيء ما - كانت العواصف والاتهامات التى تلى ذلك توحى بجدية وصدق تشخيصى - تحديدا أنها تعمل على إبعادى.

«إننى لا أصلح لك يا دارلى. إننا منذ صرنا معا، لم تكتب سطرًا واحدًا. ليس لديك خطط للمستقبل. إنك لا تكاد تقرأ شيئًا».

كم كانت عيناها الرائعتان عابستين، وقلقتين أيضا! واضطرت، على

أى حال، إلى الضحك. كنت، حقيقة، أعرف الآن أو اعتقدت أنني أعرف،
أننى لن أكون البتة كاتباً. إن كل ما كان يحفزنى لا ثمان العالم والثقة به،
بهذه الطريقة، قد خبا، مزقت أحشاؤه. إن فكرة العالم الصغير من الورق
والطباعة، العالم المشاكس، قد غدت، عند تأملها، فكرة شاقة غير محتملة،
ومع ذاك فإننى لم أكن حزيناً وأنا أحس أن الباعث قد هجرنى. كنت، على
نقيض ذلك، مليئاً بإحساس التخفف، التخفف من قيد تلك الأشكال التى
غدت قاصرة تماماً، كأداة لنقل حقيقة المشاعر.

«كليا، يا عزيزتى»، قلت وأنا أبتسم ابتسامة عقيمة، راغباً، رغم ذلك،
وبطريقة ما، فى مواجهة هذا الاتهام وفى تطيب خاطرها. «لقد كنت أفكر
بالفعل فى كتاب نقدى».

«النقد!» رددت فى حدة، وكأن الكلمة كانت إهانة لها. لطمتنى بقوة
فى فمى، لكمة دفعت بالدموع إلى عيني، وقطعت الجزء الداخلى من
شفتى فى مواجهة أسنانى. انسحبت إلى الحمام أمسح فمى حيث كان
فى وسعى أن أتذوق طعم الدم الملحى. كان ممتعا أن أرى أسنانى وقد
حدد الدم معالمها. كنت أشبه بغول تناول لتوه ملء فيه من جسد ضحيته
الدامى. غسلت فمى وأنا فى حالة من الغضب الشديد. جاءت إلى الحمام
لتجلس فوق «البيديه» يملؤها شعور باللوم والتأنيب.

«أرجوك أن تسامحنى»، قالت. «إننى لا أدرى أى دافع حل بى. دارلى،
أرجو أن تسامحنى».

قلت وأنا عابس متجههم: «عرض آخر كهذا الذى حدث، ولسوف
أعطيك لكمة بين هاتين العينين الجميلتين، لكمة سوف تتذكرينها على
الدوام».

«إننى آسفة». ووضعت ذراعيها حول كتفى من الخلف وقبلت رقبتى.

كان الدم قد توقف. قلت لصورتها فى المرأة: «ما خطبك بحق الشيطان؟ ما الذى حل بنا هذه الأيام؟ إننا نبتعد عن بعضنا البعض يا كليا».

«إننى أعرف ذلك».

«لماذا؟».

«لا أعرف». إلا أن وجهها اكتسى بالعناد ثانية. جلست على «البيديه» ملست بيدها على ذقنها مفكرة، غرقت فجأة، فى خواطرها مرة أخرى أشعلت سيجارة، عادت إلى غرفة المعيشة. عندما عدت، كانت تجلس صامته أمام لوحة زيتية تحملق فيها فى ثبات شرير خال من الانتباه.

«يجب علينا كما أعتقد أن نفرق مدة من الزمن»، قلت.

«إن شئت»، بقبت بطريقة آلية.

ثم بدأت فجأة فى الصراخ، قالت: «أوه، كف عن استجوابى. إن كان فى الإمكان فقط أن تكف عن سؤالى، سؤالا بعد الآخر كأئنى، هذه الأيام، فى محكمة».

«حسنا جدا»، قلت.

كان ذلك واحدا فقط من مثل تلك المشاهد العديدة. بدا واضحا أن غيابى عن المدينة كان هو السبيل الوحيد لتحريرها؛ لإعطائها الزمان والمكان المناسبين لـ... لماذا؟ إننى لا أعرف، واعتقدت فيما بعد، فى الشتاء، أنها قد بدأت تعاني من ارتفاع محدود فى درجة الحرارة فى المساء. وجلب ذلك على مشهدا عنيفا آخر، عندما طلبت من بلتازار أن يقوم بفحصها، واستسلمت لسמاعة الطبيب، بهدوء نسبي، رغم غضبها. ولم يجد فيها بلتازار أى خلل بدنى، باستثناء أن سرعة نبضها قد زادت، وأصبح ضغطها أعلى من الوضع الطبيعى. إلا أنها، على أى حال، تجاهلت

إرشاداته عن المنبهات والمنعشات كانت قد غدت في هذا الوقت، أكثر نحافة.

استطعت أخيرا بعد عملية مداورة صابرة أن أنبش عن وظيفة صغيرة، أناسبها، وكانت هي، على نحو ما، مناسبة للوقع العام للأمور - إذ إنني لم أكن أتصور انفصالي عن كليا انفصالا نهائيا، إنه شيء ما له طبيعة الانقطاع. كان، في بساطة، انسحابا مخططا لشهور قليلة لأفسح مكانا لقرارات، أبعد نظرا، يمكن لها أن تتخذها. كانت هنالك عوامل جديدة أيضا، إذ بانتهاء الحرب، غدت أوروبا متاحة، في بطن، مرة أخرى. هنالك أفق جديد يفتح خلف خطوط المعركة. شيء ما كاد المرء أن يتوقف عن الحلم به، الشكل المبهم لأوروبا وقد سوتها بالأرض مطارق قاذفات القنابل، يعذبها الجوع والقلق والاستياء. ومع ذلك، فإنها ما زالت هنالك، وهكذا أخبرتها عن رحيلي دون أسى أو كآبة - ولكن كقرار واقعي يجب عليها أن ترحب به لصالحها. إلا أن الطريقة التي نطقت بها، وهي تشهق كلمة «بعيدا» قد أوحى للحظة قصيرة أنها، ربما كانت، رغم كل شيء خائفة أن تترك بمفردها «إنك، رغم كل شيء، سوف تذهب بعيدا».

«لشهور قليلة إنهم يبنون محطة للتحويل في الجزيرة، وهنالك حاجة لشخص يعرف المكان، يتحدث اللغة المحلية».

«عودة إلى الجزيرة»، قالت في رقة - وهنالك لم يكن في مقدوري أن أتبين ما في صوتها من معنى أو ما في فكرها من تصميم.

«لشهور قليلة فقط».

«حسنا جدا».

«سارت جيئة وذهابا فوق السجادة تحمق إلى أسفل فيها، في تفكير عميق، وفي جو من الحيرة والارتباك. رفعت عينيها فجأة تنظر إلى بتعبير

رفيق عرفت فيه، فى غصة، مزيجاً من تأنيب الضمير والحنان لهذا الأسى الواقع علينا دون قصد أو عمد. كان ذلك هو وجه كليا القديمة. إلا أننى كنت أعرف أنه لن يدوم، وأن ظل استيائها وسخطها سوف يلقي بنفسه ثانية فوق علاقتنا. لم يكن هنالك مجال لأثق فى نفسى، مرة أخرى، فى شىء لم يثبت إلا لفترة قصيرة. «أوه دارلى»، قالت وهى تمسك بىدى: «متى تذهب يا عزيزى؟».

«خلال أسبوعين. وأنا أقترح، لحين ذلك، ألا أراك البتة. ليس هنالك ما يدعو إلى أن يضايق الواحد منا الآخر بهذه المشاحنات».

«كما تشاء».

«سوف أكتب إليك».

«نعم، بالطبع».

كانت طريقة غريبة فاترة للفراق بعد مثل تلك العلاقة التى كان لها شأنها. أصاب مشاعرنا نوع من الخدر الشبحى. كان فى داخلى نوع من الألم العميق، إلا أنه لم يكن أسفاً. إن التصافح الخامد خمود الموت الذى تبادلناه لم يكن غير تعبير عن استنفاد غريب وحقيقى للروح. جلست فى المقعد تدخن فى سكون وتراقبنى وأنا أجمع حاجياتى معاً. وأنا أحشوها فى المحفظة القديمة البالية، التى استعرتها من تلفورد، ونسيت ردها إليه فى الصيف الماضى. كانت فرشة الأسنان قد تفلطحت فألقيت بها بعيداً، وكانت مناماتى ممزقة عند الكتف، إلا أن النصف التحتى، والذى لم أكن أستخدمه البتة، كان لا يزال متغضناً وجديداً. جمعت تلك الحاجيات كما يفرز الجيولوجى عينات من عصر ناء وبعيد. بعض الكتب والأوراق. بدا الأمر كله نوعاً من الأمور غير الحقيقية، إلا أننى لا أستطيع القول: إن أى شعور بالأسف العميق قد اختلط به.

«كم جعلتنا هذه الحرب مسنين مبتدلين». قالت فجأة كأنما تخاطب نفسها: «كان يمكن للمرء فى الأيام الماضية أن يفكر فى الابتعاد حتى يهرب من نفسه، كما كنا نقول، ولكن الهروب من.....».

أدرك الآن، وأنا أكتب هذه الكلمات، بكل ما فيها من ابتذال مرهق، أنها كانت تحاول حقا أن تقول وداعا. إنها فاجعة الرغبات البشرية. كان المستقبل، بالنسبة لى، مفتوحا غير ملتزم بوعد أو عهد. لم يكن فيه جزء واحد لا أستطيع حينئذ تخيله دون أن يحتوى كليا. بصورة ما، كان هذا الفراق... حسنا، كان فقط مثل تغيير الأربطة حتى يندمل الجرح. كنت عديم البصيرة، فلم أستطع التفكير بشكل محدد فى المستقبل الذى يمكن أن يلقي على كاهلى بمطالب غير متوقعة، بأشياء يمكن أن تكون جديدة تمام الجدة، يجب أن تترك مثل تلك الأمور لتشكل نفسها طبقا لما فيه الحاضر من فراغ. أما عن كليا، فقد كان المستقبل بالنسبة لها مسدودا، كان يمثل بالفعل حوارا خاليا من كل شىء. كانت المخلوقة المسكينة خائفة!

«حسنا، ذلك هو كل شىء»، قلت أخيرا، واقفا بالمحفظة تحت ذراعى، «إن كان هنالك ما تبتغيه، فما عليك إلا أن تدق جرس الهاتف لى سوف أكون فى مسكنى».

«إننى أعرف ذلك».

«سأبتعد إذن لفترة. وداعا».

سمعتها، وأنا أغلق باب الشقة الصغيرة. تنادى اسمى مرة، إلا أن ذلك كان، مرة أخرى، واحدا من تلك الأمور المخادعة، من تلك النوبات المحدودة التى تتسم بالشفقة والحنان، والتى تخدع المرء. كان من الحمق أن أعطى أى التفات أو انتباه، أن أرتد على عقبى وأفتح جولة جديدة من

الخلافات والنزاعات. هبطت السلم، مصمما على أن أدع للمستقبل كل فرصة حتى يللم جراحه.

كان يوما ربيعيا مشمسا رائعا، تبدو فيه الشوارع وقد غسلتها الألوان كان الشعور بعدم وجود مكان يذهب المرء إليه أو وجود أى شىء يفعله، محبطا ومنعشا. عدت إلى مسكنى فوجدت على رف المدفأة خطابا من بومبال يقول فيه: إنه من المحتمل أن يصل قريبا إلى إيطاليا، وأنه غير قادر على الحفاظ على الشقة مستقبلا. أبهجنى ذلك النبأ، إذ أنه يمكننى من إنهاء عقد الإيجار، الذى لن أكون قادرا على دفع نصيبى فيه قريبا. كان الأمر غريبا، إلى حد ما، فى البداية، بل ربما كان المرء فيه مخدرا إلى حد ما، أن أترك وشأنى كلية، إلا أننى سرعان ما اعتدت هذا الوضع. كما كان هنالك، بالإضافة إلى ذلك، قدر كبير حقا من العمل يجب إنجازه، بتصفية واجباتى فى الأعمال الرقابية، وتسليم مهام منصبى إلى من يخلفنى، بينما أقوم فى ذات الوقت، بجمع المعلومات العملية عن وحدة صغيرة من الفنين تقوم بإنشاء محطة للإذاعة. كان على أن أكون مشغولا للغاية بين هاتين الإدارتين باحتياجاتهما المختلفة. واحتفظت خلال تلك الأيام بكلمتى ألا أرى كليا. مضى الوقت فى نوع من الحبس يتقاذفه عالم الرغبة وعالم الوداع، رغم أنه لم تكن هنالك أية عواطف محددة، بصورة واضحة لى تمام الوضوح، لم أكن شاعرا بأسف أو شوق أو حنين.

ثم حدث أن حل أخيرا ذلك اليوم القاتل، قدم نفسه متتكرا تحت ابتسامة شمس ربيع ساطعة، حارة بما يكفى لتشجيع الذباب كى يتكاثر فوق زجاج النافذة. كان طينه هو الذى أيقظنى. كان ضوء الشمس ينثال فى الحجرة، وللحظة بهر عيني حتى إننى تعرفت فى صعوبة على الشخص المبتسم الجالس عند موضع القدمين فى فراشى، فى انتظار أن أفتح عيني. كانت كليا فى نسخة أصلية منسية من صورها، إن جاز القول، ترتدى جلبابا

صيفيا رائعا أشبه بكرمة عنب متموجة، وصندل أبيض، وقد نسق شعرها بطريقة جديدة. كانت تدخن سيجارة يعلق دخانها فى حلقات رائعة رمادية مجزعة فى ضوء الشمس فوقنا، وكان وجهها الباسم مسترخيا ليس به ظل لأى شىء يشغل بالها. حملقت فيها، إذ إنها بدت لى بدقة، وبصورة جلية كليا التى يجب أن أتذكرها دوما. كان الحنان الذى يتسم بالشقاوة قد عاد ثانية إلى عينيها.

«حسنا»، قلت فى دهشة ناعسة «ماذا....؟» وأحسست بأنفاسها الدافئة فوق وجنتى وقد مالت لتعانقنى.

«دارلى»، قالت «لقد عرفت فجأة أنك مغادر غدا، وأن اليوم هو مولد السكوب. لم أستطع مقاومة فكرة قضاء اليوم معا، وأن نزور الضريح هذا المساء أو قل إنك ستفعل ذلك. انظر إلى الشمس الساطعة. إنها دافئة بما يكفى للسياحة، كما يمكننا أن نصطحب بـلتازار معنا».

لم أكن قد استيقظت تماما. كنت قد نسيت عيد القديس القرصان.
«إلا أن عيد القديس سانت جورج قد مضى منذ زمن طويل»، قلت.
«إنه بالتأكيد فى نهاية إبريل».

«على العكس، إذ إن طريقتهم المركبة فى حساب التقويم القمري، قد حولته إلى عيد متحرك، مثله فى ذلك مثل كل الآخرين. إنه ينزلق الآن إلى أعلى وإلى أسفل مثل قديس محلى. إن بـلتازار، فى الحقيقة، هو الذى حدثنى بالهاتف أمس وأخبرنى به، وإلا كان المولد قد فاتنى». ثم صمتت لتنفخ سيجارتها. «يجب ألا يفوتنا. أليس كذلك؟»، أضافت فى قليل من التشوق.

«بالطبع يجب ألا يفوتنا! كم كان طيبا منك أن تحضرى».

«والجزيرة، ربما يكون فى وسعك الحضور معنا؟».

كانت الساعة قد بلغت العاشرة بالضبط. كان فى وسعى، فى سهولة، أن أتصل هاتفيا بتلفورد؛ لأقدم له عذرا عن غيابى اليوم، وقفز قلبى.

«إننى أحب ذلك، «قلت» كيف حال الريح؟».

«هادئة كراهبة، مع تدفق شرقى. إنها، كما يمكن أن أقول، مثالية بالنسبة للزورق. هل أنت متأكد من رغبتك فى الذهاب معنا؟».

كان معها دامجانة(*) تغلفها الأغصان المجدولة وسلة. «سوف أذهب لإعداد ما يلزمنا من مؤن، على أن ترتدى ثيابك وتقابلنى عند نادى اليخت خلال ساعة».

«حسنا». إن هذا سوف يمنحنى فسحة من وقت لزيارة مكتبى وفحص البريد اليومى. «إنها فكرة رائعة».

كانت الفكرة، فى الحقيقة، رائعة. كان اليوم صافيا يوحى بحرارة صيفية فيما بعد الظهر. وأخذت أخب فى الكورنيش الكبير، أتأمل غبش الأفق الخفيف وامتداد البحر الأزرق الساجى فى بهجة. كانت المدينة تتلأأ فى ضوء الشمس مثل جوهرة الزوارق الصغيرة رائعة، وقد ألفت مراسيها فى الحوض الداخلى، وصورها الممسوخة فى انعكاساتها البراقة. المآذن تزعق فى صوت عال والحرارة فى الحى العربى قد أنجبت الروائح المعتادة، للطين الآخذ فى الجفاف والأشبه بالجيفة، للقرنفل والياسمين، لعرق الحيوان والبرسيم، وأقزام داكنى اللون، فى شارع التتويج، فوق سلالم، وقد ارتدوا قبعات قرمزية كأوانى الزهور، يشدون حبال أعلام من الشرفات. أحسست بدفع الشمس فوق أصابعى. عبرنا أمام الموقع

(*) قارورة كبيرة ضخمة ضيقة الرقبة - المترجم.

الفرعوني القديم الذي تغص المناطق الضحلة بقطعه المهمشة. إن توبى مانرينج، كما أتذكر، قد أراد ذات مرة أن يبدأ تجارة عاديات. يبيع تلك الكسر الفرعونية كثقالات للورق. كان على سكوبي أن يكسرها له بشاكوش، وكان عليه هو أن يسلمها لباعة التجزئة في كل أنحاء العالم. لماذا خاب هذا المشروع؟ إنني لا أتذكر ذلك ربما وجد سكوبي أن العمل شاق للغاية؟ أو ربما تداخل مع ذلك المشروع الآخر لبيع مياه نهر الأردن إلى القبط بسعر تنافسي؟ هنالك في مكان ما، فرق عسكرية تشير ضوضاء عالية.

كانا هنالك في انتظاري أسفل عند الرصيف. طوح بـلتازار عصاه في مرج. كان يرتدى سروالا وصندلا أبيض وقميصا ملونا، ويعبث في قبعة بنمية(*) عتيقة مائلة إلى الصفرة.

«اليوم الأول من الصيف»، ناديت في بهجة.

«إنك مخطئ». قال في صوت كالتقيق. «انظر إلى هذه الغبشة. إنه بالفعل يوم حار تماما. لقد راهنت كليا على ألف قرش أن عاصفة رعديّة سوف تهب فيما بعد الظهر».

«إن لديه دوما شيئا يقوله»، ابتسمت كليا.

«إنني أعرف إسكندريتي»، قال بـلتازار.

شرعنا في طريقنا وسط تلك المسرات العابثة، وقد جلست كليا عند ذراع دفة زورقها الصغير بالكاد. كانت هنالك نسمة ريح داخل الميناء. أخذت تبخر في بطن، بصورة ما، تلملم طريقها فقط بزخم الأمواج التي كانت تميل ناحية مدخل الميناء. سرنا متلصصين بين البوارج الحربية

(*) نسبة إلى بنما - المترجم.

وسفن نقل الركاب، نقاوم تلاطم أمواج القناة الرئيسية في تردد وإحجام. لم يكن الإبحار الرئيسى قد اقترب بعد، حتى بلغنا فى النهاية أخلاط الطوابى الرمادية التى تحدد المدخل الرئيسى للميناء. يوجد هنا، دوما كمية من المياه المتلاطمة كدسها المد والجزر. غصنا، تعرجنا، بالزورق فترة حتى ترنح فجأة واتخذ مساره فوق الريح واستقر صاربه الأمامى. أخذنا ننز فى البحر مثل السمك الطيار، كأن الزورق مقدم على اقتحام أحد النجوم كالأخزوق. استلقيت بين الألواح، أحملق إلى أعلى فى الشمس الساطعة الذهبية عبر الأشرعة، أسمع ثرثرة المويجات عند مقدم السفينة الرشيق. كان بلتازار يطن بلحن ما. رقد معصم كليا البنى فوق ذراع الدفة فى إهمال رقيق خداع. وتوترت الأشرعة. تلك هى متع الإبحار فى زورق صغير عبر طقس مثالى. إنها تسمو بالقلب. أمسكت بى فرحة صامته، خليط من النعم التى تولدها الشمس الدافئة والريح السريعة واللمسات الباردة الخفيفة للرداذ الذى يصطدم بوجناتنا من وقت لآخر. ذهبنا بعيدا فى اتجاه شرقى حتى نتمكن من التوجه نحو الشاطئ. إننا، وحتى الآن، قد قمنا بهذه المناورة كثيرا حتى إنها غدت مزاجا ثانيا لكليا، أن تبهر إلى جزيرة ناروز الصغيرة، وأن تحدد بدقة اللحظة المناسبة، التى عليها أن تستدير فيها فى عين الريح وتتمهل، ليرفرف الشراع مثل رمش العين، فأطويه، وأدفع به نحو الشواطئ مسرعا.

«عمل متقن حقا»، قال بلتازار مستحسنا بينما يخطو فى الماء ثم، «يا إلهى، إنه دفء خيالى تماما».

«ماذا قلت لك؟»، قالت كليا وهى مشغولة بصندوق القارب.

«إن ذلك يثبت صحة ما قلت عن العاصفة الرعدية».

وجاءت فى تلك اللحظة، وللغرابة الشديدة، قعقة الرعد الواضحة
من تلك السماء الخالية من السحب.

«هناك»، قال بلتازار فى انتصار، «سوف تتشبع بالماء تشبعا جيدا، كما
أنك سوف تكونين مدينة لى ببعض النقود يا كليا». «سوف نرى».

«إنها بطارية ساحلية»، قلت أنا.

«سخف وهراء»، قال بلتازار.

وهكذا أمنا الزورق وحملنا مؤننا إلى الشاطئ. رقد بلتازار على ظهره
واضعا قبعته فوق أنفه وهو فى أكثر حالاته مرحا. إنه لا ينزل البحر، يبدى
عدم مبالاته بالسباحة. غطست أنا وكليا مرة أخرى فى البحيرة المألوفة لنا
والتي أهملناها طوال الشتاء. لا شىء تغير. الديدبانات ما زالت هنالك،
متجمعين فى نقاش صامت. كان مد الشتاء وجزره قد غيرا بعض الشىء
من ترتيبهم، بحيث تجمعوا أقرب قليلا إلى الحطام. حيناهم ساخرين
وإن كان فى احترام، ونحن نتعرف، فى تلك اللمحات القديمة وابتسامات
ما تحت الماء، على سعادة اعتدناها. تنمو مع صفاء الاستحمام معا، مرة
أخرى كان الأمر وكأن الدم قد بدأ جريانه ثانية فى عروق طال وهنها، من
عدم استخدامها. أمسكت بها من كعبها وأدرتها فى شقبة طويلة نحو
البحارة الموتى. استدارت فى مهارة لترد لى دينى بالصعود خلفى، تدفعنى
من كتفى إلى أسفل وتتسلق إلى أعلى قبل أن أرى على فعلتها بمثلها. إنه
هنا، وهى تصعد نحو السطح بطريقة لولبية عبر الماء وشعرها يتلوى
خلفها، عادت صورة كليا ثانية. لقد أعادها الزمن، كاملة وصحيحة، مرة
أخرى، طبيعية مثل آلهة فنون المدينة رمادية العينين، كما يمكن أن نقتبس

من الشعر اليونانى. إن أصابعها، تحديدا، والتي ضغطت بها فوق كتفى،
قد بعثتها من جديد، فى سرعة، بينما تنزلق عبر البركة الصامته.

ثم نجلس ثانية بعد ذلك فى ضوء الشمس الخالص، نرشف نبيذ
القديس متياس الأحمر، بينما تكسر هى رغيفا دافئا بنيا من الخبز الفرنسى
وتبحث عن نوع بذاته من الجبن وعنقود بلح، بينما يتحدث بلتازار بطريقة
استطراذية (وهو نصف نائم) عن كرمة آمون، ملوك مملكة الحراب
ومعاركهم، أو عن نبيذ مريوط، الذى عزى إليه هوراس المنام، وليس
التاريخ، اضطراب كليوباترا العقلى.... «ويقر التاريخ كل شىء، ويعفو
عن كل شىء - حتى تلك الأشياء التى لا نغفرها نحن أنفسنا».

جاءت الظهيرة الدافئة ونحن نرقد هنالك فوق حصى ساخن: أخيرا،
ولفرحة بلتازار الهائلة وخيبة كليا؛ ظهرت العاصفة الرعدية المتنبأ بها،
تبشر بها سحابة رعدية تتدحرج من الشرق لتقع فوق المدينة كالقدمة فى
المساء. وفجأة أيضا - كما تفعل سمكة الحبار عندما تحس الخطر فتنفخ
ما فى كيسها لتحيل الماء الصافى إلى سحابة سوداء - انساب المطر فى
صفائح براق، وخار الرعد فى لجاجة وإلحاح. بلتازار يصفق بيديه فرحا
مع كل هزيم وقصف؛ ليس فقط لإثبات صحة نبوءته، ولكن أيضا لأننا كنا
نجلس هنا فى ضوء الشمس الساطع، نحس الراحة تماما، نأكل البرتقال
ونشرب النبيذ إلى جوار بحر أزرق هادئ.

«كف عن الصياح كالغراب»، قالت كليا فى حدة.

كانت هذه واحدة من تلك العواصف الأشبه بالتزوات، والتي تنتشر
فى باكورة الربيع، بما فيه من تغيرات فى درجة الحرارة يولدها البحر
والصحراء. كانت تحيل الشوراع، فى لمح البصر إلى سيول جارفة، ورغم

ذلك فإنها لا تدوم أبدا أكثر من نصف الساعة. وفجأة تدفع بقية من ريح تلك السحابة بعيدا، لتختفى كلية.

قال بلتازار ثملا بتحقيق نبوءته «أصغيا إلى الآن. إننا ما إن نعود إلى الميناء حتى يكون كل شيء جافا ثانية، جافا مثل عظمة من العظام».

جاء ما بعد الظهر ومعه ظاهرة أخرى بعثت البهجة في نفوسنا؛ شيء ما يندر رؤيته في الصيف في مياه الإسكندرية، يتمي إلى تلك الأيام التي تسبق عواصف الشتاء، عندما يتساقط الزجاج حادا. أظلمت مياه البركة بصورة واضحة، تخرت، ثم غدت مضيئة متألقة. كانت كليا هي التي لاحظت ذلك أولا.

«انظر»، صاحت في فرحة، دافعة كعبيها في المياه الضحلة، تراقب شرارة الضوء المتألثة القارصة الصاعدة منها. «فسفور!».

بدأ بلتازار يقول شيئا عن الكائن الذي يسبب هذه الظاهرة، إلا أننا لم نلتفت إليه وغطسنا، جنبا إلى جنب، متجهين إلى أسفل في المياه. تحولنا إلى شخوص من لهب. كانت الشرارات تبرق من أطراف أصابع أيدينا وأقدامنا تشع بكهربية إستاتيكية. السابح تحت الماء يبدو لمن يراه مثل صورة رسمت لسقوط إبليس بالتحديد فوق النار. كانت قطعة الكهرباء واضحة حتى إننا لم نستطع أن نمنع إحساسنا بالحيرة. كيف أننا لم نصطل بها. لعبنا، نتألق مثل نجوم مذنب، بين البحارة الساكنين، والذين جلسوا يراقبوننا بأفكارهم، يرددون في وهن اختلاج المد والجزر في أكياسهم المصنوعة من الخيش.

«السحابة تنقشع بالفعل»، صاح بلتازار عندما عدت أخيرا إلى السطح كي أستنشق بعض الهواء. التآلق المضيء الشارد سرعان ما يتناقص

ويتلاشى. كان لسبب، أو آخر، قد صعد إلى مؤخرة الزورق، ربما إلى مكان أعلى، أكثر ارتفاعا وأكثر سهولة لرؤية العاصفة الرعدية فوق المدينة.

أرحت ساعدي فوق حافة الزورق وأخذت نفسي. كان قد فض أربطة بندقية الرمح القديمة، بندقية ناروز، وكان يمسك بها في إهمال فوق ركبته. خرجت كليا إلى السطح في رنة فرحة. ظلت صامتا فترة طويلة لتصيح: «النار جميلة للغاية». أثنت جسدها الرشيق المياس وغطست ثانية إلى أسفل.

«ماذا تفعل بتلك؟» تساءلت في حمق.

«أرى كيف تعمل؟».

كان في الحقيقة، قد دفع بالحربة لتستقر في الماسورة. أغلق عليها الزنبرك.

قلت: «الزناد مرفوع، خذ حذرك».

«نعم سوف أطلقه».

مال بلتازار إلى الأمام. نطق الملحوظة الوحيدة الجادة بين كل ما صدر عنه طوال ذلك اليوم.

«أنت تعرف»، قال «إنني أعتقد أنه من الأفضل أخذها معك. إن لدى إحساسا أنك لن تعود ثانية إلى الإسكندرية خذ كليا معك!».

ثم، وقبل أن أجيب، وقعت الحادثة؛ كان يعبث في البندقية بينما كان يتكلم. انزلقت من بين أصابعه. سقطت في صدمة شديدة. خبطت الماسورة حافة الزورق على بعد ست بوصات من وجهي سمعت، وأنا أترجع وقد أحسست بالخطر، الأزيز المفاجئ لضغط الهواء الذي يشبه

صوت الكوبرا، والخنقة الثقيلة لانطلاق الزناد. صفر الرمح فى الماء إلى جانبى، يخشخش حبله الأخضر الطويل خلفه «من أجل خاطر المسيح»، قلت. تحول لون بلتازار إلى الشحوب انزعاجا وإحساسا بالخطر. كان ما نطقه من اعتذارات مجتزءا وتعبيرات الدهشة الفزعة واضحة بليغة: «آسف شديد الأسف». كنت قد سمعت التكة الخفيفة للصلب وقد استقرت فى هدف ما فى مكان ما، هنالك أسفل فى البحيرة. وقفنا متجمدين مدة ثانية، إذ بزغ شىء آخر فى ذات الوقت فى عقلينا عندما رأيت شفتيه وقد بدأتا تتخذان شكل الكلمة، «كليا» - أحسست بظلمة تهبط على روحى - ظلمة ارتفعت وانتقضت عند الأطراف، ودفعة مثل زفزة أجنحة عملاق. استدرت بالفعل قبل أن ينطق الكلمة اندفعت فى الماء.

مرة أخرى، أتبع الحبل الأخضر الطويل بكل قلق وحيرة أريادن(*)، يضاف إلى ذلك كل البطء الذى لا يصدر إلا عن خشية القلب الحزين. كنت أعرف، بعقلى، أننى أصبح بعزم وقوة، ورغم ذلك بدا الأمر مثل واحد من تلك الأفلام البطيئة الحركة، حيث تبطئ آلة التصوير الأفعال البشرية وتطيلها بطريقة لينة ملساء إلى ما لا نهاية، ملفوفة مثل الحلوى. كم عدد السنوات الضوئية التى يستغرقها المرء حتى يصل إلى نهاية ذلك الحبل؟ ماذا سأجد عند نهايته؟ غصت إلى أسفل، إلى أسفل فى الوميض المتألق المتناقص، من برودة البحيرة العميقة بظلالها.

استطعت أن أتبين، عند النهاية البعيدة، قرب الحطام، حركة متكورة متشنجة، واستطعت أن أعرف فى غير وضوح على هيئة كليا وشكلها. كانت تبدو منهمكة، عن عمد، بلعبة طفولية تحت الماء، من ذلك النوع الذى غالبا ما كنا نلعبه معًا. كانت تجذب بعنف شبيئا ما، وقد دفعت بقدميها

(*) ابنة مينوس التى أعطت تيسوس الحبل وبذلك هرب من التيه - المترجم.

إلى خشب الحطام، تشد وترخى جسدها. أحسست بموجة من الراحة، رغم أن الحبل الأخضر كان يقود إليها، إذ ربما تحاول فقط تخليص الرمح وحمله إلى السطح معها. ولكن كلا، إذ كانت تتدحرج كالسكري. انزلقت إلى جانبها مثل ثعبان الماء، أتحسس يدي. أدارت رأسها عندما أحست بي قربها، كأنما تريد أن تخبرني بشيء ما أعاق شعرها الطويل رؤيتي. لم أستطع قراءة ما ارتسم على وجهها من ألم يائس. لا بد أنه كان مسطورا فوقه - إذ إن المياه تحول كل تعبيرات الملامح البشرية إلى الجهامة الخرقاء الجاحظة لسماك الحبار. إلا أنها تقوست الآن، دفعت برأسها إلى الوراء فانساب شعرها من فروة رأسها في حرية إلى أعلى، حركة تصدر عن امرئ، يفتح رداء ليعرض جرحا ورأيت. كان الرمح المصنوع من الصلب قد اخترق يدها اليمنى ومسمرها في الحطام، إنه لم يمر، على الأقل بجسدها. صرخ عقلي مرتاحا باحثا عما يواسيه إلا أن الشعور بالراحة تحول إلى يأس سقيم خبيث عندما أمسكت بالسهم الصلب ودفعت قدمي في مواجهة الخشب، أ جذب بقوة حتى طقطقت عضلات فخذي. إنه لا يتحرك قيد أنملة. (كلا، إن كل ذلك لم يكن غير جزء من حلم لا معقول، ربما صنع في العقول الميتة للشخص السبع المتأمل، والتي ترعى بعناية شديدة، وتدقيق شديد، الحركات والمناورات التي تحتاج إلى جهد مرهق، والتي نقوم بعرضها الآن. إننا لم نعد حُرِين أو سريعي الحركة كالأسماك. إننا الآن مرتبكان مفلطحان، مثل جراد بحر وقد سقط في شرك إناء). ناضلت بجنون، ذلك السهم الصلب، وأنا أرى بركن عيني، السلسلة الطويلة من الفقايع البيضاء المندفعة من حلق كليا. أحسست بعضلاتها تتمدد، تتناقص قدرتها كانت تستقر تدريجيا في وسن الماء الأزرق، وقد غزاها الماء الذي أصاب البحارة بالخمود بالفعل، وأنامهم. وهزرتها. إنني لا أستطيع الزعم بأن أي شيء تلا ذلك

كان يرجع إلى إرادتى - إذ إن الغضب المجنون الذى سيطر علىّ لم يكن البتة واحدا من المشاعر التى عرفتھا كمشاعر تنتمى إلى ذاتى الحقيقية. لقد تجاوزت، فى ضراوة عمياء عنيفة، أى شىء أحسسته، على الإطلاق، من قبل. أحسست وأنا فى هذا الحلم الغريب الأبدى تحت الماء أن عقلى یرن جرس إنذار سيارة إسعاف، یزىل الجزر والمد الخامد الواهن لظلمة البحر. لقد نخسنى فجأة مهماز الرعب الحاد. كان الأمر وكأنى أواجه نفسى لأول مرة، أو ربما تشكلت ذات أخرى لرجل عمل لم أعرفه فى نفسى من قبل. انطلقت إلى السطح ثانية، بدفعة واحدة وحشية، لأظهر تحت أنف بلتازار مباشرة.

«السکین»، قلت وأنا أمتص الهواء.

حملت عيناه فى عینى، كأنما ينظر إلىّ من فوق قارة ما غارقة، فى تعبير شقوق فزع ومشاعر مكنونة، متحفزة، منذ زمن جليدى للذاكرة البشرية. بدأ، وقد أمسك به خوف فطرى، یتهته كل الأسئلة التى غزت عقله، كلمات مثل «ماذا»، «أین»، «متى»، «أى مكان» (*). إلا أن العى أصابه فلم ينطق غیر الحرفین الأولین. إنها طريقة للسؤال غائمة تطفح بالكرب والألم المبرح. كانت السکينة التى تذکرتها سونکیا إیطالیا، جلع حتى غدا فى حجم الخنجر، وسن حتى غدا فى حدة الموسى. كان «على» النوتى قد صنعه متباهيا به. كان یستخدمه فى تشذیب الحبال، فى أعمال الربط والتجهیز. تعلقت هنالك مدة ثانية، بينما سعى هو لإحضاره، وقد أغلقت عینى ورئتى، كما یبدو، تنهلان الجو کله، ثم أحسست بالجزء الخشبى من الخنجر فى أصابعى، فأدرت أصابع قدمى نحو المساء دون

(* What, Where, When, Whither - وتبدأ كلها فى الأصل الإنجلیزى بـ wh وهما

الحرفان اللذان استطاع نطقهما (المترجم).

أن أتجاسر على النظر مرة أخرى إلى بلتازار، وعدت أقتفى آثارى، أتبع الحبل الأخضر.

كانت معلقة رخوة مسترخية، تتمدد مترهلة، بينما شعرها الطويل ينبسط خلفها، والأمواج تتماوج على جسدها وخلالها، بدت كأنها موجة كهربية تتلاعب. كان كل شيء ساكنا، ودوائر ضوء الشمس الفضية الأشبه بالعملات تلمع رقطاء فى أرض البحيرة، والمراقبون الصامتون، التماثيل التى تتحرك ذقونها فى بطء، تتمايل فى لين إلى الأمام والخلف عندما بدأت أحز عند يدها. كنت، عقليا أعد مكانا خاليا فسيحا فى خاطرى لموتها مكانا كبيرا أشبه بقارة صغيرة، لم تكتشف بعد، فى خرائط العقل. لم يمض وقت طويل للغاية قبل أن أشعر بجسدها يفصل تحت ثقل هذه العقوبة المريرة. أقمت المياه. أسقطت السكين وبدفعة قوية أرسلتها تترنح بعيدا عن الحطام: أمسكت بها من تحت الذراعين، وهكذا صعدنا. بدا وكأن الأمر قد استغرق حقبة من الزمان، ودقات قلب مطردة لا نهائية، فى ذلك العالم بطيء الحركة. ومع ذلك، فإننا ارتطمنا بالسما فى ارتجاج أفرغ ما فى جوفى من أنفاس، وكأنى قد شققت جمجمتى فى سقف الكون وقفت فى المياه الضحلة أخرج كتلة جسدها المخضلة بالدماء. سمعت صوت أسنان بلتازار تنحطم وقد سقطت فى الزورق. عندما قفز إلى الماء بجانبى. لهثنا، نخرنا كالخنازير، كالعاملين فى شحن السفن وتفريغها حتى أخرجناها فوق الحصى. حبا بلتازار، فى تلك الأثناء، ليمسك بهذه اليد المصابة الدامية كان أشبه بكهربائى يحاول أن يقبض على سلك على الجهد. كان قد أفلت من موضعه ويعزله. ما إن أمسكها حتى تعلق بها كما يعلق المرء برذيلة ما. بدت أمامى، فجأة، صورة طفل صغير تعلق، فى عصبية، بيد أمه وسط زحام من أطفال آخرين، أو بينما يعبر حديقة حيث قام الصبية ذات يوم بإلقاء الحجارة عليه... وقذف عبر

لثته الوردية كلمة «دوبارة» - وكان فى صندوق الزورق، لحسن الحظ، ما يمكن أن يحقق حاجته.

«لكنها ماتت»، قلت وأثرت الكلمة فى دقائق قلبى فبدلتها حتى أحسست أنى أوشك على الإغماء. كانت ترقد كطائر بحر سقط فوق بقعة الحصى الصغيرة. كان بلتازار يكاد يجلس القرفصاء فى الماء ممسكا، فى حالة من الجنون، بيدها التى ما كان فى وسعى احتمال النظر إليها، ولكن، مرة ثانية، جاء صوت هذه الذات المتغيرة المجهولة من بعد سحيق، ليعاوننى فى إعداد ضاغط للشرايين، أُلْف فيه قلمًا وأناوله له. مددتها الآن وأنا ألُهِث. نزلت عليها بجمع كفى، أطحن بقوة فوق ظهرها، وكأن يدي قادمة من ارتفاع شاهق، أحسست أن الرئتين المشبعتين بالماء تثبان تحت هذه اللطمة الفظة القاسية. بدأت أعصرهما، فى ببطء، ولكن فى عنف هائل بتلك الطريقة المثيرة للشفقة والتى تماثل، إلى حد ما، فعلا جنسيا - إنقاذ الحياة. ومنح الحياة. بدا بلتازار كأنما يصلى. جاءت بادرة من الأمل إذ انفتحت شفتى هذا الوجه الشاحب. وسال منهما مزيج من مياه البحر والقيء. لم يكن ذلك، بالطبع، يعنى شيئا، إلا أن كلينا صرخ لهذا البشير. أغلقت عينى وأعددت معصمى ألتمس هاتين الرئتين المحملتين بالماء ولعصرهما وتفرغهما أخذت أعلو وأهبط، أعلو وأهبط، أضخهما بهذا الإيقاع البطيء القاسى. أحسست بعظامها الرقيقة تزيق تحت يدي إلا أنها كانت لا تزال راقدة بلا حياة. لكننى ما كنت أقبل بفكرة أنها قد ماتت، رغم أنى كنت أدرك ذلك بجزء من عقلى. أحسست أننى أصر بجنون لإثبات عكس ذلك، أن ألقى جانبا، لو لزم الأمر، بما تمليه الطبيعة، وإجبارها على الحياة بفعل إرادى. أدهشتنى هذه القرارات، التى وجدت كصور واضحة محددة وراء الجهد البدنى الذى يغيب المرء عن رشده، وأنين هذا العمل وعرقه. لقد قررت، كما أدركت، إما أن أعيدها إلى الحياة أو أبقى هنالك

معها أسفل عند قاع البحيرة. ولكن من أين، من أى منطقة فى الإرادة، جاء مثل ذاك القرار، لقد عجزت عن تخمين ذلك! ارتفعت حرارة الجو فغدا حارا. كنت أتفصد عرقا. بلتازار ما زال جالسا ممسكا باليد، يد الرسامة، فى تذلل مثل طفل على ركبة أمه. كانت الدموع تنثال أسفل أنفه، ورأسه تذهب من جانب إلى آخر فى تلك الحركة اليهودية المعبرة عن ندم يائس، ولثته الخالية من الأسنان تصدر ذلك الصوت القديم إلى جوار حائط المبكى «آيى آيى»، ولكن فى رقة شديدة، كأنه يود ألا يقلقها.

أخيرا جاءت المكافأة. تفجر، فجأة مثل ميزاب تحت ضغط المطر، انفتح فمها ليقذف بكتلة من قىء وماء البحر، فتات خبز مشبع بالماء وبرتقال. حملتنا فى هذه الخلطة بفرحة طاغية، كأننا نحملق فى غنيمة نصر عظيم. أحسست بالرئتين تستجيبان فى بطء ليدى. مزيد من ضربات أخرى، من هذه الآلة الفجة، وبدأت حركة تموج ثانوية تضطرب فى جهاز بدنها العضلى. كانت الرئتان تكادان، مع كل دفعة إلى أسفل، تعطيان فى تردد وألم قدرا من الماء. ثم سمعنا بعد فترة من الوقت طويلة، إجهاشة واهنة لا بد أن تلك العملية كانت تسبب الألم، كما تؤلم الأنفاس الأولى القليلة لطفل حديث الولادة. كان جسد كليا يحتج على هذا الميلاد الجديد القسرى. تحركت، على حين بغتة، تقاطيع هذا الوجه الشاحب. شكلت نفسها لتعبر عن شىء بالألم والاحتجاج (نعم إلا أنه من الموضع أن يعرف المرء).

«استمر»، صاح بلتازار فى صوت جديد، مهتز ومنتصر. لم يكن فى حاجة لإخبارى بذلك. كانت تختلج الآن قليلا. كان وجهها يبدو متشكيا، دون صوت، مع كل دفعة. بدا الأمر وكأنه بداية تشغيل آلة ديزل باردة للغاية. ومع ذلك حدثت، أخيرا، معجزة - فتحت عينين زرقاوين تماما، فاقدتى الإبصار، مشتتين، مدة ثانية، لتفحص الأحجار التى أمام

أنفها بتركيز حائر، ثم أغلقتهما ثانية. كانت تقاطيعها قد أظلمت من الألم، إلا أن الألم، حتى الألم، كان انتصارا - إذ إنه كان، على الأقل، تعبيرا عن أحاسيس حية - أحاسيس حلت محل قناع الموت الشاحب: «إنها تتنفس»، قلت. «بلتازار، إنها تتنفس إنها تتنفس»، كرر الكلمات فى نوع من الطرب الأحمق. كانت تتنفس. شهقات قصيرة مترنحة مؤلمة بصورة واضحة واقترب الآن نوع آخر من العون. كنا منهمكين تماما فى هذه المهمة، فلم نتنبه إلى أن سفينة قد دخلت المرفأ الصغير. كان القارب البخارى لخفر الميناء. لقد رأونا وخمّنوا أننا نواجه أمرا ما غير طبيعى. «يا الله يا رحيم»، صاح بلتازار وهو يصفق بذراعيه مثل غراب عجوز.

وجاءت أصوات إنجليزية مرحة عبر المياه تسأل إن كنا فى حاجة للمساعدة. تقدم بحاران إلى الشاطئ نحونا «سوف نعيدها فى سرعة»، قال بلتازار وهو يعبس منتفضا.

«أعطها بعض البراندى».

«كلا». قال فى حدة. «لا براندى».

أحضر البحارة، إلى الشاطئ، غطاء من المشمع لفوها فيه برقة مثل كليوباترا. لا بد أنها كانت، بالنسبة لعضلاتهم، خفيفة خفة وبر الجمال. كانت حركاتهم الرقيقة، غير الرشيقة، مؤثرة حتى إن الدموع طفرت من عيني: «ارفع هنالك على مهل يانوبى كن رقيقا مع السيدة الصغيرة».

«هذا الضاغط للشرابين يجب مراقبته اذهب أنت أيضا يا بلتازار».

«وأنت؟».

«سوف أعود بزورقها».

لم نضيع مزيدا من الوقت. فى لحظات قليلة أخذ الموتور القوى

للقارب يثير الضوضاء، يبحر بهم بسرعة عشر عقد. سمعت أحد البحارة يقول: «ماذا عن بعض «البوفريل» الساخن؟».

«العاصمة»، قال بلتازار. كان مشبعا بالماء حتى النخاع. كانت قبعته تعوم في الماء إلى جوارى. تذكر، فجأة شيئا وهو يميل على مؤخرة الزورق.

«أسنانى. أحضر أسنانى».

راقبتهم مدة من الزمن وهم يختفون عن الأنظار، ورأسى بين راحتى. وجدت لدهشتى أننى أنتفض مثل جواد أفرعته صدمة ما. هاجمنى صداد يشق الرأس. صعدت إلى الزورق وأخذت أبحث عن البراندى والسجائر. كانت بندقية الصيد ترقد فوق الألواح. ألقيت بها من فوق ظهر الزورق وأنا ألعن. راقبتها وهى تزحف بطيئا إلى أسفل فى البركة. هزرت شراع المقدمة وأدرت الزورق على امتداد طوله حتى هلب المؤخرة. دفته إلى الخارج حيث الرياح. أخذ ذلك منى وقتا أكثر مما كنت أقدر، إذ إن رياح المساء كانت قد انحرفت بضع نقاط. كان على أن أتخذ مجرى أكثر اتساعا قبل أن أصل إلى مسار عودتى. كان «على» فى انتظارى. كان قد أخبر بالحادث بالفعل، وكان يحمل لى رسالة من بلتازار تقول: «إن كليا قد أخذت إلى المستشفى اليهودى».

أخذت «تاكسى» فور العثور عليه. عبرنا المدينة بأقصى سرعة بدت الشوارع والأبنية، ونحن نعبرها، كاللطخات. كنت قلقا مضطربا. حتى إنى رأيتها كأنما عبر زجاج شبك رصعه المطر. كان فى وسعى أن أسمع العداد وهو يتك مثل النبض فى مكان ما، فى جناح ما، يمكن أن تكون كليا راقدة الآن تشرب الدم عبر ثقب إبرة فضية، سوف يمر، قطرة، فى الوريد المتوسط مع كل دقة من دقات القلب. قلت لنفسى، ليس هنالك

ما يثير القلق، ثم ضربت بقوة، غضبا، فى جدار التاكسى المحشو، عندما فكرت فى يدها المهشمة.

تعقبت ممرضة نوبتجية عبر الممرات الطويلة الخضراء، والتي كانت جدرانها المدهونة بالزيت ترشح جوا من الرطوبة. اللمبات البيضاء تومض، تتخلل تقدمنا، تغوص فى الظلمة مثل حباب متفخة. فكرت متأملا فى أنهم ربما قد وضعوها فى الجناح الصغير، ذى السرير الواحد، المزود بالستائر، والذي كان يحتجز فى الماضى للحالات الحرجة، والتي كان احتمال بقائها حية ضئيلا. إنها الآن حجرة الحوادث الطارئة. كان ينمو فى أعماقى الآن إحساس بألفة الأشباح فى الماضى. جئت إلى هنا لأرى ميليسا. لا بد أن كليا ترقد فى نفس السرير الحديدى الضيق فى الركن إلى جوار الحائط (وكان الحياة الحقيقية تقلد الفن فى هذه النقطة).

التقيت، على أى حال، بأماريل وبلتازار فى الممر واقفين، وقد ارتسم على ملامحهما تعبير غريب بالتطهر، أمام حامل متحرك أنت به إليهما للتو ممرضة نوبتجية. كان عليه عدد من صور أشعة إكس المبللة اللامعة. كان الرجلان يفحصانها فى قلق ووقار، كأنما يفكران فى مشكلة من مشاكل الشطرنج. رآنى بلتازار فاستدار وقد أضاء وجهه. «إنها بخير تماما»، قال فى صوت يكاد يكون محطما، بينما يعصر يدي. ناولته أسنانه، فاحمر خجلا، ووضعها فى جيبه. كان أماريل يرتدى نظارة قراءة ذات حواف كالقرون. استدار من دراسته التى كان منكبا عليها، لهذه الصور المتدلية والتي تسيل منها القطرات وعلى وجهه تعبير غضب جامح. «أى جحيم ملعون يجعلك تتوقع منى أن أفعل شيئا بهذا الخليط»، انفجر وهو يلوح بيده البيضاء المتعجرفة فى اتجاه صور أشعة إكس. وثار تائرتى لما أحسست به من اتهام ضمنى، وأخذنا، فى ثانية، نصرخ فى بعضنا البعض مثل باعة السمك، وقد امتلأت عيوننا بالدموع. أعتقد أننا كنا نوشك على

تبادل اللكمات، بسبب السخط الخالص، لولا تدخل بلتازار فيما بيننا. تلاشى للحال غضب أماريل، وسار من حول بلتازار ليعانقني وتمتم معتذراً.

«إنها بخير». قال مدمدماً، وهو يربت على كتفي مواسياً. «لقد طببناها بطريقة آمنة».

«دع الباقي لنا». قال بلتازار.

«أود أن أراها». قلت وأنا أغبطهما - كأنها غدت، وقد أعدتها إلى الحياة، ملكاً خاصاً لي أيضاً، بصورة ما. «هل أستطيع رؤيتها؟».

سمعت وأنا أدفع، أنسل في حرص إلى الحجرة الصغيرة، أماريل يقول برما:

«إنه لمن الجيد جداً أن يتحدث المرء عن معالجة جراحية بهذه الطريقة الذلقة».

كانت الحجرة هادئة جداً وبيضاء بنوافذها الطويلة. كانت ترقد ووجهها إلى الحائط في هذا الفراش الحديدى المتعب فوق قوارير صفراء مطاطية. كان لها رائحة الزهور، رغم أنه لم تكن هنالك زهور يمكن رؤيتها، كما أننى لم أستطع تحديد الرائحة. ربما كانت رذاذاً صناعياً من رشاشة عطر لا تنسى أبداً؟ سحبت، فى هدوء مقعداً إلى جوار الفراش وجلست. كانت عيناها مفتوحتين تحملقان فى الحائط بتلك النظرة الدائخة التى توحى بتأثير المورفين والإرهاق معاً. ورغم أنه لم يبد ما يشير إلى أنها قد سمعتنى وأنا أدخل، إلا أنها قالت فجأة:

«أهذا أنت يا دارلى؟».

«نعم».

كان صوتها واضحا. تنهدت وهى تتحرك حركة خفيفة، كأنما تعبر عن ارتياحها لحضورى. «إننى سعيدة للغاية». كان فى صوتها نغمة إرهاب توحي بأنه فى مكان ما وراء قيد ألمها الحالى وتهويمها، تتحرك ثقة بالنفس جديدة. «لقد أردت أن أشكرك».

«إن أماريل هو من تحبين»، قلت وأنا أكاد أذرف الدمع. قلت ذلك بطريقة لا إرادية تماما. انفتح فجأة مصراع فى عقلى. أدركت أن هذه الحقيقة الجديدة التى أعلنها، كانت من الحقائق التى عرفتھا دائما، لكن دون أن أكون واعيا بهذه المعرفة! أما وقد اتسم الأمر بهذا القدر من الحمق، فقد كان إيضاح الفرق مسألة واقعية. كان أماريل مثل كرت من أوراق اللعب موجود هنالك على الدوام، يرقد أمامى فوق المنضدة، وقد وضع وجهه إلى أسفل. كنت أحس وجوده. لكننى لم أقلب الكارت أبدا. لم يكن هنالك، كما يجب أن أضيف، أى شىء فى صوتى يتجاوز الدهشة العلمية الخالصة. كان بلا ألم، فقط يفيض تعاطفا. إننا لم نستخدم البتة، فيما بيننا، هذه الكلمة البغيضة - الكلمة المرادفة للتشوش والمرض. وإن كنت أستخدمها الآن عمدا، فما ذاك إلا للإشارة إلى معرفتى للطبيعة الشاملة للأمر. إنها كانت أشبه بالقول: «يا طفلى المسكينة، أنت مصابة بالسرطان!».

قالت بعد فترة من صمت: «لقد غدا ذلك الآن فعلا ماضيا وأسفاه». كان صوتها بطيئا حائرا. «لقد كنت أقدر أنك على درجة جيدة من اللباقة، معتقدة أنك قد تعرفت عليه أثناء فترتى السورية! ألم تتعرف عليه حقا؟ لقد حولنى أماريل إلى امرأة، كما أعتقد. أوه، أليس ذلك مقززا؟ متى ننضج جميعا؟ كلا، إلا أننى محوته من قلبى. أنت تعرف ذلك. الأمر ليس

كما تتخيل، فأنا أعرف أنه ليس رجلى. لم يكن هنالك من شيء يغرينى بأن آخذ مكان سميرة. لقد أدركت ذلك وأنا أضاجعه، بالوقوع فى حبه. إن ذاك أمر غريب ومستهجى، إلا أن التجربة حالت دون أن أسىء فهم موقفه من الأخرى، كانت هى الوحيدة وإلى الأبد! رغم أن مكانته تظل مسألة يجب اكتشافها. أحس أنني لم أواجه، فعليا، المشاكل الحقيقية بعد. إنها ترقد هنالك على الجانب الآخر مما نحن فيه من مراحل. ورغم هذا الالتواء والاعوجاج، فقد كان لطيفا أن يكون المرء قربه، حتى وإن كان مسجى فوق منضدة العمليات. كيف يمكن للمرء أن يفسر حقيقة واحدة من حقائق القلب البشرى؟».

«هل أؤجل رحلتى؟».

«كلا، إننى لا أرغب فى ذلك البتة. إننا فى حاجة الآن إلى بعض الوقت أعود فيه إلى نفسى وقد تحررت من الفزع أخيرا. ذلك الذى فعلته أنت على الأقل من أجلى - دفعتنى، مرة أخرى، إلى قلب المجرى، وقد أقصيت التنين عنى. لقد ذهب ولن يعود ثانية. ضع يدك على كتفى واعصره بدلا من القبلة. كلا، لا تغير خططك. سوف يعتنون بى هنا جيدا كما تعرف. ولسوف نرى فيما بعد، عندما تنتهى مهمتك أليس كذلك؟ حاول أن تكتب. إننى أحس أن فترة من التوقف ربما تكون بداية مرحلة جديدة لك».

«سوف أفعل!»، إلا أنني كنت أعرف أنني لن أقدم على الكتابة.

«هنالك شيء واحد أود منك أن تفعله. أرجوك زيارة مولد السكوب الليلة، حتى يمكنك أن تخبرنى بكل شيء عنه. إنها المرة الأولى، كما ترى التى يسمحون فيها، بعد الحرب، بالإضاءة المعتادة فى هذا الحى. إنها لمتعة أن يرى المرء ذلك. إننى لا أحب أن تفوتك هذه المتعة. هل ستفعل ذلك؟».

«بالطبع».

«شكرا، يا عزيزى».

ووقفت هنالك. قلت بعد فترة من صمت:

«كليا، ما الذى كان يفزعك بالضبط؟».

«إلا أنها كانت قد أغلقت عينيها، وذهبت، فى نعومة، فى النوم. تحركت شفتاها، إلا أننى لم أستطع سماع إجابتها. كان هنالك أثر ضئيل للغاية لابتسامة فى ركنى فمها».

وبزغت فى رأسى عبارة لبورسواردن، «إن أغنى الحب هو ما كان خاضعا لحكم الزمن ومراجعته».

* * *

كان الوقت قد تأخر بالفعل عندما استطعت أن أكتشف، أخيرا، موضع عربية حنطور لتعيدنى إلى المدينة. وجدت فى مسكنى رسالة تقول: إن مغادرتى قد قدم موعدها ست ساعات. كان الزورق الآلى سوف يغادر عند منتصف الليل. كان حميد واقفا هنالك ساكنا تمام السكون، صابرا. كانت أمتعتى قد حملتها سيارة نقل من سيارات الجيش، فيما بعد الظهر. لم يبق هنالك من شىء أفعله غير قتل الوقت حتى الثانية عشرة، وكان على أن أفعل ذلك طبقا للطريقة التى اقترحتها كليا: زيارة مولد السكوب. كان حميد لا يزال واقفا أمامى يرزح تحت ثقل فراق آخر: «إنك لن تعود، فى هذه المرة، ثانية يا سيدى»، قال وهو يطرف بعينه، ناظرا إلى بأسى. نظرت إلى الرجل الضئيل وأنا أعطف عليه. إننى أتذكركم. كان فخورا وهو يعيد من جديد الحديث عن إنقاذ واحدة من عينيها، ربما كان ذلك بسبب كونه الأصغر والأقبح. كانت أمه قد خلعت عيني شقيقه حتى تمنع تجنيده الإجبارى فى الجيش، إلا أن حميد نجا بعين واحدة بسبب نموه الناقص وقبحه. إن أخاه يعمل الآن مؤذنا أعمى فى طنطا، بينما غدا

حميد ثريا بعينه. كانت هي حظه السعيد في العمل عند الأجانب الأثرياء
الذين يدفعون أجرا طيبا.

«سوف آتى إليك في لندن»، قال في لهفة وأمل.

«حسنا جدا»، سوف أكتب إليك.

كان يرتدى أفضل ملابسه، بمناسبة المولد - العباءة، الحذاء الأحمر
المصنوع من جلد مراكشى طرى، وقد وضع في صدره منديلا نظيفا أيضا.
كانت تلك الأمسية إجازته كما أتذكر. كنت وبومبال قد وفرنا مبلغا من
المال نعطي له كهدية فراق. أخذ شيك النقود بين إصبع السبابة والإبهام،
محنيا رأسه في امتنان. إلا أن ما عاد عليه من فائدة، لم يكن بقادر على
إيصال البهجة إلى نفسه في مواجهة ألم الافتراق عنا. وهكذا كرر ثانية:
«سوف آتى إلى لندن». معزيا نفسه وهو يهز يديه معا بينما يقول هذه
الكلمات.

«حسنا جدا». قلت للمرة الثالثة، رغم أنه يصعب أن أرى حميد الأعور
في لندن «سأكتب إليك. سوف أذهب الليلة إلى مولد السكوب».

«حسنا جدا». وهزته من أكتافه، فدفعه هذا الشعور بالآلفة إلى إحناء
رأسه وانسالت دمعة من عينه الضريرة لتظهر عند طرف أنفه.

«وداعا حميد»، قلت وهبطت السلم، تاركا إياه واقفا في سكون عند
القمة، كأنما هو في انتظار إشارة ما قادمة من الفضاء الخارجى. اندفع،
فجأة، ورائى ممسكا بى عند الباب الأمامى، ليدفع فى يدي، هدية فراق،
كانت هي الصورة التى يعتز بها، لى ولميليسا، ونحن سائران فى شارع
فؤاد فيما بعد الظهر المنسى لأحد الأيام.

* * *

[٩]

كان الحى يغط فى الظلال البنفسجية، والليل الهابط يتقدم. سماء من قطيفة ترتجف، يقطعها ضوء آلاف اللمبات الكهربائية شديدة التوهج، تجثم فوق شارع التتويج مثل قشرة مخملية، تعلوها، فقط، أطراف المآذن المضئية التى تنهض فوق جذوعها الرشيقة غير المرئية. تبدو، تتدلى معلقة فى السماء، ترتعش قليلا فى الغبشة كأنها توشك أن تمدق لانسها كالكوبرات. سرت فى تكاسل عبر تلك الشوارع أستعيد ذكراها ثانية، وأنهل (إلى الأبد: ذكريات المدينة العربية) رائحة الأقحوان المطحون، الرث، الطيب، التوت، العرق البشرى والحمام المشوى. لم يصل الموكب بعد. إنه يتشكل فى مكان ما، وراء حى المومسات، بين المقابر، ثم يشق طريقه البطيء إلى الضريح، تحكم حركته رقصة موزونة، يقف فى طريقه عند كل جامع لتلى آية أو أكثر من الكتاب على شرف السكوب. إلا أن الجانب الدنيوى فى المهرجان كان يتأرجح تأرجحا شديدا، إذ جاء الناس، من الأزقة المظلمة، بمناضد العشاء إلى الشوارع، تضيئها الشموع وتزينها الزهور. إنهم يستطيعون، وهم جلوس هكذا، سماع قطع الأنغام الرئيسية للفتيات المغنيات، اللاتى كن يقفن بالفعل فوق المنصات الخشبية خارج المقاهى، يخترقن الليل الثقيل بالحنان الربع نغم التى يغنونها. الشوارع مزينة بالأعلام، والصور الكبيرة ذات الأطر لأطباء عمليات الختان،

تتماوج عاليا بين المشاعل والعمد. رأيت، فى باحة مظلمة، من يصب السكر، أحمر وأبيض فى قوالب خشبية تخرج منها كل رموز الحيوانات والعادات المصرية - البط، الفرسان، الأرانب والماعز، وكذلك التماثيل الصغيرة السكرية عن فولكلور الدلتا عزيزة ويونس، العاشقين متشابكين متداخلين - والأبطال الملتحين مثل أبى زيد مسلحا، ممتطيا جواده، بين كتائبه. كان يبدو عليها القبح - وهى بالتأكيد أسخف كلمة فى لغتنا - بصورة بديعة، وقد صيغت بألوان رائعة قبل أن توضع عليها أرديتها الورقية، والمزوقة، ذات الترتير الذهبى، ورصت للعرض فى الأكشاك التى تبيعها، يتفرج الأطفال عليها، فاغرى الأفواه، ويشترونها. السراقات الملونة نصبت فى الميادين الصغيرة، وكل منها عليه علامته التى تميزه.

كان المقامرون منهمكين بالفعل، أبو الفيران(*) ينادى مرحا على الزبائن، وأمامه انتصب الصندوق الكبير محمولا على حُمر خشبية، وكل من مأويه الاثنى عشر عليه رقمه واسمه، وفى الوسط وقف الفأر الحى الأبيض مدهونا بخطوط خضراء. أنت تضع نقودك على رقم أحد هذه المآوى وتكسب، إن دخل الفأر فيه وتدور نفس اللعبة فى صندوق آخر، ولكن باستخدام حمامة بدلا من الفأر فى تلك المرة. وعندما توضع كل نقود الرهان فوق أرقامها، يُلقى بملء كف من الحبوب فى الوسط، وتدخل الحمامة، وهى تأكل، أحد هذه الأكشاك الصغيرة المرقمة.

اشتريت لنفسى زوجا من تلك التماثيل الصغيرة السكرية. جلست خارج أحد المقاهى أتفرج على العرض المار أمامى فى ألوان رائعة بدائية أصيلة. كنت أود الاحتفاظ بتلك العرائس الصغيرة، إلا أننى كنت أعرف أنها سوف تتفتت أو يأكلها النمل. كانت تلك التماثيل أبناء عمومة صغار

(*) بالعربية فى حروف لاتينية - المترجم.

لـ قديس الإقليم(*) أو رجل الخبز المبتل(*) التى تباع فى أسواق الريف الفرنسية، والتى تماثل الرجال المطلين باللون الذهبى والمصنوعين من فطيرة النرجيل والذين انقرضوا الآن. طلبت ملعقة من المستكة لأكلها مع الشربات(*) الباردة الفوارة. كان فى وسعى، وأنا جالس عند زاوية تقع بين شارعين ضيقين، أن أرى المومسات وهن يطلين أنفسهن فى النوافذ العليا قبل أن يهبطن لينصبن أكشاكهن الصارخة الألوان بين المشعوذين والمحتالين. كان «شوال» القزم يغيظهن من كشكه، وهو فى مستوى الأرض، مما يدفع إلى ضحك زاعق لخطاته الصائبة. كان صوته ضئيلا إلى حد كبير، كما كان فى وسعه أن يقوم بأكثر الخدع الأكروباتية جاذبية رغم حجمه المعوق. كان كثير الكلام، حتى وهو واقف على رأسه، يفصل بين تمتته ودمدمته بالشقلبة مرتين متتاليتين. كان وجهه مطليا بطريقة تثير الضحك، وشفته مرسومتين بابتسامة البهلوان، وفى ركن آخر تحت ستارة تواريه، جلس «فرج» قارئ الطالع بعدة العرافة - حبر، رمل وكرة غريبة مغطاة بالشعر أشبه بخصية الثور، فقط مغطاة بشعر أسود، ومومس جميلة متألقة تجلس القرفصاء أمامه. كان قد ملأ راحة يدها بالحبر، وأخذ يستحثها حتى تفتح المندل.

مشاهد صغيرة من حياة الشارع. امرأة ساحرة متوحشة تندفع فجأة فى الشارع، ترغى وتزبد، تطلق لعنات رهيبة، حتى إن الصمت حل بالجميع، وجمد دم كل امرئ. كانت عيناها تتأججان مثل عيني دب تحت شعرها الأبيض المتلبد. ولما كانت مجنونة، فإنها مقدسة بصورة ما، ولم يجرؤ أحد على مواجهة لعناتها البشعة التى كانت تقولها، والتى إن تحققت لحل النحس بهم. اندفع كالسهم، فجأة، طفل رث من بين الزحام وجذبها بشدة

(*) بالفرنسية فى الأصل.

من كمها، وللحال هدأت وأمسكت بيده واختفت فى أحد الأزقة. وأطبق
المهرجان على ذكرها إطباق الجلد على الجسد.

كنت أجلس نشوان بالمشهد أمامى، عندما سمعت فجأة صوت
سكوبى نفسه عند مرفقى. قال متأملاً:

«والآن، أيها العجوز، يجب إن كانت لك ميول ومآرب، أن تمتلك
أفقاً للرؤية. إن ذلك سبب وجودى فى الشرق الأوسط، إن شئت
المعرفة....».

«يا إلهى، لقد أفرعتنى»، قلت وأنا أستدير جانباً. كان نمرود الشرطى،
أحد رؤساء الرجل العجوز فى قوة الشرطة. ضحك وجلس إلى جوارى،
وهو يزيج طربوشه يمسح عرقه!

«هل تظن أنه قد عاد إلى الحياة؟» تساءل.

«أعتقد يقينا بذلك».

«إننى أعرف رجلى سكوبى، كما ترى».

وضع نمرود مذبته أمامه، صفق بيديه طلباً للقهوة. استمر وهو يغمز
لى بخبث، يتحدث بالصوت الحقيقى للقديس:

«لقد جرى الأمر الخاص بيدجى على النحو التالى. لم يكن هنالك
من مجال فى هورشام، وإلا كنت لحقت به منذ أعوام مضت فى تجارة
المراحىض الترابية. كان الرجل عبقرى فى الميكانيكا. إننى لا أبالى
الإقرار بذلك. لم يكن له من دخل سوى ما يقدمه له المقلاع الطينى
العجوز، كما اعتاد أن يدعو ضاحكاً. إنه يواجه بالعراقيل. إنه محبط.
هل أخبرتك، فى أى وقت، عن المرحاض الأرضى الظريف؟ كلا هذا
أمر غريب، إذ اعتقدت أننى أخبرتك به. حسناً، لقد كان اختراعاً هائلاً،

ثمرة تجربة طويلة. لقد كان، كما تعرف، فى إحدى الجمعيات الملكية. نال ذلك بالدراسة المنزلية، إن هذا يوضح لك أى عقل كان لهذا الرجل. حسنا، كان نوعا من الروافع ذات الزناد. كان لكبرى المرحاض شىء ما كالزنبرك. ما إن تجلس حتى يهبط، ولكن ما إن تنهض حتى يلقى، من تلقاء نفسه، بملء جاروف من التربة فى الصندوق الخازن. يقول بدجى، إنه استنبط الفكرة، ذلك أمر لا أستطيع معرفة أبعاده. كان عبقرية خالصة. إن لديك فى المؤخرة مستودعا تملؤه بالتراب أو الرمال، ووقت أن تنهض، ينطلق الزنبرك فى ضربة عنيفة سريعة. إنه يصنع منه ألفين فى العام، إننى لا أبالى بقول ذلك. بالطبع يحتاج بناء تجارة إلى الوقت، إلا أن النفقات العامة كانت منخفضة. كان لديه عامل واحد فقط، لبناء الجزء الأشبه بالصندوق. كان يشتري الزميركات، يحصل عليها مصنوعة بمطرقة الحداد طبقا لمواصفات خاصة. وكانت تطلّى حافتها أيضا بطريقة رائعة للغاية، بأشياء ذات علاقة بعلم التنجيم. كانت تبدو غريبة، إننى أعترف بذلك. كانت تبدو فى الحقيقة كاللغز. لكن تلك التحفة البديعة كانت اختراعا رائعا. وحدثت أزمة، ذات مرة، بينما كنت فى الوطن، فى إجازة مدة شهر، فذهبت لرؤية بدجى. كان يكاد يبكى. كان الرجل الذى يعاونه «توم» النجار، معتادا على الشراب قليلا، ولا بد أنه أخطأ وضع التروس فى إحدى مجموعات تلك التحف، إذ بدأت تنهال الشكاوى، على أى حال. قال بدجى: إن مراحضه قد أصابها الجنون فى طول «سوسكس» وعرضها. إنها تلقى بالتراب حولها بطريقة مستهجنة غريبة، ومضرة بالصحة. ثار الزبائن غضبا. حسنا، لم يكن هنالك من سبيل غير زيارة كل أبناء أبرشيته، فوق دراجة نارية، وضبط التروس. كان ما تبقى لى من الوقت قليلا، إلا أننى لم أرغب فى أن تفوتنى صحبته - وهكذا أخذنى معه. كانت مغامرة حقيقية، وأنا لا أبالى من ذكرها لك. لقد جن بعضهم

تماما فى مواجهة بدجى، قالت إحدى النساء: إن التروس كانت قوية حتى إن مرحاضها كان يلقي بالطين على امتداد حجرة الاستقبال. قضينا بعض الوقت نهدئها. عاونت بأن مارست تأثيرا ملطفا، لا أبالى بالإقرار به، بينما كان بدجى يقوم بإصلاح الزمبرك. كنت أحكى قصصا حتى أذهب بأذهان الزبائن بعيدا عن هذا العمل الكئيب. إلا أن الأمور استقامت أخيرا، وغدت الآن صناعة مربحة لها من يعصدها فى كل مكان».

رشف نمرود قهوته متأملا. حدجنى بعينه بنظرة ساخرة، وهو فخور بقدرته على التقليد والمحاكاة.

«والآن» قال وهو يلقي بذراعيه: «السكوب....».

مر عبر الشارع جمع من الفتيات المدهونات بالألوان، رائعات مثل ببغاوات استوائية، يكدن يشبهنها ضحكا وثرثرة. قال نمرود «لقد وضع أبو زيد المولد تحت رعايته مما قد يسبب لنا نوعا من الصداق. إن ذلك الحى حى مزدحم، وهو قد أرسل هذا الصباح قافلة كاملة من الجمال الذكور فى هذا القيظ وهى محملة بالبرسيم. أنت تعرف مدى بشاعة رائحتها. فعندما يكون موسمها تظهر لها هذه الزوائد البشعة الهلامية على رقابها، لا بد أنها تثيرها، تتقيح أو شىء من هذا القبيل، إذ إنها تحك رقابها فى العمد والجدران طوال الوقت. لقد اشتبك اثنان منهما فى قتال، واستغرق الأمر ساعات لفض هذا الاشتباك، مما أغلق المكان».

فجأة وصلت إلى الأسماع سلسلة من الضربات الشديدة، قادمة من اتجاه الميناء، وسلسلة من الأسهم النارية اللامعة الملونة وهى تشق لنفسها أخاديد عبر الليل، ثم تذوى وتتساقط بعيدا فى دمدمة وأزيز «آها»، قال نمرود وهو راض عن نفسه:

«هاك الأسطول ينطلق. إننى سعيد أنهم قد تذكروا».

«الأسطول؟» رددت بينما خط طويل آخر من الأسهم النارية تلقى بريشها الرائع عبر الليل الناعم.

«إنهم الأولاد الذين يعملون على السفينة «ميلتون» سفينة صاحب الجلالة»، قال ضاحكا. «لقد حدث وتناولت العشاء معهم الليلة الماضية على ظهر السفينة. لقد انبهر ضابط السفينة بقصتي عن تاجر بحار عجوز نال حظوة الرب. بالطبع لم أذكر لهم الكثير عن سكوبي، على الأقل فيما يختص بموته. إلا أنني ألمحت إلى أن بعض الألعاب النارية سوف يكون عملا مناسباً باعتباره صادرا عن البحارة البريطانيين. وأضفت أيضا. إنها لمحة سياسية تعبر عن الاحترام، مما يكسبهم تقدير المتعبدين. لقد خلبتهم الفكرة، فطلبوا الإذن من الأدميرال لتنفيذها وهامهم ينفذونها!».

جلسنا فترة في صحبة صامئة نرقب الألعاب النارية والجمع المبتهج للغاية، والذي كان يحيى كل طلقة بصيحات فرحة طويلة مرتعشة «الله! - الله»(*) وأخيرا سلك نمرود زوره وقال:

«دارلى، هل فى وسعى أن أسألك سؤالا؟ هل تعرف ما الذى توشك جوستين أن تفعله؟» لا بد أن وجهى بدا خاليا من أى تعبير، إذ إنه استمر دون تردد، «إننى أسألك فقط لأنها اتصلت بى هاتفيا بالأمس وقالت. إنها سوف تخرق التعهد بتحديد إقامتها اليوم، وتحضر إلى المدينة عن عمد، طالبة منى أن ألقى القبض عليها. إن الأمر يبدو غاية فى السخف - أقصد مجيئها من كل هذا البعد لتسلم نفسها للشرطة. قالت: إنها ترغب فى فرض لقاء شخصى مع ممليك. إنه أنا من يتوجب عليه، طبقا للتقارير الواردة من ضباط القوة البريطانية، أن يقوم بعمل ذى شأن يشد انتباه ممليك. إن

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

الأمر يبدو كالهراء إلى حد ما، أليس كذلك؟ إلا أنني حددت معها موعدا للقاءها فى مركز الشرطة الرئيسى خلال نصف ساعة».

«إننى لا أعرف شيئا عن هذه المسألة».

«كنت سأصاب بالدهشة إن أنت عرفت: وعلى أى حال، دع الموضوع سرا بيننا».

«سوف أفعل ذلك».

نهض واقفا، مادا يده مودعا: «ستغادر الليلة كما أعتقد. حظا طيبا». قال وهو يخطو، يهبط من المنضدة الخشبية الصغيرة. «إن بلتازار، بالمناسبة يبحث عنك. إنه فى مكان ما عند الضريح. يالها من كلمة». انحنى انحناءة قصيرة متحركا بقامته الطويلة بعيدا فى دوامة الشارع المتلاثلة. دفعت ثمن مشروبين، وغادرت سائرا نحو شارع التتويج أتخبط وأصطدم بالناس المحتشدة فى يوم الإجازة هذا.

كانت تتدلى، من كل شرفة، على امتداد الشارع، الشرائط والرايات، وبراويز ضخمة تتدلى منها الأعلام الملونة. كانت القطعة الصغيرة من الأرض المقفرة قد غدت الآن أكثر الصالونات بذخا تحت البوابات المقوسة. خيام ضخمة بتصميمات مطرزة رائعة نصبت مكونة أرضية استعراضية احتفالية حيث يقام الرقص والغناء عندما يصل الموكب إلى منتهاه. المنطقة مزدحمة بالأطفال. دندنة المصلين وجلجلة زغاريد النساء تأتى من ناحية الضريح الذى كان معتم الإضاءة. المتوسلون والمبتهلون يتضرعون إلى دن - حمام سكوبى يطلبون الإخصاب. آيات السور القرآنية تتهدج تغزل نفسها فى الليل فى نسيج من صوت رخيم شجى. أخذت أسعى قليلا وسط الزحام مثل كلب صيد أبحث عن بلتازار. أخيرا رأيته يجلس جانبا خارج أحد المقاهى شققت طريقى إلى جواره قال:

«حسنا، كنت أبحث عنك. لقد قال حميد: إنك ستغادر الليلة. اتصل بى هاتفيا يخبرنى بذلك ويطلب عملا وددت بالإضافة إلى ذلك، أن تشاركنى خليط مشاعرى خجلا وراحة بخصوص هذه الحادثة. الخجل من الغباء، والراحة من أنها لم تمت، وقد امتزج كلاهما بالآخر. إننى أكاد أكون ثملا بالراحة، وأكاد أفقد صوابى خجلاً. كان، بالفعل يكاد يكون ثملا، إلا أنها سوف تكون بخير حمدا لله!».

«ماذا يرى أماريل؟».

«لا شىء بعد. وإن كان يعتقد بشىء فإنه لن يقوله. يجب أن تنال أربعا وعشرين ساعة، من الراحة، قبل أن يتقرر أى شىء، هل ستغادر حقا؟» وانخفض صوته مؤنبا: «يجب أن تبقى وأنت تعرف ذلك».

«إنها غير راغبة فى بقائى».

«أعرف ذلك. لقد صدمت، إلى حد ما، عندما قالت لى. إنها قد طلبت منك الرحيل. إلا أنها قالت: «إنك لا تدرك الأمر. سوف أرى إن كنت لا أستطيع ابتغاءه مرة أخرى. إننا لسنا بعد ناضجين بما يكفى كى يكون كل منا للآخر، سوف نبلغ هذه المرحلة»، لقد اندهشت وأنا أراها على هذا القدر من التألق والثقة بنفسها ثانية. اجلس يا عزيزى الشاب، وتناول معى مشروباً مضاعفاً من المشروبات المنعشة. سوف نشاهد الموكب على أفضل ما يكون من هنا، حيث لا زحام».

صفق بيديه بطريقة متقطعة وطلب مزيدا من المستكة.

عندما جىء بالكأسين، جلس ساكنا مدة من الزمن طويلة واضعاً ذقنه فوق راحتيه، يحملق فيهما، تنهد وهو يهز رأسه فى حزن.

قلت: «ما الأمر؟»، وأنا أدفع بالكأس فى الصينية، أضعه أمامه بالضبط فوق المنضدة.

قال فى هدوء: «ماتت ليلى!» بدت الكلمات وكأنها تثقله بالأسى. لقد اتصل بى نسيم هاتفيا هذا المساء ليخبرنى، ومن الغريب أن صوته بدا مبتهجا بهذا الخبر. لقد سعى للحصول على تصريح بالنزول وإعداد ترتيبات جنازتها. هل تعرف ماذا قال؟ ونظر إلى بلتازار بعينه الداكتين العميقتى الفهم والإدراك واستمر قائلاً، «رغم أنى أحببتها، وما إلى ذلك، إلا أن موتها قد حررنى بطريقة غريبة. إن حياة جديدة تفتح أمامى. إننى أحس بأننى قد غدوت أكثر شباباً - لا أعرف إن كان ما سمعته خدعة من الهاتف أو ماذا، إلا أن صوته بدا أكثر شباباً. كان مليئاً بإثارة مكبوتة. إنه يعرف، بالطبع، أننى وليلى كنا أقدم الأصدقاء وأنها كانت تكتب لى طوال هذه الفترة. كانت نفساً نادرة يا دارلى، واحدة من أندرز هرات الإسكندرية. لقد كتبت لى تقول، أعرف أننى أموت، يا عزيزى بلتازار، ولكن فى بطن شديد. هل تؤمن بالأطباء وما يشخصون، أنت يا من تعرف كل الرجال. إننى أموت مما فى القلب من أحزان، مثل سكندرية حقيقية».

ومخط بلتازار أنفه فى جورب قصير قديم، أخذه من جيب صدر معطفه، ثم طواه فى عناية حتى يشبه منديلاً نظيفاً، وأعاد وضعه بطريقة متحذقة. «نعم»، قال ثانية فى وقار: «يا لها من كلمة، أحزان القلب! يبدو (مما قلته لى) أنه بينما كانت ليزا بورسواردن تدبر براءتها من وفاة شقيقها، كان ماونت أوليف يعطى نفس اللطمة ليلى بظهر اليد، وهكذا يدور كأس الحب. كأس الحب المسموم!» وأوماً برأسه بينما يتناول رشفة عالية الصوت من شرابه. ومضى على مهل فى حرص مكثف وجهه أشبه بامرئ يترجم نصاً مبهماً وغامضاً. نعم، تماماً مثل خطاب ليزا إلى بورسواردن

تخبره فيه أنه قد حدث أخيراً وظهر الغريب كالضربة القاضية(*) إن جاز القول. تلقت ليلي، كما أعتقد، نفس الرسالة بالضبط. من ذا الذي يدرى كيف يتم ترتيب مثل تلك الأشياء؟ ربما فى ذات الكلمات بالضبط، نفس كلمات الامتنان العاطفى، «إننى أباركك، أشكرك من صميم قلبى، إذ إننى من خلالك استطعت أخيراً أن أتلقى المنحة الثمينة التى لا يمكن أن ينالها أبدا هؤلاء الذين يجهلون قدرها». تلك هى كلمات ماونت أوليف. لقد اقتبستها ليلي لى. حدث هذا بعد أن ذهبت بعيدا كتبتها إلى. كان الأمر يبدو وكأنها قد انقطعت عن نسيم، ولم يعد هنالك امرؤ تستدير إليه، امرؤ تتحدث إليه. ومن ثم كانت هذه الخطابات الطويلة التى تصل فيها إلى الأمام وإلى الوراء، بتلك الصراحة الرائعة والرؤية الواضحة التى أحبتها فيها غاية الحب. لقد أبت كل خداع لنفسها. إلا أنها - ليلي - وقعت بين مقعدين، بين حياتين، بين حبين. لقد قالت شيئاً من هذا القبيل وهى تشرح الأمر لى: «لقد اعتقدت فى البداية، عندما تسلمت رسالته، أنه مجرد ارتباط آخر - كما كان فى الماضى مع تلك البالرينا الروسية، لم يكن هنالك أسرار البتة فيما يختص بعلاقاته الغرامية، فيما بيننا، وهذا ما جعل حبنا يبدو صادقا تمام الصدق خالدا تمام الخلود، بطريقته الخاصة. كان حبا بلا تحفظات إلا أن كل شىء غدا واضحا لى، فى هذه المرة عندما رفض ذكر اسمها لى، حتى أشاركه فيها، إن جاز القول! لقد عرفت حينئذ أن كل شىء قد انتهى، كنت أتوقع، بالطبع، فى ركن من عقلى، وقوع هذه اللحظة، أتصور نفسى أواجهها فى نخوة وشهامة.. إلا أننى، لدهشتى، وجدت أن ذلك كان مستحيلا. إن هذا هو السبب فى أننى، ولفترة طويلة، حتى بعد أن عرفت أنه فى مصر، وأنه مشتاق لرؤيتى، لم أستطع أن أفرض على نفسى رؤيته. بالطبع تظاهرت أن مرجع ذلك أسباب أخرى، أسباب

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أنثوية خالصة، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. لم يكن افتقاد شجاعة بسبب جمالى الذى تحطم. كلا، إذ إننى أمتلك فى الحقيقة قلب رجل. جلس بلتازار للحظة، يحملق فى الكئوس الفارغة بعينين واسعتين، يضغط أصابعه برقة معا. لم تكن قصته تعنى لى غير القليل - باستثناء دهشتى وأنا أتخيل ماونت أوليف قادرا على امتلاك أى مشاعر عميقة تماما، وحيرتى وأنا أتخيل تلك العلاقة السرية مع والدته نسيم.

«عصفور الجنة الأسمر!» قال بلتازار، وهو يصفق بيديه طالبا المزيد من الشراب. «إننا لن نرى مثيلا لها مرة أخرى».

كان الليل حولنا، بما فيه من خشونة يمتلىء تدريجيا حتى الانتفاخ بدمدمة الموكب القادم العميقة. كان فى وسع المرء أن يرى الضوء الوردى للمشاعل بين الأسقف. الشوارع، المكتظة بالفعل، غدت الآن سوداء بمن فيها من بشر. كانوا يطنون مثل خلية نحل كبيرة وقد أصابتهم عدوى المعرفة بقدوم الموكب. فى وسعك أن تسمع الضربات البعيدة للطبول وأزيز الصنوج المتزايد، وهى تحافظ على الحركة الزمنية لإيقاعات الرقص القديمة الدودية التقلصات - خطوة السير بطيئة نسبيا تقطعها وقفات غريبة، حتى تتمكن الراقصات، وقد أمسكت النشوة بهن، من الدوران دون تقيد بالنظم ثم العودة ثانية إلى أماكنهن فى خط المسيرة. الموكب يشق طريقه، عبر ضيق الشارع الرئيسى الذى يكبله، مثل سيل جارف تدفعه قوته ليتجاوز مجراه وثبا، إذ كانت كل الشوارع الجانبية مليئة بالنظارة الذين يجرون بحذاء الموكب يحافظون على سرعتهم معه.

جاء أولا، لاعبو الأكروبات غريبو الأشكال والبهلوانات وقد ارتدوا أقنعة ودهنوا وجوههم، يتدحرجون، يتلوون، يقفزون فى الهواء ويسرون على أيديهم، يتبعهم صف طويل من العربات المحملة بمن سيجرى

ختانهم وقد ارتدوا ملابس حريرية مزركشة، يحيط بهم من يرعاهم من الأهل، نساء الحریم. كانوا يركبون فى فخار، يغنون بأصوات أحداث يافعين، يحيون جمع الناس: مثل ثغاء حملان الأضاحى. ونق بلتازار، سوف تتساقط القلفات(*) الليلة، كما هو واضح، تساقط الجليد. إن ما يشير الدهشة هو عدم حدوث تعفن أو انتقال للأمراض. إنهم، كما تعرف، يستخدمون البارود الأسود والجير السائل لتضميد الجراح!

وجاءت الطرق الصوفية المختلفة تحمل الأطر التى تتدلى منها راياتها، والتى تشبه غطاء الخيمة، وقد مالت إلى جانب، وعليها كتبت أسماء الواحد القدوس بخطوط غير متقنة. كانت تتفض كأوراق فى مهب الريح، يحملها عالیا مشايخ يرتدون جلابيب رائعة، يسرون فى صعوبة بسبب ثقلها، ومع ذلك كانوا محافظين على استقامة طابور الموكب، ووعاظ الشوارع يتممون بأسماء الله المقدسة. وتحلقت مجموعة من حملة المجمرات النحاسية البراقة حول مجموعة من أصحاب المنزلة الملتحين الصارمى الوجوه، الذين يحملون أمامهم مصابيح ورقية ضخمة أشبه بالبالونات. رأينا وهم يعبروننا منسابين على امتداد شارع التوزيع فى موجة طويلة من الألوان، كل طرق الدراويش المختلفة وهى تخرج من الظلمة لتبزغ فى النور، تميز كل منها ألوانها. كان يقودهم الرفاعية بقلانسهم السوداء، أكلى العقارب وأصحاب القدرات الأسطورية. كانت صرخاتهم القصيرة العالية كالسعال تشير إلى أن الجلالة قد حلت بهم بالفعل. كانوا يحملون حولهم بعيون دائخة، والبعض منهم قد مرر أسياخا عبر وجناته، والبعض الآخر يلحق سكاكين حمراء محماة. وأخيرا جاءت الشخصية المرموقة المصقولة، أبو زيد، ومعه مجموعة قليلة من تابعيه فوق أفراسهم وعليها

(*) جلدة الذكر التى تقطع عند الختان - المترجم.

أغطية سروج رائعة الزركشة، وقد انتفخت عباءاتهم خلفهم، يشرعون أسلحتهم بالتحية مثل فرسان فى مباراة، وأمامهم تجرى مجموعة مختلطة من الذكور الداعرين، بوجوه مطلية بالمساحيق وشعور طويلة مناسبة، يضحكون ويتناقرون مثل دجاج فى باحة مزرعة. أضفت الموسيقى على هذه الكتلة الغريبة غير المتصلة، والمنسجمة رغم ذلك، نوعاً من التجانس. إنها تربطها، تقيدھا، فى ضربات قلب الطبول وزعيق المزامير الثاقب وصرير الصنج - إنهم يتحلقون، يتقدمون يتوقفون. وتحركت الطوابير الطويلة الراقصة نحو الضريح، مندفعة خلال البوابات الضخمة التى تقود إلى مسكن سكوبى مثل مد فى أقصاه، منتشرة عبر الميدان المتألق فى سحبات من غبار.

عندما تحرك المنشدون إلى الأمام ليتلون الآيات المقدسة، احتل فجأة ستة من دراويش الموالد مركز المسرح، وهم ينتشرون فى حركة مروحية بطيئة مشكلين نصف دائرة. كانوا يرتدون جلابيب بيضاء ناصعة تصل إلى أقدامهم الموضوعة فى شبشب خضراء، وفوق رؤوسهم قبعات طويلة بنية أشبه بالآيس كريم. بدأوا الدوران فى هدوء وجمال، «تلك الرؤوس الدوارة كمغزل من صنع الله»، بينما موسيقى المزامير تلازمهم برعشاتها الثاقبة. إنهم يتجمعون، يدفعون أذرعهم فى قوة، يضمونها أولاً فى سرعة إلى أكتافهم، يفردونها كأنما بقوة طرد مركزية، يمدونها إلى أقصاها، الكف الأيمن يتجه إلى أعلى إلى السماء، والأيسر إلى أسفل إلى الأرض، ويظلون هنالك يدورون كالمغزل بصورة إعجازية، لا تكاد أقدامهم تلمس الأرضية، فى هذا الغرض الرائع للأجساد السماوية فى حركتها الأبدية. يستمرون هكذا أسرع فأسرع، حتى ينهك العقل من محاولة مجاراتهم. وفكرت فى أشعار «جلال الدين»، التى اعتاد بورسواردن تلاوتها فى بعض الأحيان والرفاعية فى الحلقات الخارجية قد بدأوا عرضهم فى

مسخ وتشويه أنفسهم. إنها عملية بشعة للغاية لمن يراها، ومع ذلك فهي لا تضير أحدا بصورة واضحة. كانت لمسة الشيخ تُلثم الجراح التي تخرق الوجنات والصدور، هنا درويش دفع بسيخ عبر منخاريه، وهنالك آخر ينقض على رأس خنجر، يدفعه عبر حلقة إلى جمجمته. إلا أن المجموعة المترابطة الأساسية من الراقصين استمرت فيما هي فيه دون أن تحيد عنه، تدور كالمغزل في سماء العقل.

«يا إلهي»، قال بلتازار من عند مرفقى وهو يضحك ضحكة مكتومة، «لقد فكرت أنه مألوف لدى، إنه المجدوب بشخصه هناك، ذلك الذي عند الطرف البعيد، إنه الذي افترضت أنت سرقة للطفلة وبيعها لأحد المواخير. انظر إليه».

رأيت وجهًا تبدو عليه صرامة إرهاب العالم مكثفة، العينان مغلقتان، والشفتان قد تقوستا في نصف ابتسامة، والراقص النحيل يدور في بطن حتى التوقف ليتناول في جو من المداعبة التي تتسم بالتواضع حزمة من أشواك يشعلها، يدفع بالكتلة الملتهبة إلى صدره فوق اللحم، ثم يبدأ في الدوران السريع ثانية مثل شجرة تحترق. وعندما توقفت الدائرة عن التطوح والترنح، نتشها مرة أخرى، وصفح بها الدرويش، الذي يليه، على الوجه مداعبا.

إلا أن دسته من الحلقات الراقصة تداخلت الآن وأمسكت بالزمام وفاضت الساحة الصغيرة بالشخوص الدوارة تتلوى. ومن ناحية الضريح، جاءت تلك الدندنة الرتيبة للكلمة المقدسة، تقطعها الزغاريد الحادة للمندورين.

قال بلتازار مسفها: «سوف يواجه سكوبي ليلة ثقيلة، يعد القلفات هنالك في السماء».

سمعت من مكان ما بعيد صفارة السفينة تدوى فى الميناء، تعيدنى إلى
رشدى. حان وقت الذهاب. «سوف آتى معك»، قال بلتازار. وبدأنا معا،
ندفع، نراوغ، نشق طريقنا خلال الشارع المزدحم نحو الكورنيش.

عثرنا على عربة حنطور، جلسنا فيها صامتين، نسمع الموسيقى ودق
الطبول وهى تتراجع، تتقهقر بينما نجتاز الخط الطويل المتدحرج للموكب
البحرى. كان القمر مكتملا يسطح فوق البحر الساكن الذى يغطيه نمش من
نسيم رقيق. أومأت أشجار النخيل بهاماتها. خبت بنا العربة فى الشوارع
الضيقة الملتوية حتى وصلت أخيرا إلى الميناء التجارى بسفنه الشبحية
المتنوعة الساكنة. ومضت أضواء قليلة هنا وهناك. تحركت سفينة ركاب
من مربوطها وانزلقت ناعمة فوق القناة. هلال طويل من ضوء يتلأأ.

كان الزورق البخارى الصغير الذى سيقلىنى لا يزال يحمل بالمؤن
ومتاع المسافرين.

«حسنا» قلت «ابتعد يا بلتازار عما يضيرك».

«سوف نلتقى ثانية فى القريب العاجل»، قال فى هدوء. لا يمكنك
التخلص منى. اليهودى التائه، كما تعرف. لكننى سوف أكتب إليك عن
كلّيا. سوف أقول شيئا مثل، «عد إلينا سريعا»، إن لم يكن لدى إحساس
بأنك لا تود العودة. علىّ اللعنة إن عرفت لماذا. إلا أن ما أنا على يقين
منه، هو أننا سوف نلتقى ثانية».

قلت: «وأنا أيضا».

تعانقنا فى دفء. صعد فى حركة مفاجئة إلى عربة الحنطور وجلس
فيها ثانية.

«تذكر كلماتي»، قال وقد بدأ الحصان سيره مع ضربة من السوط خفيفة وسريعة. وقفت أستمع إلى ضوضاء حوافره حتى ابتلعها الليل. عدت إلى ما عليّ من عمل لأنجزه.

* * *

كلية الغالية

مضت شهور ثلاثة طوال، لم تصلني منك خلالها كلمة. لقد كنت عرضة للقلق الشديد لولا ما كان يرسله إليّ بِلْتَازار الأمين من بطاقات بريدية، في مواعيد محددة، كل بضعة أيام، فأتشجع بما تحرزينه من تقدم، رغم أنه لم يكن يطلعني، بالطبع، على أية تفاصيل. لا بد أنك كنت تزدادين حنقا وغضبا من صمتي القاسي، والذي لا تستحقين منه غير أقل القليل. إنني، وبصدق، أحس بخجل مرير، ولا أعرف أي حائل غريب كان يمنعني، إذ إنني كنت عاجزا عن تحليله أو التصرف بفاعلية حياله. كان أشبه بمقبض حجرة لا يدور، لماذا؟ وتتضاعف غرابة هذا الوضع بمقبض لأنني كنت أحس بكم جميعا، طوال الوقت، إحساسا تاما، كما كنتم حاضرين في ذهني حضورا نشطا. لقد أمسكت بك، مجازا، باردة، فاترة، في مواجهة عقلي النابض كحد السكين. ربما كنت أستمع بك كفكرة، أكثر منها شخصية حية، لها فعلها في هذا العالم! أم هي الكلمات وقد بدت خالية من عزاء بسبب المسافة التي تفصل فيما بيننا؟ إنني لا أعرف. لقد بدا لي فجأة، ومهمتي توشك على الانتهاء تقريبا، إنني قد عثرت على لساني.

إن الأشياء تغير بؤرها فوق هذه الجزيرة الصغيرة. لقد أسميت أنت ذلك، ذات يوم، كما أتذكر، بالمجاز والاستعارة، إلا أن الأمر بالنسبة لى حقيقى للغاية. إن غزونا هو الذى غيرها. من العسير أن تتصورى أن عشرة من الفنين قد أحدثوا هذا التغير. إننا نستورد النقود، نغير بها اقتصاديات المكان فى بطن. نزيح العمل متضخم الأسعار، نخلق كل أنواع الحاجيات التى لم يكن السكان المحظوظون يعونها من قبل. احتياجات سوف تحطم، فى التحليل الأخير، نسيج هذه القرية الإقطاعية المتين، بما فيها من روابط الدم والضغائن والمهرجانات المبتذلة. سوف يذوب كمالها ويتلاشى تحت تلك الضغوط الغربية عليها. كانت متينة النسيج للغاية، جميلة للغاية، متماثلة متناسقة مثل عش السنونو(*) . إنا نزيحه جانبا مثل صبية كسالى لا يعون الدمار الذى يحدثون. يبدو أن الموت الذى نجىء به للنظام القديم، على غير رغبته، أمر لا مفر منه. إنه يحدث فى بساطة أيضا. بعض كمرات من الصلب، بعض أدوات الحفر ورافعة! وفجأة يبدأ تغير شكل الأشياء ويولد جشع جديد، يبدأ فى هدوء ببعض محلات الحلاقين، لكنه ينتهى بتغيير كل بناء الميناء. سوف يغدو خلال عشر سنين خليطا، لا يمكن تمييزه، من مستودعات البضائع وصالات الرقص والمواخير للبحارة المتحاربين، فقط أعطنا ما يكفى من الوقت!

إن الموقع الذى تم اختياره لمحطة إعادة بث البرامج الإذاعية يقع فوق الجانب الشرقى الجبلى للجزيرة، وليس حيث كنت أعيش فيما سبق. كنت سعيدا بهذا، بطريقة مبهمه فأنا عاطفى، بما يكفى، أمام الذكريات القديمة التى يمتع المرء نفسه بها. إلا أنها تبدو أفضل بكثير إن تبادل مركز ثقلها تبدا لطيفا. إنها تتجرد فجأة وتنشعش، يضاف إلى ذلك أن هذا الركن من

(*) طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل - المترجم.

الجزيرة لا يماثل أى جزء آخر فيها، إنه واد ينتج محصولا عاليا من النبيذ ويطل على البحر. إن تربته ذهبية برونزية قرمزية. إننى أعتقد أنها مكونة من رمل بركانى. إن النبيذ الأحمر الذى يقومون بصناعته خفيف لطيف براق كأنه بركان هاجع فى كل زجاجة. نعم، هنا تصر الجبال بأسنانها حتى إنه فى مقدور المرء أن يسمعها أثناء ارتجافاتها (العديدة) تطحن تلك الصخور المتحولة إلى مسحوق طباشيرى. إننى أعيش فى منزل صغير مربع الشكل، مكون من حجرتين فوق مخزن من مخازن النبيذ، هنالك ساحة يكسوها الآجر، بها مصطبة تفصل منزلى عن العديد من مثل هذه الأماكن المستخدمة للتخزين، إنها أقبية مليئة بالنبيذ الراقد فى دنان.

نحن فى وسط الكرم، يحدنا من كل الجوانب مستطيل يمتد عبر السلسلة الفقرية للتلال الأزرق فوق سطح البحر، يقطع القنوات الضحلة للدبال والتربة الثرية بالمواد العضوية بين الكرمات المتماثلة والتي تزدهر الآن. الدهاليز، كلا، طرقات لعبة البولينج(*) وأرضيتها الرمادية البنية، والفتيات الكادحات قد نقبن ومحصن كل ما يساوى ملء فم أو إصبع أو قبضة يد، هنا وهناك تتطفل أشجار التين والزيتون على غابة الخضرة المتموجة، هذا البساط من الكرمات، إنه كثيف إلى حد أنك ما أن تكونى بداخله، قابعة، حتى لا يتجاوز مجال رؤيتك أقداما ثلاثا، مثل فأر فى حقل حنطة، هنالك، بينما أكتب، دسته من فتيات غير مرئيات يشققن نفقا مثل الخلد، يقلبن التربة إننى أسمع أصواتهن. إلا أننى لا أرى شيئا نعم، إنهن يزحفن هنالك مثل رماة ماهرين، ينهضن، يبدأن العمل مع الفجر، إننى غالبا ما أسمعهن، عندما أستيقظ، وهن يصلن، يغنين أحيانا قطعة من أغنية فولكلورية يونانية! إننى أستيقظ فى الخامسة وتجىء أوائل الطير

(*) لعبة بـ كرات خشبية - المترجم.

لتجد فى استقبالها، تحيىها، لجنة صغيرة من صيادين متفائلين، يطلقون عليها النيران فى تكاسل، ثم يعبرون إلى قمة التل، وهم يثرثرون يتبادلون المزح والنكات.

هنالك شجرة توت طويلة بيضاء، تلقى بظلالها على شرفتى، تحمل أكبر ثمار رأيتها فى حياتى - إنها كبيرة مثل اليرقات. الفاكهة ناضجة، عثرت عليها الزنابير فسكرت تماما من حلاوتها. إنها تتصرف مثل الأدميين، تضحك فى صخب على لا شىء تسقط، تتناثر تشاجر...

الحياة شاقة، لكنها طيبة، أى متعة أن يعرق المرء بالفعل وهو يعمل، يستخدم حقا يديه! إننا بينما نجمع الصلب، نرتفع به، لوحا بعد لوح، كالنذور الرقيقة الغامضة إلى السماء، تنضج كروم العنب أيضا، تذكر بأنه بعد زمن طويل من توقف الإنسان عن إضاعة الوقت، بصورة عُصابية، مع الآلات التى تحمل الموت، والتى يعبر بها عن خوفه من الحياة، فإن الآلهة السوداء القديمة، لا تزال هنالك تحت الأرض، مدفونة فى الدبال الرطب للعالم الشيطانى (الكلمة المفضلة عند بورسواردين) إنها تحتل مكانها، إلى الأبد، فى الرغبة البشرية. إنها بن تستسلم أبدا (إننى، فى بساطة، أتحدث بطريقة عشوائية، حتى أقدم لك فكرة عن نوع الحياة التى أحيها هنا).

الشعير الجبلى المبكر يجمع الآن. إنك تلتقى بأكوام منه يابسة سائرة - أكوام لا يبين منها غير زوج من الأقدام أسفلها، تمشى مجهدة عبر تلك الدروب الصخرية. الصرخات المرهقة التى تطلقها النساء، إما نداء على بهائم أو نداء على بعضهن البعض، من جانب تل إلى جانب تل آخر. «وو»، «هوش»، «جناو». وتوضع هذه الأكوام فوق أسطح مسطحة للدق والدرس، باستخدام العصى، حتى يخرج التبن. الشعير! إنها الكلمة التى لا تكاد تقال حتى تبدأ مواكب النمل، سلاسل طويلة من نمل أسود يحاول

حملة بعيدا إلى مخازنه الخاصة. إن ذلك بدوره قد نبه السحالي الصفراء، فتطوف خلصة تأكل النمل، ترقد كامنة تطرف بعينيهما وتأتى القطط، وكأنما الأمر متابعة للثمانية السببية فى الطبيعة، لتصطاد السحالي وتأكلها، إن هذه العملية ليست فى صالحها، فالكثير منها يموت من أمراض الإسراف التى تعزى إلى هذه الحماسة والرعونة. إلا أننى أعتقد أن حمى المطاردة تلاحقها. وماذا بعد؟ حسنا، إن أفعى سامة تقتل قطة، ما بين الحين والحين. ويحطم الإنسان بجاروفه ظهر الحية. والإنسان؟ تأتى أمراض الخريف مع بدايات الأمطار، ويتعثر الرجل العجوز فى القبر مثل فاكهة سقطت من شجرة. انتهت الحرب! لقد كان الإيطاليون يحتلون هؤلاء الناس، إلا أن القليل منهم للغاية من تعلم لغتهم ذات اللكنة المحلية.

فى الميدان الصغير نافورة، حيث تجتمع النسوة وهن يعرضن أطفالهن فى فخار وقد زخرفنهم كأنما يعرضنهم للبيع. هذا طفل سمين، ذاك نحيل. ويسير الشبان على امتداد الطريق جيئة وذهابا. ينظرون نظرات حارة خجلة. أخذ أحدهم يغنى فى مجون، «لك وحدك يالوتشيا». إلا أنهم لا يفعلن شيئا غير تطويح رءوسهن والاستمرار فى ثرثرتهن. هنالك رجل عجوز يبدو من الظاهر أصم تماما، يملأ إيريا. إنه يكاد يكون كمن صعقته الكهرباء إن قيل، «مات ديمترى فى البيت الكبير». إنه يدور حول نفسه كالمغزل، فى غضب جامح «مات؟ من الذى مات؟ آه؟ ماذا؟» إن سمعه يتحسن للحال كثيرا.

هنالك قلعة صغيرة تدعى الآن «فونتانا»، إنها عالية تخرق السحب. ومع ذلك، فهى ليست بالبعيدة، إلا أن المرء يلتقى، وهو صاعد إليها فوق منحدر شديد من رماد محترق جاف لطبقات النهر وسط سحب من ذباب أسود، بقطعان مندفعة من ماعز أسود مثل الشياطين. هنالك فوق القمة، مأوى صغير للفقراء به راهب واحد مختل العقل، مبنى فوق سطح دوار

أشبه بفرن حريق هش. فى وسعك، من هنا، أن تنهلى حتى تشملى من منظر منحنيات الجزيرة العذبة الضبابية المترامية نحو الغرب.

وماذا عن المستقبل؟

حسنا، هذا رسم تقريبي لحاضر يكاد يكون مثاليا، لكنه لن يدوم إلى الأبد. إنه يكاد فى الحقيقة أن يفنى، إذ خلال شهر أو ما يقاربه سوف تنتهى جدواى، ومعها، كما هو محتمل، الوظيفة التى أعتمد عليها فى حياتى المحدودة. ليست لى مصادرى الخاصة، وعلى أن أبحث عن سبل أخرى. كلا، إن المستقبل يهتز فى أعماقى مع كل اهتزاز للسفينة، مثل شحنة لم يشد وثاقها، إن جاز القول. هل كتب على ألا أراك مرة أخرى، إذ إننى أشك فى عودتى ثانية إلى الإسكندرية. إننى أحس بها تذبل فى أعماقى، فى أفكارى مثل وهم أودعه - مثل التاريخ الحربى لملكة ما عظيمة غرقت ثرواتها بين الخرائب والجوش ورمال الزمن! إن عقلى يستدير غربا أكثر فأكثر، نحو الميراث العتيق(*) لإيطاليا أو فرنسا، هنالك بالتأكيد عمل جدير بالاهتمام ما زال يمكن القيام به بين خرائبهم - شىء ما يمكن أن نعتز به، وقد نعيد إليه الحياة؟ إننى أسأل نفسى هذا السؤال. إن الطريق الذى أحب أن أسلكه، على أى حال، وأنا غير مرتبط حتى الآن بأى سبيل محدد، هو ذلك الذى يقود إلى الغرب والشمال. هنالك أسباب أخرى، فشرط عقدى تعطينى حق «العودة إلى الوطن»، كما يسمونه، بالمعجان، أن أعود إلى إنجلترا دون أن أتكلف شيئا.... وحيث وبمثل هذه الهبة الظريفة التى أسبغتها الخدمة علىّ والتى أكسبتها كل تلك الفترة من العبودية، فإننى أعتقد بقدرتى على أن يكون لى سحرى فى أوربا. إن قلبى ليقفز لهذه الفكرة.

(*) بالإطالية فى الأصل.

إلا أن شيئاً ما، فى كل هذا، يجب أن يوجد من يقرره لى. إن لى
إحساساً، أعنى، أنى لن أكون أنا هو من يتخذ القرار.

لقد وجدت نفسى، السبت الماضى، حراً لىوم ونصف، عبرت الجزيرة
أحمل صرة لأقضى لىلة فى المنزل الذى عشت فيه خلال زيارتى السابقة
أى تناقض هذا الذى تواجه به هذه الهضبة المائلة إلى الخضرة، ذلك
التواء الجبلى الوحشى العاصف من البر داخل البحر، والبحار الخضراء
الحمضية وخطوط ساحل الماضى النخرة. لقد كانت حقيقة، جزيرة أخرى
- إنى أعتقد أن الماضى دوماً هكذا. هنا عشت لىلة ولىوم حىاة الصدى
أفكر كثيراً فى الماضى، وحركتنا نحن جميعاً داخله. الخىالات المنتقاة،
والتى تخطها الحىاة مثل مجموعة من أوراق اللعب، تخطها، تقسمها،
تسحبها وتستعيدّها. بدا لى أنه لىس من حقى الإحساس بهذا القدر من
الهدوء والسعادة. إنه إحساس بالكمال والوفرة لىس به من سؤال بلا إجابة
غير ذلك الذى كانت تثيره ذكرى اسمك.

نعم جزيرة مختلفة، منظرها أكثر خشونة وجمالاً. إن المرء ىمسك
بصمت اللىل، ىحس به وهو ىذوب فى بطاء - كما ىمسك الطفل بقطعة من
الثلج! دولفین ىنهض من المحيط عند الظهيرة. أبخرة زلزال على امتداد
خط البحر غىاض كبرى من أشجار ملساء، لحاؤها أسود كجلد الفیل،
تعريه الرىاح فى ثنیاات تكشف عن الجلد الداخلى الطرى الرمادى.....
لقد نسيت الكثير من التفاصيل.

ىكاد التواء الصخرى أن ىكون بعيداً عن الطريق المطروق، وقد ىأتى هنا
فقط جامعوا الزیتون فى موسمهم. وإلا فإن الزوار الوحیدین هم حارقو فحم
الأخشاب. إنهم ىأتون كل ىوم راكبین عبر الغىاض قبل الضياء ولركابهم
صلیل متمیز. لقد حفروا أخادید طويلة ضيقة فوق التل، ىزحفون فوقها
طوال الیوم، سوداً كالشیاطین.

يمكن للمرء غالب الوقت أن يعيش على القمر، وضجة البحر الخافتة وصوت الصراصير(*) الحاد في ضوء الشمس. لقد أمسكت، ذات يوم، أمام الباب الأمامي لمنزلي، بسلحفاة برية، وعلى الشاطئ هنالك بيضة سلحفاة بحرية مهشمة. وللنباتات ذاتها فقرات قصيرة من عقل متأمل، مثل أنغام موسيقية تنتمي إلى مقطوعة أكبر، لا أعتقد أن المرء سوف يسمعها البتة. والسلاحف البحرية كائنات أليفة ساحرة بلا مطالب. إن في مقدوري سماع بورسواردن يقول، «أخي الحمار وسلحفاتك البحرية. إنه زواج العقول الصادقة!».

أما عن الباقي، فصورة رجل يلقي بأحجار مسطحة، يدفع بها سطح البحيرة الساكن وقت المساء، في انتظار رسالة قادمة من الصمت.



ما كدت أدفع بهذا الخطاب إلى رجل البريد، راكب البغل، والذي يأخذ بريدنا إلى المدينة، حتى تسلمت خطابا عليه طابع مصرى، معنون إلىّ في خط لا أعرفه. كان الخطاب كالتالى.

«أنت لم تتعرف عليه أليس كذلك؟ أقصد الخط على الغلاف؟ أقر بأننى ضحكت وأنا أعنونه إليك، قبل أن أكتب هذا الخطاب: إننى أستطيع أن أرى وجهك وقد غشاه فجأة تعبيرك الحائر، رأيتك تقلب الخطاب بين أصابعك للحظة، تحاول تخمين اسم مرسله».

«إن هذا هو خطابى الجاد الأول الذى أحاول كتابته بيدي الجديدة، بعيدا عن المذكرات القصيرة».

«هذه القطعة المعاونة التكميلية التى زودنى بها أماريل الطيب، بعد

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أن غدا الأمر واقعاً! لقد أردتها قادرة على الكتابة قبل أن أكتب إليك. لقد أصابني الفزع والتقزز، بالطبع، منها في البداية، كما يمكن لك أن تتخيل. لكنني أحترمها الآن احتراماً كبيراً للغاية، هذا الاختراع الرقيق الجميل المصنوع من الصلب والذي يرقد إلى جوارى في سكون شديد في قفازه المخملي الأخضر! لا تنافر معها كما قد يتبادر إلى ذهن المرء. ما كنت أصدق القبول بها قبولاً تاماً على هذا النحو - لقد بدا غريباً أن يتجانس الصلب والمطاط مع اللحم البشري. لكن اليد أثبتت كفاءة تكاد تفوق كفاءة العضو الطبيعي الذي هو من لحم ودم. إن قواها في الحقيقة، شاملة حتى إنى أخافها بعض الشيء. إنها تستطيع القيام بأكثر الأعمال دقة، بما في ذلك قلب صفحات كتاب، بنفس المهارة التي تنجز بها الأعمال الخشنة. إلا أن أكثر ما تستطيع القيام به أهمية - آه، دارلى، إننى أنتفض وأنا أكتب الكلمات - فى مقدورها أن «ترسم»!.

«لقد اجتزت الحدود ودخلت مملكتى، شكراً «لليد» لا شيء من هذا كان يمكن تدبيره مسبقاً. لقد تناولت فى أحد الأيام فرشاة، وإذا بها تخرج إلى الوجود ذات أصالة وسطوة تثيران الحيرة حقاً. إن لدى الآن خمسا منها، أحملق فيها بدهشة تتسم بالتبجيل والتوقير. من أين جاءت هذه اللوحات؟ لكننى أعرف أن اليد هى المسئولة عن ذلك. إنها «اليد» وحدها التى دبرت إدخالى عبر الحواجز إلى شركة «الأشياء الحقيقية»، كما اعتاد بورسواردن القول. ومع ذلك، فإنها مخيفة بعض الشيء. إن القفاز المخملي الرشيق يحرس سرها حراسة فائقة، إننى إن ارتديت كلا القفازين، فإن شيئاً مجهول الهوية فى الحفظ والصون تماماً! إننى أراقبه فى حيرة وريبة ما، كما يراقب المرء حيواناً محبوباً، خطراً وجميلاً مثل النمر الأمريكى، يمكنك قول ذلك. ليس هنالك من شيء، كما يبدو، لا تستطيع أن تفعله بطريقة مؤثرة، وعلى نحو أفضل مما أفعل. إن هذا يفسر

لك صمتى الذى آمل أن تغفره لى. لقد كنت مستغرقة تماما فى لغة اليد الجديدة هذه والتحويلات الداخلية التى جاءت بها معها. لقد انفتحت كل السبل أمامى. كل شىء يبدو اليوم ممكنا لأول مرة.

«ترقد على المنضدة إلى جوارى، وأنا أكتب لك، تذكرة الباخرة إلى فرنسا. لقد عرفت بالأمس، وبشكل قاطع، ضرورة أن أذهب إلى هناك. هل تتذكر كيف اعتاد بورسواردن القول: إن الفنانين كالقطط المريضة يعرفون تماما بالغريزة أى عشب يحتاجون لشفائهم: وأن العشب المر - الحلو الذى يكشف لهم عن نفسه لا ينمو إلا فى مكان واحد فقط هو فرنسا؟ سوف أغادر خلال أيام عشرة. هنالك من بين الأشياء اليقينية الجديدة، واحدة رفعت رأسها - إنها اليقين أنك ستبعنى إلى هنالك فى الوقت الذى يناسبك. إننى أتكلم عن اليقين وليس عن النبوءة، لقد انتهت علاقتى وإلى الأبد بقارئى الطالع!

«إننى أكتب لك هذا، لأخبرك، فى بساطة، بالنزعات التى فرضتها اليد علىّ، والتى قبلت بها فى لهفة وافتتان - وفى استسلام أيضا. قمت الأسبوع الماضى بجولة زيارات وداعية، إذ أعتقد أنه سيمضى وقت طويل قبل أن أرى الإسكندرية مرة أخرى. لقد غدت، بالنسبة لى، مبتذلة ولا طائل منها. ومع ذلك فإننا لا نستطيع إلا أن نحب الأماكن التى دفعت بنا إلى المعاناة؟ إن جاذبية الرحيل تشيع فى الجو، وكأن التكوين الكلى لحياتنا قد دفعت به بعيدا موجة جديدة. إذ لست أنا الشخص الوحيد الذى سيغادر المكان - بعيدا عنه. إن ماونت أوليف، مثلا سيغادر فى غضون شهرين. لقد نال، بضربة حظ، أفضل المواقع فى مهنته، باريس! وبهذه الأخبار تتلاشى كل الأشياء القديمة غير المؤكدة. لقد تزوج سرا فى الأسبوع الماضى! سوف تخمن أنت من تزوج. هنالك أمر آخر يشدد من العزائم بعمق. إنه عودة

بومبال وشفأؤه. لقد عاد الآن إلى «المكتب الأجنبي» فى وظيفة رئاسية، ويبدو أنه قد استعاد الكثير من قلبه القديم، إن حكم المرء عليه من خطابه المسهب الخصب الذى أرسله إلى. إنه يكتب: «كيف يمكننى أن أنسى، أنه لا توجد فى العالم نساء غير النساء الفرنسيات؟ إن ذلك أمر غريب، إنهن أكثر إبداعات الخالق القدير بهاء. ومع ذلك... يا عزيزتى كليا، فهنالك منهن الكثير للغاية، وكل منهن أكثر كمالا من الأخرى. ماذا فى وسع رجل مسكين مثلى أن يفعل فى مواجهة مثل هذه الكثرة، فى مواجهة مثل هذا الجيش؟ اسألى، إكراما للرب، أحدا ما، أى أحد أن يأتينا بتعزيزات. ألا يحب دارلى أن يعاون صديقا قديما إكراما للأيام الخالية؟».

«إننى أبعث بالدعوة إليك حتى توليها ما تستحق. سوف ينجب أماريل وسميرة طفلا هذا الشهر. طفلا له الأنف التى ابتدعتها أنا! سوف يقضى عاما فى أمريكا فى وظيفة ما أو أى عمل آخر، وسوف يأخذها معه. سيسافر بليتازار أيضا فى زيارة إلى أزميز وفينيسا. إن أكثر الأجزاء إثارة فى أخبارى، قد احتفظت به، على أى حال، إلى النهاية: جوستين!

«إننى لا أتوقع منك أن تصدق هذا الجزء إلا أنه يجب على، على أى حال، أن أكتبه. بينما كنت أسير فى شارع فؤاد فى العاشرة من صباح ربيعى صاف، رأيتها قادمة نحوى، تتألق فى رداء جميل. فستان ربيعى رائع التصميم، يخب إلى جوارها، فوق الرصيف المترب، يحجل مثل ضفدعة، مملك البغيض! كان يرتدى حذاء برقبة، ذا جوانب مطاطية مرنة، وطماق يحمل عصا بها عقد ذهبية، ويضع إناء زهور حديث السك فوق رأسه ذات الزغب. انهرت تقريبا. كانت تقوده فى الطريق مثل البودل(*) ويكاد المرء يرى المصفاة الجلدية الرخيصة حول ياقته. حيتنى فى حرارة فياضة وقدمتنى إلى أسيرها الذى تلخبط خجلا، وحيانى فى صوت

(*) نوع من الكلاب - المترجم.

مزمجر عميق مثل ساكسفون جهير. كانا فى طريقهما للقاء نسيم فى الـ «سلكت». هل أذهب أنا أيضا؟ بالطبع يجب أن أذهب. أنت تعرف كم أنا فضولية لا تكل ولا تمل. ظلت ترسل إلى بومضات تحتية مسلية دون أن يلحظ مملك ذلك. كانت عيناها تبرقان بالسعادة، نوع من السخرية الشيطانية. كانت أشبه بآلة مدمرة قوية أدير ت فجأة، مرة أخرى. كانت تبدو أسعد وأكثر شبابا من أى وقت مضى. استطعت فقط، عندما ذهبنا لنضع المساحيق على أنوفنا، أن أشهق وأقول، «جوستين! مملك! ما الذى يجرى فوق الأرض؟» قهقهت وهى تعانقنى بقوة، قالت، «لقد عثرت على نقطة ضعفه(*)» إنه متعطش إلى حياة المجتمع. إنه يود أن يتحرك فى دوائر الإسكندرية الاجتماعية، وأن يلتقى بالعديد من النساء البيض، ضحكت أكثر. «ولكن ما الموضوع؟» قلت أنا فى إعجاب وافتتان. هنا غدت جادة فجأة، رغم وميض عينيها خبثا ذكيا. لقد بدأت ونسيم شيئا ما. لقد قمنا أخيرا بشق فتحة لنا. كليا، إننى سعيدة للغاية، أكاد أصرخ وأصيح. إنه شيء أكبر بكثير فى هذه المرة، إنه دولى، علينا أن نذهب إلى سويسرا العام القادم، من أجل الخير، فى غالب الظن. لقد تغير حظ نسيم فجأة إننى لا أستطيع إخبارك بأية تفاصيل.

«عندما بلغنا المنضدة، فى الدور العلوى، كان نسيم قد وصل بالفعل وأخذ يتحدث مع مملك. أذهلنى مظهره، كان أكثر شبابا بكثير، ظريفا للغاية، ممتلكا لذاته، أصابتنى غصة أيضا وأنا أرى الطريقة العاطفية التى تعانقا بها، نسيم وجوستين، وكأنهما فى غفلة عن باقى العالم. هنالك بالضبط فى هذا المقهى، وبمثل تلك العاطفة المذهلة، حتى إننى لم أدر أين أولى عيني.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

«كان ممليك جالسا هنالك، وقفازه الثمين على ركبته، يتسم في رقة.
كان من الواضح أنه يستمتع بحياة الطبقة العليا من المجتمع، وكان في
مقدورى أن أرى من الطريقة التى قدم لى بها شيئا مثلجا أنه يستمتع أيضا
بصحبة النساء البيض!»

«آه لقد بدأت تتعب، هذه اليد المعجزة. يجب أن ألحق هذا الخطاب
ببريد المساء. هنالك مئات الأشياء التى على أن أعتنى بها قبل أن أبدأ
عملية حزم الأمتعة الثقيلة المملة. لدى إحساس أيها الحكيم، أنك أنت
أيضا، ربما تكون قد عبرت العتبة إلى مملكة خيالك، لتمسك بها مرة وإلى
الأبد. اكتب لى وأخبرنى، أو احتفظ بذلك لجلسة فى مقهى صغير تحت
شجرة أبو فروة، فى جو خريفى بلون الدخان إلى جوار السين.

«إننى أخيرا أنتظر فى هدوء تام وسعادة، إنسانا حقيقيا، فنانا». «كليا».



إلا أنه لم تمض غير فترة محدودة قبل أن تنقشع السحب أمامى،
لتكشف لى سر المنظر الذى كانت تكتب عنه، والذى سوف تمتلكه
من الآن فصاعدا، ضربة فرشاه تتلوها ضربة فرشاه بطيئة.... لقد كانت
تشكل فى داخلى هذه الصورة الثمينة، تشكل منذ أمد بعيد للغاية،
الصورة بأننى أنا أيضا لم أكن مستعدا كما كانت هى. وجاءت ذات يوم
رائق صاف، جاءت دون أى تدبير مسبق، ودون أى إعلان، وببساطة ما
كنت أعتقد بها. كنت حتى ذلك الحين مثل فتاة شديدة الحياء، فزعة من
ميلاد طفلها الأول.

نعم، لقد وجدت نفسى، ذات يوم، أكتب بأصابع مرتعشة. الكلمات

الأربع (أربعة حروف! أربعة وجوه!)، التي خاطرها كل حكاة منذ بداية العالم، ليشد انتباه أقرانه من الرجال، إلى دعواه الرشيقة. كلمات تبشر، في بساطة، بالقصة القديمة لفنان بلغ سن الرشد.

كتبت: «حدث ذات يوم.....».

وأحسست كأن الكون كله يدفعني برفق، يلكزني!

* * *

نقاط عمل

قصة حميد عن دارلى وميليسا

* * *

طفلة ماونت أوليف من الراقصة جريشيكن. نتيجة المباراة. الخطابات الروسية.
رعبها من ليزا، حيث إنهم سوف يرسلونها إلى أبيها، عندما تموت أمها.

* * *

مملك وجوستين فى جينيف. مغامرات نسيم الجديدة.

* * *

صدام بلتازار مع أرناؤوطى فى فينيسيا. نظارات الشمس البنفسجية، المعطف
الممزق المملوءة جيوبه بكسر الخبز لإطعام الحمام. المشهد فى «فلوريان». السير
المثاقل للشلل العام. المحادثات فى شرفة البنسيون الصغير فوق الجزء الخلفى
المنعزل للقناة. هل كانت جوستين بالفعل هى كلوديا؟ لم يكن فى وسعه التيقن. «الزمن
ذاكرة كما يقولون، والفن على أى حال لأحباتهما، ومع ذلك تجنب التذكر. أنت تتحدث
عن الإسكندرية. لم يعد فى وسعى حتى تذكرها. لقد تلاشت. إن عملا من أعمال الفن
هو شىء أكثر تماثلا للحياة، من أن يكون الحياة ذاتها!» الموت البطيء.

* * *

رحلة «ناروز» الشمالية، ومعركة العصى الكبرى.

«سميرنا». المخطوطات، حوليات الزمن. السرقة.

بعض الحواشي الخاصة بكليا (بقلم بورسواردن)

(φ) (ص ١٢٧) لا تصنع المناهج التحليلية الفرص الكبرى، لكن تصنعها الرؤية المباشرة. هنا حق، لكن كيف؟

* * *

الفن ليس فنا ما لم يهدد وجودك ذاته. هل في وسعك تكرار ذلك. أرجوك، ببطء أكثر.

* * *

كلما تقدم بك العمر، ورغبت أكثر في الموت، كلما أمسك بك نوع غريب من السعادة، أنت تدرك فجأة أن كل فن يجب أن ينتهي في حفل صاخب. هذا ما يدفع المجنون العاجز إلى الغضب. إنهم لا يستطيعون إثارة ذلك الدافع المثمر الذي لا يقام والمرتبط بالحاضر، حتى لو كانت أكياس خصياتهم غزيرة الشعر مثل عنب الثعلب.

قصاص صارم! هل تقرأ هنري جيمس أو تدفع بك الأثقال إلى الموت. لقد جددت اختياري. إنني أوّمن بالاعتزاز المقدس وعشاء القديس الرباني. إنني لا أنتمى إلى مجرى مدرسة الغرور ولا تلك التي لآباء الصحراء - أكلة مناخس الفراغ.

* * *

اللغة ليست عَرَضاً للشعر، لكنها جوهره. اللغة الغريبة هي اللب.

* * *

ناسك يتمي للطائفة الأفغانية
وعضو يقف منتصباً على نحو أو آخر
عبادة الحية عقيدتي

وسأظل كذلك حتى أبلغ الشيخوخة
الأفعى الممتعة ترمز إلى مئآت المفاجآت الفرويدية
وأنا أقوم بالخديعة الهندية
رغم أنها قد غدت طيفا كثيفا للغاية
حتى تتصب كحبل حقيقى
فإننى أترك هذا لـ «فرقة الأمل الموسيقية»
ليس فى وسعى أيضا التحكم فى الحية
والتعامل معها مثل «باجانينى»
مجرد ساق فاصوليا تسمو قمتهما
وأنا مثل جاك لا أستطيع التوقف
يد فوق يد فضولية أتسلق
حتى أسمع أجراس برج الكنيسة
إنها رفقة حلوة المعشر
تسأل إن كان ما يزال هنالك عسل للشاى

* * *

ربما يكون من الأفضل البداية بإعادة كتابة «لاروشيفوكولو»، البداية بشيء مثل
القول المأثور «اللذة عفن قليل».

* * *

يجب أن تنقع نفسك فى الماء عميقا، هكذا يقول علم النفس.
عبارة من «بالون»: تتوحش ثيران الجوائز، عندما يُبقى عليها فى الظلام.

* * *

آه، يا مواطنى وزملائي: ما الذى يكسبه الإنسان إن غدا شجرة عنب نفعية.
إن يتفرض كل صباح فى سيارته البرهام الكهربائية إلى مكاتب المشاهدين؟ إلى أى
انحدار يمكن أن ترتفع.

* * *

حتى يغدو المرء شاعرا، عليه أن يحصل على حقل المعرفة الإنسانية والرغبة الإنسانية
فى عالمه. نعم، ولكن هذا الحقل يمكن أن تغطيه فقط تنازلات داخلية متواصلة.

* * *

كلما قرأت أكثر عن هؤلاء الفنانين الذين بلغوا حدود المعرفة الإنسانية - وهنالك

حد مسموح به لما هو معروف إنسانيا - كلما غدا واضحا لي أن البيان يكون أبسط كلما كان أعمق. وأخيرا يصبح مبتذلا. وعند هذه النقطة يبدأ المرء في فهم الادعاء الديني بأن المبادرات فقط هي التي يمكن أن تتصل ببعضها البعض، لأنها لا تستخدم الفكرة أو المفهوم، لكنها تستخدم الرمز. بالنسبة لها فإن كل حديث يقوم على مفهوم يصبح طيشا وحماسة. إن في وسع المرء حقا، أن يتبادل فقط ما هو مفهوم بصورة مشتركة. وطبقا لهذا فإن كل عمل فني إنما هو طيش وحماسة - لكنها حماسة محسوبة.

* * *

الموت مجاز، لا أحد يسعى لحتفه.

* * *

يجب أن تكون هنالك دوما نسمة أمل إذا كنت سوف تتمتع تمتعا كليا بمزاج ياسنا. وتذكر أيضا بأنه حيثما يوجد الإيمان يوجد الشك.

* * *

لا أهمية للفن باعتباره عملا مصرفيا، ما لم يجيء من روح في مسرحية حرة - فإنه يكون حيثئذ عملا مصرفيا.

* * *

الرؤية تعويذة.

حواشى فى المتن
شمس ما بعد الظهر

(φ) (ص ٤٣) هذه الحجرة الصغيرة، كم أعرفها جيدا؟
الآن تم تأجيرها، والأخرى المجاورة لها
كمبائى أعمال، كل المنزل ابتلعت مكاتب التجار
شركات محدودة، ووكالات شحن السفن
كم هى حيمة، هذه الحجرة الصغيرة!
مرة هنا نهضت أرسكية إلى جوار الباب
وأمامها سجادة تركية صغيرة
بالضبط هنا، ثم الرف بزهرتين
صفراوين، وعلى يمينهما
كلا - انتظر فى مقابلهما (كم أسرع الوقت ماضيا)
خزانة الثياب البالية والمرأة الصغيرة
وهنا فى الوسط، توجد المنضدة
حيث اعتاد الجلوس والكتابة
وحولها المقاعد الثلاث المصنوعة من الخيزران
كم كان عدد السنوات... وإلى جوار النافذة هناك
السريـر الذى كثيرا ما مارسنا الحب عليه
فى مكان ما لا بد أن تكون كل تلك الأجزاء القديمة فى الأثاث ما تزال تفرقع..
وإلى جوار النافذة. نعم، ذلك السريـر
تسلقت شمس ما بعد الظهر نصف الطريق الطريق فوقها
انفصلنا الساعة الرابعة ما بعد ظهيرة أحد الأيام
ومر أسبوع ونحن على مثل حال بعد الظهر ذاك.
لم أكن أو من أبدا
إن تلك الأيام السبع سوف تدوم إلى الأبد

ترجمة حرة عن سى. بى. كافافى

بعيدا للغاية

(φ) (ص ٤٤) هذه الذاكرة الهائلة كم وددت
تسجيلها، لكنها تتضاءل ...
بقيت منها بصمة بصعوبة ...
ترقد إلى الوراء بعيدا للغاية، بعيدا في شبابي الباكر،
قبل أن تتوهج مواهبى
جلد مصنوع من بتلات ياسمين في ذات ليلة ...
في أمسية في أغسطس ... لكن هل حقا كان أغسطس؟
بالكاد في وسعى بلوغها الآن، بالكاد أتذكرها ...
تلك العيون، العيون الرائعة ...
أوربها كان ذلك في سبتمبر .. في أيام الكلب ...
زرقاء بلا جدال، نعم، أكثر زرقاء
من نظرة جوهر الياقوت الأزرق.

ترجمة حرة عن سى . بى . كانافى

واحد من آلهتهم

(φ) (ص ٧٧) يتحرك عبر سوق «سيليو كيا»
حوالى ساعة الفسق، هنالك جاء
شاب طويل مثالى الصياغة
مع فرصة جزلة لخلق مطلق الاستقامة
مكتوبة في نظرتة، وقد جذبت رأسه
السوداء المعطرة، بشعرها غير المشط
نظرات العابرين الفضوليين
كانوا يتوقفون ليسأل الواحد منهم الآخر، من كان.
يونانى من سوريا، ربها، أو غريب آخر؟
غير أن القليلين الذين رأوا أعماق بعض الشئ، انسحبوا جانبا
يفكرون، يتابعون بعيونهم

ليراقبوه وهو ينسل في صمت عبر البواكى المعتمة
عبر ضوء ظلال المساء
ذاهباً إلى أحياء المدينة
التي تستيقظ فقط ليلاً ولها طقوس عريضة لا تعرف الحياء
منغمسة في اللذات الحسية التي لا ترحم الجسد أو العقل
تلك القلة التي أدركت تساءلت من يكون من بين هؤلاء
وأى ثروات شهوانية اقتنص عبر شوارع سيليو كيا المعوجة،
ظل زائر من تلك المنازل
المقدسة المبجلة حيث يقيمون

ترجمة حرة عن سى. بى. كافافى

من الذى تسبب في رفض العظيم (*)

(φ) (ص ١٦٩) يجيء ذاك اليوم العنيد للبعض منا
يطلب أن نصر على رأينا ونقول
باختيار إرادى نعم أو كلا العظمى.
وأيا كان من بداخله الكلمة المؤكدة
فإنه سوف يرد مباشرة ثم يُسمع.
إن سبل حياته سوف تتضح على الفور
وكل الجوائز سوف تكلل طريقه.
غير أن ذاك الآخر الذى ينكر،
لا يمكن لأحد أن يقول بكذبه، إنه سوف يكرر
بصوت أعلى إن ضغط عليه مرة أخرى.
هذا حقه - غير أن «كلا» بدلا من «نعم»، مع تلك التفاهات الصغيرة، سوف تُغرق
كل حياته وتحمدها

ترجمة حرة عن سى. بى. كافافى

(φ) (ص ٢٤٣) إن الأصوات المسجلة في خطاب كابوديستريا قد تمت استعارتها
وجرى توسيعها من حاشية في «حياة باراسيلسوس» «لغرانز هارتمان».

(*) مقتبسة من جحيم دانتي (المترجم).

عن المؤلف

لورانس داريل: شاعر وروائي وأديب رحلات. بريطاني من أصل أيرلندي. ولد في الهند ١٩١٢. قرر أن يصبح كاتباً بعد أن أنهى دراسته في إنجلترا. تنقل في أنحاء مختلفة والتحق بأعمال عديدة كعزف البيانو، وسمسة العقارات، أقام في الإسكندرية - عاصمة الذكريات كما أطلق عليها - ١١ عاماً كمراسل صحفي قبل أن يضطر للرحيل عقب العدوان الثلاثي على مصر، ليتقل إلى إنجلترا في عام ١٩٥٧ ويقيم فيها، حتى توفي عام ١٩٩٠. نال داريل - الذي اعتبره هنري ميلر سيد الرواية الإنجليزية - شهرة واسعة بعد روايته الفذة «رباعية الإسكندرية» وبفضلها أصبح يعد ضمن أهم مؤسسي تيار الحداثة الروائية. يقف إلى جوار جيمس جويس ومارسيل بروست.

عن المترجم

الدكتور فخرى ليب: مناضل يساري وكاتب ومترجم. من مواليد الفيوم. صدرت له عدة أعمال روائية وكتابات في تاريخ اليسار المصري. كما قدم سيرة ذاتية متفردة بعنوان «المشوار». من أشهر ترجمات فخرى ليب غير رباعية الإسكندرية، رواية أرونداتي روي «رب الأشياء الصغيرة»، و«عريان بين ذئاب» لبرونو أبيتز.



لورنس داريل

واحد من أهم الروائيين الإنجليز وأكثرهم مبيعاً في القرن العشرين. وكتابه «رباعية الإسكندرية» هو بلا شك أحب أعماله للقراء. وتدور الأحداث في الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية. في هذا العالم البراق والفساد الذي قارب شفا الانهيار يحاول «ل. ج. دارلي» أن يقنع نفسه بنهاية علاقته مع الجميلة المثيرة «جوستين حوسناني» ليبدأ رحلة مراوغة للخداع الجنسي والسياسي أطلق عليها المؤلف «بحث في الحب المعاصر».

«لا يوجد شك في عظم إنجاز داريل».

جورج شتاينر

«داريل متمكن في خلق الإثارة. لقد بهرني من البداية».

وليبور

«إنجاز معجز ومبهر».

ملحق جريدة التايمز

«واحدة من أعظم أعمال الأدب الإنجليزي. تلمس إنسانية خالدة لا تتغير».

جريدة التايمز

«الكتابة دائماً رائعة، ليس فقط في الفقه الشعاعية الرائعة، بل أيضاً في التعليقات الذكية الساخرة». فيليب توينبي،

جريدة الأوبزرفر

دار الشروق

www.shorouk.com

Bibliotheca Alexandrina



1202967



6 221102 023122